

الكتاب رقم ١٢٣٤٥٦٧

عزلة رطل زبيب مع السمك

سكارليت



SCARLETT



0098127

Bibliotheca Alexandrina

ترجمة وتقديم : نبيل زكي

تأليف : الكسندرا ريبلى

عورة بحلله زلف مع المصحح سكارليت

تأليف : الكسندرا ريبلى

ترجمة وتقديم : نبيل زكى

رسوم الشخصيات ، محمد عفت
ماكيت عبد الكريم محمود

مقدمة

من منا لم يقرأ رواية « ذهب مع الريح » ؟ وهل فات من لم يقرأها ان يشاهد الفيلم السينمائي الذى يحمل هذا الاسم ؟

لقد اصبح هذا الفيلم من العلامات الخالدة في تاريخ الفن السابع منذ عرضه لأول مرة في عام ١٩٣٩ ، ومازال يحتفظ بمكانه في القمة يحقق اعلى الايرادات في تاريخ السينما إلى ان ظهر فيلم « صوت الموسيقى » عام ١٩٦٦ . ومع ذلك فإن « ذهب مع الريح » يعتبر حتى الآن من الافلام الخمسة الاولى في العالم من حيث ضخامة ايراداته . وقد فاز الفيلم بعشر جوائز بعد عرضه ، ومازال يعرض دوريا في دور السينما في انحاء العالم لكي تكتشفه الاجيال الجديدة كنموذج للعمل الادبي والفني الناجح الذى تتوافر له وتكتمل فيه كل عناصر نجاحه .. بل إن الاجيال القديمة تعيد اكتشاف هذا الثراء الفني والتقني والادبي الذى يتميز به الفيلم .

وكانت الرواية الامريكية مارجريت ميتشل قد نشرت روايتها « ذهب مع الريح » في عام ١٩٣٦ والتي حصلت على جائزة بوليتزر في عام ١٩٣٧ وحقت نجاحا منقطع النظير . واصبحت بطلتها « سكارليت أوهارا » بسحرها وقوة شخصيتها وتعلقها بالأرض .. محور اهتمام كل نساء العالم .

وقد تمت ترجمة رواية « ذهب مع الريح » الى ٢٧ لغة وبيع منها ٢٨ مليون نسخة ، اى انها اعلى الكتب توزيعا في العالم . وادى عرض الفيلم السينمائي الى زيادة مبيعات الكتاب .

ومما يتير الدهشة ان الكتاب - مثل الفيلم - مازال يجتذب الملايين من القراء مع مرور الايام بحيث تنطبق على الكتاب والفيلم على السواء .. صفه التحفة الخالدة التي لا تتضاءل حلاوتها وعذوبتها على مر السنين والمؤلفة للرواية الاصلية « ذهب مع الريح » - مارجريت ميتشل - كانت من حسناوات الجنوب الامريكى . وكانت فى العاشرة من عمرها وهى تستمع الى كبار السن يتذكرون بحيوية قصص الحرب الاهلية التى نشبت بين ولايات الجنوب التى تريد الاحتفاظ بالعبيد والولايات التى تريد تحرير العبيد ، وكانت الاخيرة بقيادة الرئيس العظيم ابراهام لينكولن وقد استمرت تلك الحرب من عام ١٨٦١ حتى عام ١٨٦٥ وسقط فيها آلاف الضحايا .. وانتشر الخراب والدمار فى مناطق عديدة .. واحترقت مدن بكاملها .



وربما كانت « ذهب مع الريح » اول محاولة . لطرح وجهة نظر الجنوب بجرأة فى تلك الاحداث الدامية ، وخاصة وجهة نظر هؤلاء الذين كانوا يعتبرون الجنوب الامريكى مركزا للرقى والتحضر والازدهار فى امريكا الشمالية كلها

والرواية تقدم للقراء صورة حيه لتاثير الحرب الاهلية على الجنوب الامريكى غير ان طموح مارجريت ميتشل لم يقتصر على ذلك ، وانما ارادت ايضا تقديم « التاريخ غير المروى للنساء » .. ذلك ان الجميع لم يكفوا عن تقديم الروايات عن فصص الرجال .. بينما هى تريد « ان تروى قصص النساء وكيف كانت اثناء الحرب » .

وكان لمارجريت ميتشل نشاطها الاجتماعى فى اتلانتا ، كما انها كانت صحفية فى « اتلانتا جورنال » فى وقت كان فيه الصحفيون والرجال يتخذون موقف العداء تجاه الصحفيات ! ولحسن حظ عشاق الادب والفن فى العالم ان مارجريت اصبحت فى رسغ قدمها .. مما اضطرها للتقاعد من العمل فى الصحيفة .. وبالتالي التفكير فى كتابة « ذهب مع الريح » ! وكانت والدة مارجريت ميتشل شخصت قوية مدافعة عن حقوق النساء وفى المقدمة الحق فى التصويت



وقد ادعت مؤلفه « ذهب مع الريح » انها اصبحت بالدهشة عندما اعجب القراء بشخصية سكارليت اوهارا التى ترفضها - هى - كامرأة « فاترة العواطف تحب ان تلفت الأنظار اليها كما تحب ان تسمع

عبارات الاطراء والتملق لمجرد أنها ترغب في ذلك ، ولكنها لا تملك سوى القليل من الاحساس بالمشاعر العميقة الحقيقية ، أو لامتلكها على الاطلاق » .

بيد ان القدر الاكبر من الشحنات العاطفية في الرواية مستمد من مشاعر المؤلفة المتبائية والمتضاربة حيال بطلتها . وثمة عنصر هام في حياة مارجريت ميتشل هو اختيارها دائما لما يؤيد حجتها ويتفق مع مصلحتها . وهو احد العناصر الاساسية في شخصية سكارليت غير ان القضية الاساسية التي كانت تشغل مارجريت ميتشل هي ان الحرب الاهلية الامريكية كانت تتطلب مؤهلات جديدة للنساء . وهناك من يرى أن السمة الاساسية لشخصية سكارليت بطله « ذهب مع الريح » هي قدرتها على ان تنتصر على الاحداث التي يجرى خلالها تدمير العديد من الشخصيات الاخرى . واحيانا يحتدم الصراع في مواجهة الانوثة والزوات . ويبقى اسم « سكارليت » حيا في اذهان كل من قراوا او شاهدوا « ذهب مع الريح » .

انها الفتاة التي ولدت في منطقة « تارا » في جنوب الولايات الامريكية والتي فرضت نفسها على مجتمعها بمزاجها الصعب وعنادها او بجمالها الساحر . وقد ظلت سكارليت نجمة حفلات الرقص .. ونموذج الفتاة التي « تدبر الرؤوس » وتسلب عقول الرجال .. تبدو الفتاة اللالاية الى ان تصيبها صدمة زواج الرجل الذي تحبه - « اشلي ويلكس » - من « ميلانى هاميلتون » . لقد رفض اشلي حبها الذي عرضته عليه وفضل عليها ميلانى ذات الجمال الهادىء والقلب الطيب . وتقرر سكارليت ان تتزوج شقيق ميلانى (تشارلس هاميلتون) لمجرد النكاح .. وبدافع الغيظ من اشلي .. ويموت زوجها الشاب في الحرب .

وكانت قد تعرفت على المغامر « ريت باتلر » في حفل في تارا . وعرف بطريق المصادفة حكاية حبها الفاشل لاشلي واسلوبها في خطف قلوب الرجال وإثارة غيرة النساء من حولها وانانيتها . يلتقى ريت بالارملة سكارليت في اتلانتا خلال اسوا ايام الحرب الاهلية .. عندما كانت المدينة تتعرض لهجوم الشماليين (اليانكي) . وتضطرب سكارليت الى البقاء في المدينة الى جانب ميلانى التي توشك على الوضع في غياب زوجها اشلي الذي ذهب الى جبهة القتال . ويتولى ريت باتلر انقاذ سكارليت وميلانى ووليدها في مشهد من اقوى مشاهد الرواية واكثرها اثارة وهو مشهد « حريق اتلانتا » . وعندما تعود سكارليت الى تارا تجد ان أمها قد لفظت انفاسها للتو متأثرة بمرض معد وان أباهما فقد عقله .. وان الشماليين دمروا كل

شيء وسلبوا كل شيء في المنزل والمزرعة .



وهنا يبرز دور « مامى » مربية ووصيفة سكارليت السوداء . ومن خلال جهد خارق تقوم به سكارليت .. ومعها « مامى » - وبارغام شقيقتها سوايلين وكارين على التعاون في العمل في المزرعة - تنجح سكارليت في انقاذ نفسها وأهلها .. وميلانى وطفلها من الجوع . ولأول مرة في حياتها ، تستخدم سكارليت المسدس في قتل رجل من الشماليين اقتحم المنزل المسرقة ثم حاول اغتصابها .. كانت تلك هى اقصى أيام سكارليت . ويعود اشلئ من الحرب محطما ويائسا . لقد خسر الجنوب الحرب .. كما خسر اشياء كثيرة .

ويموت جيرالد اوهارا والدسكارليت .

ويتقرر فرض ضرائب خيالية على مزرعة « تارا » مما يهدد بضيعاتها كلها . وتقرر سكارليت الزواج من « فرانك كنيدي » الذى كان ينوى الزواج من شقيقتها سوايلين لكى تحصل منه على مبلغ الثلاثمائة دولار قيمة الضرائب المفروضة على تارا . وهى تعتبر انها انقذت « تارا » بهذه التضحية من جانبها !

وتقيم سكارليت مع زوجها فرانك كنيدي التاجر في انلانتا . وتبدأ في توجيه كل اهتمامها نحو العمل بالتجارة وجمع المال . وتصر على اشراك اشلئ معها في ورشة لصناعة الخشب . ويلقى فرانك كنيدي مصرعه في حادث . وتصبح سكارليت أرملة للمرة الثانية .

ويعرض عليها ريت باتلر الزواج .. وتوافق فهو رجل قوى وجذاب ، كما انه ثرى . وتبدأ مرحلة هدوء واستقرار في حياة سكارليت . ويتصرف ريت معها كما يتصرف المحبون والعشاق ، ولا يبخل عليها بشئ . وتنجب سكارليت فتاة جميلة ، هى « بونى » التى يعبدها ريت . ومع مرور الوقت .. يتضح ان سكارليت لاتزال تفكر في اشلئ وتتعلق به ، الامر الذى لم يعد يخفى على احد بما في ذلك زوجها الذى يحاول بكل السبل ان يتقن شر الفضائح . وتقف « ميلانى » أو « ميل » زوجة اشلئ الى جانبها وتقطع الطريق على كل من يحاول التشهير بسكارليت أو ترديد الاقاويل عنها . وفي لحظة من اللحظات ، تحاول سكارليت تنقية علاقتها مع ريت ولكنه لاينجاوب معها . وعندما يقع حادث يؤدى الى اجهاضها ، يحاول من جانبه ان يفتح صفحة جديدة معها ولكنها لاتستجيب . ويقع الحادث المروع الذى ينهى كل شيء . فقد ماتت « بونى » في حادث . ويتلقى الرجل -

الذى لم يوجد فى العالم من يعبد ابنته مثله - اكبر صدمة فى حياته .
وبعدها تموت ميلانى . ويقتنع ريت بأنه يجب ان يخلى الطريق لسكارليت
لكى ترتبط باثلى الذى أصبح حرا بعد وفاة زوجته .



هذه خلاصة لرواية مارجريت ميتشل التى كانت كاتبة مجهولة فى
الثلاثينات قبل ان تسلم روايتها « ذهب مع الريح » الى الناشر .
ووقعت الرواية بعد نشرها فى ايدى اصدقاء المنتج السينمائى الأمريكى
ديفيد سيلزنيك الذى كان يحلم بإنتاج فيلم يخلد اسمه فى عاصمة السينما
(هوليوود) .

وسمع المنتج اقتراحا بتحويل الرواية التى تدور أحداثها فى الجنوب
الأمريكى إلى فيلم . وخشى الرجل من تبديد أمواله فى مشروع قد لايجد أى
صدى لدى الجمهور ، وخاصة لأن الأفلام السابقة التى تناولت حكايات
الجنوب الأمريكى لم تحقق نجاحا . ولم يمض وقت طويل حتى لفتت
رواية « ذهب مع الريح » الانظار ، وقفزت أرقام التوزيع . إلى مليون
نسخة فى ستة أشهر منها خمسون ألف نسخة فى يوم واحد ، وتدفقت
الأرباح . وسارع سيلزنيك الى شراء حقوق تحويل الرواية الى فيلم
سينمائى .

وكانت اصعب مشكلة تواجه المنتج هى العثور على الفنانة التى
تستطيع القيام بدور سكارليت اوهارا . واضطر سيلزنيك الى الانتظار
حوالى عامين وانفاق ٩٢ ألف دولار .. من اجل العثور على البطلة بعد ان
اتضح ان اكبر نجومات هوليوود لا يصلحون للدور . لاتصلح بيتى ديفيز
او لوسيل بول او بوليت جودار او جوان كراوفورد او سوزان هيوارد
او باربرا ستانويك او جين آرثر .. وفشل بعض هؤلاء فى الاختبارات
الاولية .

لم يكن الدور ينتظر نجمة كبيرة لكى تؤديه ، وانما الدور هو الذى
سيمنع ويخلق النجمة الكبيرة ، ومن ناحية أخرى فإنه كانت للشهيرات
اكثر من قصة حب فى أفلام كبيرة سابقة وفى الحياة .. بينما المنتج يفضل
فنانة يكتشفها فى دور سكارليت ولايعرفها الجمهور حتى لاتفقد البطلة -
على الشاشة - براعتها .

ولم يكن ذلك سهلا .. اذ اين هى الشخصية التى تنافس ، على الشاشة ،
بطلة كتاب « ذهب مع الريح » بل وتتفوق عليها . حتى لايشعر المتفرجون
فى دور السينما بصدمة بالغة حين يقارنون بين ما يشاهدونه على الشاشة

وبين ما قرأوه في الكتاب ؟ ومن هنا اضطر المخرج جورج كيوكور - الذي حل محله المخرج فيكتور فيلمنج بعد ذلك - الى تصوير بعض المشاهد قبل العثور على بطلة الفيلم !

وانتهت المحنة عندما دخل ميرون شقيق سيلزنيك (وكيل اعمال فنانين في هوليوود) على شقيقه وبصحبه ممثلة مسرح بريطانية وقال له « قدم التحية لسكارليت » .

وكانت هي الفنانة « فيفيان لى » التى قرأت الرواية اكثر من مرة واعجبت بها وتتمتع بمواصفات سكارليت ، واقتنع بها سيلزنيك على الفور . وبدأت مهمة تدريبها على الحديث بلكنة اهل الجنوب الأمريكى .



واليوم لا يستطيع احد تصور سكارليت بملامح غير ملامح « فيفيان لى » التى تركت بصماتها التى لا تمحى على شخصية سكارليت . فقد جسدت الشخصية على الشاشة بنجاح تجاوز بكثير كل توقعات المنتج والمخرج وكافة المشاركين في مشروع الفيلم . وإنصافا للفنان الأمريكى « كلارك جيبيل » فانه يمكن ان يقال انه حقق نفس النجاح .

غير ان نجاح او فشل ذلك العمل الفنى كان يتوقف في الاساس على شخصية سكارليت والتفوق في اداء دورها

وعلى سبيل المثال فإن هناك مايشبه الاجماع على ان من بين أجمل ماصورته هوليوود في السينما حتى يومنا هذا - تلك اللقطة الاخيرة من الفيلم التى تظهر فيها سكارليت وهى واقفة امام بيتها في اتلانطا ممسكة بحفنة من التراب في يدها ومودعة بدموعها الزوج الحبيب الذى هجرها قائلة : « غدا .. يوم آخر »

وربما كان لهذه اللقطة علاقة مباشرة بموضوع هذا الكتاب .. لأن اللقطة تفتح المجال واسعا امام إمكانية ظهور تيمة في يوم من الأيام لحكاية سكارليت والرجل الذى أحبته و .. « ذهب مع الريح » .



وبعد عشر سنوات من نشر رواية « ذهب مع الريح » .. كانت مارجريت ميتشل تشكو من انها تتلقى رسائل من الناشرين ووكلاء المؤسسات الفنية يطلبون فيها المزيد من الفصول الاضافية للرواية او جزءا ثانيا .. او تيمة .

وكانت مؤلفة « ذهب مع الريح » تحتج قائلة « إنهم لا يصدقوننى عندما ارد عليهم لكى اؤكد ان الرواية انتهت حيث انتهت » . وحتى سيلزنيك

نفسه .. افترض بعد نجاح الفيلم امكانية تصوير حكاية مكملـة لـ « ذهب مع الريح » في فيلم جديد يمكن ان يدور حول مغامرات ابنة سكارليت بعد سنوات طويلة من نهاية الرواية الاولى . غير ان مشروعه لم ير النور . وكانت مارجريت ميتشل قد رفضت طوال حياتها كتابة جزء ثان لروايتها .. رغم ان ملايين الناس كانت تشعر بالاسى ازاء الفراق الذى حدث بين سكارليت وريت ولم يتصوروا ان هذا الفراق يمكن ان يكون خاتمة لقصة حب هائلة وعاصفة اصبحت جزءا من حياتهم !



ومنذ توفيت مارجريت ميتشل في الثاني عشر من اغسطس عام ١٩٤٩ ، وهى في التاسعة والاربعين من عمرها ، والورثة الشرعيون لها يرفضون بيع حقوق رواية « ذهب مع الريح » . وكان اصحاب عروض الشراء يستهدفون من وراء الصفقة المقترحة ازالة العقبة التى تحول دون كتابة ونشر تنمة للرواية ، فاحتفاظ الورثة بحقوق الرواية يمنع اى شخص من حق كتابة او نشر مثل هذه التنمة .

وتصرف الورثة بذكاء .. فقد وجدوا انهم سيفقدون « حق الملكية الادبية » بعد سنوات معدودة وفقا للقوانين الامريكية مما يعنى ان اى شخص يستطيع بعد فترة ان ينشر مايشاء من روايات مكملـة لـ « ذهب مع الريح » دون ان يملك الورثة حق الشكوى او الاعتراض .. لان المدة القانونية لحق الملكية تكون قد استنفدت . ووجد الورثة ان مصالحهم المادية تقتضى الموافقة على عرض من احدى دور النشر لكى يكسبوا الملايين . ووضع الورثة شروطهم وهى : عدم تناول حالة زواج شخص ابيض من شخص غير ابيض ، وخلق الرواية من اية اشارات جنسية صارخة .. واهم الشروط هو ان تتولى كتابة الرواية .. الكاتبة « الكسندرا ريبلى » ، التى ولدت في اتلانتا ايضا مثل الكاتبة الراحلة مارجريت ميتشل ، وتعرف تلك الانحاء معرفة وثيقة وترددت عشرات المرات على الاماكن التى شهدت وقائع واحداث « ذهب مع الريح » . وكان الاتفاق بين الكاتبة الكسندرا ريبلى ودار النشر وورثة مارجريت ميتشل .. سرىا بحيث لم يعرف احد بالخبر الا قبل ايام معدودة من ظهور رواية سكارليت .. تنمة « ذهب مع الريح » فكانت مفاجأة مدوية لها وقع القنبلة في كل عواصم العالم .. ووصلت السرية واجواء التكتم الى حد ان الناس فوجئوا بنشر الرواية في دول مختلفة في وقت واحد .. ومترجمة !

هكذا ولدت « سكارليت » .

وبهذا الصدور المبالغ والنشر المفاجيء لروايتها تعود سكارليت الى الحياة بعد اكثر من نصف قرن ، وبالتحديد بعد ٥٢ سنة .

فماذا حدث مع سكارليت هذه المرة ؟

تم نشر الرواية بالفعل في اربعين دولة بثمانى عشرة لغة منها الصينية واليابانية والكورية . وتم طبع مليون نسخة من الرواية في الولايات المتحدة في البداية . وبعد اسبوع واحد ، قال الناشر هناك انهم يطبعون خمسين الف نسخة يوميا وانهم يضطرون لشحن النسخ من معامل التجليد الى المكتبات مباشرة . وتدفق مئات الالاف من الناس على المكتبات في الولايات المتحدة واوروبا لشراء « سكارليت » ، التى وصلت الى القمة بسرعة باعتبارها احسن الكتب رواجاً في الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وعلى نحو اثر دهشة المؤلفه نفسها .

حتى الرواية « الاصل » ، « ذهب مع الريح » ، لم يصل معدل توزيعها الى هذه السرعة في البداية . ومما يلفت النظر ان نشر رواية « سكارليت » ادى الى زيادة في توزيع « ذهب مع الريح » مرة اخرى . لقد تزامم القراء لشرائهم حتى يعرفوها « كيف كانت البداية » ؟

وضربت رواية سكارليت الرقم القياسى العالمى في التوزيع اليومى .



ويقول بائعو الكتب والناشر وممثلو شؤون الكتب في المجلات المتخصصة انهم لايتذكرون ان هناك كتابا وزع بهذه السرعة وبهذه المعدلات القياسية .

والطريف ان ثمة سباقا الآن بين روايتى « سكارليت » و « ذهب مع الريح » في ارقام التوزيع !

ويعترف لورنس كيرشباوم رئيس دار نشر « وارنر » التى اصدرت « سكارليت » بان « رد فعل صدور الكتاب قد اصابنا بالذهول » .. وقد دفع الناشر ٤,٩ مليون دولار نظير حقوق التتمة . كما دفع المنتج الامريكى روبرت هالمى ٩ ملايين دولار مقابل شراء حقوق عرض الرواية في مسلسل تليفزيونى ، وعرض على الممثل الامريكى « توم سيليك » اكثر من ٦ ملايين دولار لكي يقوم بدور « ريت باتلر » في المسلسل .. وكما حدث من قبل ، فإن هناك صعوبة كبيرة في ايجاد الفتاة التى تقوم بدور سكارليت . واصبحت كل فتاة في الولايات المتحدة - ممثلة او غير ممثلة - تحلم بالقيام بهذا الدور . وتجرى مسابقات في عدة ولايات امريكية للترشيح للدور ..



وقد أمضت مارجريت ميتشل عشر سنوات في كتابة « ذهب مع الريح » .. وتقول الكسندرا ريبلى (٥٧ سنة) انها أمضت خمس سنوات في كتابة « سكارليت » زارت خلالها المكتبات ودور المحفوظات والارشيفات .. ومناطق تمتد من اتلانتا الى دبلن في ايرلندا .. والواضح ان الخلفية التاريخية والثقافية والاجتماعية عن الجنوب الأمريكى .. كانت العنصر الحاسم في اختيار الكسندرا ريبلى لاستكمال « ذهب مع الريح » ، فقد سبق أن نشرت كتابين عن مدينة شارلستون - مسقط رأسها هي و« ريت » بطل « ذهب مع الريح » - كما نشرت كتاب « ميراث نيو اورليانز » وهو من اكثر كتب دار وارنر توزيعا ..

وكما يحدث دائما في مثل هذه « الظواهر » الادبية والفنية غير العادية .. يرتفع صوت المعارضين ، وخاصة في مقاطعة كليتون جنوبي اتلانتا ، حيث تقع « تارا » مقر مزرعة جيرالد اوهارا والد سكارليت . ويقول هؤلاء ان « ذهب مع الريح » الجديدة (سكارليت) هي محاولة لابعاد الانظار عن مقاطعة كليتون ، التي جرت فيها اهم احداث الرواية الاولى .. ومحاولة للابتعاد عن جذور مارجريت ميتشل وتشكلت جمعية في « اتلانتا » تحمل اسم « انا لا اريد قراءة التهمة » ا

ويرى اعضاء الجمعية انه من القسوة « الكشف » عن مصير ريت وسكارليت على يد الكسندرا ريبلى . والطريف ان الاخيرة حصلت على عضوية الجمعية المذكورة ، وقالت انها مدركة لمشاعر بعض المعجبين بـ « ذهب مع الريح » المتعصبين الذين يرفضون التجاسر واستكمال ما سبق ان قالت عنه مارجريت ميتشل انه انتهى ولا يحتاج الى تمة . وهناك نقاد احبوا الرواية الاولى يرفضون من حيث المبدأ تسليم شخصيتها إلى كاتبة أخرى . وثمة ادباء لايعجبهم ظهور تمة لما يعتبرونه « اجمل كتاب في العالم » .

وفي رواية « سكارليت » تتخيل « ريبلى » تمة لرواية لم تكن هي التي وضعتها ومع ذلك تحقق هذا النجاح المنقطع النظير . وتنتهى احداث رواية « ذهب مع الريح » في عام ١٨٧٣ ، وهو نفس تاريخ بدء احداث رواية « سكارليت » وكان « ريت » قد هجر سكارليت في خاتمة الرواية الاولى وهو يقول عبارته الشهيرة : « عزيزتى .. لا يهمنى شيء ، ان الامر يستوى بالنسبة لى » ..

وبعد بضعة ايام من نهاية الرواية الاولى . تبدأ احداث الرواية الجديدة مع دفن « ميلانى ويلكس » زوجة اشلى الذى ظنت سكارليت طوال السنوات الماضية انها تحبه . وعندما تكتشف ان ذلك الحب لم يكن سوى

وهم .. تكون قد فقدت الرجل الوحيد الذى احبته حبا حقيقيا جارفا .. وهو « ريت » ذلك « المغامر ، الطيب فى اعماقه ، الذى يعشق ملاطفة ومداعبة الاطفال ويحمل كل مودة لوالدته والرجل المتعلم الذى تحقق الكتابة عنه متعة لمن يكتب » على حد تعبير الكسندرا ريبلى .. اما « اندفاعات » سكارليت فانها مخيفة ، وما يعجب ، المؤلفة فى شخصيتها هو انها تفى دائما بوعودها ، غير ان الأهم هو ان هذه الشخصية « تنضج » باعترافها بالهزيمة فى الرواية الجديدة خلال رحلة طويلة (٨٢٣ صفحة فى النسخة الانجليزية) لاستعادة « ريت » .. والعودة الى الجذور . هل نستطيع ان نخفى ، نحن جميعا ، لهفتنا على معرفة ما فعله « ريت » بعد ان اخفى بعيدا فى الضباب فى خاتمة الرواية الاولى ؟

قرات الكسندرا ريبلى رواية « ذهب مع الريح » خمس او ست مرات ونسخت منها مئات من الصفحات بطريقة الكتابة العادية - بدون اختزال - ووضعت خطوطا تحت اجزاء منها بقلم ملون فى محاولة لكى تتفهم ماتسميه اكثر الاساليب غير الاعتيادية التى حطمت قواعد قديمة فى تركيب وبناء الجمل وغيرت ترتيب كلمات الجملة فى اشكالها المألوفة واستخدمت (مارجريت ميتشل) - كما تقول ريبلى - اسلوب التركيز والتكثيف بصورة ممتازة .

ووفقا لكتب السير الذاتية ، فان ريبلى تستنتج ان مارجريت ميتشل عانت من الألم اكثر مما لقيت من البهجة عقب نجاحها الاسطورى .. اما « ريبلى » فإنها تقول عن نفسها انها اسعد الناس حظا فى العالم . وتؤكد مؤلفة سكارليت ان مارجريت ميتشل « كاتبة تستحق تقديرا اكبر من ذلك الذى منحه لها النقاد .. فهى احسن من الكسندرا ريبلى » !

ومؤلفة سكارليت التى تعمل استاذة بجامعة فيرجينيا وتعيش فى المدينة التى تحمل نفس الاسم مع زوجها وابنتيهما من زواج سابق .. حاولت ان تحاكي اسلوب ميتشل طوال المائة صفحة الأولى من رواية سكارليت لكى تكسب ثقة القارئ .. ثم .. وبصورة تدريجية « تمكنت من ان انسל خلسة واتحول الى استخدام صوتى » على حد تعبيرها .



ولما كان الأدب هو مرآة الشعوب . فإننا لن نتمكن من فهم الشعوب الأخرى دون قراءة آدابها ، وخاصة تلك الأعمال الكبرى الباقية التى لا تلحق بها الشيخوخة مع مرور السنين والاحقاب بل تزداد تالقا ويتجدد شبابها . ولسنا فى حاجة الى التذكير بان هذا « البقاء » هو المكافأة التى يستحقها بجدارة كل عمل أدبى أو فنى مدروس ومن ثمار ابداع العقول

البشرية الخلاقة والجهد المخلص والدؤوب والجاد لانتاج أدب حقيقي رفيع المستوى . ويكفي التذكير في هذا الصدد بأن كلا من مارجريت ميتشل والكسندرا ريبلي عكف على دراسة كل ما يتعلق بالحرب الأهلية وتأثيراتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية في الجنوب الأمريكى .. وحتى العادات والتقاليد في تلك الفترة الزمنية وبشكل تفصيلي .. وصراعات المصالح والبشر .. مما جعل من صفحات عديدة من الروايتين دراسة مشوقة لفترات تاريخية هامة .. كل ذلك من خلال قصة حب جميلة تتأثر بكل ما في اعماق البشر من منحنيات وعقد وجراح غائرة .

ولم يكن في الامكان تقديم النص الكامل لرواية سكارليت نظرا لأنها عبارة عن ٨٢٣ صفحة بالقطع الكبير في النص الانجليزي .. غير ان التلخيص تفادى بقدر الامكان اغفال كل ما يؤثر على مجرى الرواية وبنائها الفني . وهكذا عادت « سكارليت » مع الريح وربما عاد معها « ريت باتلر » أيضا بعد ٥٢ سنة .. فهل يمضى نصف قرن آخر قبل أن نسمع عن تتمة لرواية « سكارليت » أيضا ؟

● نبييل زكى

• القسم الأول •

تائهة فى الظلام



• شخصية « مامى » فى « ذهب مع الريح » و « سكارليت » من أكثر الشخصيات جاذبية ورغم أن الجنوب الأمريكى كلن يتخذ الموقف المحافظ تجاه المواطنين السود إلا أن « مامى » بمودتها وحنانها وتفانيها فى العمل وإخلاصها كانت نموذجا للشخصية السوداء الايجابية والمحبة التى تحرك المشاعر . وقامت بدورها فى فيلم « ذهب مع الريح » الفنانة السوداء « هاتى ماك دانيل » .

« تارا » إلى العودة

سينتهى كل شيء سريعا ، وعندئذ استطيع العودة إلى موطنى .. إلى « تارا » ها هي سكارليت اوهارا هاميلتون كنيدي باثلر .. تقف وحيدة على مسافة بضع خطوات من المعزين الآخرين أثناء مراسم دفن « ميلانى ويلكس » .

السماء تمطر ، والرجال والنساء فى ملابس الحداد ، يرفعون فوق رؤوسهم مظلات سوداء ، ويتكئون على بعضهم البعض . ويرتفع نحيب النساء وهن يتشاركن فى الأماكن التى تحميهن المظلات من الأمطار .. كما يتشاركن فى الأحزان . أما سكارليت ، فإنها لم تشرك أحدا معها فى الوقوف تحت مظلتها .. أو فى أحزانها

الرياح العاصفة التى تحملها الأمطار ، تطلق جداول من المياه الباردة تحت المظلة ، فتساقط فوق رقبتها . ولكنها لم تكن تشعر بشيء ، فالاحساس بانها فقدت مخلوقا عزيزا جعلها تفقد الإحساس بأى شيء آخر . سوف تحزن فيما بعد ، عندما تقدر على تحمل الألم .. أما الآن ، فقد اقامت حاجزا بينها وبين كل الآلام والمشاعر والأفكار ، فيما عدا كلمات تتردد مرة بعد أخرى فى عقلها .. كلمات تبشر بالشفاء الآتى ، وبالتماسك والقوة الى أن تتعافى وتلتئم الجراح ..

سينتهى كل شيء سريعا ، وعندئذ استطيع العودة الى موطنى .. « تارا » .

.. « من الرماد إلى الرماد ، ومن التراب الى التراب .. » اخترق صوت الكاهن درع اللامبالاة السميكة . هذه الكلمات تسجل « الحدث » رسميا . لا ابكت سكارليت فى صمت . هذا ليس قبر « ميلى » إنه أكبر مما يجب . إنها ضئيلة الحجم ، وعظامها لا تزيد على عظام عصفور . لا ! لا يمكن أن تكون قد ماتت . لا يمكن ..

استدار رأس سكارليت بفرقة إلى الناحية الأخرى ، لكى لا ترى فوهة القبر المفتوحة ، بينما كان النعش المصنوع من خشب الصنوبر يهبط فى بطء الى القاع .

صندوق النعش يحمل آثار المطارق التى دقت المسامير لإغلاق الغطاء على وجه ميلانى الرقيق المحبوب الذى كان على شكل .. قلب .

لا كيف يتجاسرون ؟ كيف يفعلون ذلك ؟ السماء تمطر ، وهم يضعونها هناك حيث يهطل فوقها المطر ، إنها تشعر بالبرودة . كيف يتركونها تحت المطر البارد . لا يستطيع أن أتابع النظر . لا اتحمل رؤية هذا الذى يجرى . لا أصدق أنها رحلت . انها تحبني ، وهى صديقتى ، صديقتى الحقيقية الوحيدة . « ميلى » تحبني ، ولن تتركني الآن فى الوقت الذى احتاج فيه إليها أكثر من أى وقت مضى .

تطلعت سكارليت الى هؤلاء الذين يتحلقون حول القبر ، وانفجر فى داخلها غضب عارم . لا احد منهم يبالي بما حدث . لا يوجد بينهم من هو مهموم مثلى . ولا احد منهم فقد ما فقدته . ولا احد يعرف الى اى حد احبها . ولكن « ميلى » تعرف . ولكن هل تعرف حقاً ؟ نعم إنها تعرف ويجب أن اقتنع بأنها تعرف . ومع ذلك ، فإن هؤلاء الذين يتراصون امامي لن يصبروا هذه الحقيقة أبداً . لا السيدة ميريويزار ، أو عائلة ميدز أو عائلة ويتينج أو عائلة السينج .

انظر اليهم وقد تجمعوا مثل حزمة القش ، وهم يتلاصقون حول « أنديا ويلكس » و « أشلى » مثل سرب من الغربان المبجلة التى ترتدى ملابس الحداد . إنهم يواسون العمه « بيتيات » حسنا ومع ذلك فإن كلا منهم يعرف أن هذه العجوز تنفعل وتتشج بالبكاء وتذرف الدموع لأقل شيء تافه حتى لو كان احتراق قطعة من الخبز المحمص .

انهم جميعا لن يتصوروا أو يدخل فى روعهم اننى ربما الأكثر احتياجا منهم الى بعض العزاء ، واننى كنت اقرب الى « ميلانى » من أى شخص منهم .

انهم يتصرفون كما لو لم اكن موجودة ، ولم يبد أى منهم ادنى قدر من الاهتمام بى .. حتى أشلى . انه يعرف ماذا فعلت خلال اليومين الحالكين بعد وفاة ميلى ، عندما احتاج الى مجهودى لكى ادبر الأمور . كلهم افصحوا عن حاجتهم الى مساعدتى ، حتى أنديا .. التى ظلت تنغو مثل العنزة الباكية : « ماذا نفعل لاعداد الجنازة ياسكارليت ؟ » و « ماذا عن الطعام للمعزين ؟ » و « كيف نتصرف بخصوص النعش ؟ » و « ماذا عن حاملى بساط الرحمة ؟ » .. و « شكل ومساحة المقبرة ؟ » .. و « الحروف المنقوشة على شاهد القبر ؟ » .. و « النعى فى الصحيفة ؟ »

الآن .. هم جميعا يتساندون على بعضهم البعض ويكون ويعولون . حسنا .. لن أشبع رغبتهم واجعلهم يرونى وأنا أبكى وحدى دون أن يقف إلى جانبي من استند الى ذراعه .

يجب الا ابكى . ليس هنا . ليس الآن . اذا شرعت في البكاء ، فقد لا أستطيع أن اتوقف أبدا . عندما اذهب الى « قارا » أستطيع أن ابكى . رقصت سكارليت رأسها ، وضغطت على أسنانها لكي لا تصطك من الصقيع ، ولكي تحتجز في داخلها ما يجيش في صدرها من انفعالات تكاد تخنقها .

سوف ينتهى ذلك سريعا ، وعندئذ أستطيع العودة الى موطنى .. « قارا » .

الشظايا المتناثرة من حياة سكارليت المحطمة .. كلها توجد هنا في مقبرة لوكلاند في أتلانتا ..

كل الأجزاء المصبغة والمعطوبة ترقد هنا . وهذه المقبرة الحجرية الرومانية التي يتسلط فوقها مطر رمادى هى النصب التذكرى لعالم انتهى الى الأبد .. العالم السعيد الخالى من الهموم الذى عرفته في شبابه في زمن ما قبل الحرب . إنها النصب التذكارى لتحالف رابطة الولايات^(١) رمز الشجاعة الابية الطافشة التي غمرت الجنوب باعلام زاهية ترفرف .. في الدمار . وهذا النصب . تمجيد لذكرى اصداقاء طفولتها للنبلاء الشجعان الذين يتصفون بالشهامة واشتهروا بالتوود الى النساء ومغازلتهن واستجداء مشربكتهن لهم في رقصات الفالس واستجداء القبلات في الأيام التي لم تكن هناك شواغل لديها في الحياة سوى مشكلة اختيار ثوب السهرة المناسب لكل حفل . وهو نصب تذكارى لزوجها الأول تشولس هاميلتون ، شقيق ميلانى ، ولابناء واشقاء وأزواج وأبناء كل المعزين الذين ابتلت ملابس الحداد التي يرتدونها تحت وابل الأمطار فوق الهضبة المستديرة الصغيرة التي تدفن فيها ميلانى .

ثمّة مقابر أخرى ، وشواهد قبور أخرى . فرانك كيندى ، زوج سكارليت الثانى .. و .. ذلك القبر الصغير .. الصغير .. الذى يحمل شاهده اسم « أوجينى فيكتوريا باتلر » .. وتحتة اسم آخر صغير من كلمة واحدة : « بونى » . إنها طفلتها الصغيرة التي احبتها أكثر من أى مخلوق ..

الأحياء ، وكذلك الأموات ، كانوا جميعا حولها . ولكنها وقفت وحيدة على انفراد ، ويبدو أن نصف سكان أتلانتا قد جاءوا ، ولم تتسع الكنيسة

(١) تحالف رابطة الولايات المتحدة الأمريكية الاحدى عشرة التى انفصلت عن الولايات المتحدة الأمريكية في عامى ١٨٦٠ و ١٨٦١

لحاضرين . والآن ينتشرون في حلقة كبيرة .. تنتفخ في ناحية وتنبعج في ناحية أخرى .. حلقة معتمة فوق قطعة من الأرض الفضاء حول القبر المحفور في تربة جورجيا الحمراء ليكون مثوى لجثمان ميلانى ويلكس . يقف في الصف الأول من المعزين .. أقرب الناس الى ميلانى .. من البيض والسود . وجوههم تبللها الدموع .. ما عدا وجه سكارليت . العم بيتر المدرب العجوز يقف مع ديلسى وكوكى في شكل مثلث اسود يلتف حول « بو » ابن ميلانى الصغير المذهول . الجيل الأكبر سنا في اتلانطا كان حاضرا .. ومعه العدد الضئيل الذى تبقى لهم بعد المأساة .

وهناك الأصغر سنا .. ولكنها تبدو مسنة مثل الآخرين . إنها « انديا ويلكس » التى تختبئ داخل المجموعة وتراقب شقيقها أشلى بعينين حزنتين يظللهما احساس بالذنب .

أشلى يقف منفردا مثل سكارليت ، عارى الراس تحت المطر لا يرى « المخايب » المعروضة عليه تحت المظلات لكى يحمى من المطر ، ولا يشعر بالصقيع الناجم عن غرق ملابسه .. فهو غير قادر على تقبل الاذعان للنهاية والاستسلام للموت كما جاء في كلمات الكاهن ، ولا يرى سببا لهبوط النعش الضيق الى قاع القبر الموحد .

أشلى طويل ونحيل وشاحب ، يبدو شعره الذهبى الباهت وكأنه يتحول الى اللون الرمادى . ووجهه الممتقع بلا تعبير مثل عينييه الرماديتين اللتين تحمقان في الفراغ دون أن تريا شيئا . وقف مشدود القامة ، وقفة التحية .. الاثر الباقي من سنوات الخدمة في سلك الضباط .. وقف بلا حراك وبلا يقظة أو ادراك لما يدور حوله .

أشلى .. انه محور ورمز حياة سكارليت المهشمة . بسبب حبه اعرضت عن السعادة التى كانت من نصيبها وملك يديها وتجاهلت هذه السعادة التى كانت متاحة امامها . لقد أدارت ظهرها لزوجها ولم تعترف بحبها له لأن الرغبة في أشلى كانت تعترض طريقها دائما .

الآن ، مضى ريت .. ذهب بعيدا .. ولم يبق منه في هذا المكان سوى غصن من زهور الخريف الذهبية بين كل الغصون الأخرى . لقد خانت صديقتها الوحيدة وسخرت من اخلاص ميلانى العنيد وحبها الذى لا يهتز .

.. والآن ايضا ، رحلت ميلانى ، وتلاشى حب سكارليت لأشلى ، فقد ادركت - بعد قوات الاوان - ان ادمان التعلق بأشلى قد أصبح مجرد عادة

حلت محل الحب ذاته منذ وقت طويل .. انها لم تحبه ، ولن تمارس تلك « العادة » مرة أخرى أبدا .

وما هو أشلى ملك يديها بعد أن فقدت رغبتها فيه . انه الارث الذى تركته ميلانى لها . وقد وعدت سكارليت صديقته المخلصة وهى على فراش الموت بأنها ستولىه عنايتها ، هو ، وطفلها « بو » .
أشلى هو سبب تدمير حياتها ، والشئ الوحيد الذى تبقى لها من انقراض هذه الحياة .

وقفت سكارليت وحدها .. لا يوجد بينها وبين الشخصيات التى عرفتھا فى أتلانتا سوى فراغ معتم بارد .. فراغ ملأته ميلانى ذات يوم مما جعلها بمنأى عن أشباح العزلة . فقد مدت ميلانى يدها لكى تحميها وتحبب محاولات وصمها والحكم عليها بأن تكون منبوذة من المجتمع .
الرياح القارصة الرطبة ترتطم بمظلتها وتعصف تحت المظلة .. فى المكان الذى كان يجب أن يقف فيه « ريت » الآن ليحميها بمنكبيه العريضتين ..
وبجبه .

رفعت رأسها فى مواجهة الرياح . ولم تبال بصفعاته ، فهى لا تشعر بشئ ، فقد كانت كل إحاسيسها تتركز على الكلمات التى تمدھا بالقوة والأمل : « سينتهى كل شئ سريعا ، وعندئذ أستطيع العودة الى موطنى .. تارا » .

همسة سيدة تضع خمارا أسود لرفيقتها تحت المظلة
— « انظرى إليها ! إنها قاسية ، صلبة كالأظافر ، سمعت أنها كانت طول الوقت تتولى الإشراف على ترتيبات الجنازة ، ولم تذرف دمعة واحدة ، كل اهتمامها بالأعمال والأشغال والتجارة ، هذه هى سكارليت .. بلا قلب .. »

همسة مقابلة من رفيقة المظلة : « اتعرفين ما يقوله الناس ؟ ان عندها قلبا يشغله أشلى ويلكس . هل تعتقدين حقا انهما .. »
استكتهما المعزون الذين كانوا يقفون بجوارهما . ولكن هؤلاء الذين استكتهما .. كانوا يفكرون بنفس الطريقة . الجميع يفكرون على هذا النحو .

الصوت الرهيب لارتطام التراب الذى يلقي به المعزون .. بخشب الصندوق جعل سكارليت تقبض على يديها . كم ترغب فى أن تضع يديها على أذنيها وتصرخ وتنادى وتطلق صيحة .. أى شئ لكى توقف هذا الصوت المخيف للقبر وهو يطبق على ميلانى .

ضغطت بأسنانها على شفيتها بطريقة ألتها . انها لن تصرخ . لن ..
ومع ذلك فقد اخترقت السكون المهيب الذى تكتنفه الرهبة .. صرخة
أخرى ، هى صرخة أشلى :

« ميلى .. ميل ... ي .. ي .. ي »

ومرة أخرى « ميل ي .. ي .. ي »

صرخة روح تتعذب وتنفض بالخوف من الوحدة والوحشة والخواء .
تعثر فى طريقه إلى الحفرة العميقة الموحلة وكأنه رجل فقد بصره فجأة ،
ومد يديه بحثا عن المخلوقة الهادئة الصغيرة التى كان يستمد منها كل
قوته . ولكن لم يكن هناك ما يمسك به سوى قطرات المطر الفضية الباردة
المتدفقة .

وتطلعت سكارليت إلى الدكتور ميد وانديا وهنرى هاميلتون . لماذا
لا يفعلون شيئا ؟ لماذا لا يوقفونه ؟ يجب إيقافه والامساك به .

— « ميل ي .. ي .. ي » ..

يا لله انه سيكسر عنقه ، وهم جميعا يتسمرون فى امكنهم ويحملون
فيه ببلاهة ويتمايلون ويتارجحون ويترنحون على حافة القبر .

صاحت : « أشلى . قف ! »

وكررت النداء : « أشلى » .

كانت قد بدأت تمد خطواتها بالفعل . تزل احدى قدميها ، وتزلق
الأخرى على العشب المبلول . والقت المظلة من يدها ، فتدحرجت على
الأرض وطارت مع الريح الى أن سدت طريقها كومة من الزهور .
وامسكت سكارليت بأشلى من وسطه وحاولت أن تجذبه بعيدا عن
الخطر وهو يقاومها .

واستجمعت قوتها لتصارعه . « أشلى ، لا تفعل ، ميلى لا تستطيع أن
تساعدك الآن » .

كان صوتها خشنا .. يتحدى حزن أشلى الأصم .. والمخبول .
توقف .. وتدلّت يدها الى جانبيه . وصدر منه أنين خافت ثم انهار جسمه
كله بين ذراعى سكارليت وعندما فقدت القدرة على تحمل ثقله ، أمسك
الدكتور ميد وانديا بذراعى أشلى المتهاويتين لمساعدته على أن يقف
منتصباً .

وقال الدكتور ميد : « يمكن أن تذهبى الآن سكارليت ، لم يبق الآن شيء
لم تلحقى به الضرر » .

— « ... ولكننى ... »

وتطلعت الى الوجوه من حولها . كانت العيون تتلهف على المزيد من الاثارة . واستدارت ، وابتعدت .. والامطار تلاحقها . وانسحب الجمهور الى الوراء وكان حفيف ثوبها قد ازاحهم من طريقها .
يجب الا يعلموا انها مهتمة بشئ ، لن تسمح لهم بان يشعروا بانهم يمكن ان يجرحوا مشاعرهم . رفعت رأسها متحدية ، وتركت المطر يتدفق على وجهها ورقبتها . كان ظهرها وكتفها مشدودين إلى ان بلغت بوابات المقبرة ، واختفت عن الأنظار . عندئذ تشبثت بأحد الأعمدة الحديدية ، شعرت بدوار من الإرهاق يعجزها عن التماسك والوقوف على قدميها . سائق عربتها « الياس » هرول نحوها وفتح مظلتها ليحملها فوق رأسها المطرق . اتجهت سكارليت إلى عربتها ، متجاهلة اليد التي امتدت لتستند عليها .

وغاصت في ركن من مقعد العربة وجذبت الحبل . كانت ترتعد من الصقيع حتى العظام ، وتشعر برعب مما فعلته ، كيف تأتي لها ان تجعل أشلي يخجل على هذا النحو أمام الجميع بينما وعدت « ميلانى » منذ ليال قليلة بأن تعنى به وتحميه كما كانت تفعل ميلانى دائما ؟ ولكن ، ما الذى كان يمكن أن تفعله غير ذلك ؟ هل كانت تتركه يلقى بنفسه في المقبرة ؟ كان لابد أن توقفه .

.. الآن تشعر بالآلم في ذراعها ، انها تستطيع تحمل هذا الآلم ، أما الآلم الذى لم تستطع تحمله فهو ذلك الآلم الآخر .. المؤجل ، الذى تأخر ، الآلم الخفى الذى لا يظهر على السطح ، ليس الآن ، ليس هنا ، ليس عندما تكون وحدها كما هو الحال الآن . عليها أن تذهب الى تارا ، لاند ، فإن « مامى » هناك ، سوف تضع « مامى » ذراعيها السوداوين حولها وتحضنها ، وتوسد رأسها على صدرها حيث كانت تبكى طوال سنوات طفولتها لتخفف من متاعبها

قالت « أسرع يا الياس ، أسرع » ..



— « ساعدينى على التخلص من هذه الأشياء المبتلة يا بانسى .. بسرعة » . كان وجه سكارليت شاحبا مما جعل عينيها الخضراوين أكثر لمعانا وافزاعا . كانت الفتاة الصغيرة بانسى عصبية .

— « أسرعى ، وإذا تسببت في عدم لحاقى بالقطار ، فسوف أجلك ! » . لم يكن بوسعها أن تفعل ، وكانت بانسى تعرف ذلك ، فقد ولدت أيام

العبودية ، ولم تكن سكارليت تمتلكها ، فالفتاة تستطيع أن تتركها في أية لحظة تريدها . ولكن الوميض اليأس المحموم في عيني سكارليت الخضراء .. جعل بانسى تشك في معلوماتها عن انتهاء زمن العبودية ! لقد بدت سكارليت قادرة على أى شيء

.. إنها يمكن أن تظل في حداد بقية أيامها .. الحداد على « بونى » مستمر ، والآن الحداد على « ميلانى » . كلن يجب أن أجد شيئا أكثر سوادا من السواد .. شيئا يرمز إلى الحداد لكى أرتديه وأعلن الحداد على نفسى .. لن أفكر في ذلك الآن . سوف يصيبني الجنون إذا فعلت ذلك .. سأفكر فيه عندما أعود إلى تارا .. أستطيع أن أتحمل .. هناك .

الآن .. يجب أن يبدأ السباق في الشارع للحاق بالقطار .. ساموت إذا لم الحق به .. إذا لم أجد « مامى » و « تارا » سوف يصيبني الإنهيار . صرخت : « اليلس » ، لا أبالي إذا ألهمت ظهور الجياد بالسيط حتى الموت .. لا أبالي إذا دهست كل شخص يمشى في الطريق » .. ولحقت بالقطار .. أخيرا ، أصبحت في طريقها الى هناك .. إلى « تارا » . كل شيء سيصبح على ما يرام بعد الآن .

الأمطار الغزيرة تضرب زجاج النافذة الى جانب مقعدها في القطار .. ولكنها لا تهتم . ففى تارا .. ستكون النار موقدة في غرفة المعيشة . وسوف تسمع طقطقة قطع الأخشاب في المدفأة ، وستكون الستائر مسدلة . تحجب الأمطار والظلمة .. والعالم . وستضع رأسها على صدر « مامى » الحنون ، وتحكى لها عن الأشياء المروعة التى حدثت ، وبعدها .. ستكون قادرة على أن تفكر وتتدبر الأمور ..

شقيقتها سوايلين هى سيدة المنزل في تارا الآن .

أطفال سكارليت في تارا أيضا : « ويد » و « ايللا » . لقد أرسلتهما مع بريسى ، ممرضتهما عندما علمت بأن « ميلانى » تموت ، ربما كان يجب أن يكونا معها في جنازة ميلانى . ولكن قطط اتلاننا المتوحشة كانت ستجد موضوعا أكثر دسامة للنميمة .. كيف أنها أم غير طبيعية .. و فليتكلموا كما يشاءون ، أنها لم تكن لتتحمل تلك الأيام والليالى الموحشة التى أعقبت موت ميلانى لو كان « ويد » و « ايللا » معها لترعاها ..

إنها لن تفكر فيهما .. إنها عائدة الى موطنها ، الى « تارا » والى « مامى » ولن تدع نفسها تفكر في أشياء تزعجها ، الله يعلم ، لقد صادفت ما يكفى لازعاجى . إننى مرهقة جدا .

مال رأسها على صدرها وأغلقت عينيها .

قال الكمسارى : « محطة جونز بورو . يا سيدتى .
أفاقت ونهضت .. لتغادر القطار ..
« تارا » على مسافة خمسة أميال الآن . سرعان ما ساكون فى البيت ..
البيت !



كان « ويل بنتين » زوج سوايلين ينتظر على رصيف المحطة .
رؤية ويل .. صدمة .. الثوانى القليلة الأولى كانت تحدث دائما صدمة .
أحبت سكارليت ويل بحق واحترمته ، ولو كان لديها شقيق - كما كانت
ترغب دائما - لتمنت أن يكون مثل ويل ، فيما عدا ساقه الخشبية ،
والا يكون طبعا متبجحا ، يخطيء المرء لو يتصور ويل جنتلمانا أو سيدا
مهذبا ، فقد كان يبدو عليه بوضوح أنه من طبقة أدنى لقد نسيت ذلك
عندما كانت بعيدة عنه ونسيت ذلك بعد دقيقة من لقائه ، لأنه كان رجلا
طيبا ، حتى « مامى » كانت تحبه رغم أنها كانت أقسى قاض فى العالم عندما
يتعلق الأمر بتقييم سيدة أو جنتلمان .

— « ويل » ! سار نحوها بمشيئته الخاصة المتمايلة وألقت بذراعيها
حول رقبته واحتضنته موحشية .

— « أوه ، يا ويل ، اننى مسرورة برؤيتك حتى دفعتنى الفرع الى
البكاء » تقبل ويل عناقها بلا عواطف ، وقال « وأنا مسرور أيضا برؤيتك
يا سكارليت ، لقد مضى وقت طويل دون أن أراك » .

— « طويل جدا . يا للعار . إنه يكاد يكمل السنة » .

— « يكاد يكون سنتين » .

ذهلت سكارليت ، هل غابت كل هذه المدة ؟ إذن لا غرابة فى أن تكون
حياتها قد وصلت إلى مثل هذه الحالة المتردية .

لقد أعطتها تارا دائما حياة جديدة وقوة جديدة عندما احتاجت اليهما ،
كيف استطاعت أن تمضى فى حياتها كل هذا الوقت بدونهما ؟

ودعاها ويل الى ركوب العربى التى كانت تنتظرها خارج المحطة قبل أن
يحل الظلام وفى الطريق الطويل الى تارا لزم الصمت وكذلك فعل ويل .

أخذت تستمتع بهدوء الريف وتستعيد انتعاشها . كان الهواء مغسولا
لتوه ، وشمس ما قبل المغيب دافئة على كتفها . كانت على حق فى العودة
إلى البيت . « تارا » سوف تمنحها الملاذ الذى تحتاجه .. ومع « مامى »
ستكون قادرة على ايجاد وسيلة لترميم عالمها المحطم .

مالت الى الأمام والعربة تستدير عبر الطريق المألوف ، وابتناسمتها

تسبق المشهد المرتقب

ولكن عندما لاح البيت على مرمى البصر ، خرجت منها صيحة احباط :
— « ويل ، ماذا حدث ؟ »

مدخل تارا كان مغطى بكرمة هنا وهناك حبال قبيجة الشكل معلقة
تحمل أوراقا ميتة ، أربع نوافذ مصاريعها مدلاة ونافذتان بلا مصاريع على
الاطلاق ..

— « لاشئ حدث . انه الصيف يا سكارليت ، اننى أقوم بعمليات
الترميم والإصلاح فى الشتاء ، عندما لا تكون هناك مزروعات يجب العناية
بها ، سأبدأ فى اصلاح هذه المصاريع بعد بضعة أسابيع ، أن شهر أكتوبر
لم يحل بعد » .

— « أوه » ياول .. لماذا بالله عليك لا تدعنى اعطيك بعض النقود ؟ كان
يمكنك أن تستأجر من يعاونك ، لماذا يبدو الطوب ظاهرا .. بعد أن سقط
طلاء الجدران ، أن المنظر يبدو كأنه بقايا حطام ونفايات بكل ما فى الكلمة
من معنى » .

كان رد ويل صبوراً : « المعونة المطلوبة هى الحب وليس المال ، وهؤلاء
الذين يريدون العمل . هناك الكثير من العمل ، وهؤلاء الذين لا يريدون
لا يخدموننى ، اننا نصنع أمورا جيدة ، سام الكبير ، وأنا . ولا أحد
يحتاج إلى « أموالك » .

عضت سكارليت شفتيها وابتلعت الكلمات التى كانت تريد أن تقولها .
لقد جرحت كبرياء ويل من قبل ، وكانت تعرف أنه لا ينحني . أنه على حق ،
فالمرزوعات والماشية يجب أن تكون لها الأولوية .. واحتياجاتها لا تقبل
التأجيل ، بينما طبقة جديدة من الطلاء يمكن تأجيلها . أنها الآن ترى
الحقول ممتدة الى ما وراء البيت . خالية من الأعشاب الضارة بعد أن تم
تمهيد الأرض وتسويتها حديثا ، وثمة رائحة غنية للسمل الذى وضع فى
التربة لاعادها للزراعة الجديدة . بدت الأرض الحمراء دافئة وخصبة .
شعرت بارتياح . هذا هو قلب تارا وروحها .

قالت لويل : « أنت على صواب » .

انفتح باب البيت .. وامتلا المدخل بالناس . وفى المقدمة وقفت سوايلين
وهى تحمل أصغر اطفالها بين ذراعيها فوق بطن منتفخ يشد خيوط ثوبها
القطنى الذى بهت لونه . وسقط شالها على إحدى ذراعيها .. وتكلفت
سكارليت بهجة لم تكن تشعر بها فى أعماقها .

— « يا إلهى .. ياول .. هل تنتظر سوايلين طفلا جديدا ؟ إن عليك

ان تشيد غرfa جديدة »
وصدرت عن ويل ضحكة خافتة « اننا مازلنا نحاول من أجل الحصول
على ولد » . ورفع يده علامة التحية لزوجته وثلاث بنات .
ولوحت سكارليت بيدها أيضا وشعرت بأنها كان ينبغي أن تحضر معها
بعض اللعب للأطفال .

يا إلهي ، انظر اليهم جميعا سوايلين عابسة تقطب جبينها ، وتطلعت
عيون سكارليت الى الوجوه الأخرى . باحثة عن الوجوه السوداء .
بريسى كانت هناك ، « ويد » و « ايللا » كانا يختبئان وراء فستانها ،
وزوجة سام الكبير « دليلا » تحمل في يدها الملعقة التي لا بد أنها كانت
تقلب بها الطعام على الموقد . وكانت هناك - ما اسمها ؟ - آه .. نعم ، أنها
« لوتى » أم أطفال تارا ، ولكن أين « مامى » ؟ ونادت سكارليت أطفالها .
« كيف حالكم يا أحبائى . والدتكم هنا » ثم استدارت نحو « ويل »
ووضعت يدها على ذراعه .

— « أين مامى يا ويل ، أنها ليست عجوزا جدا للدرجة التي تجعلها غير
قادرة على أن تقابلنى » .

الخوف كان يخنق الكلمات في حلق سكارليت .

— « انها مريضة طريحة الفراش يا سكارليت » .

قفزت سكارليت من فوق العربة التي كانت لا تزال تتحرك ، وتعثرت في
طريقها ، ثم استطاعت ان تستعيد توازنها وهولت نحو البيت « أين
مامى » ؟ كانت توجه السؤال الى سوايلين ولا تسمع تحيات ونداءات
الأطفال .

قالت سوايلين : « تحية عظيمة يا سكارليت ، ولكنها اسوا مما توقعته
منك . ماذا تظنن انك تفعلين ، ترسلين بريسى وإطفالك ، الى هنا بينما
تعرفين أن أعبائى كثيرة » .

ورفعت سكارليت يدها متأهبة لتوجيه صفة الى شقيقته :
« سوايلين ، اذا لم تخبرينى أين مامى سوف أصرخ »

وجذبت بريسى سكارليت من كم ثوبها . « أنا أعرف أين مامى ياسيدتى
سكارليت .. أنا أعرف ، انها مريضة جدا ، ولذا فقد خصصنا لها تلك
الغرفة الصغيرة المجاورة للمطبخ ، انها الغرفة التي كانت تستخدم
لتعليق كل أفخاذ الخنازير عندما كان هناك الكثير من الخنازير ، انها غرفة
لطيفة ودافئة ، هناك ، قرب المدخنة ، لقد وجدتها هناك عندما جئت الى
هنا ، ولذلك لا أستطيع أن أقول بدقة أننا رممنا الغرفة ولكننى نقلت اليها

مقعدا حتى يتوافر مكان للجلوس ، اذا ارادت مامى النهوض ، او إذا كان هناك زائر » ..

بريسى كانت تتحدث الى الفراغ ، لأن سكارليت كانت قد بلغت باب غرفة مامى وقد استندت على اطار الباب حتى لا تسقط .



هذا .. هذا الشيء الذى فى الفراش ليس « مامى » التى تعرفها . كانت « مامى » امرأة ضخمة ، قوية ، بديئة ، ذات بشرة بنية دافئة ، ولم يكن قد مضى أكثر من ستة أشهر منذ غادرت « مامى » اتلانتا ، وهى مدة ليست طويلة الى الحد الذى « تستهلك » خلالها « مامى » على هذا النحو ، لا يمكن ، لم تتحمل سكارليت الموقف ، هذه ليست « مامى » .. انها لا تصدق ذلك . أن هذا « المخلوق » رمادى متغضن ذابل ، يكاد لا يقوى على النهوض تحت الاغطية المصنوعة من قطع من اقمشة مختلفة الألوان والأشكال .. بهتت كل الوانها ، وتلوح اصابع ملتوية تتحرك فى وهن عبر نثبات الاغطية .

شعرت سكارليت بقشعريرة .

ثم سمعت صوت مامى خافتا متقطعا اقرب الى الحشجة ، ولكنه صوت « مامى » المحب والمحبوب :

— « الآن ياسيديتى ، ألم أقل لك ، وأقل لك ، ألا تضعى قدمك فى الخارج دون أن ترتدى قفنسوة الرأس وتحملى الغطاء الواقى من الشمس ألم أقل لك .. وأقل لك .. » ؟ ..

— « مامى » !

وخرت سكارليت على ركبتيها الى جانب الفراش .

— « مامى .. أنا سكارليت ، حبيبك سكارليت ، أرجوك أن تشفى من مرضك يا مامى ، لا تحمل ذلك ، ليس أنت » ووضعت رأسها على الفراش إلى جانب الكتفين النحيلتين اللتين برزت عظامهما ، وبكت بحرقة مثل طفل صغير .

بيد فى خفة الريشة مسحت على رأسها المائل على صدرها .

— « لا تكي يا طفلى ، ليس هناك شيء لا يمكن اصلاحه » . وانفجرت دموع سكارليت مرة أخرى : « كل شيء ، كل شيء فسد بمامى » .

— « اسكتى ، الآن ، انه فنجان واحد ، وستحصلين على مجموعة فناجين الشاي على أى حال وفى منتهى الجمال أيضا . حفل الشاي سيقام لك تماما كما وعدتك مامى » ..

تراجعت سكارليت الى الوراء مذعورة . وحملت في وجه « مامي » ، ورات الحب الذي يشع في العينين الغائرتين ، عينان لا تريانها ، وهمت « لا .. » . إنها لا تستطيع تحمل ذلك ، أولا ، « ميلانى » ، ثم « ريت » ، والآن « مامي » ، كل شخص احبته ، تركها ورحل ، كيف تتحمل هذه القسوة ؟

قالت بصوت عال . « مامي .. اصغى لى .. انا سكارليت » وامسكت بحافة حاشية الفراش وحاولت هزها « انظرى لى » . وارتفع نشيجها « هذا انا . تحسسى وجهى ، يجب ان تعرفينى ، مامي ، انه انا سكارليت امامك »

قبضت يدا ويل الضخمتان على معصميهما ..
قال : « لا اعتقد انك راضية عما تفعلينه » .
كان صوته ناعما ، ولكن قبضته حديدية :

— « إنها سعيدة عندما تكون كذلك ، يا سكارليت .. انها تعود الى الماضى . تعتنى بوالدتك عندما كانت طفلة صغيرة . كانت تلك هى ايامها السعيدة . كانت شابة وقوية ، ولم تكن تتالم . اتركها تستعيد تلك الايام » .

حاولت سكارليت ان تتملص من يديه .
— ولكننى اريدها ان تعرفنى ياويل ، اننى لم اقل لها قط الى اى حد لها مكانتها فى قلبى ويجب ان اشرح لها ذلك .
— « ستجدين الفرصة . فى اوقات كثيرة تكون مختلفة عما هى عليه الآن وتعرف كل شخص . وتعرف ايضا انها تموت . انها تكون افضل حالا فى تلك الاوقات .. والآن تعالى معى . الجميع ينتظرونك .. ان دليله يتابع حالة مامي من المطبخ »

سمحت سكارليت لويل بأن يساعدها على الوقوف على قدميهما . كانت فاقدة الحس حتى قلبها لم يعد يشعر بشيء وكأنه اصبح مخدرا . وتبعته فى صمت الى غرفة المعيشة . وشرعت سوايلين على الفور فى توبيخها ، واستأنفت اعلان شكواها من النقطة التى توقفت عندها ، ولكن ويل اسكتها . قال وهو يصب الويسكى فى كوب ويضعه فى يد سكارليت :
« لقد عانت سكارليت من صدمة شديدة ياسو ، اتركها بلا مضايقة » .
وخفف الويسكى آلامها .. قالت لطفليها :

« اهلا احبائى ، تعالوا الى احضان امكما »

سمعت سكارليت صوتها وبدا كأنه يصدر عن شخص آخر ، ولكن

الصوت كان على الاقل ، يقول الشيء الصحيح .
امضت كل ماتستطيعه من الوقت في غرفة مامى . إلى جانبها . كانت
تعلق كل آمالها في الطريق الى تارا على ما ستنعم به من راحة عندما تحيطها
« مامى » بذراعيها ، أما الآن .. فإن يديها - هى - التى تلتف حول المرأة
السوداء العجوز المحتضرة .

رفعت سكارليت ما تبقى من هيكل المرأة لكي تجعلها تغتسل وتستحم
ولتغيير اغطية الفراش ، ولتساعدها عندما يصبح التنفس بالغ الصعوبة
ولتضع ملعقة الدواء بين شفتيها .

وكانت تغنى لها اغانى ما قبل النوم للأطفال والتى كانت « مامى »
تغنيها لها وهى طفلة ، وعندما كانت مامى تتحدث في هذيانها الى والدة
سكارليت الميتة ، تجيب سكارليت بكلمات تظن ان والدتها كان يمكن ان ترد
بها على حديث مامى . وأحيانا كانت عينا مامى الدامعتان تتعرفان عليها ،
فتنفج شفتا العجوز المتشقة عن ابتسامة حلوة ترحب بها .. بصغيرتها
المفضلة ، ثم يخرج صوتها المتهجد المرتعش بكلمات تأنب لسكارليت كما
كانت تفعل .. وسكارليت لاتزال طفلة .

— « شعرك عبارة عن لخبطة بلا ترتيب بالمرّة يا انسة سكارليت ، الآن
اذهبى لتمشيط شعرك مائة مرة كما علمتك مامى » . أو « لا احد سيدعوك
للقص وانت تتردين ثوبا غير منسق بهذا الشكل ، اذهبي وارندى شيئا
جيذا قبل ان يراك احد » . أو « انت شاحبة مثل الشبح يا انسة
سكارليت ، هل تضعين مسحوقا على وجهك ؟ اغسلى وجهك في الحال » .
وكل ماكانت تامر به مامى .. تقدم سكارليت وعدا بتنفيذه . وتصدع
للأوامر . ولم يكن يمر قط الوقت الكافي للتنفيذ لأن مامى تدخل مرة اخرى في
الغيوبة ، أو ذلك العالم الآخر الذى لاتوجد فيه سكارليت .

خلال النهار والمساء ، كانت كل من سوايلين أو لوتى أو حتى ويل يأخذ
نصيبه من العمل في غرفة المريضة حتى تفوز سكارليت بنصف ساعة من
النوم وهى متكورة في المقعد الهزاز المتاكل .

أما في الليل فقد كانت سكارليت تتولى دائما « نوبة السهر » منفردة ..
فتخفّض شعلة مصباح الزيت ، وتأخذ يد مامى النحيلة الجافة - بين
يديها . وبينما كل سكان البيت نيام و « مامى » مستغرقة في النوم ايضا ..
كانت سكارليت تستطيع أخيرا ان تبكى .. ودموع القلب الكسير تخفف
الامها قليلا .

وذات مرة ، في الساعة التى تسبق الفجر ، استيقظت مامى ، وهمست

قائلة « لماذا تبكين يا حبيبتي ؟ .. مامى العجوز مستعدة لكى تتخفف من حملها الثقيل وتستريح بين ذراعى الله . » وتحركت يدها بين يدى سكارليت وسحبته وتحسست رأس سكارليت المطرق .. « اسكتى لاشيء سيء للغاية كما تظنين » وانفجرت دموعها : « أسفة ، اننى لا استطيع ان أكف عن البكاء » ودفعت اصابع مامى الملتوية خصلات شعر سكارليت المتموج بعيدا عن وجهها : « قولى لمامى ، ما الذى يضايق حملها الوديع » .

وتطلعت سكارليت الى العينين المحبتين الحكيمتين العجوزين . وشعرت بالمرحمة لم تشعر به من قبل فى حياتها .
— « فعلت كل ما هو خطأ يمامى . لا اعرف لماذا ارتكبت كل هذه الأخطاء العديدة .. لا أفهم . »

— « يا سيدة سكارليت . انك فعلت ما كان عليك ان تفعله . الا يوجد من يفعل ما هو اكثر من ذلك ؟ لقد ارسل الله لك بعض الاحمال الثقيلة ، وقد حملتها . لامعنى لسؤالك عن السبب فى تحميلك اياها ، او الجهد الذى بذلته لكى تحملها . ما حدث قد حدث . لاتكدرى نفسك الآن » واطبقت جفون مامى الثقيلة على الدموع التى تلالأت فى الضوء الخافت وابطات انفاسها المرهقة وهى تستغرق فى النوم .

كيف لا تكدرى ؟ ارادت سكارليت ان تصرخ . لقد تحطمت حياتى ولا ادرى ما افعل . اننى فى حاجة الى « ريت » . وقد ذهب . واحتاج اليك وانت تتركينى ايضا .

رفعت رأسها ومسحت دموعها بكم ثوبها وبسطت كتفها الموجوعتين . كاد الفحم فى الموقد ان ينفد ، والدلو خال . ولابد ان تملأه لكى تغذى النار . بدأ الصقيع ينتشر فى الغرفة ، ويجب المحافظة على الجو دافئا حول مامى وسحبت سكارليت الاغطية فوق هيكل مامى الهش لكى تمنع عنها البرودة ، واخذت الدلو الى الظلام البارد فى الفناء ، واسرعت نحو صندوق الفحم وشعرت بانها كانت فى حاجة الى ان تتدثر بوشاحها ليقبها من البرودة .

السماء غاب عنها القمر ، وثمة هلال فضى يختفى وراء سحابة . والهواء ثقيل مع رطوبة الليل . والنجوم القليلة التى لاتخفيها السحب تبدو بعيدة .. بعيدة ، وتلمع كالثلج .. ارتعدت سكارليت . السواد حولها بلا شكل .. ولانهاثى .. اندفعت بطريقة عمياء الى وسط الفناء ، ولم تستطع عندئذ ان تتعرف على الاشكال المألوفة لمخزن الفحم والحظيرة التى لابد ان تكون على مسافة قريبة . استدارت فى رعب مفاجىء للنظر

الى الكتلة البيضاء للبيت الذى غادرته للتو ، ولكنه كان داكنا ايضا وعديم الشكل والصورة لا يوجد بصيص من الضوء فى اى مكان .. وشعرت كأنها ضلت طريقها فى عالم مظلم ومجهول وصامت . لاشئ يتحرك فى الليل ، ولا ورقة شجر ولا ريشة فى جناح طائر . الرعب يشد بقوة اعصابها المتوترة ، وارادت ان تجرى ، ولكن الى اين ؟ الظلمة الخرساء فى كل مكان . ضغطت سكارليت على اسنانها . ما هذه السخافة ؟ اننى فى البيت ، فى تارا وسوف ينحسر الصقيع المظلم مع شروق الشمس . وانتزعت ضحكة ، الصوت الحاد القاقب غير الطبيعى جعلها تقفز .

خطر على بالها ما يقال من ان الظلمة تشتد قبل طلوع الفجر . مدت يدها امامها فى الظلام وسارت قدما نحو المكان الذى تعتقد انه موقع مخزن الفحم قرب كوم الخشب .. وتعثرت ، وسقطت على الأرض . وحدث تطاير الدلو من يدها صوتا عاليا . فقد تدرج بعيدا عن متناول يديها .

فكرت فى الاستسلام والبقاء حيث هى الى ان يطلع النهار ، ولكن « مامى » تحتاج الى الدفاء . واستطاعت ان تنهض ببطء على ركبتيها . وتحسست حولها مكان دلو الفحم . من المؤكد انه لم يحل ظلام دامس على هذا النحو من قبل فى الدنيا . ولم يلفح وجهها مثل هذا الهواء الليلي البارد الرطب . وارادت ان تصرخ الى ان توقظ احدا فى البيت يحضر معه مصباحا ويعثر عليها ويقودها الى البيت الذى لم تعد تعرف موقعه . ولكن كبرياءها حال دون ذلك . تضل طريقها فى فناء بيتها على بعد خطوات فقط من باب المطبخ !! انها لن تتحمل هذا الخزى . وبدأت تزحف على يديها وركبتيها على الأرض المعتمة . عاجلا او آجلا سوف تصطدم بشئ ما : البيت .. كوم الاخشاب .. مخزن الفحم ، البئر .. الاسرع ان تنهض وتسير على قدميها ولكنها قد تسقط مرة اخرى ، وفى هذه المرة قد تلتوى قدمها او يصيبها شئ آخر . وعندئذ تصبح عاجزة الى ان يعثروا عليها . اين الحادث ؟ لابد انه فى مكان ما .

شعرت بانها زحفت حتى منتصف الطريق الى جونز بورو ! ولكن الا يجوز ان الظلمة لن تنقشع ابدا وتظل هى تزحف الى الابد دون ان تصل الى شئ ! قالت لنفسها : كفى ! كفى فورا . وجاهدت لكى تقف على قدميها . واخذت تلتقط انفاسها ببطء . واستدعت كل طاقاتها الذهنية . قالت لنفسها انها سكارليت اوهارا ، وانها فى تارا ، وانها تعرف كل شبر من هذا المكان افضل مما تعرف راحة يدها . وماذا فى الامر اذا كنت لم تر لمسافة

اربع بوصات امامها ؟ انها تعرف ماذا هناك وكل ما عليها هو ان تجد ما تريده وستفعل ذلك وهي واقفة وليس وهي تزحف على اربع كالاطفال او الكلاب . شكرا لله ان احدا لم يرها وهي تزحف وتخشى النهوض . لم يحدث في حياتها ان شعرت بمثل هذا الانكسار ولا على يد جيش تشيرمان . كلا ، لن يهزمها احد ما لم تدعه يفعل ، وفي هذه الحالة سوف تستحق الهزيمة .

سارت بخطى ثابتة . عثرت على الدلو . الذى اصطدم وهي تكمل سيرها بشئ ما . واطلقت ضحكة الانتصار وهي تشم رائحة خشب الصنوبر .. لقد بلغت كومة الاخشاب والى جوارها بالضبط يقع مخزن الفحم . الباب الحديدى للموقد اغلق على السنة اللهب التى تجددت قوتها بصوت عال جعل « مامى » تتحرك فى سريرها . واسرعت سكارليت لتثبيت الاغطية فوقها فقد كانت الحجرة باردة . وتطلعت مامى بعينين نصف مغمضتين لى تنظر شذرا الى سكارليت .

« وجه قذر ، ويداك ايضا »

كانت تتتم بصوت ضعيف .

قالت سكارليت « اعرف ، سوف اغسلهما فى الحال »

وقبل ان تغيب العجوز فى اللاوعى ، قبلت سكارليت جبينها وهي تقول :

— « احبك يا مامى »

— « لا حاجة لان تقولى لى ما اعرفه بالفعل » .

وراحت مامى فى النوم هربا من الألم .

— « بل هناك حاجة ، هناك كل انواع الحاجة ، اننى لم اقل ذلك لميلانى

قط ، ولم اقل ذلك لريت الى ان كان الوقت قد فات ، لم أجد الوقت قط لى

اعرف اننى احبهم ، وكذلك معك ، على الاقل فإننى لن اكرر معك الخطا

الذى ارتكبته معهم .. »

كانت تعرف ان مامى لاتسمعها ، ولكنها ظلت تتكلم بصوت مسموع ،

ولكى تحدث نفسها .

وحملت سكارليت الى الوجه الذى يشبه الجمجمة للمرأة العجوز التى

تموت وهمست « احبك يا مامى » ما الذى سيحدث لى ، عندما أجد نفسى

محرومة من حبك لى ؟ »



رغبة أخيرة

استدعى ويل .. سكارليت من غرفة مامى لتناول طعام الافطار .. وطلبت سكارليت حساء اللحم البقرى الدافئ لمامى . وحتى لاتوقظها وضعت غطاء على الطبق وتوجهت لتناول الافطار . الرائحة الذكية للحساء الذى يتصاعد منه البخار جعلت معدتها تتلوى من الجوع . وغسلت وجهها ويديها بسرعة فى المطبخ . كان ثوبها متسخا . سوف ترتدى ثوبا نظيفا بعد ان تاكل طعامها . كان ويل يتهيا لترك المائدة عندما دخلت ، سكارليت غرفة الطعام .

المزارعون لا يضيعون وقتهم ، وخاصة فى يوم مشرق ودافئ كهذا اليوم . — « هل تستطيع ان اساعدك يا عم ويل » .

هكذا سال « ويد هاميلتون » فى رجاء .

انه ولد وسيم يبدو اكبر من سنه وكأنه فى الثالثة عشرة بينما هو لم يبلغ بعد الثانية عشرة . ولم تكن سوايلين تشعر بالغبطة وهى تشتت لاه الملابس لان الغلام ينمو بسرعة شديدة .

يا للسماء ! ماذا افعل بشأن ملابس ويد ؟ كان ريت يفعل دائما اى شىء يجب عمله .. اننى لا اعرف ما الذى يرتديه الغلمان ، او حتى من اين اشترى ملابسهم . كان من الواضح انه فى حاجة إلى ملابس اكبر حجما .. وبسرعة لان المدرسة توشك ان تفتح فصولها .

والآن تريد « ايلا » ايضا ان تذهب مع العم ويل الى الحقول . وكذلك سوزى ابنة سوايلين .

قال ويد « انتما لستما مدعوتين ، فالحقول .. عمل الرجال ، والبناات مكانها هو .. البيت » .

قالت سوايلين لسكارليت : انظرى الآن ، ماذا فعلت ؟

« انا ؟ ليست طفلتى هى التى تصنع كل هذه الضوضاء » .

كانت سكارليت تتعمد تجنب المشاحنات مع سوايلين منذ جاءت الى « تارا » ولكن العادات التى استمرت على مدى الحياة كانت اقوى ، والطبع يغلب التطبع . لقد بداتا التشاجر والتشاحن وهما لاتزالان طفلتين . ولم تتوقف المشاحنات قط فى اى وقت .

بكت « ايلا » وهى تقول : « العم ريت كان يمكن ان يسمح لى » لن اسمع ، ساغلق عينى واستمتع بطعام الافطار .. هكذا حدثت سكارليت نفسها .

— « ماما .. ماما ، متى ياتى العم ريت الى تارا ؟ » كان صوت « ايلا »

حادا ثاقبا .

وسمعت سكارليت الكلمات رغما عنها ، وتحول الطعام الشهى في فمها الى نشارة خشب . ما الذى تستطيع ان تقوله ؟ كيف ترد على السؤال الموجه من « ايلا » ؟

« لن يأتى أبدا » .. هل هذه هى الإجابة ؟

انها ، في قرارة نفسها ، لاتستطيع ان تصدق ولا تريد ان تصدق . تطلعت الى وجه ابنتها الاحمر في نفور .. لقد دمرت « ايلا » كل شيء . الم يكن في استطاعتها ان تتركنى وحدى على الأقل حتى انتهى من تناول افطاري ؟

كانت « ايلا » ذات شعر مجعد بنى اللون مثل ابيها فرانك كنيدي .. انها تقترب من السابعة من عمرها بينما سوزى ابنة سوايلين وويل في السادسة والنصف .

لا غرابة في ان « ايلا » تريد عودة ريت . هكذا فكرت سكارليت . انه يعنى بها بالفعل ، بينما انا لا افعل . انها تثير اعصابى كما كان يفعل والدها فرانك . ومهما حاولت بشدة فإننى لا استطيع ان احبها . سألت « ايلا » مرة اخرى : « متى سيأتى العم ريت يا امى » ؟ دفعت سكارليت مقعدها بعيدا عن المائدة ، ونهضت . قالت : « هذا شأن الكبار ، ساذهب لارى مامى » . انها لاتستطيع تحمل التفكير في « ريت » الآن ، ستفكر في كل ذلك فيما بعد . عندما لاتكون مضطربة الى هذا الحد . الهم بكثير الآن اغراء مامى على تناول حسائها .



— « مجرد ملعقة اخرى صغيرة يا حبيبتي مامى ، فذلك سيسعدنى » . ادارت العجوز رأسها بعيدا عن الملعقة ، وتنهدت قائلة : « تعبانة » . قالت سكارليت : « اعرف ، اعرف ، نامى ، ولن ازعجك مرة اخرى » . والفت نظرة على طبق الحساء الذى يكاد يكون ممثلا كما كان ، كان حجم ما تاكله « مامى » يتضاءل يوما بعد يوم . نادى مامى بصوت ضعيف : السيدة الين ؟ اجابت سكارليت : « انا هنا يا مامى »

كانت تشعر بالضيق عندما لاتتعرف عليها مامى .. عندما تظن ان الايدى التى ترعاها بكل حب هى ايدى ام سكارليت . وكانت سكارليت تقول لنفسها في كل مرة : يجب الا يضايقنى هذا . فقد كانت امى هى التى تعتنى دائما بالمريض ، وليس انا . كانت امى طيبة مع الجميع .. وملاكا . كانت

سيدة كاملة . ويجب ان اعتبر الخلط بينى وبينها مديحا لى وثناء على شخصى . اننى اتوقع ان اذهب الى الجحيم .. فانا أشعر بالغيرة من والدتى لان « مامى » تحبها اكثر .. المشكلة اننى لم اعد اؤمن بالجحيم .. او بالسما .

— « السيدة إلين .. »

— « انا هنا يا مامى » .

العينان العجوزتان .. العجوزتان ، فتحنا نصف فتحة .

— « انت لست السيدة إلين »

— « انا سكارليت يا مامى سكارليت حبيبك وعزيتك »

— « السيدة سكارليت .. اننى اريد السيد ريت . شىء اريد ان

اقوله .. »

انغست اسنان سكارليت فى شفيتها . اننى اريده ايضا .

كانت تبكى فى صمت . اريده كثيرا جدا ، ولكنه ذهب يامامى .

لا استطيع تلبية طلبك .

كانت مامى قد راحت فى شبه غيبوبة مرة اخرى .

شعرت سكارليت بامتنان جارف . على الأقل فإن مامى متحررة من الالم

الآن . اما قلبها هى .. فإنه يتمزق ، كانه يزخر بالسكاكين . كيف تحتاج الى

ريت ، وخاصة الآن ومامى تنزلق على نحو اسرع الى هاوية الموت ؟ لو كان

هنا معنى يشعر بنفس الاسى الذى اشعر به ؟ لقد احب « ريت » ..

« مامى » ، واحبته مامى .. كان « ريت » يقول انه لم يحاول فى حياته بهذا

القدر من الصعوبة ان يكسب احدا الى صفه كما فعل مع مامى ، ولم يحرص

بهذا القدر على احترام رأى أى شخص فى حياته كما فعل مع مامى . سوف

يحزن عندما يعرف انها ماتت لابد انه كان يحب كثيرا لو استطاع ان

يودعها ..

رفعت سكارليت رأسها واتسعت عيناها .

طبعا .. اكم هى حمقاء . تطلعت الى المرأة العجوز الذابلة ، التى بدت

ضئيلة جدا وشديدة النحول تحت الاغطية .

« اوه يامامى الحبيبة ، شكرا لك »

المتقطات انفاسها .. « جئتك يامامى طلبا للمساعدة ، جئتك لكى يتسنى

تصحيح كل الامور مرة اخرى ، وسوف نفعلين ، بنفس الطريقة التى كنت

تتصرفين بها دائما » .

وجدت ويل فى الاسطبل يمسح على ظهر حصان .

قالت سكارليت « اننى مسرورة بأن أجذك ياويل » . كانت عيناها تتألقان ، وقد تورد خذاها بلونهما الطبيعى . قالت : « هل تستطيع ان استخدم الحصان والمركبة ؟ اننى مضطرة للذهاب الى جونز بورو مالم .. ربما تعتزم أنت الذهاب بنفسك الى جونز بورو لسبب ما .. هل فى نيتك الذهاب » ؟

حبست انفاسها فى انتظار الاجابة ..

نظر إليها « ويل » فى هدوء . كان يفهم سكارليت اكثر مما تتصور .. قال : « هل هناك شىء استطيع ان افعله من أجلك ؟ نعم .. فانا فى نيتى الذهاب الى جونز بورو » .

- « يا ويل .. انت مخلوق عزيز وحلو .. انا افضل كثيرا البقاء مع مامى ، ومع ذلك اريد بالفعل إبلاغ ريت بشأن حالتها . انها تطلبه ، وقد كان يعتز بها دائما ولن يسامح نفسه أبدا إذا خذلها »

أضافت وهى تعبت باصابعها بعرف الحصان :

« انه فى شارلستون فى شأن عائلى ، ان امه تكاد لاتستطيع ان تسحب الشهيق الى رثتها دون ان تطلب مشورة ريت » .

كان وجه ويل جامدا بلا تعبير . وحولت سكارليت انظارها بعيدا . وبدأت تعبت باجزاء من عرف الحصان وهى تحملق فيما تفعله كما لو كان يتصف باهمية فائقة . وأضافت .. « اذن فإن كل ماعليك هو ان ترسل برقية . ساعطيك العنوان ، والافضل ان تكون البرقية ، موجهة منك يا ويل .. ذلك ان ريت يعرف شعورى نحو مامى وقد يتصور اننى ابالغ فى تصوير سوء حالتها .. »

رفعت رأسها وابتسمت ، وهى تقول لنفسها « إنه يظن انه لم يعد عندى شعور اكثر من حشرة البق فى شهر يونيو »

قال ويل : « اعتقد انك على صواب » على ريت ان يحضر بأسرع مايمكن ، ساتحرك فورا .. ان ظهر الجواد اسرع من العربة » . تراخت يدا سكارليت وقالت : « شكرا ، العنوان فى جيبى » . وقال ويل : « سأعود وقت الغداء » .

ووضع السرج على الجواد بمساعدة سكارليت . شعرت بطاقة هائلة .. كانت واثقة من ان ريت سيحضر .. انه يستطيع الوصول الى « تارا » خلال يومين اذا غادر شارلستون فور تلقيه البرقية .



ولكن ريت لم يحضر خلال يومين .. او ثلاثة او اربعة او خمسة .

وكفت سكارليت عن متابعة الاصغاء لصوت العجلات أو ضربات حوافر الجياد . لقد انهكت نفسها من التوتر وهي تصغى الى تلك الاصوات إلى أن اصابها اليأس .

والآن .. هناك صوت آخر هو الذى يشد كل انتباهها : الضوضاء الخشنة المخيفة التى تشبه الصرير التى تحدثها محاولة « مامى » التنفس .. كان يبدو من المستحيل ان يستطيع هذا الجسد الهزيل المتهدم ان يستجمع القوة اللازمة لالتقاط الهواء وسحبها الى داخل رئتيها ، ثم يدفعه الى الخروج مرة اخرى . ولكنها فعلت ، مرة بعد اخرى ، بينما الحبال فى رقبتها الملتئة بالتجاعيد .. غليظة ومرتعشة .

انضمت سوايلين الى نوبات السهر الليلية التي كانت تضطلع بها سكارليت . « انها مامي حبيبتي انا ايضا ياسكارليت » . وتوارت الى الخلف الغيرة والقسوة بين الاثنتين في محاولتهما المشتركة مساعدة المرأة السوداء العجوز . احضرتا كل الوسائد المتوافرة في المنزل لمساعدتها على اتخاذ وضع مريح ، وجعلتا الموقد مشتعلًا طول الوقت ، ووضعتا الزبد على شفتيها المتشققتين ودستا قطرات من المياه بينهما .

ولكن صراعات مامى لم تخف ونظرت « مامى » اليهما بحنان ، وقالت
لاهته « لا ترهقا نفسيكما .. لاشيء تستطيعان ان تفعلاه »
وضعت سكارليت اصابعها على شفתי مامى وتوسلت اليها « اسكتي ،
لا تحاولي الكلام ، ادخرى قوتك » .

وثارت في صمت وهي تتجه برأسها الى السماء : « لماذا ؟ ، لماذا ؟ . لماذا لم ندعها تموت . بسهولة . عندما كانت تتحرك بسهولة في الماضي ؟ لماذا توقظنا وتجعلها تنعذب هكذا ، لقد كانت طيبة طوال حياتها ، تعمل دائما من اجل الآخرين ، لم تفعل شيئا قط لنفسها ، انها تستحق ما هو افضل من ذلك » .

ولكنها قرأت بصوت مسموع لمأى من انجيل قديم ممزق الى جانب الفراش . ولم يكشف صوتها عن ذلك الغضب المتمرد .. فى قلبها . كانت جالسة على الأرض وظهرها المتعب يميل الى الحائط وهى تصغى الى الاصوات المخيفة للموت الزاحف .

وعندما ظهر أول شعاع من ضوء النهار خلف النوافذ تغيرت الأصوات بطريقة فجائية .. كل شهيق أصبح أكثر صخباً ، وفترات الصمت بين شهيق وآخر أكثر طولاً . وانتفضت سكارليت مذعورة ، وجلست الى جانب الفراش .

— « هل تريدني ان امسك يدك يا مامي ؟ دعيني امسك يدك » .
وتغضن جبين مامي من الجهد الذي تبذله .
— « تعبانه .. جدا »
— « اعرف .. اعرف .. لاترهقي نفسك اكثر بالكلام » .
— « اردت .. انتظر .. السيد ريت » .
وكتمت سكارليت مشاعرها .. انها لاتستطيع البكاء الآن .
— « انت غير مضطرة للمقاومة يا مامي . تستطيعين ان تستريحي انه
لم يستطع الحضور » .
وسمعت وقع اقدام سريعة في المطبخ .
وواصلت سكارليت حديثها « سوايلين في طريقها اليك الآن وكذلك مستر
ويل . اننا جميعا سنكون هنا الى جانبك يا حبيبتي . اننا جميعا نحبك » .
ووقع ظل على الفراش ، وابتسمت مامي .
وجاء صوت ريت « انها تريدني » .
وتطلعت سكارليت الى اعلى .. غير مصدقة .
وقال بلطف : « افسحي .. دعيني اقترب من مامي » .
ووقفت سكارليت ، وهي تشعر بقربه . انه قريب ، وكبير ، وقوى ،
ويمتلئ بالرجولة .. ركبناها ضعيفتان . واندفع ريت بجانبها وركع على
مقربة من مامي .
لقد جاء .. كل شيء سيصبح على ما يرام . وركعت سكارليت بجانبه ،
وكتفها تلمس ذراعه ، كانت سعيدة وسط حزنها الطاغى على مامي . لقد
اتى . « ريت » هنا . كم كنت حقا وأنا اتخل عن الأمل في حضوره .
في تلك اللحظة كانت « مامي » تتكلم
— « اريدك ان تفعل شيئا من أجلى »
كان صوتها يبدو فويا كما لو كانت قد ادخرت كل قوتها من اجل هذه
اللحظة . وكان تنفسها سطحيا وسريعا ، ويكاد يكون لهاذا
قال ريت : « أى شيء يامامى ، سافعل أى شيء سريديني »
— « ادفني في ثوبى الحريرى الاحمر الانيق الذى اهديته لى .
تابع هذه المسالة بنفسك . اننى اعرف ان لوتى وضعت عينها عليه »
وضحك ريت . وشعرت سكارليت بالصدمة . ضحك على فراش الموت
ولكنها ادركت ان مامى كانت تضحك ايضا بلا صوت
وضع ريت يده على قلبه : « اقسم لك ان لوتى لن تضع بصرها عليه
يامامى .. ساضمن ان هذا الثوب سيذهب معك الى السماء » .

وامتدت يد مامى لتحسس طريقها اليه ، فى ايماءة لكى تقترب اذنه من شفيتها ، وقالت « ارجوك ان ترعى السيدة سكارليت ، انها تحتاج الى رعاية ، وانا لا استطيع ان افعل ذلك بعد الآن » .

وحبست سكارليت أنفاسها .

قال ريت « سافعل يامامى »

قالت : « عليك ان تقسم على ذلك » .. كان الصوت الذى صدر به الامر ضعيفا ولكنه صارم ..

قالت ريت « اقسم على ذلك » . وتنهدت مامى فى هدوء . وتركت سكارليت أنفاسها تخرج مع بكائها .

وصاحت : « اوه ، يامامى يا حبيبتي . شكرا - مامى .. »

— « انها لم تعد تسمعك ياسكارليت ، لقد ماتت » هكذا قال ريت وهو يمد يده الضخمة برقة عبر وجه مامى ليغلق عينيها . وقال بنعومة « ان عالما باسره قد انقضى .. وعصرا قد انتهى .. فلتسترح فى سلام » . وقال ويل الذى كان يقف عند الباب « امين » . وقف ريت واستدار : « كيف حالكما يا ويل وياسوايلين » صاحت سوايلين : « كانت كل افكارها الاخيرة تتركز حولك يا سكارليت ، لقد كنت دائما المحببة لديها » . وبدأت تبكى بصوت عال .. واخذها ويل بين ذراعيه وربت على ظهرها ، وتركها تبكى على صدره .

وجرت سكارليت نحو ريت ومدت ذراعيها لكى تحتضنه وهى تقول « لقد افتقدتك كثيرا » .

وامسك ريت بمعصمها وخفض ذراعيها لكى تعود الى جانبيها . « لاتفعلى ياسكارليت .. لاشيء تغير » كان صوته هادئا . ولم تكن سكارليت لتقدر على تحمل هذا التحفظ .

وصاحت بصوت عال « ماذا تعنى ؟ »

وانتفض ريت : « لا ترغمينى على ان اقولها مرة اخرى ياسكارليت ، انت تعرفين جيدا ما اعنيه » .

— « لا اعرف . ولا اصدقك ، ولا تستطيع ان تتركنى ، لا يمكنك ان تعنى ذلك بحق ، ليس عندما احبك واحتاج اليك بشدة . اوه يا ريت لاتنظر الى بهذه الطريقة . لماذا لاتلف ذراعيك حولى وتواسينى ؟ انك وعدت مامى »

وهز ريت راسه ، وظهرت ابتسامة باهتة على شفثيه :

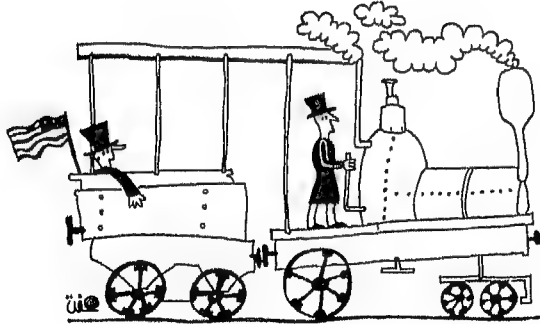
— « انك طفلة ياسكارليت . لقد عرفتنى كل هذه السنين ، ومع ذلك

فإنك عندما تشائين ، تستطيعين نسيان كل ما تعلمته .. كانت كذبة . لقد كذبت لكى اجعل اللحظات الأخيرة لامرأة عجوز عزيزة .. لحظات سعيدة .. تذكرى يا صغيرتى . انا وغد ولست سيدا مهذبا .
وسار نحو الباب .

وبكت سكارليت وهى تقول « لاتذهب ياريت ارجوك » ثم وضعت كلتا يديها على فمها لمنع نفسها من مواصلة الكلام . انها لن تستطيع ان تحترم نفسها ابدا . إذا توسلت اليه مرة اخرى . وادارت رأسها بحدة وهى عاجزة عن تحمل رؤيته وهو يرحل . ورات الانتصار فى عينى سوايلين والشفقة فى عينى ويل .

قالت وهى ترفع رأسها عاليا « سيعود .. انه يعود دائما » وحدثت نفسها : اذا قلتها مايكفى من المرات ، ربما ساصدق ما اقول ، وربما يصبح حقيقة .

قالت وهى تاخذ نفسا عميقا : « .. دائما . اين ثوب مامى ياسوايلين ، اننى انوى ان اتابع بنفسى عملية دفنها وهى ترتدى هذا الثوب » .



حديث الذكريات

ظلت سكارليت قادرة على السيطرة على مشاعرها الى ان انتهت عملية غسل جثمان مامى وإلباسه الثوب الاحمر الحريري ، ولكن عندما احضر ويل النعش ، بدأت تنتفض . وبدون ان تتفوه بكلمة ، هربت بعيدا عن المكان .. وشرذ ذهنها بعيدا .. ماتت « ميلانى » .. وماتت « مامى » . وتركها « ريت » وهو يقول ان زواجهما قد مات أيضا . وهذا هو الاسوأ . رحيل ريت ، وهذا ما ستواجهه .. استعادت صوته : « لاشيء تغير » . ان ذلك لا يمكن ان يكون صحيحا . ولكنه حدث . ان عليها ان تجد وسيلة لاعادته . لقد كانت دائما قادرة على ان تحصل على أى رجل تريده . و « ريت » رجل مثل أى رجل آخر .. اليس كذلك ؟

كلا ، انه ليس كبقية الرجال .. ولهذا ، فهى تريده . وارتعدت . وشعرت بخوف مفاجئ . لتفترض انها لم تنجح هذه المرة ؟ لقد كانت تفوز دائما بطريقة أو بأخرى . كانت على الدوام تحصل على ما تريده ، بشكل ما .. حتى الآن .

عليها ان تفكر وان تتذكر ما قاله ريت . ليس هذا الصباح ، ولكن ما قاله فى بيتنا ، فى الليلة التى غادر فيها اتلاننا . لقد تحدث طويلا ، شارحا الأمور . كان هادئا تماما وصبوراً على نحو مخيف ، نفس الطريقة التى يمكن اتباعها مع الناس الذين لا تحرص عليهم بما يكفى لكى تثور عليهم .

التقط ذهنها عبارة تكاد تكون منسية . ولم تشعر عندئذ بما تعانیه من ارهاق . لقد وجدت ما كانت تحتاج إليه . نعم ، نعم ، لقد تذكرتها بوضوح . لقد عرض ريت عليها طلاقا . ثم ، بعد رفضها العصبى لهذا العرض ، قال تلك العبارة . اغلقت سكارليت عينها .. لتسمع صدى صوته :

« ساعود من وقت لآخر بما يكفى لابعاد السنة النيمية » . وابتسمت . انها لم تغز بعد ، ولكن هناك فرصة . فرصة تكفى لاستمرار المحاولة والتريث . انها لن تنظر الى الوراء . ما حدث قد حدث . لا بد ان تتحرك .

وعليها الآن ان تغير ثيابها الرثة . لقد علمتها « مامى » ، كيف تعتنى بنظافتها وهندامها .

مامى ترقد الآن فى هذا القبر الملاصق لقبر السيدة الين اوهارا والدة سكارليت .. حبها الاول .. وليس فى قبر « العبيد » بعد ان اصرت سكارليت على ذلك .

هواء الريف منعش ومهدى ، غير ان تارا لم تعد مكانا للراحة . حتى غرفة النوم التي كانت تظن انها مازالت غرفتها ، اصبحت الآن غرفة سوزى ، اكبر اطفال سوايلين . وشعرت سكارليت بانها كالجريب . غير انها تحتاج الى الاحتفاظ بعلاقات طيبة مع سوايلين اذا كانت تريد ان تنفذ خططها . سوايلين تحب الشكوى . ولا بد من ترصيتها . وها هى سكارليت تعرض عليها ان ترعى « ايلا » و « ويد » على ان ترسل اليها مالا لرعايتهما .. ثم ان هواء الريف سوف يفيدهما وهما يشعران بالملل من الحياة في المدينة .

سوايلين ، مترددة لأن طفلها الجديد في الطريق وسيصبح البيت مزدحما . ولكن سكارليت تغازل شراحتها ..
« ويد هاميلتون » ياكل مثل الحصان .. وربما كان مبلغ مائة دولار شهريا يكفى لاعتالتهما وشراء احذية لهما .
كانت تشك في قدرة ويل على كسب مائة دولار على مدار السنة من عمله الشاق في تارا . ولزمت سوايلين الصمت مما اثار ارتياح سكارليت . وكانت واثقة من ان شقيقتها ستقبل العرض بعد ان قالت لها انها ستكتب حوالة « دسمة » على البنك .

ورأت سكارليت انها يجب ان تعود الى اتلانطا . كان عليها ان تفعل شيئا من أجل « بو » و « اشلي » ايضا .. حسب وعدها لميلانى . ولكنها ستفكر في ذلك فيما بعد . لقد جاءت الى تارا من أجل هدوء وراحة الريف وكانت مصممة على ان تحصل على قدر منهما قبل ان تغادر المكان .
المؤكد ان ويد سيكون اسعد حالا هنا مما لو كان في اتلانطا . صحيح ان البيت في حالة رثة ، ولكن ماذا تفعل ازاء عناد ويل ؟ كل الاثاث والستائر في حاجة الى تجديد . وكان في امكانها ان تفعل ذلك اذا تركها ويل تفعل .
كان يجب ان يكون هذا البيت ملكا لى . قال والدى انه سيترك تارا لى . ولكنه لم يكتب وصية قط ، لانه لم يفكر قط في الغد . ومع ذلك فإن البيت سيصبح في يوم من الايام بيت « ويد » .
كتبت الشيك ووقعت عليه وصدمت عندما عرفت تاريخ اليوم . انه ١١ أكتوبر ١٨٧٣ .

انقضت اكثر من ثلاثة اسابيع على موت ميلانى . انها في تارا منذ ٢٢ يوما ، وكانت ترعى « مامى » في مرضها .
التاريخ له معان اخرى ايضا .. لقد مضى اكثر من ستة شهور على وفاة « بونى » وتستطيع سكارليت ان تتخلى عن ثياب الحداد السوداء

الكريهة ، وتستطيع قبول دعوات اجتماعية ، وتدعو الناس الى بيتها ، انها تستطيع العودة الى العالم .

اريد ان اعود الى اتلانطا . اريد بعض المرح . لقد كان هناك حزن كثير .. وموت كثير .. اننى اتطلع الى الحياة . واقتقد المتجر ايضا ، ولابد ان دفتر الحساب فى حالة ارتباك ، ثم ان « ريت » سيأتى الى اتلانطا « لقطع دابر النميمة » ويجب ان اكون هناك .

وصلت الى اسماعها دقات الساعة البطيئة - فى الصلاة - وراء الباب المغلق .. الهدوء الذى اشتاقت اليه كثيرا .. اصبح الآن - فجأة - يدفعها الى الجنون . ووقفت فجأة : ساعطى الشيك لسوايلين بعد الغداء .. بعد عودة « ويل » الى الحقول ، ثم استقل المركبة واقوم بزيارة سريعة لسكان فيرهيل وميموزا . انهم لن يغفروا لى اذا لم اوجه إليهم التحية . وفى الليل ساحزم حقائبي وغدا استقل قطار الصباح .

بيتى فى اتلانطا . لم تعد « تارا » بيتا لى بعد الآن مهما كان مقدار حبى لها . لقد حان وقت الرحيل .

الطريق الى فيرهيل مليء بالحفر والاخاديد والاعشاب النامية . وتذكرت سكارليت كيف كان يتم رش المياه كل اسبوع لتسكين التراب .. فى ذلك الوقت كانت هناك عشر مزارع على مدى قريب .. واناس تذهب وتجيء طول الوقت . الآن لم يبق سوى « تارا » ومزرعتى « تارلتون » و « فونتين » .. اما الباقى فمداخن محروقة وجدران ساقطة .

حقا يجب ان اعود الى المدينة ، ان كل شىء فى الريف يجعلنى حزينة . انها تحتاج الى العودة الى البيت فى اتلانطا .

الحبور الصاخب فى فيرهيل اخرجها من حالتها الكئيبة . كالمعتاد تحدثت بياتريس تارلتون طويلا عن جياها .. وبدا جيم تارلتون عجوزا بشعره الابيض ..

كانت اسرة تارلتون قادرة على ان تضحك على اى شىء .

وقررت تاجيل زيارة اسرة فونتين حتى اليوم التالى .

فقد حل الظلام ولابد من العودة الى تارا .

وكان اول ما سمعته لدى وصولها وقبل ان يفتح الباب .. صوت طفلة سوايلين وهى تصرخ بالبكاء . المؤكد انه حان وقت عوبتها الى اتلانطا .. ولكن جاءت اخبار غيرت تفكيرها فى الحال .. قالت سوايلين التى بدت اكثر جمالا مما كانت عليه حتى وهى لاتزال فتاة صغيرة : سكارليت هناك انباء مثيرة .. لن تخمنى ابدا . افرحى الآن يا جميلتى ، لقد عاد تونى ! لقد جاءت سالى فونتين لكى تخبرنا وغادرت الآن للتو . لقد عاد تونى ! سليما

معاقى . وسنذهب الى منزل فونتين للعشاء ليلة الغد .. اليس هذا مدهشما
ياسكارليت ؟

كانت ابتسامة سوايلين تشع بالسعادة . الريف يمتلئ مرة أخرى .
شعرت سكارليت بانها تريد ان تحتضن شقيقتها ، شعور لم يملكها من
قبل .. سوايلين على حق . انه شيء مدهش ان يعود تونى : كانت تخشى
الا يعود مرة أخرى .. الآن يمكن ان ينسى إلى الأبد ما حدث له فى آخر يوم
فى هذه المنطقة قبل ان يرحل كان منهكا وقلقا ومرتعا . ومن الذى كان يمكن
ان يكتم مشاعر الخوف ؟ كان الشماليون يلاحقونه وكان يعدو لينقذ حياته
بعد ان قتل الرجل الاسود الذى كان يسمى معامله « سالى » ثم الوجد الذى
حرض الاحمق الاسود لكى يلاحق امرأة بيضاء .
اخيرا عاد تونى ! يكاد يكون من الصعب عليها ان تنتظر حتى مساء
اليوم التالى .
المقاطعة تعود الى الحياة .



مزرعة فونتين كانت تسمى ميموزا « الشجرة المستحبة » بسبب خميلة
الاشجار التى تحيط بالمنزل المطلى بالجير الأصفر الباهت .
كم اتمنى الا يكون تونى قد تغير كثيرا . هكذا كانت تفكر سكارليت
بعصبية .. سبعة أعوام . وقت طويل .. هل سيبدو تونى عجوزا
ومكدودا .. ومهزوما مثل اشل . هذا ما سيكون فوق احتمالها .
عندما فتح الباب تلاشت مخاوفها .

« من هذا الذى يمشى على مهل كما لو كان يدخل كنيسة ؟
الا تعرفون ما يكفى لكى تندفعوا للترحيب ببطل عائذ الى موطنه ؟ »
كان صوت تونى يمتلئ بالضحك ، كعادته ..
شعره اسود وعيناه سوداوان كما كانتا دائما .
صاحت سكارليت : « تونى » انت لم تتغير ..

— « أهذه انت ياسكارليت ؟ تعالى واعطينى قبلة . وانت ايضا
يا سوايلين انت لم تكونى سخية بالقبلات مثل سكارليت فى سالف الايام ،
ولكن لابد ان ويل علمك اشياء قليلة بعد زواجكما ، اننى اتوى ان اقبل كل
انثى تجاوزت السادسة من عمرها فى كل ولاية جورجيا بمناسبة عودتى .
وضحكت سوايلين بعصبية ونظرت الى ويل . وظهرت ابتسامة خفيفة على
وجهه الهادىء النحيل تعنى صدور الاذن من جانبه ، ولكن تونى لم يبال

بانتظار هذا الاذن ، فقد امسك بها من خصرها السمين وطبع قبلة على شفثيها بصوت مسموع . وتورد خذاها من الاضطراب والسرور عندما . اطلق سراحها .

وصرخ تونى « سكارليت حبيبتي » وفتح ذراعيه . والقت سكارليت بنفسها بين ذراعيه لتعانقه . وصاحت : « لقد ازددت طولاً فى تكساس .. وضحك تونى وهو يقبلها فى شفثيها اللتين كانتا فى الانتظار . ثم ازاح بنظرونه من على ساقه ليريهم النعل ذا الكعب العالى الذى يرتديه . قال إن كل شخص اصبح اكثر طولاً فى تكساس ، وانه لن يدهش اذا كان هناك قانون ينص على طول القامة . واطل اليكس فونتين من فوق كتف تونى ، وقال : سوف تسمعون عن تكساس اكثر مما يحتاج المرء لكى يعرف .. ففى تكساس الجميع يعيشون حول نيران المعسكرات تحت النجوم بدلا من ان تكون لديهم جدران وسقوف ..

الدموع طمرت فجأة من عينيها . كانت عودة تونى المصحوبة بالحيوية والنشاط الى مسقط راسه اول حدث سار فى المقاطعة منذ اجتاحت قوات تشيرمان هذه الارض ومعها ارواح ابنائها . لم تكن تعرف بالضبط كيف تتصرف مع هذه الدفقة من السعادة .

سالى زوجة اليكس امسكت يدها عندما دخلت غرفة المعيشة المعتمة ، وقالت لها هامة : « انى اعرف شعورك بالدقة ياسكارليت ، لقد كهنا ننسى كيف نمرح ، لقد ترددت ضحكات فى هذا المنزل اليوم اكثر مما حدث خلال السنوات العشر الماضية ..

كانت عينا سالى مليئة بالدموع ايضا . وجاءت عائلة تارلتون ، ووجهت بياتريس تارلتون التحية إلى تونى قائلة : « شكرا للسماء ياولدى انك عدت قطعة واحدة ، تستطيع ان تتخير اى واحدة من بناتى الثلاث ، وعندى حفيدة فقط ، وليس عندى اصغر من ذلك » واحتجت الفتيات الثلاثة ، هيتى وكاميللا وميراندا تارلتون ، فى صوت واحد . ثم انفجرت فى الضحك ، فقد كان كل اهل المقاطعة يعرفون ولع والدتهن بتربية الجياد والبشر . وقبل غروب الشمس اصرت بياتريس تارلتون على ان ترى الجياد التى احضرها تونى معه من تكساس وعلى المفاضلة بين مزاياها ومزايا الانواع الاخرى .. إلى ان صاح اليكس لكى ينهى المناقشة معلنا غفوره على بعض الويسكى « الحقيقى » وتمنت سكارليت الا تكون السيدات مستبعدات تلقائيا من متعة الشراب . وكانت تريد ايضا ان تتمتع بالحديث مع الرجال بدلا من ان تكون فى « المنفى » بالجانب الآخر من الغرفة تستمع الى حديث

النساء عن الاطفال وشئون التدبير المنزلى افهى لم تفهم او تقبل قط الفصل التقليدى بين الجنسين ، ولكن هكذا كانت الامور دائما وقد استسلمت لهذه الأوضاع . على الأقل كان يمكن ان تسلى نفسها بمراقبة فتيات تارلتون يتظاهرن بانهن لايفكرن بطريقة متطابقة مع والدتهن .

ومضى الوقت وتونى يروى مغامراته وحكاياته عن الهنود .. وعن السرج الفضى على جواده . وابتنست سكارليت . كانت تعرف ان تونى وشقيقه اليكس كانا دائما اكثر الرجال تأنقا وعناية بمظهرهما فى كل شمال جورجيا . ولم يتغير تونى على الاطلاق .. كعوب عالية واحذية مبهرجة وسرج فضى . انها مستعدة ان تراهن على انه عاد وجيوبه خاوية مثلما كان الحال عندما هرب من الجلاب . انها حماقة ان تكون لديك سروج فضية بينما المنزل فى ميموزا يحتاج الى سقف جديد . ولكن بالنسبة لتونى ، هذا هو الصواب ، وهو مايعنى انه لايزال تونى . اما اليكس فانه فخور به كما لو كان قد جاء معه بعربة محملة بالذهب . كم تحبهما كليهما !

وتوالى حديث الذكريات : التوامان برنت وستيوارت تارلتون اللذان رحلا الى الابد و « ليف مونرو » و « كيد ويفورد كاليفيرت » و « توم وبويد تارلتون » و « جوفونتين » وكل الشبان الذين ودعوا الحياة فى وقت مبكر . القصص هى الثروة المشتركة للذاكرة والحب ، وبينما كانت تروى .. اصبحت الظلال فى زوايا الغرفة مزدحمة بالشباب المبتسم والمتلائيء من هؤلاء الموتى ولكنهم الآن - اخيرا - لم يعودوا مفقودين لان هناك من يتذكرهم بضحكة مزهوة بدلا من المرارة اليائسة المحبطة . والجيل الاسبق ايضا لم يذهب فى طى النسيان .. كل هؤلاء الذين يجلسون الى المائدة لديهم ذكريات غنية عن السيدة فونتين العجوز جدة اليكس وتونى ذات اللسان الحاد والقلب الحنون . وعن امهما التى كانت تسمى السيدة الصغيرة حتى وفاتها وهى فى عيد ميلادها الستين . واكتشفت سكارليت انها تستطيع ايضا المشاركة فى هذا القضاك الخافت الودود بان تحكى عن عادة ابيها التى لم تتغير فى ترديد الاغاني الايرلندية عن الثورة بعد ان يشرب على حد تعبيره « قطرة او قطرتين »

ساعة بعد ساعة .. ووقت طويل مضى بعد ان فرغت اطباق العشاء والنيران تحولت الى جمرات داخل المدفأة .. والحديث مستمر ، والاثنا عشر الذين ظلوا احياء اعادوا الى الحياة كل الاحياء الذين لم يتمكنوا من الحضور للترحيب بتونى . كانت اسمية سعيدة .. تضمض الجراح . والضوء الخافت لمصباح الغاز يومض ويخبو وسط المائدة ولايكشف

الندوب التى خلفها رجال تشيرمان فى الغرفة التى يلوئها الدخان وجرى ترميم اثائها . الوجوه حول المائدة بلاخطوط . والنياب بلا زخارف تجميلية .. انها لحظات لذيدة من الوهم ، كما لو كانت ميموزا قد تحولت الى مكان سرمدى والى زمان بلا الم لم يشهد اى حروب من قبل . منذ سنوات ، كانت سكارليت قد الزمت نفسها بالا تنظر ابدا الى الورا .. ذلك ان استرجاع ذكريات الايام الذهبية السعيدة السابقة على الحرب والترحم عليها والتشوق اليها لن يحقق شيئا لها سوى الاضرار بها واضعافها ، وهى فى حاجة الى كل قوتها وتصميمها على البقاء وحماية اسرتها . ولكن المشاركة فى استعادة الذكريات فى غرفة المائدة فى ميموزا لم تكن قط سببا للضعف ، فقد منحتها شجاعة ، وكانت دليلا على ان الناس الطيبين يمكن ان يعاتوا من كل انواع الفقد او الخسارة او الحرمان من الاعزاء ، ومع ذلك يحتفظون بالقدرة على الحب وعلى الضحك ، كانت فخورة بان تكون فى زمريتهم ، وفخورة بان تدعوهم اصدقاءها وفخورة لانهم على ما هم عليه .

تاخر الوقت .. وفى طريق العودة كان النعاس يداعب سوايلين ، اما سكارليت فكانت تقاوم النعاس .. فهى لم تكن تريد لهذه الامسية ان تنتهى . كانت تريد ان تدوم الى الابد تلك الراحة الدافئة والسعادة التى شعرت بها فى هذه الزيارة .

وفى منتصف الطريق الى تارا ، ادركت انها لم تفكر فى « ريت » لساعات . وحلت عليها الكابة والكدر كاحمال ثقيلة ، وشعرت لأول مرة ببرودة الطقس وبان جسمها يرتجف .

قررت سكارليت العودة الى اتلاندا فى قطار بعد ظهر اليوم التالى . ورحبت سوايلين بذلك ، خاصة وهى تحتاج الى غرفة النوم التى تشغلها سكارليت لكى تستخدمها سوذى وايلا . وكانت سكارليت على اى حال قد قررت السفر من قبل لولا عودة تونى .. فى اتلاندا سوف يسعد الناس برؤيتها ايضا . ان لديها العديد من الاصدقاء هناك .

قالت سكارليت : « ويد هاميلتون ، ايلا ، والدتكما مضطرة للذهاب الى اتلاندا بعد طعام الغداء اليوم .. اريدكما ان تعدانى بان تكونا على احسن مايكون . والا تسببا اى متاعب للخالة سوايلين »

وتوقعت سكارليت الاحتجاجات والدموع ، ولكن الطفلين كانا مستغرقين تماما فى الحديث عن اشياء ممتعة شاهداها فى صباح ذلك اليوم .

استقلت مركبة يقودها ويل ، وفي منتصف الطريق الى جونز بورولكي
تستقل القطار قالت :

« ويل .. عن ريت .. الطريقة التي غادر بها بسرعة ، اعنى ، أمل
الا تثرثر سوايلين حول هذا الموضوع في كل المقاطعة »
وتطلع إليها ويل بعينيه الشاحبتين الزرقاوين : « سكارليت ، انت
تعرفين أحسن من ذلك ان العائلة لاتتحدث بالسوء عن العائلة ، كنت
اشعر بأسف دائما لأنك لا ترين ما هو طيب في سوايلين هذه الطيبة
موجودة ، ولكنها لاتظهر عندما تحضرين . ثقى في كلامي ، بصرف النظر
عن الكيفية التي تبدو بها سوايلين بالنسبة لك ، فانها لن تتحدث ابدا عن
مقايبك الخاصة لأى انسان .. »

شعرت سكارليت بارتياح الى حدما ، فهي تثق بويل تماما . كلمته اضمن
من اموال البنوك ، وكان حكيما ايضا . وهو لم يخطئ في أى شيء ..
اللهم - ربما - فيما يتعلق بسوايلين !
— « انت تعتقد انه سيعود ، اليس كذلك ياويل ؟ »

لم يكن ويل في حاجة لان يسألها عن الشخص الذى تقصده . لقد سمع
رنين القلق في صوتها ، وضغط بهدوء على قشة في زاوية من فمه بينما كان
يفكر في طريقة الرد على السؤال . واخيرا قال ببطء : « لا استطيع ان اقر
ذلك ياسكارليت ، ولكنى ، لست الشخص الذى يعرف ريت ، فأننى لم اره
قط اكثر من اربع او خمس مرات في حياتى »

شعرت وكأنه طعنها وحل الغضب السريع محل الألم : « انك لاتفهم
شيئا على الاطلاق ياويل بنتين ! ان ريت غاضب الآن ، ولكنه سيتخلص من
هذا الغضب . انه لايمكن ان يفعل أى شيء وضيع كان يذهب ويترك
زوجته مهجورة وحيدة »

واوما ويل براسه . وكان في استطاعة سكارليت ان تعتبر تلك الايماءة
تعبيرا عن الموافقة اذا ارادت ذلك . غير ان ويل لم ينس الوصف الذى قاله
ريت عن نفسه : انه وغد . وطبقا لكل ما قاله الناس ، فقد كان هكذا دائما
والارجح انه سيظل .

وحملت سكارليت في الطريق ، امامها . تصلب فكها .. واشتعلت
افكارها غضبا . ريت سيعود . يجب ان يعود ، لانها تريده وهى تحصل
دائما على ماتريد .. كل ما عليها ان تفعله هو ان تصمم على ذلك ..



الطقوس الأخيرة للقديسة

الضوء والعمل في « فايف بوينتس » في اتلانتا هو القوة الدافعة لروح سكارليت . فوضى على مكتبها حتى في المنزل . انها تحتاج للحياة والعمل حولها بعد مسلسل الوفيات وتحتاج ان تعمل . مجموعات الصحف .. واكوام من حسابات العمل اليومية من المحل الذى تملكه في قلب « فايف بوينتس » ، تلال من الفواتير التى تستحق الدفع . نشرات وإعلانات تنتظر التمزيق .

تنهدت سكارليت في ابتهاج وسحبت مقعدها القريب من المكتب . اشعلت المصباح . سيحل الظلام قبل وقت طويل من الانتهاء من كل هذه الاكوام المقدسة وقد تضطر الى تناول العشاء الليلة على صينية اثناء عملها . بدأت في لهفة .. تعكف على حساب المحل وتوقفت ايديها في الهواء قبل ان تمتد الى اوراق الحسابات . فقد التقطت عينها مظلوما كبيرا كان فوق الصحف . فوق المظروف كلمة واحدة هي ببساطة « سكارليت » وبخط « ريت » . لن اقراه الآن .. هكذا فكرت على الفور ، انه سيعترض طريق كل الاشياء التى يجب ان افعلها الآن . لست قلقة بشأن محتوياته .. على الاطلاق . كل ما اريده هو الا اقراه الآن .. سادخره مثل الحلوى عقب وجبة الطعام . والتقطت حفنة من الاوراق ، غير ان عقلها عجز عن متابعة ومراجعة الحسابات ، وامتدت اصابعها الى المظروف لتقرأ محتويات الرسالة : « صدقيني عندما ابليغك اعمق مواساتي في فجيعتك .. ان وفاة مامى خسارة هائلة . اننى اشعر بامتنان نحوك لانك ارسلت في طلبى في الوقت المناسب لكى اراها قبل رحيلها » ..

وانفجرت غاضبة وتحدثت بصوت عال : ممقن يا حقير !! اذن فقد كذبت عليها وعلى ابها النذل وتمنت ان تحرق الخطاب وتلقى رماده في وجه كاتبه وان يسمع شنائمها .. لقد اهانها امام سوايلين وويل .. وسوف تنتقم لنفسها مهما طال الزمن . ليس له الحق في ان يعاملها بهذه الطريقة وان يعامل مامى بهذه الطريقة ، وان يهزا من امنياتها الاخيرة على فراش الموت .

وقررت ان تحرق الخطاب .. فهي لا تريد ان تصافح عينها المزيد من اكاذيبه ! وبعد تردد ادركت انها لابد ان تقرأ بقية الخطاب . يقول ريت انها لن تجد في حياتها اى تغيير .. فواتير المنزل سوف يدفعها محاموه ، وهو ترتيب اعده منذ سنوات . وكل الاموال التى تسحب من حساب سكارليت في البنك عن طريق شيكات سوف تحل محلها تلقائيا

نفس الكمية من المال بحيث لاتنقص ابدا . وفي استطاعتها ان تصدر تعليمات الى اى محال تجارية جديدة حيث فتحت حسابات عن الاجراءات التى تستخدمها اماكن التسوق الحالية بحيث ترسل هذه الاماكن فواتيرها مباشرة الى المحامين التابعين لريت او تدفع سكارليت فواتيرها بشيك ويحل محل المبلغ مايساويه فى حسابها فى البنك .

قرات سكارليت كل ذلك بإعجاب . كل ما يتعلق بالمال كان يثير اهتمامها دائما منذ ذلك اليوم الذى اضطرها فيه الجيش الاتحادى الشمالى الى اكتشاف معنى الفقر ففى اعتقادها ان المال هو الأمان لقد اسخرت المال الذى كسبته هى نفسها ، والآن تشعر بصدمة مفرحة من سخاء ريت المفرط . ما اشد حمقه ، اننى استطيع ان اسرقه اذا شئت .. كذلك ربما كان حماموه يلفقون دفاتر الحسابات منذ قرون وهو لايدرى .

اذن ، لابد ان « ريت » شديد الثراء اذا كان فى استطاعته ان ينفق بهذه الصورة دون اهتمام باوجه هذا الانفاق ، لقد كنت اعرف دائما انه غنى ، ولكن ليس الى هذا الحد ، وانى اتساءل ما حجم ثروته ؟

اذن .. هو لايزال يحبنى . وهذا الخطاب برهان على ذلك . لا يوجد رجل يمكن ان يفرط فى تدليل امرأة بالطريقة التى دلتنى بها « ريت » كل هذه السنوات مالم يكن يحبها الى حد الجنون ، وسيواصل اعطائى كل شئ . واى شئ اريده . لابد ان مشاعره لم تتغير او انه يكبح جماحها . كنت اعرف ذلك واثق من اننى اعرفه ! انه لم يقصد كل الاشياء التى قالها . كل الحكاية انه لم يصدقنى عندما قلت له اننى اعرف الآن اننى احبه .

ووضعت سكارليت خطاب ريت على خدها كما لو كانت تمسك باليد التى كتبتة . سوف تثبت له ، انها تحبه من كل قلبها ، وعندئذ سيكونان سعيدين ، اسعد الناس على وجه الارض !

اغرقت الخطاب بالقلبات قبل ان تضعه بعناية فى احد الادراج . وعادت الى اوراق الحسابات وكلها حماس . ونامت نوما هادئا .. لقد حقق المحل التجارى نتائج طيبة فى غيابها .. انه لشئ جميل ان يعود الانسان الى بيته ، وخاصة اذا وضعت خطاب ريت تحت وسادتها .



تذكرت سكارليت وعدها لميلانى ، ان تعتنى باشلى و « بو » ما الذى جعلها تقدم هذا الوعد ؟ ولكنها وعدت ، ولابد ان اللسن تخوض فى كل انحاء المدينة حول ما حدث عند المقبرة ، ولا داعى لإضافة المزيد من

الوقوف الى حريق الشائعات والنميمة بان تلقى باشلى وحدها .. وقررت ان تاخذ معها احدى الخادومات .

وعندما وصلت عربتها الى واجهة منزل اشلى وميلانى فى شارع ايفى ، لاحظت سكارليت ان باقة زهور الحداد اختفت من امام الباب وان النوافذ كلها مغلقة . لابد ان انديا شقيقة اشلى اخذت اشلى و « بو » ليعيشا فى منزل العمة « بيتيبات » والمؤكد انه مكان مريح بالنسبة لاشلى وبو حيث يجدان الرعاية الكافية .

كانت انديا هى العدو للدود لسكارليت على الدوام . لو لم تكن سكارليت قد وعدت ميلانى ؟ .. ولكنها فعلت . وامرت السائق بان يتوجه الى منزل بيتيبات هاميلتون وطلبت من الخادمة العودة الى المنزل على قدميها .

فتحت انديا الباب .. قالت سكارليت « جئت لأطمئن على اشلى » . ردت انديا : « انت شخص غير مرغوب فيه هنا » وبدأت تغلق الباب . ومنعتها سكارليت من اغلاقه . وقالت : « انديا ويلكس .. هل تجسرين على اغلاق الباب فى وجهى . لقد وعدت ميلانى وسافى بوعدى حتى لو اضطرت لقتلك من اجل الوفاء بهذا الوعد »

وردت انديا باستخدام كتفها للضغط على الباب لاغلاقه ، وبعد ثوان من المقاومة .. جاء صوت اشلى : « هل هذه هى سكارليت يا انديا ، انى اريد التحدث معها » وانسحبت انديا غاضبة . كان يبدو مريضاً ودواثر سوداء تحيط بعينية الذابلتين . والتجاعيد تملأ وجهه .. وبدت ثيابه اوسع من حجمه .

واهتز قلب سكارليت . لم تعد تحب اشلى بالطريقة التى احبته بها كل تلك السنوات ، ولكنه لا يزال جزءاً من حياتها .. ذكريات مشتركة كثيرة عبر زمن طويل . ولم تستطع تحمل ان تراه فى هذه الحالة من الألم . تحدثت اشلى طويلاً عن زوجته الراحلة وقلبها الطيب ونبلها ونكرانها لذاتها وحبها لسكارليت ولابنها « بو » . كان صوته خفيضاً وخاوياً من الحرارة . وفى النهاية يعلن اشلى انه لا يستطيع ان يستمر فى الحياة بدون ميلانى .

وقالت سكارليت ان اشلى ويلكس ليس الوحيد الذى احب ميلانى واعتمد عليها وانها تشعر بالخزى وهى تراه يموت موتاً بطيئاً ، وهو لا يعرف الالام التى عانتها ميلانى لكى تنجب « بو » .. انها الام كانت تكفى لقتل اقوى الرجال . والآن .. الابن وحيد ويتيم لان والده يشعر بالاسى ،

على نفسه ولا يستطيع العناية به . ودعت سكارليت اشلى لى ينتزع نفسه من الامه وان يلتقى بابته وياخذه بين ذراعيه ويدعوه الا يخاف .. ان على اشلى ان يفكر فى شخص آخر غير نفسه .
وغادرت سكارليت الغرفة وهى تدفع بيدها انديا لى تباعد عن طريقها .

وتوجهت الى مكتب محاميتها هنرى هاميلتون . لقد ارادت ان تتأكد من ان زوجها الراحل تشارلس ترك لها نصف منزل العمه « بيتى » فى شارع بيتشترى ضمن كل املاكه . انها تريد ان يخرج اشلى من هناك حتى لا ترعاه كل من انديا والعمه « بيتى » حتى قبره . انها تريد ان يعود الى منزله وسوف تجد له مديرة منزل .

قال المحامى ان منزل اشلى قد بيع بالفعل وان اوراق البيع قد استكملت بالامس فقط . وقال المحامى انه هو الذى نصحه بالانتقال الى منزل بيتى وشرائه . وكل ذلك لم يحدث بسبب آلام المنكوبين وذكريات المنزل وليس لان المحامى معنى بمن الذى سيرعاه هو وولده ، ولكنه نصحه بالانتقال لانه يحتاج الى المال من صفقة البيع حتى يستطيع ان يحول دون انهيار تجارة الاخشاب التى يعمل بها .

وفي البداية لم تصدق سكارليت .. ذلك ان كل الانشاءات تحتاج الى اخشاب فكيف تواجه تجارة اشلى هذه الازمة ؟
ويحدثها المحامى عن فضيحة مالية كبرى فى نيويورك انفجرت منذ اسبوعين او ثلاثة .

كان احد المضاربين ويدعى جاى كوك اساء تقدير الموقف وانهار واخذ معه فى سقوطه شركة للسكك الحديدية ، تدعى الباسيفيك الشمالى ، واخذ معه ايضا حزمة من المضاربين الآخرين ، وبسقوطهم جميعا .. سقطت صفقات عديدة خارج اطار شركات كوك ، تماما كما يسقط منزل من اوراق اللعب . وفى نيويورك يسمون ما حدث « الرعب » وهو ينتشر ، والمحامى يتوقع ان يحتاج هذا الرعب كل انحاء البلاد .. شعرت سكارليت بالفرح تجاه مصير محلها التجارى واموالها والبنوك .. ويطمئننها المحامى الى ان العمالة هم الذين يتساقطون وليس صغار او متوسطو التجار والنشاط التجارى مستمر ، ولكن الناس خائفون من استثمار اموالهم فى اى شئ ، وهذا يشمل الانشاءات ايضا ، فإذا لم يكن هناك من يبنى او يشيد .. فلا احد يحتاج الى اخشاب .

إذن فالانهيار الاقتصادى يصيب بالشلل مؤسسة نشر الاخشاب ،

وبالتالى لا يحصل منها اشلى على اى عائد مالى .. وربما استطاع أن يبيع منزله لأن سكان اتلاننا لم تصل اليهم بعد موجة الربح .
ولكن سكارليت تريد أن تساعد هذا الرجل الميت الذى يسير على قدمين ، ويدعى اشلى .

أما المحامى فإن له رأيا آخر :

« أنت آخر شخص يستطيع مساعدة اشلى الآن .. كانت هناك شائعات كثيرة عنك وعن اشلى فى وقت من الأوقات . وقد تصدت السيدة ميلى لهذه الشائعات دفاعا عنك وسار معظم الناس وراءها - حبا فيها ، وليس أعجابا بك ، لقد ظننت انديا أسوا الظنون بك ، وباحت بها ، وحشدت مجموعة المؤمنين باقوالها ، وماذا فعلت انت من نفسك عند قبر ميلانى ، القيت بذرايعك حول زوجها لابعاده عن زوجته الميتة التى ظن الكثير من الناس أنها اقرب الى القديسين .. اعرف ما ستقولينه ، لا ترهق نفسك بقوله ، كان اشلى على وشك أن يلقى بنفسه فى القبر ، وقد يكسر عنقه . لقد كنت هناك ورأيت كل شيء . ليست هذه هى المسألة ، انت فتاة ذكية ، ولكنك لا تفهمين الدنيا على الإطلاق ، لو كان اشلى قد القى بنفسه فوق النعش .. لكان الجميع قد وصفوا هذا المشهد بأنه « مؤثر » ولو كان قد قتل نفسه وهو يفعل ذلك لكنوا قد شعروا بأسف حقيقى ، ولكن هناك قواعد لمعالجة الأسف . والمجتمع يحتاج الى قواعد ، لقد أدت المشهد على الملأ . وضعت يديك على رجل لم يكن زوجك .. وعلنا .. انت صنعت ضجة تعكس صفو اجراءات الدفن وتقطع تسلسلها وهى مراسم يعرف كل امرئ قواعدها . انت حطمت الطقوس الأخيرة لقديسة .. ولا توجد سيدة فى هذه المدينة إلا وتقف الى جانب انديا الآن .. اى ضدك . ولا يوجد صديق لك ياسكارليت ، وإذا تصرفت اى تصرف مع اشلى ، فسوف تؤكدين الشائعات والافاويل فيصبح منبوذا مثلك ، السيدات ضدك ، كل الله فى عونك يا سكارليت ، وعندما تنقلب السيدات المسيحيات ضدك فإنه من الأفضل ألا تنتظري غفرانا مسيحيا يا سكارليت .. انهن لئن يسمحن حتى لرجالهن بالمغفرة لأنهن يمتلكن رجالهن جسدا وروحا »

نهض المحامى من مقعده وهو يقول : « انفضى يدك من اشلى ، واتركى منزل بيتيبات على حاله بما فى ذلك النصف الذى تملكينه ، ولا تكفى عن ارسال المال عن طريقى لدفع فواتير صيانتته .. كما كنت تفعلين دائما ، وهذا سيحقق وعدك لميلانى .. هيا بصاحبك الى مركبتك »



الضيوف الحثالة

السبيل الوحيد لتهدئة القلق هو التوجه الى البنك ، حتى تعرف حقيقة ما قاله المحامي هنرى هاميلتون حول الأزمة المالية التي بدأت في وول ستريت (حتى المال والأعمال في نيويورك) وتنتشر في أنحاء امريكا . وبينما كان مدير البنك يبدد مخاوفها إذا به يقول بطريقة عفوية ان زوجها ريت باتلر اشترى منذ شهر مضى أسهما جديدة في البنك ، وشعرت سكارليت بانها تريد ان تقفز من مقعدها تعبيرا عن الارتياح ، فإذا كان ريت يشتري أسهما في البنك ، فلا بد ان هذا هو أكثر البنوك أمانا في امريكا ، لقد كان يجنى المال دائما في وقت يتعرض فيه بقية أنحاء العالم للانهييار ، ويكفي بالنسبة لها ان ريت يضع ثقته في هذا البنك .. فهو يملك تلك « الكرة البلورية العزيزة » التي يرى من خلالها المستقبل ، كما قالت صاحبة لمدير البنك ، وطلبت تحويل كل أموالها السائلة الى ذهب ، فهي لا تثق على الإطلاق .. في الأوراق .

هى الآن في متجرها « سوق كنيدي التجارى » وهو ما ورثته من زوجها القصير من فرانك كنيدي .. علاوة على الطفلة « ايلا » وكان سرورها من هذا المتجر الكبير هو الذى طغى على خيبة أملها من الطفلة . ويتولى « ويلي كيرشو » وظيفة رئيس حسابات المتجر ، وقد تلقى الآن أوامر من صاحبة المتجر بفتح حساب دائن ، ودهش الرجل لأن مثل هذا التصرف لم يحدث منذ تولت سكارليت ادارة المتجر ، ولكنه اصغى بحرص الى التعليمات ، وأقسم الا يبيح لأحد بالسر . وكان يعرف انه من الأفضل له ان يلتزم بقسمه لأنه كان مقتنعا بان لسكارليت عيوننا وراء رأسها وتستطيع ان تقرأ أفكار الناس !

وإثناء الغداء قرأت سكارليت الصحف ، ولم تستطع مواصلة تناول الطعام .. لقد كان « العم هنرى » - المحامي - على حق بعد ان كانت تتصور انه يغالى في تقدير الموقف او يتوهم أشياء لا وجود لها .. وتتحدث الصحف عن الانهييار في عالم النشاط الاقتصادى واغلاق بورصة نيويورك لمدة عشرة ايام عقب ما أسماه الصحفيون يوم « الجمعة الاسود » الذى انهارت فيه أسعار البورصة لأن الجميع يبيعون ولا احد يشتري .. والبنوك تغلق ابوابها في المدن الأمريكية الرئيسية لأن عملاءها يريدون أموالهم ، بينما الأموال تبذرت بعد ان استثمرتها البنوك في أسهم « أمنة » أصبحت بلا قيمة فعلية .. والمصانع في المناطق الصناعية تغلق ابوابها بمعدل مصنع كل يوم تقريبا تاركة آلاف العمال بلا عمل وبلا نقود .

ورغم هذا الرعب الذى سيطر على البلاد والقلق الذى عاودها .. فقد
عزمت سكارليت على أن تقوم بالزيارة التى كانت تنوى القيام بها .



طوال حياتها كانت تسمع عن الأشخاص الذى شهرت بهم الفضائح ،
وكيف انه لا يوجد شخص مهذب يمكن أن يفتح لهم باب منزله ، غير انها
لم تتصور فى أبشع تخيلاتها أن ذلك يمكن أن يحدث لها .. هي سكارليت
اوهارا ابنة الين روبيلار من سهول روبيلاروز ! غير أن هذا لا يمكن أن
يحدث ، انها الآن تدق جرس باب منزل العممة بيتيتات ولا احد يريد أن
يفتح الباب .

اننى هنا لكى اصنع خيرا .

هكذا كانت تفكر وهي فى حالة من الارتباك والذهول الجريح ، وشعرت
بان الدموع تكاد تبلل عينيها ثم اجتاحتها موجة من الغضب والهباج ،
اللجنة انها تملك نصف هذا المنزل ، كيف يجرؤ أى شخص على أن يغلق
الباب امامها ؟

دقت على الباب بقيضتها وأخذت تدبر مقبضه المغلق بعنف فتحدث
خشخشة وتككة غير أن مزلاج الباب يظل هامدا .. وصرخت من خلال ثقب
المفتاح : « اننى اعرف أنك هنا يا .. انديا ويلكس ، لقد جئت اتحدث اليك
يا انديا ولن اغادر هذا المكان قبل أن افعل . سوف اجلس على عتبة الباب
الى ان تفتحي او الى ان يحضر اشلى الى البيت ومعه مفتاحه ، عليك أن
تختارى ،

وفتح الباب . وهمست انديا بخشونة « بحق السماء ادخلى ، سوف
تجعليننا مضغة فى افواه الجيران » وقالت سكارليت بجفاء ، وهي تنظر
الى انديا باحتقار : « ربما كان يجب أن تخرجى وتجلسى على السلام معى ،
فقد نزل قدم صعلوك اعمى .. ويتزوجك مقابل غرفة ووجبات الطعام ،
وتراجعت سكارليت بسرعة واعتذرت لانديا ، التى كانت تتاهب لافلاق
الباب من جديد . انها لم تات لتتشاجر مع انديا ، ومنعتها من اغلاق
الباب .

كم كان ريت يحب ذلك ! هذا ما خطر فجأة على ذهن سكارليت ، فى الأيام
السعيدة لزوجها كانت تقص عليه دائما حكايات انتصاراتها فى العمل وفى
العالم الاجتماعى الصغير لمدينة اتلاندا ، الأمر الذى كان يدفعه الى الضحك
لفترة طويلة وبصوت عال . وكان يعتبر تلك الحكايات مصدرا لا ينتهى
ابدا للمحور ، ربما كان سيضحك مرة أخرى لو اخبرته كيف كانت انديا

تنفخ كالتنزين المضطر الى التراجع .

كانت سكارليت تريد ان تفرغ من مهمتها قبل حضور اشلي ، قالت ان ميلي طلبت منها على فراش الموت ان تعدها بان ترعى « بو » واشلي ، واهتز جسد انديا ، كما لو كان قد تلقى رصاصة ، وحذرتها سكارليت الا تنطق بكلمة لأنه لا شيء يخرج من فمك سيكون له معنى بعد كلمات ميلي الأخيرة .. قالت انديا : سئدمرين اسم اشلي ، كما دمرت اسمك .. لا أريدك ان تتبعيه في كل مكان لتجلبى العار لنا جميعا ..

قالت سكارليت : « آخر شيء أريد ان افعله على أرض الله الخضراء يا انديا ويلكس هو ان امضى دقيقة أخرى في هذا المنزل أكثر من الوقت الذى اضطر الى الجلوس فيه ، لقد جئت لابلاغك باننى قمت بترتيبات في متجرى لكى تحصلوا على كل شيء تريدونه »

— عائلة ويلكس لا تتلقى الاحسان يا سكارليت .

— انت يا ساذجة .. اننى لا اتحدث عن الاحسان ، اننى اتحدث عن وعدى ميلانى ، انت لا تدريين مدى السرعة التى يكبر بها « بو » ويحتاج الى احذية أكبر ، ولا تدريين مدى تكلفة هذه الاحذية ، هل تريدان ان يتحمل اشلي اعباء صغيرة كهذه بينما هو كسير القلب بسبب اشيء أكبر ؟ أم هل تريدان أن يكون « بو » أضحوكة في المدرسة ، اننى اعرف مقدار الدخل الذى تحصل عليه العمه بيتى .. لقد اعتدت أن اعيش هنا ، هل تذكرين ؟ انه يكفي لكى يسد رمق العم بيتى ونفقات العربية ولوضع القليل من الطعام على المائدة ولدفع ثمن النشادر الذى تعالج به نفسها من الصداع والأغماء .. وهناك شيء صغير يسمى « الرعب » أيضا .. نصف النشاط الاقتصادى والتجارى في البلاد ينهار .. والأرجح ان اشلي سيحصل على قدر اقل من المال مما كان يحصل عليه ، وإذا كنت أبتلع كبريائى وادق على الباب الامامى مثل امرأة مجنونة فانت تستطيعين ان تبتلعى كبريائك وتأخذى ما اعطيك اياه ، وليس من حقه ان ترفضى ، لأنه لو كان الامر يتعلق بك فقط .. لتركته تموتين جوعا دون ان يطرف لى جفن ، اننى اتكلم عن « بو » واشلي وميلي لأننى وعدتها بما طلبت منى .

— كيف اعرف ان هذا ما قالته ميلانى ؟

— لأننى اقول ذلك ، وكلماتى مثل الذهب ، وبصرف النظر عما تظنينه عنى يا انديا ، فإنك لن تجدى ابدا اى انسان يقول اننى حننت بوعد او تراجع عن كلمتى .

وترددت انديا وادركت سكارليت انها تنتصر ، وقالت :

— لست مضطرة للذهاب الى المتجر بنفسك ، يكفي أن ترسل قائمة مع
أى شخص آخر .

واخذت انديا نفسا عميقا ، وقالت على مضض .

— فقط من أجل ملابس بو .

وكتمت سكارليت ابتسامتها ، فما أن ندرك انديا كم هو شائق أن تحصل
على الأشياء مجانا فإنها ستطلب أكثر بكثير من ذلك ، وكانت سكارليت على
يقين من توقعاتها .

قبل أن تغادر البيت ، قالت سكارليت : « مستر كيرشو رئيس
الحسابات ، هو الوحيد الذى يعرف هذا الموضوع ، اكتبى اسمه على قائمة
السلع المطلوب شراؤها ، وسوف يتولى كل شيء »



الآن .. تتأكد سكارليت بنفسها من صحة ما قاله « العم هنرى »
المحامى . السيدات يرفضن التحدث معها أو مجرد إلقاء التحية أو رد
التحية في المحال التجارية وفي الشوارع ، وتقرر الذهاب الى مصنع
الأخشاب لتطلب من أشلى أن يكف عنها سموم انديا شقيقته . وعندما تصل
الى هناك .. تشعر بانها هبطت من حالق .. ألواح الخشب — بعد نشرها —
مكدسة تبرق تحت شمس الخريف . ولا توجد عربات للشحن لأنه لا توجد
طلبيات .. لا أحد يشتري شيئا . ولم يكن أشلى أفضل حالا مما كان عليه
في لقائهما الأخير ، وليس هناك ما يشجع سكارليت على أن تتحدث معه عن
انديا أو عن العمل . انه يهمل نفسه تماما ، فلماذا يهتم بى ويدرك اننى
أخاطر بما تبقى من سمعتى بحضورى الى مصنعهِ بدون مرافقة ؟ وفوجئت
به يعاتبها لأنها منعتهُ من إلقاء نفسه في قبر ميلانى .. فهو يجزم بأن مكانه
هناك أو في أى قبر ..! وهو يحمل نفسه مسؤولية موت تجارته في
الأخشاب ، وهى التجارة التى سبق أن كرس لها سكارليت كل طاقاتها
وحققت فيها كل النجاح .

وعندما تعود سكارليت الى بيتها كان ما يشغلها هو كيفية تنفيذ وعدها
لميلانى ، الأمر الذى سيكون أصعب مما تظن . فالمشكلة لن يحلها توفير
الملابس وبيع الاستهلاك اليومي لتلك الأسرة ، والواضح أن أشلى لن يرفع
أصبعاً ليسانده نفسه . وتقع على عاتقها مسؤولية أن تجعل منه رجلاً
ناجحا سواء تعاون لتحقيق هذا الغرض أو لم يفعل . لقد وعدت ميلانى ،
كما انها لا تتحمل أن ترى صناعة الأخشاب التى تعبت لكى تكفل لها كل
وسائل الازدهار .. يكون مصيرها الانهيار ، ثم انها لا تتصور انه لا يوجد

أى سوق الآن للأخشاب حتى فى ظل موجة « الرعب » التى تسود عالم التجارة والمال .. فالناس لابد أن يشيدوا المباني ولن يكفوا عن بناء أى شىء حتى لو كان حظيرة للأبقار أو اسطبلًا للجياد ، ووجدت الحل : لماذا لا تستثمر الأرض الزراعية التى تركها لها تشارلس هاميلتون .. المزارع لم تعد تدر عائدا حقيقيا على الإطلاق . ما قيمة أن تحصل على سلتين من القمح وبالة من القطن ؟ المهم أن تجد المقاول المناسب ، من بين المقاولين المتعطشين للعمل ، الذى يتولى بناء مائة منزل أو مائتين .. عندئذ يمكن الاستفادة من المائة فدان التى تملكها على مشارف اتلانتا ، وخاصة مع تمدد المدينة وتوسعها .

لا شك أن الظروف الآن تحتّم على كل من يخسر أمواله أن يفرض على نفسه التّكشف ويتخلص من منزله الكبير ، ويقيم فى منزل أصغر حجما لا يكلفه سوى الحد الأدنى من النفقات .

هذا المشروع لن يحقق لك مكسبا أو يدر أرباحا ، ولكننى على الأقل .. لن أخسر الكثير من النقود . وأهم ما يعتمد عليه نجاح المشروع هو أن تكون كل الأخشاب اللازمة فى عمليات البناء .. التى يستخدمها المقاول ، من مصنع أشلى فقط ومن أحسن ما عنده أيضا ، فى هذه الحالة سوف يكسب أشلى مالا .. وليس ثروة ، وسيتوافر له دخل ثابت معقول . ولن يعرف أبدا مصدر هذا الدخل . ويمكن أن توجد الوسائل لضمان بقاء الأمور فى طى الكتمان لو استطعت أن أجد المقاول الذى يحتفظ بلسانه فى فمه والذى لا يسرق كثيرا . وقد عثرت سكارليت على هذا المقاول . انه جو كولتون . ما أن تسترجع الذاكرة شخصية « ميلانى » وكلماتها .. حتى تشعر سكارليت بأنها أحسن حالا ..

ما دامت « ميلى » قد أكدت أن ريت يحبها .. إذن .. فهو يحبها ، وتكون هذه هى الحقيقة وليست التّمنيات .

وترى سكارليت أنها ليست مضطرة لأن تكون وحيدة .. فهى ترتبط بصداقات عديدة خارج إطار « الحرس القديم » فى اتلانتا ، وينتمى أصدقاؤها الى طبقة الرجال الناجحين الذين صنعوا ثروتهم من الحرب الأهلية .. وكان ريت يحتقرهم دائما ويسميههم بـ « الحثالة » ويغادر المنزل عندما تقم سكارليت لهم الحفلات التى تنفق عليها بسخاء .. وكانت سكارليت تعتبر موقف ريت سخيّا ، ذلك انها تعتقد أن « الأغنياء أكثر مرحا على الدوام من الفقراء .. وملابسهم ومركباتهم ومجوهراتهم أفضل ، وهم يقدمون لك أشياء أفضل لكى تاكل وتشرب عندما تزورهم فى منازلهم ،

وقررت ان تقيم اعظم حفل استقبال بين جميع الحفلات التي اقامتها .
غير ان الحفل انتهى بطريقة غير متوقعة ، فقد سمعت سكارليت بطريق
الصدفة وهي تطوف بين المدعوين ، رجل الأعمال « بيل ويلار » وهو
يتحدث عن « الجنوبيين المغفلين » ويتفاخر بأنه كان يستثمر غيبتهم في
تكديس الاموال عن طريق ايها الامهات النكلى ، والارامل بان المحاربين
القدماء في الجيش الجنوبي يصنعون نصبا تذكارية تحفر اسماء الضحايا
القتلى على رخامها .. لكى يستولى على نقودهم ..

وجدت سكارليت نفسها تصرخ وسط ضحكات الرجال الذين يستمعون
اليه في اجلال واعجاب .. وتقول « هذه هى اكثر الحكايات التى سمعتها في
حياتى قذارة ووضاعة ، انت تثير اشمئزأى يا بيل ويلار ، كلكم تثيرون
اشمئزأى ، ماذا تعرف عن الجنوبيين ، او عن الناس المهذبين في
اى مكان .. انت وهؤلاء المعجبون بك حثالة .. كلكم حثالة .. اخرجوا من
بيتى ، انتم تثيرون قرقى ،

لقد تصورت سكارليت هذا الرجل - بيل ويلار - وهو يغش اهلها
واعزاءها .. ربما يرسل رجاله الآن الى سيدة مثل بياتريس تارلتون
او كاثلين كاليفيرت او ديميتى مونرو ، او اى امرأة اخرى في مقاطعة
كليتون تكون قد فقدت ابنها او شقيقها او زوجها في الحرب ليستولوا على
ما يمكن ان يكون في حوزتها من نقود .



الوحدة تطبق عليها من جديد وهى تتجول في ردهات منزلها التى تكاد
تكون معتمة .. وتجلس الى المائدة التى اعتاد ريت ان يجلس اليها ويشرب
كئوسا من البراندى ، وتستعيد وسط موجات الألم والرغبة ذكرى ليلة
لا تنسى مع ريت .. وخرج صوتها فى الصمت الأجوف فى الغرفة التى
تضيئها شمعة واحدة : « ريت .. ريت اننى احتاج اليك »



القرصان ذو اللحية السوداء

جاء الشتاء ومعهُ المزيد من الكوارث في عالم المال والأعمال .. طوابير الخبز ، ومطابخ الحساء الجماعية في المدن الأمريكية الكبيرة .. الآلاف من الأمريكيين يفقدون وظائفهم كل أسبوع مع افلاس الشركات .

واقترَب عيد الميلاد لكي تبدأ سكارليت التفكير في الهدايا التي ترسلها إلى ابنتها « أيلّا » وابنتي « سوايلين » وإلى « ويد » و« ويل » أما « بو » ابن « ميلاني » .. فإن المؤكد أن انديا سوف ترفض الهدية وتعيدها دون فتحها .. كما أن « بو » لا ينقصه شيء الآن .. ذلك أن حساب عائلة ويلكس في متجرها يتضخم كل أسبوع . وابتاعت سكارليت قاطعة سيجار ذهبية لتهديتها إلى « ريت » ولكنها لم ترسلها . وبدلاً من ذلك أرسلت هديتين إلى خالتيها في شارلستون . فقد تحدثان عنهما إلى والدة « ريت » التي قد تحكي بدورها لـ « ريت »

اتساءل عما إذا كان سيرسل لى هدية عيد الميلاد ؟ ربما يأتي إلى البيت في هذه المناسبة ليقطع الطريق على الشائعات .

مجرد هذا الاحتمال كان كافياً لكي يدفع سكارليت - وهي في حالة من النشوة - إلى تجميل المنزل . وعلمت سكارليت ، بطريق الصدفة ، أن هناك حفلة تنكرية راقصة كبرى يجري الإعداد لها في أتلانتا .. ولكنها لم تتلق دعوة للحضور . وتمنت لو كانت قد تركت أثلي يدق عنقه في قبر ميلاني !

فها هم يفرضون عليها العزلة في مجتمع أتلانتا . وقرات في الجريدة أن مدينة شارلستون سوف تشهد حفلات كل يوم وطوال اليوم وحفلة راقصة كل ليلة .. لأسابيع . وحدثت سكارليت نفسها : المؤكد أن ريت سيكون حاضراً في كل هذه الحفلات .

والتقطت عيناها عنواناً في الجريدة « الكرنفال يختتم بحفلة تنكرية »

لا بد أن هذه هي الحفلة التي سمعت عنها . إذن كل شخص في العالم - ما عداي - يذهب إلى حفلات مدهشة ! أما التفاصيل .. فتقول أن الحفلة ستقام في دار أوبرا دى جيفز التي ستتحول إلى « أرض العجائب » بمعنى الكلمة وأن ثلثمائة دعوة ستوزع على أعظم « فرسان » أتلانتا وسيداتهما الأول .

اللجنة ! هكذا صاحبت سكارليت والحزن يمزقها ، وبدأت تبكي كالطفل . ليس من العدل أن يرقص ريت ويضحك في شارلستون وأن يقضى كل أعدائها في أتلانتا وقتاً طيباً بينما تبقى ، هي ، وحيدة في منزلها الكبير الصامت . أنها لم ترتكب إثماً يجعلها تستحق مثل هذه العقوبة .

ولكن .. كيف تدعهم يدفعونها الى البكاء ؟
تجفف دموعها وهي تحدث نفسها في غضب . انها لن تفسح مكانا
للأسى ، فهي ستمضى وراء ما تريده . ستذهب الى الحفل ، وستجد وسيلة
لذلك بطريقة او باخرى .

واتضح انه لم يكن من المستحيل او من الصعب الحصول على دعوة
للحفل . فقد علمت انه سيسبق هذا الحفل موكب الكرنفال الذى سيكون
من مركبات مزينة بالزخارف تعلن عن سلع ومتاجر . وعلى كل من يريد
الاشتراك ان يدفع الرسوم علاوة على تكلفة تزيين العربات ذات المنصات .
اما عن الثوب الذى ترتديه في الحفل الراقص التتكرى ، فإنه لابد ان يكون
متميزا ومبتكرا بالمقارنة مع جميع الاثواب الأخرى . ثوب طويل له ذيل من
الفراء الأبيض . وكل المجوهرات التى تريدها . انها لا تدرى لماذا كان ريت
شحيحا في شراء المجوهرات لها . لقد اشترى لها كل شيء آخر تريده ،
ولكن النوع الوحيد من المجوهرات الذى كان يتحسس له .. هو اللآلئ .
والآن ستضع اللآلئ في شعرها وحول رقبتها ومعصمها . وستعتمد على
ثوبها وقناعها في حمايتها من السيدة ميريويزار ومن انديا ويلكس
والأخريات . وستقضى وقتا ممتعا وتشارك في كل رقصة وتعود لتصبح
جزءا من نبض الحياة .

وفي الكرنفال المهيّب .. شعرت سكارليت بدموع مفاجئة على يديها .
لم تكن دموع الهزيمة ، وإنما دموع الكبرياء . فقد أحرق رجال تشيرمان
مدينة اتلانتا . ونهب الشماليون جورجيا ، ولكنهم لم يتمكنوا من تدمير
الجنوب . ورات الدموع في عيون النساء والرجال .. الذين وقف كل منهم
لتقديم التحية للعلم بعد نزع غطاء رأسه وتنكيس مظلته .



ارتدت سكارليت ثوب ملكة القلوب ، وكانت تفضل ثوب ملكة الماس ،
واللآلئ تليق بملكة حقيقية .. ذيل ثوبها مشغول بفراء ثعلب أبيض ..
قناعها من الساتان الأحمر ويغطي وجهها حتى أعلى الأنف .. طلاء أحمر
للشففتين يتلاءم مع لون القناع .

وتشعر سكارليت بجرأة شديدة وبأمان كامل . فهذه الليلة سترقص
لتمتع نفسها دون ان يتعرف أحد على شخصيتها فيوجه اليها اهانة
او يؤذى مشاعرها ، ما أجمل فكرة القناع !

ورغم القناع على وجهها .. فقد كان يغلب عليها التوتر وهي تدخل قاعة
الرقص بلا مرافق . وانضمت الى قافلة من المقنعين أثناء عبور الباب الى

داخل القاعة دون أن يلحظ أحد أنها وحدها ، فقد أصبحت تبدو كما لو كانت من ضمن أفراد المجموعة . وفوجئت عندما دخلت قاعة أوبرا « دى جيفز » بأنها تحولت الى قصر ملكى .. وفى أحد الأركان شاهدت أكبر مجموعة من أفراد الأوركسترا يقع بصرها عليها حتى الآن .

تقدم نحوها رجل يرتدى ثيابا صينية ، ووضع يده حول خصرها واجتذبتها الى حلبة الرقص . توحى هيئة الرجل بأنه غريب . جو من الغموض والاثارة .. والأوركسترا تعزف الحان القالس وشريكها فى الرقص يصيبها بالدوار بسبب سرعته . وتلمح سكارليت مع كل دورة سريعة .. دائرة من الثياب التنكرية لهنود ومهرجين ودبة وقراصنة وراهبات وكاردينالات .. الجميع يرقصون بجنون مثلها . وعندما توقفت الموسيقى .. كانت قد تقطعت أنفاسها . قالت : « رائع .. ممتع .. الناس كثيرون .. لابد أن كل جورجيا توجد فى هذا المكان للرقص » . قال شريكها : « ليسوا كلهم ، فالبعض لم يتلق دعوات » وأشار بأصبعه .. فرأت سكارليت الشرفات الخارجية تكتظ بالمشاهدين بملابسهم العادية .

سطعت أضواء خاطفة من قرطها الماسى .. وانعكست فى عيني « الصينى » - الذى يرتدى ملابس رجال الامبراطورية الصينية القديمة - من خلال فتحتى القناع .

رقصت كما لم ترقص منذ سنين ، وهى سعيدة لأن أحدا لا يعرفها ، ولا يستطيع أن ينال منها . وكان من السهل أن تتعرف على عجائز « الحرس القديم » وأن تلاحظ وجود أشلى على الفور رغم قناعه . كان يضعشارة الحداد حول كفه . لابد أن انديا « سحبتة » الى هنا حتى يكون لها مرافق . وكان من السهل ملاحظة أن أشلى يكره تواجدة فى هذا المكان .

.. الوقت يمضى . ويحاول بعض المعجبين بسكارليت أن يعرفوا اسمها ، ويحاول احدهم أن ينزع قناعها ، ولكنها تزيحهم بلا مشقة .. والابتسامة لا تفارق شفتيها : لم انس كيف أردع الأولاد المشاكسين .

كانت قد قررت أن تبحث عن مقعد لتستريح بعد أن سحق أحد « الفرسان » الراقصين معها أصبع قدميها تحت حذاءه ، غير أنها سمعت الأوركسترا تعزف احدى اغانيها المفضلة ، فلم تستطع مقاومة الرغبة فى الرقص . ورات العمة بيتيتيا والسيدة السينج فى طريقها .. هل يمكن أن تكونا قد تعرفنا عليها ؟ مزيج من الغضب والخوف يعكر شعورها بالنشوة ، ولكنها حاولت أن تتخلص من أى شىء يفسد عليها هذه المتعة .

وعلى غير ارادتها .. كانت عيناها تتطلعان مرارا الى جانبى قاعة

الرقص ، والى الرجال والنساء الجالسين والواقفين هناك . ووقعت عيناهما على « قرصان » ملتج طويل القامة كان يتكىء على مقبض الباب ، وانحنى لها . واحتبست أنفاسها .. هناك شيء ما .. مظهر خارجي يوحى بالوقاحة .

كان القرصان يرتدى قميصا أبيض وبنطلونا داكن اللون ، ولا شيء آخر باستثناء حزام حريري أحمر عريض يلتف حول خصره ومسدسين مثبتين في الحزام ، وقوسين أزرقين مربوطين بنهايات لحيته الكثيفة ، أما قناعه فقد كان بسيطا وأسود اللون فوق عينيه ، انه ليس من الذين صادفتهم هذه الليلة . هل هو ؟ قلائل من الرجال يضعون لحى كثيفة هذه الأيام . ومع ذلك فالطريقة التي يقف بها ، والطريقة التي يركز بها بصره نحوها مباشرة من خلال القناع وعندما نظرت إليه سكارليت للمرة الثالثة ، ابتسم وظهرت أسنانه الناصعة البيضاء من خلال لحيته السوداء وبشرته الداكنة .. وشعرت سكارليت بدوار انه « ريت » ولكن لا يمكن .. لا بد انها تتخيل الأشياء .. لا .. انها لا تتوهم ، لو كان من تراه شخصا آخر لما كان هذا هو شعورها ، اليست هذه هي طريقته ؟ الظهور في حفل لم يستطع معظم الناس الحصول على دعوة لحضوره .. ان « ريت » يستطيع ان يفعل أى شيء ! وتركت « الصينى » وهى تقول « معذرة ، لا بد ان اذهب » واسرعت نحو زوجها .



انحنى ريت مرة أخرى ليقدم لها نفسه : « ادوارد تيتش ، فى خدمتك يا سيدتى »
— من ؟

هل يظن انها لم تتعرف عليه ؟

داعب ريت شعيرات من لحيته ، وهو يقول : « ادوارد تيتش المشهور باسم ذو اللحية السوداء ، أعظم وغد شق حتى الآن مياه الأطلنطيك ! » قفز قلب سكارليت ، وحدثت نفسها : انه يمزح ، يلقي ببنكاته التي يعرف اننى اكاد لا افهمها ، انها طريقته التي اعتاد عليها قبل ... قبل ان تسوء الأمور . ولا يجب ان اخطئ موضع قدمي الآن . لا يجب . ماذا كنت ساقول قبل ان أحبه كثيرا جدا ؟

قالت : « اننى مندهشة لانك جئت ، إلى حفل فى اتلانطا ، بينما هناك الكثير من الروائع والسهرة فى جوهرك الثمينة . شارلستون »

هكذا .. وهو ما يجب أن يقال . أنه ليس كلاما موجعا تماما .. ولكنه ليس كلاما وديا تماما ، أيضا ، وارتفع حاجبا « ريت » في شكل هلالين أسودين فوق قناعه . وحبست سكارليت أنفاسها . لقد كان وجهه يكتسب هذه الملامح عندما يتذوق ما يسمع . إذن .. فهي تحسن التصرف . قال : — كيف أصبحت مطلعة الى هذا الحد على احوال شارلستون الاجتماعية يا سكارليت ؟

— اقرأ الصحف .. وعلمت ان بعض النسوة الحمقلوات يذهبن هنا وهناك سعيا وراء سباق الخيل .

اللجنة على هذه اللحية ، انها تعتقد انه يبتسم ، ولكنها لا تستطيع ان ترى شفثيه اللتين تختفيان تحت شعرها الكثيف . قال « ريت » : — اننى اقرأ الصحف أيضا ، وحتى في شارلستون يعتبرون إصرار بلدة مبتدئة مثل اتلاندا على أن تتظاهر بانها نيو أورليانز .. من الأخبار المثيرة . نيو أورليانز .. لقد أمضيا فيها شهر العسل .

خذنى الى نيو أورليانز .. مرة أخرى . هذا ما تريد أن تقوله .. ان نبدا من جديد ، وكل شيء سيتغير الى الأحسن ، ولكنها يجب الا تقول هذا الكلام . ليس الآن . وقفز عقلها بسرعة من ذكرى الى ذكرى .. نيو أورليانز وذكرياتها .. شوارع ضيقة مرصوفة بالحصى .. غرف مستطيلة .. ظلال وارقة ، مرايا ضخمة داخل اطر ذهبية باهتة .. أطعمة ممتازة وغريبة . قالت على مضض : « اعترف بأن الشراب والطعام هنا ليس فائرا » ضحك ريت ، وقال : « تصریح قوى ، ولكنه اقل من الحقيقة » . اننى ادفعه الى الضحك . ولم اسمعه يضحك منذ دهور طويلة . لا شك انه رأى الرجال يتزاحمون ويتدافعون للرقص معى .

وسالته : كيف عرفتنى وانا اضع قناعا

— كان يكفى فقط ان اميز المرأة الاقدر من غيرها على ان ترتدى ثوبا لافتا للأنظار .

ونسيت انها تحاول ان تدخل السرور الى قلبه . وقالت : « اوه .. انت .. انت رجل بغيض . انك لست أنيقا يا ريت باتلر بهذه اللحية السخيفة . ويظهر انك نسيت أن تلتصق على وجهك جلد الدب »

— لو اننى فعلت ، لاصبح تنكرى اكثر اتقانا واكمل .. ويا ليتنى فعلت .. فهناك عدد من الأشخاص في اتلاندا لا اتشوق لجعلهم يتعرفون على شخصى بسهولة .

— إذن ، لماذا جئت ؟ ليس لمجرد اهانتي فيما اعتقد ؟

— لقد وعدتك بأن أجعل نفسي ظاهرا بالدرجة الكافية لمنع الشائعات يا سكارليت ، وهذه مناسبة ممتازة .

— وما جدوى ذلك في حفلة تنكرية ؟ لا أحد يعرف شخصية أحد — في منتصف الليل ، تنزع الأقنعة ، أى بعد أربع دقائق من الآن ، سوف نرقص الفالس أمام الناس ، ثم نغادر المكان ..
وأخذها ريت بين ذراعيه ، ونسيت سكارليت غضبها ، ونسيت خطر نزع الأقنعة أمام أعدائها ، ونسيت العالم .. لا شيء مهم سوى أنه هنا .. ويحتضنها .



ظلت سكارليت ممددة معظم الليل بلا نوم .. تحاول أن تفهم ما جرى ، كان كل شيء رائعا في الحفل ، وعندما دقت الساعة منتصف الليل ، قال الدكتور « ميد » أن كل شخص يجب أن ينزع قناعه . وكان ريت يضحك عندما خلع لحيته أيضا . أقسم أنه كان يتمتع نفسه ، ووجه التحية الى الطبيب ، وانحنى للسيدة « ميد » ثم دفعنى الى مغادرة المكان بسهولة مثل خنزير مطلى بالدهن ، ولم يلاحظ الطريقة التى ادار بها الحضور ظهورهم لى ، أو على الأقل فإنه تظاهر بأنه لم يلاحظ ذلك ، كان يبتسم ابتسامة عريضة . وفى العربة ، اثناء الطريق الى البيت ، كانت الظلمة شديدة بحيث يصعب رؤية وجهه ، ولكن صوته بدا مرتلحا ، ولم اعرف ما اقله . وسألنى عن سير الأمور فى تارا وعما إذا كلن محاميه يدفع الفواتير فى وقتها ، وعندما فرغت من اجابته كنا قد وصلنا الى البيت ، وفى تلك اللحظة حدث ما حدث . كان هنا يقف فى الدور الأرضى .. وببساطة قال طابت ليلتك .. كان مرهقا ، وتوجه الى غرفة ملايسه .. لم يكن متحملا ، او فائرا .. قال ببساطة « طابت ليلتك » وذهب الى الطابق العلوى ، ماذا يعنى ذلك ؟ ولماذا ارهق نفسه وقطع كل هذه المسافة ، ليس لمجرد أن يذهب الى حفل بينما هذا هو موسم الحفلات فى شارلستون ، وليس لحضور حفلة تنكرية ، فقد كان يستطيع أن يذهب الى اعظم الحفلات التنكرية .. وعلاوة على كل ذلك فإن له اصدقاء عديدين فى نيو اورليانز . انه سبق أن قال « لكى يمنع انطلاق الشائعات » فى لحظة .. هو الذى بدا .. نازعا تلك اللحية البشعة ، اخذت تسترجع ما حدث فى تلك الاسبوع مرة بعد اخرى الى أن أصيبت بالصداع .. عندما عادت الى البيت بعد السهرة ، كان نومها قصيرا ومضطربا ، ومع ذلك استيقظت فى الوقت المناسب لتنزل الى الطابق

الأرض . لتناول الافطار وهي ترتدى اكثر ثيابها جاذبية .. فهي لا تريد اليوم أن يحملوا اليها وجبة الافطار في صينية الى غرفتها .
كان ريت يتناول افطاره في غرفة الطعام ، قال :
— استيقاظك في هذا الوقت المبكرا عزيزتى تعبير عن مدى حرصك على مشاعر الآخرين .. فانا لم اكن أرغب في أن اترك لك رسالة وداع .
ورفع منديل المائدة : « لقد حزمت بعض الاشياء من بقايا ملابسى ، وسوف أخذها فيما بعد ، وانا في طريقى الى القطار ،
توسل قلب سكارليت : لا تتركنى . وإدارت رأسها الى الناحية الأخرى ،
حتى لا يرى عينيهما ترجوانه أن يبقى . قالت :
— بحق السماء ، اشرب قهوتك يا ريت ، فإننى لن أؤدى مشهدا عاطفيا او أثور .. واتجهت صوب البوفيه وصبت لنفسها فنجانا من القهوة وهي تراقبه في المرأة ، يجب أن تلتزم بالهدوء ، فقد يقنعه هدوؤها بالبقاء .
نهض واقفا ، وساعته مفتوحة في يده ، وقال « لم يعد هناك وقت فهناك أشخاص لابد أن التقى بهم وانا في هذه البلدة ، ساكون مشغولا جدا حتى الصيف ، ولذلك سوف اشيع اننى مسافر الى امريكا الجنوبية لاداء بعض الأعمال . ولن تتردد شائعات حول غيابى لهذه الفترة الطويلة . فمعظم الناس في اتلانطا لا يعرفون أين تقع امريكا الجنوبية وها أنت ترين يا عزيزتى اننى احافظ على وعدى لكى
حتفظ بطهارة سمعتك »

ابتسامة عريضة على وجهه تنطوى ، هذه المرة على تحامل . وإغلق الساعة ووضعها في جيبه « وداعا سكارليت »
— ولماذا لا تذهب بالفعل الى امريكا الجنوبية وتضيع هناك الى الأبد ؟
عندما أغلق الباب وراءه ، امتدت يد سكارليت الى زجاجة البراندى .
لماذا تصرفيت على هذا النحو ؟ لم يكن هذا التصرف يعبر عن شعورها الحقيقي .. ولكنه كان يفعل ذلك معها دائما ، انه يستفزها لتقول اشياء لا تعنيها .. وكان يجب أن تعرف كيف تتجنب أن يملكها الغضب بهذه الطريقة ، غير انه ما كان يصح أن يعايرنى بشأن سمعتى .. كيف عرف اننى منبوذة في هذه البلدة ؟

ولم تكن في أى يوم من أيام حياتها تشعر بهذا القدر من التعاسة



جاء الصيف .. ولم تتحقق زيارة ريت المرتقبة ، ولا كلمة منه ، وكانت سكارليت تسرع كل يوم من المنجر الى البيت حتى تكون في انتظاره إذا وصل في قطار الظهرية ، وفي المساء ترتدى أجمل ثيابها وتزين

بالذئء وتجلس الى مائدة العشاء .. متأهبة لحضوره .. وتمتد المائدة الطويلة أمامها تلمع فوقها الألوان الفضية .. ويزداد شعور سكارليت بالوحدة في تلك الأيام ، بدأت تشرب البراندى بانتظام لكى تنأى بنفسها عن أشباح الصمت والهزيمة ، وهى ترهف السمع .. لعلها تسمع وقع أقدام تقترب . ولم تلاحظ إلا عند حلول الخريف أنها تفرط في الخمر .



في بريد اليوم رسالة من الخالة « اولالى » التى تقيم في شارلستون . لماذا لا تقرأها ؟ قد تحتوى على شىء عن « ريت » خاصة ان والدته من اقرب اصدقاء الخالة . وصدق حدسها فالخالة تتهمها بأنها تستغرق نفسها تماما في التجارة وتقضى ايامها في المتجر رغم انها ليست مضطرة لكل هذا العناء ، وفوق ذلك فإن هذا النوع من النشاط لا يليق بسيدة يجب ان تكون في مكانها الصحيح . الى جانب زوجها ، وثمة تخويه من الخالة بأن واجبها يفرض عليها ان تصارح ابنة شقيقتها سكارليت بكل هذه الأمور وتوجه اليها النصيح .

القت سكارليت بالرسالة فوق المائدة .

إن ، فهذه هى الفصة التى يرويها ريت ويبرر بها موقفه : انها لا تريد ترك المتجر والذهاب معه الى شارلستون يا له من كاذب اسود القلب لقد توسلت اليه ان يصحبها معه وهو يهم بالخروج من هذا الباب . فكيف يجرؤ على الترويج لهذه الفرية ؟

كلمات منتقاة ستلقيها في وجه السيد باتلر عندما يعود

اتجهت نحو البوفيه ، وضبت البراندى في كاسها .. وتناثرت كمية منه فوق السطح الخشبي للبوفيه ازالتها باكمام توبها قد يتنصل ذلك الحفير وينكر انه وراء هذه الأكاذيب . وعندئذ ستلوح برسالة الخالة « اولالى » في وجهه ودعونا نراه بعد ذلك وهو يصف احسن صديقات والدته بأنها كذابه .

وفجأة انحسر غضبها وشعرت ببرودة في اطرافها ، انها تعرف ما سيفعله

— هل تفضلين ان اقول الحقيقة ؟ اننى تركتك لأن الحياة معك لا يمكن احتمالها "

كلا . أى شىء يقال . سيكون أفضل من ذكر الحقيقة حتى أحاسيس الوحدة في انتظار عودته أفضل

وشربت جرعة كبيرة من البراندى وتاملت وجهها في المرآة وهى

تخفض يدها بالكأس الفارغة ، ونظرت الى عينيها . وروعته الصدمة ، انها لم تنظر الى نفسها .. ولم تر صورتها منذ شهور .
وهي لا تصدق الآن ان هذا الوجه الشاحب الذابل ذا العينين الغائرتين .. هو وجهها ، وشعرها يبدو وكأنه لم يغسل منذ أسابيع . ماذا حدث لها ؟

وامتدت يدها بطريقة تلقائية الى الزجاجة . وهنا أدركت الاجابة على سؤالها ، واصابها جزع صاعق ، وسحبت يدها بعيدا ، ولاحظت ان يدها ترتعش . وهمست : « يا الهى » وتشبثت بحافة البوفيه لكي تحفظ توازنها . وحدثت في المرأة . قالت وكأنها تبصق : « غبية ! » وارخت جفونها ، وسالت الدموع ببطء على خديها ، ولكنها مسحها بالاصابع المرتعشة ، والحت عليها الرغبة اكثر من أى وقت مضى في حياتها .. في أن تشرب .. وتحرك لسانها ليرطب شففتيها . وقبضت يدها اليمنى على الكأس . وأحسّت وهي تنظر الى يدها .. بانها يد شخص آخر . وأمسكت بالزجاجة التي كانت تمثل بالنسبة لها في وقت من الأوقات وعد الخلاص والمهرب .. وابتعدت عن صورتها المخيفة في المرأة .. وبكل قوتها طوحت بالزجاجة وقذفتها في سطح المرأة ..

رأت سكارليت وجهها يتحطم الى أجزاء .. ولكن ابتسامة الانتصار كانت ترسم على ملامح هذا الوجه .

أنهات أجزاء من المرأة وأحدث سقوطها على الأرض دوبا كطلقة المدفع .
وها هي سكارليت تبكي وتضحك وتصرخ ثم تهلل لتحطيم صورتها وتصف نفسها بكلمة واحدة : « جبانة ! جبانة ! جبانة ! » ولم تشعر بالجروح التي أصيبت بها من تناثر شظايا زجاج المرأة على ذراعيها ورقبتها ووجهها ..

خيط من الدماء فوق خدها .. ولسانها كقطعة من الملح واصابعها اصطبغت باللون الأحمر .

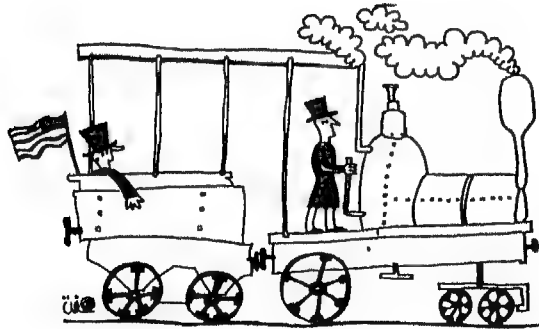
انها الآن مع نفسها .. سواء أرادت أم لم ترد . ولا توجد أى كمية من البراندى قادرة على أن تغير هذه الحقيقة : ريت لن يأتى الى هذا البيت ، فهو لم يعد بيته . وكان عليها أن تعرف ذلك منذ وقت طويل . لقد رفضت أن تواجه الحقيقة ، كانت جبانة وغبية .

.. ولكن ليست هذه هي سكارليت أوهارا التي واجهت من قبل أسوأ ما في العالم وتصدت له وعالجته واقتحمت الخطر لكي تحصل على ما تريده . هالها الأمر ، وارتعدت ، لقد كانت توشك أن تهزم نفسها .

ولكن ذلك كله قد انتهى . فقد جاء الوقت الذى تضع فيه حياتها بين يديها وتدافع عنها حتى النهاية .. لا يراندى بعد الآن . فى نفس تلك اللحظة ، كان جسدها كله يصرخ طلبا للشراب ، ولكنها رفضت أن تستجيب ، لقد فعلت ما هو اقصى من ذلك . واصعب فى حياتها . وتستطيع ان تفعل ذلك الآن .. ويجب .

سكارليت ترتجف من رأسها حتى قدميها ، ولكنها تتحمل على نفسها .. وترتقى السلم الى الطابق الأعلى . انها تريد ان تغسل شعرها ، وهى فى حاجة الى اسابيع قليلة ، لكى تتغلب على ضعفها وتقهره ، وتعود كما كانت .. ينبغى ان تكون كما كانت دائما .. قوية وجميلة ، ولا وقت للضياع .

« ريت ، لم يرجع اليها ، ولذا فإنها يجب ان تذهب اليه . الى شارلستون .



● القسم الثانى ● مخاطرة كبرى

● الفنان البريطانى « فيفيان لى » (فى دور « سكارلت أوهارا »)
الذى حققت فيه مع كلارك جيبيل (فى دور « ريت باتلر ») أعظم
نجاح فى تاريخ السينما الأمريكىه حتى اليوم



شارلستون

وداعا اتلانتا ..

انها الآن في الطريق لاستعادة « ريت » . لقد تحدد هدفها . وكل طاقاتها تحتشد لبلوغه . سوف تحب شارلستون هذه المرة . فهي مصممة على ذلك رغم أن « ريت » يحاول إثارة الناس ضدها كما هو واضح . سوف يتغير كل شيء . لقد كانت تقول لنفسها دائما « لانتظري إلى الخلف » .. وهي تتمثل الآن كل ما في هذه العبارة من معنى . فكل حياتها وراءها .. وتتسع المسافة بينها وبين حياتها الماضية مع كل دورة لعجلات القطار . لقد تركت كل شئون عملها وإدارته المالية للعم هنرى هاميلتون .. مع وضع كل الضمانات التي تكفل امداد المقاول جوكولتون بالمال لاستكمال المشروع . وهكذا يجرى تنفيذ تعهداتها لميلانى . وطفلاها مستقران في « تارا » . ولأول مرة في حياتها بعد سن الرشد تحس بانها حرة في أن تفعل ما تشاء . وسوف تثبت لـ « ريت » انه كان على خطأ عندما رفض ان يصدق انها تحبه . وسوف يأسف على انه هجرها . وسوف يضع ذراعيه حولها ويقبلها . وسيكونان سعيدين إلى الأبد .. حتى لو استقر بهما الحال في شارلستون إذا أصر « ريت » على البقاء هناك ..

كانت الخالتان « بولين » و « أولالى » في استقبالها في منزلها في شارلستون . أصبحتا طاعنتين في السن وتحدثان في توافه الأمور . ويدب بينهما الخلاف حول العديد من المسائل . حتى على مدى التشابه بين سكارليت وأماها ..

فوجئت سكارليت في اليوم التالي مباشرة بانهما حددتا موعدا في نفس اليوم لمقابلة الميانور باتلر والدة « ريت » . وصعقت سكارليت ، فهي لم تكن مستعدة ، حتى تلك اللحظة ، لمواجهة السيدة التي يعبدها ريت والتي تحمل لها ذكرى غائمة عندما التقت بها في جنازة ابنتها « بونى » ولا تعرف عنها سوى انها طويلة القامة وجلييلة ومهيبة في صحتها . انى اعرف اننى لا بد أن أراها ولكن ليس الآن .. لنفترض أن ريت قال لها كل شيء عن السبب في تركه اتلانتا وأنه انتهى علاقة الزواج «

ضحكت الخالتان عندما تحدثت سكارليت عن المركبة التي ستقلهن إلى السيدة باتلر . قالت « أولالى » : لم يعد يوجد مخلوق في شارلستون يملك مركبة ابنتها الطفلة العزيزة باستثناء من تدعى سالى بروتون ، سوف نسير على اقدامنا . الجميع يفعلون ذلك هنا ..

على مرمى البصر ، تبدو المياه الخضراء الداكنة في الأفق على امتداد
ميناء شارلستون ، والإعلام ترفرف على صواري السفن .. وعلى الناحية
الأخرى سلسلة من الأشجار ، وطيور تحلق في سماء صافية زرقاء قبل أن
تستدير وتهبط وتكاد تلامس الأمواج وكأنها تمارس لعبة مسلية .. ونسمة
خفيفة تداعب عنق سكارليت .

قالت لخالتيها . « انه طقس رائع » ..

المدينة تعج بالجنود الشماليين بحلهم الزرقاء .. فملزالت شارلستون
تخضع للاحتلال العسكري قالت « اولاي » . الأرجح انهم لن يتركونا ابدا
وحدها ، انهم يكرهوننا لاننا طردناهم من فورت سامتر وصمدنا فيها ضد كل
استولهم اثناء الحرب .

وقالت سكارليت همسا : « يا الهى » . ماذا فعلت ؟ لقد جاءت بقدمها
إلى احضان العدو . كانت تعرف ما معنى الحكم العسكري : العجز
والغضب والخوف الدائم من أن يصادروا بيتك او يضعوك في السجن
او يطلقوا عليك النار ، إذا تعديت على قوانينهم .. الحكم العسكري مهيمن
بقوته . ولقد عاشت خمس سنوات قاسية تحت هذا الحكم ونزواته
واجراءاته التعسفية .

شعرت بضعف في ركبتها ، فهي لاتستطيع مواصلة السير ودخول هذا
المنزل الكبير الفخم الذى اشارت إليه الخالتان على انه منزل اليانور باتلر ،
فهي لم تر مكانا بهذه الروعة . كيف ستجد شيئا تقوله للمرأة التى تعيش
في هذا الفخامة ؟ والتى يمكن أن تدمر كل آمالها بكلمة واحدة لريت ؟
سيدة طويلة أنيقة ذات شعر ابيض لامع يتوج وجها جميل القسمات ..
قالت لها « اولاي » : عزيزتى اليانور . وقالت السيدة باتلر « انك احضرت
سكارليت ، ياطفلى العزيزة ، يبدو عليك الشحوب » ، ووضعت يديها بخفة
على كتفى سكارليت وانحنى لتقبل خدها .

وشعرت سكارليت بعينيها تفيضان بدموع لاسيطرة لها عليها .. وقالت
والدة ريت : « هيا ، هيا ، كل شيء على مايرام ياعزيزتى ، مهما كان ، كل
شيء على مايرام الآن .. لقد جئت إلى بيتك في النهاية ، كنت اتشوق
لحضورك ، واحاطت زوجة ابنها بذراعيها واحتضنتها .



استقبال ودى

اليانور باتلر سيدة جنوبية . صوتها الناعم البطيء وحركاتها الرشيقة الممهلة تخفى وراءها طاقة هائلة وكفاءة وقدرة منذ الولادة تتدرب الفتاة الجنوبية على الاهتمام بالزخارف والزينات وعلى أن تجيد الاصغاء إلى الآخرين بتعاطف وافتتان .. وعلى أن تكون مستضعفة بطريقة جذابة وخاوية الرأس على نحو يثير الإعجاب . كذلك تتدرب على تولى مسئوليات معقدة وهامة في منازل ضخمة تكتظ بحشود من الخدم .. في الوقت الذي تحرص فيه على أن تخلق انطبعا لدى الآخرين بأن المنزل والحديقة والمطبخ والخدم يديرون شؤون أنفسهم بأنفسهم بينما سيدة المنزل تركز اهتمامها على مضاهاة ألوان الحرير من أجل تطريزها الرقيق وغير ذلك من الأمور غير الدنيوية . وعندما أدت مشاق الحرب إلى تخفيض جيش الخدم في المنازل الكبيرة من ثلاثين أو أربعين إلى واحد أو اثنين .. زادت مسئوليات سيدات المنازل وظلت الطموحات القديمة .. كاملة .. إذ يجب أن يستمر استقبال الضيوف وإيواء العائلات .

أمرت اليانور باتلر بنقل حاجيات سكارليت من منزل خالتيها إلى غرفة النوم الكبيرة التي تطل على الحديقة حيث ينام « ريت » . وخلال عشر دقائق ، تم كل شيء لنقل سكارليت دون اعتراض أو مقاومة أو مشاعر جريحة من منزل خالتيها إلى إيقاع الحياة الهادئ ، تحت سقف اليانور باتلر . وشعرت سكارليت بأنها عادت فتاة صغيرة ، أمنة من كل أذى ، وتحت حماية الحب الأقوى الطاغى .

أزال استقبال اليانور الودى الحار .. كل المخاوف والذكريات التي عاودتها عندما رأت الجنود الشماليين ، وبدد مألدها من هواجس حول نتائج قرارها بأن تتبع ريت إلى شارلستون . سوف تستعيد حب ريت مرة أخرى وستكون محل إعجاب واحترام وتقدير الجميع ولن تعود وحيدة مرة أخرى .. أبدا .



دعتها اليانور باتلر للقيام معها بجولة في شارع كنج ستريت ، وهو المركز التجارى للمدينة حيث توجد أكبر المحال التجارية .. وفي ختام الجولة ، قالت اليانور باتلر : « سكارليت » أمل أن تغفرى لى أعرف أنه ما كان يجب أن أقول ذلك ، ولكن واجبى أن أسأل .. « — ماذا يامس اليانور ؟ هل تشعرين بتعب ؟ الاتريدين منى أن

احضر لك شيئا بسرعة ؟ تعالى واجلسى . وأشارت إلى مقعد فى حديقة الشارع .

— « كلا ، كلا ، إنى فى حالة طيبة تماما ، اننى فقط لا أستطيع أن اظل اجهل . ألم تفكرى قط أنت وريت فى طفل آخر ؟ اننى أدرك أنك خائفة من أن تعاني مرة أخرى من قلب كسير كما حدث عندما ماتت بونى .. »
— « طفل .. » هزيت سكارليت الكلمة وهى ساهمة .. هل قرأت السيدة باتلر افكارها ؟ لقد كانت تعول على أن تحمل جنينا بأسرع وقت ممكن . عندئذ لن يبعدها « ريت » عنه مطلقا .. لقد كان مجنونا بحب الأطفال ، وسوف يحبها إلى الأبد لو أنجبت له طفلا

كان الاخلاص يمتزج بصوتها وهى تقول « مس اليانور » اننى اريد طفلا أكثر من أى شيء آخر فى الدنيا كلها ..

قالت السيدة باتلر : « شكرا لله . اننى أتلهف على أن أكون جدة مرة أخرى ، عندما أحضر ريت معه بونى لزيارتى ، لم تترك احضانى .. كنت أقول « هل ترين يا مارجريت - إنها زوجة ابنى الآخر روس وسوف تقابلينها اليوم - مسكينة مارجريت ، انها عاقر ، وروز مارى ، شقيقة ريت ، أخشى كثيرا .. انها لن تتزوج أبدا » .

وانطلق تفكير سكارليت بطريقة محمومة لتجميع الأجزاء المتناثرة من الوقائع حول عائلة ريت ومغزى هذه الوقائع بالنسبة لها . روز مارى يمكن أن تكون مشكلة ، فالعوانس مزعجات ، أما شقيقه روس فهو رجل ، وهى لا تجد صعوبة فى اكتساب الرجال إلى صفها . أما العاقر مارجريت فإنها لا تستحق أن يقلق المرء بشأنها فالأرجح أنه لا تأثير لها على ريت . ولكن ما أهمية أى منهم ؟ ان الأم هى التى يحبها ريت كثيرا جدا ، والأم تريد أن يكونا معا ومعهما طفل ، طفلان ، دستة من الأطفال . إذن فإن ريت ينبغي أن يعيدها إليه . قبلت سكارليت .. السيدة باتلر بسرعة على خدها ، وقالت : « إننى اتحرق شوقا لانجاب طفل يامس اليانور ، سوف نقنع ريت .. نحن معا » .

قالت اليانور : « لقد جعلت منى انसानة سعيدة جدا ياسكارليت ، لنعد إلى المنزل الآن . »

كانت فترة بعد الظهر مخصصة فى برنامج اليانور باتلر لما تسميه اجتماع « اللجنة » التى تتولى مهمة بيع الكعك واقامة أسواق للصناعات اليدوية ، وما شابه .. بهدف جمع الأموال للأرامل واليتامى من ضحايا الحرب .

مركبة خفيفة مقفلة قديمة الطراز خضراء اللون يجرها جوادان نزل ركابها وفي المقدمة مارجريت زوجة روس . انها شابة ذات عينين جميلتين ووجه نحيل شاحب لا لون له . ونزلت إيما انسون عضو اللجنة ولحقت بها سالى بروتون .. وهي امرأة في الاربعينات ويشبه وجهها .. وجه القرد ، ويبدو مظهرها اشبه بالغلام النشط وأغرب ما في الأمر انها صاحبة المركبة وتتولى قيادة مركبتها بنفسها .. ونزل إدوارد كوبر الذى يتميز بالاسراف في عبارات الاطراء والمجاملة . وسمعت سكارليت صوتا جديدا يقول « مس اليانور » اغفري لى ، أسفة لتأخرى ، والتفتت سكارليت إلى مصدر الصوت ، وتجمدت ، كانت هناك فتاة شابة تتكلم بصوت ناعم عند مدخل الباب ذات شعر كستنائى وعينين رماديتين انها تشبه « ميلانى » عندما عرفت لأول مرة ، هل يمكن أن تكون ابنة عمها ؟ لم اسمع من قبل ان اسرة هاميلتون لها اقارب في شارلستون ، انها أن هامبتون التى تقوم في اللجنة بدور الخبيرة ..

السيدة اليانور تريد من الجميع تناول الشاي والكعك والسندويشات حتى لا تشرب اذهانهم اثناء مناقشات اللجنة ، وتطلب من سكارليت ان تشد حبل الجرس لاستدعاء احد الخدم حاملا المزيد من الشاي .. ولم يحضر الشاي . شدت سكارليت الحبل مرة ثانية ثم ثالثة بلا نتيجة . ربما يوجد خلل في الجرس ، ولا سبيل إلا النزول إلى المطبخ وابلاغ الخدم . وشرعت تتحرك من ركن الغرفة متجهة إلى الباب ولكن الباب فتح :

— « هل استخدمت الجرس من أجل الشاي يا ميسز باتلر ؟ »

ودفع « ريت » الباب بقدمه لكي ينفتح على مصراعيه . وكان يحمل بين يديه صينية فضية ضخمة فوقها اطباق الشاي والسكر واللبن ، ويبتسم في سرور من المفاجأة التى صنعها .

ريت توقفت سكارليت عن التنفس ، كم هو وسيم ، لابد انه كان في مكان مشمس ، فقد أصبحت بشرته غامقة مثل الهنود . يا إلهى ، كم تحبه ، إن قلبها يخفق بقوة حتى يكاد كل الحاضرين يسمعون دقاته . قالت السيدة باتلر : « ريت ياعزيزى ، أخشى الا اكون قادرة على تحمل الموقف ، لأنك ذكرت « بعض الفضة » في فيلادلفيا . ولم تكن هندى فكرة انه طقم الشاي وكأنه لم يمس . انها معجزة »

وقال ريت : انه ايضا ثقيل جدا ، مس إيما هلا تفضلت بإزاحة هذا الصينى المزيف الموضوع على المائدة حتى اضع الصينية ، .. محبوبيتى سالى ، متى توافقين على السماح لى بمبارزة زوجك حتى الموت واختطافك ؟ ووضع ريت الصينية على المنضدة ، ومال عبرها وقبل

النسوة الثلاثة الجالسات وراءها ثم تطلع حوله .
 انظر إلى . هكذا تمنّت سكارليت في صمت من الركن المعتم الذى تقف فيه . قبلنى .. ولكنه لم يرها : « مارجرىيت كم تبدى جميلة في هذا الثوب ، إن روس لا يستحقك .. كيف حالك يا آن ، اننى مسرور برؤيتك ، إدوارد .. لا أستطيع أن أقول لك نفس الشيء ، فانا لا أوافق على أن تجمع حولك « حريما » في بيتى عندما أكون خارجه تحت وابل المطر في أسوأ مركبة في أمريكا الشمالية وأنا اتشبث بالفضيات العائلية وأضمها إلى صدرى لأحميها من « أصحاب الخرج » (*) .

وابتسم « ريت » وهو يخاطب والدته قائلا : « كفى عن هذا البكاء الآن يا أمى العزيزة ، وإلا فإننى سأعتقد أنك لم تتقبلى مفاجأتى التى حملتها معى » .

وتطلعت اليانور إلى ابنها ، ووجهها يشع بالحب : « حلت عليك البركة يا ابنى ، أنت تسعدنى إلى أقصى الحدود » . ولم تستطع سكارليت أن تنتظر أكثر من ذلك . اندفعت إلى الامام :
 — « ريت ، حبيبى » .

وادار رأسه نحوها . وتوقفت . كان وجهه صارما .. خاليا من التعبير والانفعال .. سيطرة حديدية تقمع كل الأحاسيس ، ولكن عينيه تلمعان .. واجه كل منهما الآخر لحظة احتبست خلالها الأنفاس . ثم انقلبت شفتاه إلى أسفل عند زاوية معينة لتصنع ابتسامة ساخرة تعرفها جيدا وتحشاشها كثيرا . قال ببطء ووضوح : « انه لرجل محظوظ ، ذلك الذى يجد في انتظاره مفاجأة أكبر من تلك التى جاء بها » . ومد يديه لها . ووضعت سكارليت أصابعها المرتعشة في راحتيه ، وقد فهمت انه تعمد أن يبقى على مسافة بينهما بذراعيه الممدودتين . ولمس شاربه خدها الأيمن ثم الأيسر . وحدثت نفسها قائلة : إنه يود لو يقتلنى . ومنحها هذا الادراك وما ينطوى عليه من أخطار .. شعورا غريبا بالانارة . ووضع ريت ذراعيه فوق كتفها ، وامسكت يده بالجزء الأعلى من ذراعها . وقال : « أنا متأكد ايها السيدات ، وانت يا إدوارد ، انكم سوف تاذنون لنا بالانصراف ، فقد مضى وقت طويل منذ اتاحت لي فرصة الحديث مع زوجتى . سنصعد إلى

(*) هم القادمون من الشمال الأمريكى إلى الولايات الجنوبية وليس معهم غير ما يحملونه في أكياس من الخيش تشبه « الخرج » .. سعيًا وراء الريح الشخصى عقب الحرب الأهلية الأمريكية .

الطابق العلوى ونترككم تحلون مشكلة ضحايا الحرب « .
ودفع سكارليت ناحية الباب دون أن يتيح لها فرصة إلقاء تحية المساء
على الحاضرين .



ورقة رابعة

— « ماذا تصنعين هنا بحق الجحيم ياسكارليت ؟ »
 انها الآن في غرفة نومها وقد أغلق الباب ووقف مسندا ظهره إليه
 وأرادت أن تمد ذراعها نحوه ، ولكن الغضب الساخن في عينيه حذرهما من
 أي تفكير في هذا الاتجاه . وحدقت سكارليت ، في تساؤل برئ ، في وجهه
 وكان صوتها مندفعاً ولاهثاً . وسأحرا عندما تكلمت : « كتبت الخالة
 أولاً لتخبرني بما تقوله ياريت حول تشوئك لرؤيتي هنا لولا استغراقي في
 العمل بالمتجر .. أه يا حبيبي ، لماذا لم تقل لي ؟ إنني لا أبالي مطلقاً بالمتجر
 إذا كان الأمر يتصل بك » .
 انها الآن ترقب عينيه بقلق .

— « هذا لا يجدي ، ولا نفع من ورائه ياسكارليت .. »
 — « ماذا تعني ؟ »

— « كل ذلك لا فائدة منه على الإطلاق .. لا التفسير المتحمس الذي يتقد
 حرارة .. ولا التظاهر البريء بالعجز عن الفهم . أنت تعرفين أنك لن
 تتمكني من خداعي بالكذب » كان ذلك صحيحاً ، وهي تعرفه ، وعليها أن
 تكون صادقة .

— « جئت لأنني أردت أن أكون معك » .
 عبارة هادئة تحتوى على وقار .. وبساطة .
 نظر إليها ريت مباشرة ورفع رأسه في كبرياء وأصبح صوته أكثر ليونة .
 قال :

« يا عزيزتي سكارليت ، كان يجب أن نكون أصدقاء في الوقت المناسب ،
 عندما تخف وطأة الذكريات وتصبح حنيناً مريراً حلوا .. قد نتوصل إلى
 ذلك في حينه ، إذا كنا من ذوي النزعة الخيرة وصبورين ، ولكن لأشياء أكثر
 من ذلك » وأخذ يخطو في نفاذ صبر عبر الغرفة :
 « ماذا يجب أن أفعل لكي أجعلك تفهمين ؟ انني لا أريد إيذاء مشاعرك ،
 ولكنك تضطرينني ، انني لا أريدك هنا ، عودي إلى أتلانتا ياسكارليت ،
 اتركيني ، انني لم أعد أحبك ، لا أستطيع التحدث على نحو أكثر وضوحاً
 من ذلك . »

امتقع وجه سكارليت ، بينما تألقت عيناها الخضراوان وسط بشرة
 بيضاء مثل الطيف :
 « أستطيع أن اتحدث بوضوح أيضاً ، ياريت ، أنا زوجتك وانت

زوجي »

— « وضع بائس عرضت ان اصححه »
كانت كلماته كلذع السياط . ونسيت سكارليت انها يجب ان تملك زمام
نفسها .

« اطلقك ؟ مطلقا ، مطلقا ، مطلقا . ولن اعطيك ابدا سببا لطلاقى ،
ومثل ما يجب ان تكون عليه اى زوجة مطيعة وطيبة ، فقد جئت لآكون إلى
جانبك ، متخلية عن كل ما اعتبره عزيزا » .
ابتسامة ظافرة ارتسمت على شففتها قبل ان تلقى بورقتها الرابعة :
— « لقد امتلات والدتك بهجة لأننى هنا . ما الذى ستقوله لها إذا
طردتنى ؟ اما انا فساقول لها الحقيقة وستحطم قلبها » .

واخذ ريت يذرع الغرفة الفسيحة من اقصاها إلى اقصاها .. وهو يتمتم
باللعنات ، وبالكلمات النابية والمبتذلة التى لم تسمعها سكارليت من قبل .
هذا هو « ريت » الذى كان مجرد اشاعة بالنسبة لها ، ريت الذى اندفع
وراء جنون الذهب إلى كاليفورنيا ، ودافع عن مصالحه بالسكين والركلات .
هذا هو « ريت » مهرب الخمر الذى ارتاد احقر الحانات فى هافانا .
« ريت » المغامر الخارج عن القانون ، صديق ورفيق المرندين من امثاله .
ظلت تراقبه وهى فى حالة من الصدمة والافتتان والاثارة رغم ما يصدر عنه
من تهديد ووعيد . وفجأة توقفت خطواته التى تشبه دبيب الحيوان
والتفت لكى يواجهها . عيناه السوداوان تلمعان ولكنه لم يعد بريق
الغضب وإنما تعكسان المرح والظلمة والمرارة والهموم .. إنه الآن ريت
باتلر الجنتلمان من شارلستون .

قال وهو يبتسم ابتسامة ساخرة ملتوية : « الحركة المفاجئة للملكة هى
« كش ملك » ولكن الملك لم يمت ياسكارليت » . ورفع راحتيه المفتوحتين
علامة الاستسلام . لم تفهم ما قاله ، ولكن حركة يديه ولهجة صوته
جعلتاها تدرك انها فازت .. بشئ .

— « إذن .. سابقي » ؟

— « ستبقين إلى أن ترغبى فى الرحيل ، ولا اتوقع ان يكون ذلك بعد
وقت طويل جدا » .

— « ولكنك مخطيء ياريت .. إننى احب البقاء هنا » .

تعبير مالوف قديم مر بوجهه .

تعبير يكشف ان صاحبه يضحك على ما يسمعه ويتشكك فيه ويرى
النهايات قبل حدوثها .

— « منذ متى وانت فى شارلستون ياسكارليت ؟ »

— « منذ ليلة أمس » .

— « وتعلمت أن تحببها بهذه السرعة ؟ .. أهذا على حساسيتك ، لقد طردوك من اتلاندا - وباعجوبة بدون القار والريش - وعولمت هنا بتهديب من سيدات لا يعرفن طريقة أخرى للتعامل مع الناس ، ومن ثم تظنين أنك وجدت ملجأ وملاداً »

وضحك من تعبيرات وجهها .

وواصل كلامه : « نعم . مازال هناك زملاء لى فى اتلاندا . واعرف كل شيء عن نبذك من المجتمع هناك . وحتى حفالة للمجتمع التى اعتدت أن تختلطى بها لن تكون لها علاقة بك بعد الآن » .

وصاحت : « هذا غير صحيح ، أنا التى طردتهم » .

وهز ريت كتفيه تعبيراً عن اللامبالاة وقال : « لا داعى للاستمرار فى مناقشة هذه المسألة ، المهم أنك الآن هنا ، فى منزل أمى وتحت جناحها . ولأننى أحرص بشدة على سعادتها ، فإننى لا أستطيع فى الوقت الحاضر أن أفعل شيئاً . ومع ذلك ، فإننى لست مضطراً بحق . أنت ستعلمين ماهو ضرورى دون أى إشارة من جانبى . وسوف تكشفين حقيقتك ، وعندئذ سيشعر كل شخص بالشفقة على حالى والتعاطف مع أمى . وسوف أحزمك وأشحنك إلى اتلاندا وسط التصفيق الصامت لطائفة الأرستقراطيين المحترمين بأكملها .. أنت تظنين أنك تستطيعين الظهور بمظهر السيدة ، اليس كذلك ؟ أنت لاتستطيعين خداع شخص أبكم وأصم وأعمى » .

— « اللعنة عليك . أننى سيدة . المشكلة أنك لاتعرف ما معنى أن يكون المرء مهذباً . وأكون شاكراً لك لو تذكرت أن والدتى كانت من عائلة روبيلا فى سافانا ، وأن عائلة أوهارا تنحدر من سلالة ملوك أيرلندا ! »

كانت ابتسامة ريت رداً على هذا القول متسامحة بشكل مثير .

— « دعى هذا الآن ياسكارليت ، أرينى الملابس التى أحضرتها معك » .

جلس ريت فى أقرب مقعد ومد ساقيه الطويلتين . حملقت سكارليت فى وجهه ، وقد أصابها توجس شديد من هدوئه المفاجئ . وأخرج ريت سيجاراً من جيبه :

« هل تمنعين .. أن أدخن فى غرفتى ؟ »

— طبعاً لا

— شكراً . الآن ، أرينى ملابسك . المؤكد أنها جديدة ، فانت لاتشرعين فى محاولة استعادة مودتى دون ترسانة من التنورات والمساتين الحريرية والعباءات ، وكلها بنفس الذوق المقيت المروع الذى هو السمة المميزة

لك ، وأنا لا أريدك أن تجعلى أمى مادة للضحك .. ولذلك أريد أن أرى هذه الثياب ياسكارليت ، وسأرى ما يمكن أن يصلح منها »
وأخرج قاطعة من جيبه ، وتجهمت ملامح سكارليت ولكنها سارت ببطء وشموخ إلى غرفة الملابس لجمع ملابسها . ربما كان هذا شيئا طيبا . لقد أشرف ريت دائما على انتقاء ثيابها .. وكان يجب أن يراها ترتدى الملابس التى اختارها ، وكان فخورا عندما كانت تبدو ذات ذوق رفيع وجميلة . فإذا أراد أن يشارك في مظهرها مرة أخرى وأن يكون فخورا بها ثانية فإنها ستبدي الرغبة في التعاون . ستجرب ثيابها كلها على جسمها من أجله . وبهذه الطريقة يراها بقميصها الداخلى ..

وتحركات أصابع سكارليت بسرعة لكى تفك الثوب الذى ترتديه . وأخرجت نفسها من كوم القماش ثم جمعت ثيابها الجديدة في يديها وسارت ببطء إلى غرفة النوم .. ذراعاهما عاريتان ، ونصف صدرها مكشوف وفوق سيقانها جوارب حريرية . قال ريت : « ضعيها على السرير ، وضعى دثارا فوقه قبل أن تتجمدى ، لقد ازدادت البرودة مع هطول المطر ام لم تلاحظى ذلك ؟ » وقال : « لا تصيبى نفسك بالبرد وانت تحاولين ممارسة الاغراء ياسكارليت ، انك تضيعين وقتك » .

مال لون وجهها إلى الزرقة من الغضب ، واصبحت عيناها اشبه بنيران خضراء ، ولكن ريت لم يكن ينظر إليها ، كان يفحص الملابس المبهجة فوق الفراش . وطلب اجراء تعديلات على بعض الثياب منها تمزيق أجزاء مزركشة بينما اعتبر ثيابا أخرى لاتصلح إلا لخدامتها .

لم يستغرق الأمر سوى بضع دقائق ، وكان قد استكمل « فرز » جميع الثياب وتصنيفها بحيث تكون ذات ذوق افضل واكثر بساطة . وقال : إن بعضها يحتاج إلى إحلال أزرار سوداء بسيطة محل الأزرار الذهبية . وقال : « سوف تحتاجين إلى بعض الأحذية القوية » .

وقالت سكارليت بصوت نلجى : « لقد اشتريت هذا الصباح عندما ذهبت مع والدتك للتسوق ، لا أدري لماذا لاتشتري مركبة لوالدتك مادمت تحبها كثيرا ، لقد أرهاقها طول السير »

— « انت لاتفهمين شارلستون ، وهذا هو السبب في انك ستكوئين تعيسة هنا خلال وقت قصير جدا . لقد استطعت ان اشترى لها هذا المنزل لأن منزلنا دمره الشماليون ولأن كل شخص نعرفه مازال لديه منزل بهذه الفخامة ، واستطيع تائيته على نحو أروع من منازل اصدقائها لأن كل قطعة فيه نهبها الشماليون بينما اصدقائهم مازالوا يملكون الكثير من اشيائهم . ولكن لا استطيع ان أفصلها أو أعزلها عن اصدقائها بشراء سلع ترفيه

لا يستطيعون شراءها »

— « ولكن سالى بروتون لديها عربة »

— « ان سالى بروتون ليست مثل أى شخص آخر . لقد كانت كذلك دائما . سالى حالة خاصة ، وشارلستون تحترم غرابة الأطوار وقد تعذب بها ولكنها لاتتسامح مع التفاخر والمباهاة بغرض لفت الانظار ، وانت ياعزيزتى سكارليت لم تستطعى يوما مقاومة ولعك بالتفاخر والمباهاة »
— « أمل أن تكون مستمتعا بإهانتى ياريت باتلر » !

وضحك ريت : « الحقيقة ، أنا مستمتع ، الآن تستطيعين الشروع فى اعداد أحد هذه الثياب وجعله صالحا لكى ترتديه هذا المساء اما انا فسأذهب لتوصيل أعضاء اللجنة إلى بيوتهم إذ لايجب أن تتولى سالى بروتون هذه المهمة فى هذه العاصفة . »

بعد خروجه من الغرفة ، جلست سكارليت طويلا تفكر فى ريت . انها لم تعرفه على الاطلاق ، لم تعرفه ابدا .. وثمة أشياء كثيرة حوله تثير حيرتها .. وافاقت بعد وقت غير قصير من احلام اليقظة .. لابد من إعداد ثوبها ، فهي تريد إظهار جمالها وأنوثتها من أجل ريت ..
خلال رحلة العودة لاحظ الضيوف نظرات الحب فى عيني أن هامبتون مصوبة نحو ريت باتلر ..



سهرة على العشاء . اليانور وريت وسكارليت .. وحكليات عن الجدود وضحكات ، واليانور تحكى لسكارليت عن والدتها . وخرج ريت لمتابعة عمله . واقتحم روس المنزل وهو مخمور وقام بتقبيل سكارليت بالقوة وهو يقول : إنها عاهرة . وتامرر اليانور بالخروج من البيت وعدم العودة إلا إذا اقتنعت بأن اعتذاراته تكفى لإزالة آثار ماحدث . واعتذرت زوجته مارجريت وروت الام لسكارليت مأساة روس الذى يفشل فى كل أعماله ويشعر بالغيرة من شقيقه ومن حب الام لريت . وسالت سكارليت الام عن العيب فيها .. ولماذا وصفها روس بتلك الكلمة ؟ وقررت الام أن لدى سكارليت حيوية يجب المحافظة عليها وكل ما على سكارليت أن تفعله هو عدم المغالة فى طلاء الوجه وارتداء الملابس المكلفة التى لاتتنقى بعذية .



الزائر الليلى

بدأت سكارليت تلبية رغبات ريت فيما يتعلق بشكل غيابها . وازدادت اقتناعا بأن اليانور ستساعدها على استعادة ريت حتى دون أن تعلم ما تفعل . ولما كان السوق - كما قالت اليانور - هو المكان الذى يلتقى فيه الجميع ، فإنها ستذهب إلى السوق .. فالسوق هو المكان المثالى بالنسبة لسكارليت لكى تبدأ حياتها كسيدة فى شارلستون . ولو لم تكن مضطرة للذهاب إلى السوق فى السادسة من الصباح الباكر . لكانت ستصبح أسعد حالا .

وهاهى سكارليت تثير ذهول سالى بروتون عند لقائها معها فى السوق لأنها أرشدتها إلى أفضل أنواع البصل الذى يمكن أن تشتريه . وقالت سالى : « شكرا إننى ممتنة ، لقد ظلمتك ياسكارليت ، لقد ظننت أن سيدة جميلة مثلك لاتملك عقلا . ماذا زرعت أيضا فى تارا ؟ » وفيما بعد قالت سالى لاليانور : « إن فتاتك اعجوبة يا اليانور » .

أصبحت حياة سكارليت فى شارلستون حافلة بالنشاط .. فهى مشغولة طول الوقت وتتلقى دعوات للزيارات . و « سالى بروتون » متحمسة لهذه السيدة سكارليت التى تفيض بالحيوية والقوة ، وتتوقع أن يرحب بها كل أصدقائها . وأحبت سكارليت هذا النشاط الدائم وأحبت الاهتمام الذى قوبلت به ، وأحبت سماع اسم ريت يتردد على شفاه الجميع . بضع عجائز من النساء كن ناقدات صريحات . لم يوافقن على سلوكه عندما كان صغيرا ، ولكن غالبيتهن صفحن عن خطاياهم المبكرة . إنه أكبر سنا الآن وأصبح مهذبا وعفيفا ، كما أنه مخلص لوالدته . والسيدات المتقدمات فى السن اللاتى فقدن أبناءهن وأحفادهن فى الحرب يستطعن أن يفهمن جيدا سر سعادة اليانور المتوهجة .

السيدات الأصغر سنا كن ينظرن إلى سكارليت بحسد لايجدن إخفاءه ، وكن يشعرن بسرور وهن يسترجعن كل الحقائق وكل الشائعات حول ما كان ريت يفعل عندما غادر المدينة بلا تفسير . قال البعض منهن إن أزواجهن عرفوا على وجه اليقين أن ريت كان يقوم بتمويل الحركة السياسية للاطاحة بحكومة الشماليين الدخلاء فى عاصمة الولاية . وهمست أخريات بأنه يستعيد صور عائلته باتلر وأثاثها وأوانيها الفضية تحت تهديد السلاح . جميعهن لديهن حكايات عن مآثره خلال الحرب ، عندما اخترقت سفينته الداكنة الأنيقة الحصار الذى فرضه اسطول الاتحاديين .. ونظرة خاصة على وجوههن عندما يتحدثن عنه .. تعكس

مزيجا من الفضول والتخيلات الرومانسية .

كان ريت اسطورة أكثر منه رجلا . وهو زوج سكارليت . لماذا لا يحسدنها إذن ؟

كانت سكارليت في أحسن حالاتها وهي مستغرقة تماما في جولاتها الاجتماعية ، وكان هذا هو ما تحتاجه بعد الوحدة المخيفة في اتلانتا . ونسيت بسرعة ذلك اليأس الذي كانت تشعر به . لابد أن اتلانتا كانت مخطئة . هذا هو كل ما في الأمر . فهي لم تفعل شيئا يجعلها تستحق مثل تلك القسوة .. وإلا ما كان كل شخص في شارلستون يحبها بهذا القدر .. وبينما كانت تقوم بزياراتها .. أو تستقبل الزوار مع السيدة باتلر أو تزور صديقتها المفضلة أن هامبتون أو تثرثر أثناء تناول القهوة في السوق .. كانت سكارليت تتمنى أن يراها ريت . وفي بعض الأحيان كانت تتطلع حولها بسرعة وتتخيل أنه على مقربة منها . كم كانت تلك الرغبة ملحة . أه .. لو عاد إلى البيت !

والسيدة باتلر متحدثة بارة تتقن رواية الحكايات وتعرف فضائح كل عائلات المنطقة . لقد أصبحت هذه السيدة بمثابة « شهر زاد » الخاصة بسكارليت التي كانت ترغب دائما في تذكر الأشياء التي قالها أو فعلها ريت عنهما كن طفلا صغيرا .

كانت اليانور باتلر تترك الضعف والشجاعة اللذين جعلوا ابنها المحبوب يجنّب إلى سكارليت . وكانت تحس أيضا بأن هناك خلا ما في العلاقة الزوجية .. خلا كبيرا إلى حد أن ريت لم يعد يريد شيئا يفعله بهذا الزواج . كانت تعرف دون أن يخبرها أحد بشيء ، أن سكارليت مصممة على أن تعيده إليها .. أما اليانور فإن لديها أسبابها الخاصة التي تجعلها أكثر تلهفا على حدوث هذه المصالحة من سكارليت نفسها .

ولم تكن اليانور على يقين من قدرة سكارليت على أن تجعل ريت سعيدا ، ولكنها كانت مقتنعة من أعماق قلبها بأن طفلا جديدا يمكن أن يحقق النجاح لهذا الزواج . لقد زارها ريت يوما وبصحبه بوني . ولن تنسى اليانور أبدا الفرح التي جلبتها هذه الزيارة . لقد احببت الطفلة واحبت أكثر من ذلك أن ترى ابنها سعيدا إلى أقصى حد . انها تريد له أن يكون سعيدا مرة أخرى على هذا النحو وتريد أن يزورها السرور مرة أخرى . إنها راغبة في أن تفعل أي شيء في طاقتها من أجل تحقيق هذه الغاية . وجاء وقت بدأت سكارليت تشعر فيه بالملل من أحاديث النساء التي تدور حول الأزياء . فقد فقدت اهتمامها بالملابس بعد أن انحصر المسموح

به منها في أربعة أنواع بناء على نصيحة والدته ريت . كم تتمنى الآن أن يقع شيء مثير !



تحققت أمنية سكارليت بسرعة . ولكن ليس على النحو الذي تريده ، فقد كانت الاثارة من النوع المخيف .

بدأ الأمر في شكل شائعة خبيثة يضحك منها الناس في انحاء المدينة . فقد ادّعت « ماري اليزابيث بيت » وهي عانس في الأربعينات بأنها استيقظت في منتصف الليل من نومها ورات رجلا في غرفتها يغطي وجهه بمنديل .. وكان هذا الرجل المقنع أشبه بـ جيس جيمس « زعيم العصاة المشهورة .. وعلق بعض سكان المدينة بلا شفقة : « المؤكد أن ماري اليزابيث اكبر بعشرين سنة من جيس جيمس » .

غير أن اليوم التالي شهد تحولا دراميا في القصة .

« اليسيا سافيج » ، في الأربعينات أيضا ، ولكنها تزوجت مرتين ، والجميع يعرفون أنها امرأة متزنة وهادئة الطبع . لقد استيقظت هي الأخرى وشاهدت رجلا في غرفة نومها ، يقف إلى جانب فراشها ويتطلع إليها في ضوء القمر . كان يزيح ستائر النافذة بيده ليسمح للضوء بأن يتسلل إلى الغرفة .. وكان يحملق بعينه فوق المنديل - القناع - الذي يخفي الجزء الأسفل من وجهه .. أما الجزء الأعلى فقد كان يخفيه بطرف غطاء رأسه . وكان يرتدى زي أحد الجنود الاتحاديين . وصرخت سافيج وعلقت في وجهه بكتاب من فوق منضدة إلى جانب فراشها . وقفز من وراء الستائر إلى الشرفة قبل أن يصل زوجها إلى الغرفة .

— يانكي !

فجأة ساد الخوف الجميع . النساء الوحيديات شعرن بالخوف على أنفسهن ، والنساء المتزوجات شعرن بالخوف على أنفسهن وبخوف أكثر على أزواجهن لأنه إذا أصاب أي شخص .. جنديا اتحاديا فسوف يذهب إلى السجن بل قد يتم شنقه .

في الليلة التالية ، والتي أعقبتها .. ظهر الجندي في غرفة نوم إحدى السيدات . أما في الليلة الثالثة فقد حدث الأسوأ من كل ما سبق . لم يكن ضوء القمر هو الذي إيقاف تيودوسيا هاردينج وإنما حركة يد دافنة على غطاء السرير فوق صدرها . وعندما فتحت عينها لم تقابل سوى الظلمة ، ولكنها استطاعت أن تسمع أنفاسا حارة وأن تحس بوجود كائن يجثم إلى جانبها في الغرفة . وصرخت ثم فقدت الوعي من الخوف . ولم يعرف أحد

ما حدث بعد ذلك . فقد تم إرسال تيودوسيا إلى بنات عموميتها في مدينة سامرفيل . وقال الجميع إنها في حالة انهيار .
وتوجه وفد من رجال شارلستون إلى مقر قيادة الجيش ومعهم المحامي العجوز جوسيا أنسون ليتحدث باسمهم . قالوا إنهم سيبدأون تنظيم دوريات ليلية بأنفسهم في القطاع القديم من المدينة وأنهم إذا فاجأوا ذلك الرجل الذي يقتحم غرف النوم فإنهم سيتعاملون معه بأنفسهم . ووافق القائد على الدوريات ، ولكنه حذر من إصابة أى جندي اتحادى أو تعرضه للاذى لأن المسئول أو المسئولين عن ذلك سيتم إعدامهم . ولن تكون هناك عدالة تتولى توقيع العقاب الفوري أو تشن هجمات عشوائية على قوات شمالية تحت ستر حماية نساء شارلستون .



مخاوف سكارليت القديمة استيقظت وهزتها كموجة عاتية ، لقد أصبحت تحتقر قوات الاحتلال وكانت تتجاهلها مثل أى شخص آخر في شارلستون وتتصرف كما لو كان الجنود غير موجودين ، وكانوا يبتعدون عن طريقها وهى تسير بسرعة في الطريق لأداء واجب الزيارة للعائلات الصديقة أو للمتسوق .. الآن .. هى تخشى من كل رى أزدق يقع بصرها عليه . قد يكون أى واحد منهم هو « المعتدى الليلي » .. الذى ينبثق من الظلام .

أحلام مزعجة تقطع نومها الآن .. وذكريات مروعة . مرة بعد أخرى تعود صورة ذلك اليانكى المتشرد الذى جاء إلى « تارا » .. رائحته النتنة ما زالت في أنفها .. وأمام عينيها مشهد يديه القذرتين اللتين يغطيهما الشعر وهما تنبشبان بحوافرهما في الحلى الصغيرة في صندوق والدتها وعيناه الحمراء واللتان تشتعلان بالشهوة العنيفة تحدقان فيها وفمه ذو الأسنان المكسورة يسيل منه اللعاب ويتلوى في نظرة مكرة خبيثة . لقد أطلقت عليه النار وأردته قتيلًا . وأزالته ومحت الفم والعينين في انفجار من الدم وقطع من العظم وكتل لزجة من المخ مخططة بالدم . لم تستطع قط أن تنسى دوى الطلقة النارية وصداها والرداذ المتناثر الأحمر الشنيع .. وانتصارها الوحشى والدامى ..

لو كان لديها مسدس لحماية نفسها والسيدة اليانور من اليانكى ! ولكن لا يوجد سلاح في البيت . لم تترك مكانا لم تفتشه في المنزل : الدواليب وصناديق الثياب والحفائب والأدراج وحتى المساحات من الرفوف التى توجد خلف كتب المكتبة . انها عزلاء . بلا حول ولا قوة . ولأول مرة

في حياتها تشعر بانها ضعيفة وعاجزة عن التغلب على اى عقبة في طريقها . وسيطر عليها الاحساس بانها مشلوله . وتوسلت إلى اليانور بانتر لكي تبعث برسالة إلى ريت . قالت اليانور وهي تسايرها كسبا للوقت : نعم .. نعم .. وانها سوف ترسل بضع كلمات .. نعم ، ستخبره بما ذكرته اليسيا عن الهيكل الضخم للرجل ، والومضة غير الأرضية لضوء القمر في عينيه السوداوين غير البشريتين . نعم سوف تعدد إلى تذكره بانها وسكارليت امرأتان تقيمان وحدهما في المنزل الكبير أثناء الليل بعد ان يعود كل الخدم إلى بيوتهم عقب العشاء باستثناء « مانيجو » وهو رجل عجوز ، « وبانسي » ، وهى فتاة ضئيلة وهزيلة .. نعم ستجعل الرسالة عاجلة ، وسوف ترسلها الآن على الفور .. في الرحلة التالية للمسفينة التى جلبت الآن الصيد من المزرعة .

— « ولكن ، متى سيحدث ذلك يامس اليانور ؟ ريت يجب ان ياتي الآن ! ان شجرة المجنوليا تصلح كسلم من الأرض إلى الشرفة خارج غرفتي » ، وامسكت سكارليت بذراع السيدة اليانور وهزته لكي تؤكد على ما تقول وربتت اليانور على يدها : « قريبا جدا يا عزيزتى . لابد ان يكون ذلك قريبا جدا . ليست لدينا اى بطه منذ شهر . والبط المشوى هو طعامى المفضل . وريت يعرف ذلك ، ثم ان كل شيء سيصبح على مايرام الآن . روس واصداقلؤه سيقومون بدوريات كل ليلة » .

روس ! وصرخت سكارليت في داخلها ، ما الذى يمكن ان يفعله سكارليت مثل روس بانتر ؟ او كل رجال شارلستون ؟ ان معظمهم عاجز او مصابون بعرج او مازالوا صبية . لو كانت هناك فائدة منهم لما خسروا الحرب الغبية ولماذا يجب على المرء ان يثق في قدرتهم على محاربة اليانكى الآن ؟ ولفترة من الوقت بدأ ان الدوريات فعالة . فلم تقع حوادث . وهذا الجميع . ومزمت اليانور الخطاب الذى أعدته لقريله إلى ريت واستأنف الناس الذهاب إلى الكنيسة والتسوق .

وذات صباح عادت سكارليت إلى المنزل بعد جولة من الزيارات وقد تورد خدها من السير بسرعة . وسالت : « أين السيدة بانتر ؟ ورد مانيجو بانها في المطبخ . واسرعت سكارليت للقلعها وبادرتها اليانور بقولها : « اخبار طيبة ياسكارليت . تلقيت رسالة من روزمارى هذا الصباح . انها ستأتى إلينا بعد غد » .

وقاطعتها سكارليت بحدة وبصوت خشن : « لقد وصل اليانكى إلى

هلريت ملديسون الليلة الماضية . لقد سمعت ذلك للتو ، ولمحت على المائدة بجوار السيدة باتلر عددا من البط .

— إذن فقد وصلت سفينة المزرعة ! أستطيع أن أعود إلى المزرعة على السفينة لآحضار ريت .

— لاستطيعين الذهاب وحدك على القارب مع أربعة رجال ياسكارليت — « أستطيع أن أصحب معي بانسى سواء أرادت أم لم ترد . أعطيني

شنطة وبعض هذا البسكويت ، إننى جائعة . ساكلها فى الطريق »

— « ولكن .. ياسكارليت .. »

— « بدون .. ولكن يامس اليانور . ناولينى البسكويت . إننى راحلة »



ما هذا الذى افعله ؟ بدأت سكارليت تشعر بالفزع .
ما كان يجب أن اندفع بهذه الطريقة سيثور ريت غاضبا فى وجهى ..
لنفترض أنه طلب من رجال الزورق أن يستديروا ويعيدونى من حيث
جئت ؟

ولم تكن تتصور أن تجد نفسها وسط صناديق وبراميل واقفاص فوق
زورق صغير . ووضع الملاحون المجاديف فى المياه الخضراء السمراء لكى
يديرها دفة السفينة وحمل التيار الزورق ببطء . ولم تشعر بأن الزورق
يتحرك على الإطلاق .

وتطلعت فى نفاد صبر إلى ضفتى النهر العريض .. حيث تتمايل حشائش
طويلة . وخيم الصمت . لا طيور تغنى .. وخيم الظلام . وبدأ هطول
الأمطار .

وقبل وقت طويل من بدء عمل المجاديف والتحرك صوب الضفة
اليسرى ، كانت سكارليت قد تشبعت بالماء مما جعلها ترتعش وتصبح فى
حالة جسمية وذهنية سيئة .

وجاء صوت ارتطام الأنشطة بعمود الرصيف ليخلف من ضيقها .
ونظرت من خلال غيش المطر على وجهها ، ورات شبعا فى معطف اسود واق
من المطر تبدو ملامحه أكثر وضوحا من خلال شعلة من النار ، ولكن الوجه
لم يكن مرئيا تحت غطاء واق للرأس والوجه . وظهر ريت وذراعه ممتدة إلى
الأمم وهو يقول : القى إلى بالحبل .. رحلة طيبة يا اولاد ، ؟

وتوكلت سكارليت على أقرب الاقفاص إليها لكى تقف على قدميها .
وخذلتها ساقيها وسقطت إلى الوراء فقلبت أعلى قفص وسقط بصوت مدو .
قال ريت : « ما هذا ؟ » وامسك بالأنشطة المعقودة فى الحبل الذى ألقى

إليه بها أحد رجال الزورق ووضع الأنشودة في عمود المرساة وقال
— « ما الذى يصنع هذه الجلبة ؟ هل انتم سكارى يا رجال ؟ » قال
رجال الزورق « لا يا مستر ريت » . كانت هذه هى أول مرة يتحدث فيها
هؤلاء الرجال منذ غادروا شارلستون وأشار أحدهم إلى المرأتين في مؤخرة
السفينة .
وقال ريت : « يا إلهى » .



الكابوس

— « هل تشعرين بأنك أحسن حالا الآن ؟ »

جاء صوت ريت متحفظا . واومات سكارليت برأسها وهي صامتة . كانت ملفوفة في بطانية ، ترتدى فائلة من ملابس ريت الداخلية وتجلس فوق مقعد قرب النار ، وقدهاها العاريتان في حوض من الماء الساخن . — « كيف حالك يا بانسى ؟ » كانت خادمة سكارليت تجلس فوق مقعد

آخر داخل بطانية أخرى . وقالت انها في حالة طيبة ولكنها جائعة جدا ابتسم ريت وقال : « وأنا أيضا . وعندما تجف أطرافكم سناكل . جذبت سكارليت البطانية حولها لتلصقها بجسمها . كان رقيقا . لقد رأيته هكذا في السابق ، يبتسم دائما ، ودافئا مثل اشعة الشمس ، ثم انه كان ينقلب ويصبح مجنونا ويطلق سخائمه طول الوقت . وهو دمث لأن بانسى هنا ولذا فهو يقوم بدور الرجل المهذب . وعندما تخرج سوف ينقلب على . وربما يستطيع أن اقول أنني احتاجها لكي تبقى معي ، ولكن لماذا ؟ أنني بالفعل بدون ملابس ، ولا أستطيع أن ارتدى ملابس إلا بعد أن تجف ، والله يعلم متى يحدث ذلك .. والمطر ينهمر في الخارج ، أما في الداخل فإن الجو شديد الرطوبة . كيف يتحمل ريت أن يعيش في مثل هذا المكان ؟ انه فظيع !

الغرفة التي توجد فيها لا تضيئها سوى النيران . انها مربعة واسعة ارضيتها من الطين المجمد وتفوح منها رائحة الويسكي الرخيص والدخان .

— « لماذا لم تمكثي في شارلستون يا سكارليت ؟ »

كانت قد انتهت من تناول طعام العشاء وتم ارسال بانسى لكي تنام مع السيدة السوداء العجوز التي تطهو الطعام لريت . واتخذت سكارليت وضع التحدي ، وقالت « لم ترد والدتك ان تزعجك في فردوسك هنا » ومسحت الحجرة بعينيها واستطردت قائلة « ولكني اعتقد انك يجب ان تعرف ما يجري . هناك جندي من اليانكي يتسلل إلى غرف نوم السيدات في الليل ويلمسهن ، وقد فقدت إحدى الفتيات عقلها وكان لابد من ابعادها . حاولت ان تقرأ ملامح وجهه ، ولكنه كان خالبا من التعبير . كان ينظر اليها في صمت كما لو كان ينتظر شيئا . ووجهت اليه السؤال : «! حسنا ؟ الا يهكم أن والدتك ، وأنا يمكن أن يقتلا في فراشهما أو ما هو اسوأ » . وارتسمت الابتسامة الساخرة على شفثيه ليقول : « ألم تخطيء أذني ما اسمعه ؟ جبن العذارى لدى المرأة التي قادت عربة وسط خطوط

الجيش الليانكى بأسره لأنها كانت في طريق العودة ؟ والآن ، هيا ياسكارليت .. لقد عرف عنك انك تقولين الحقيقة . لماذا قطعت كل هذا الطريق تحت المطر ؟ هل اوصاك هنرى هاميلتون بان تفعل ذلك كوسيلة لكى استأنف دفع فواتيرك مرة أخرى ؟

— ما الذى تتحدث عنه يا ريت بانك ؟ ما علاقة العم هنرى بأى شىء ؟ — « هذا الجهل المقتنع ! اننى احبيك . ولكنك لا يمكن ان تتوقعى منى ان اصدق للحظة واحدة ان محاميك العجوز البارع لم يبلغك باننى قطعت عنك المال الذى كنت ارسله إلى اتلاننا . اننى فخور للغاية بهنرى هاميلتون إلى حد اننى لا اصدق هذا الإهمال من جانبه . »

— توقفت عن ارسال المال ؟ انك لا تستطيع ان تفعل ذلك ! وبدأت ركبنا سكارليت تترجرجان .. ان ريت لا يمكن ان يعنى ذلك . ما الذى سيحدث لها ؟ منزل شارع بيتشترى ... اظنان الفحم التى يستهلكها لتدفئته .. والخدم الذين ينظفونه ويطهون ويفسلون ويعتنون بالحديقة والحياد ويقومون على تلميع المركبات . والطعام لكل هؤلاء ، لماذا ، ان ذلك يكلف ثروة . كيف استطاع العم هنرى دفع الفواتير ؟ هل استخدم اموالها هى ؟ لا ، لا يمكن ان يكون الامر كذلك ، لقد صارت الحياة بلا طعام فى معدتها وباحذية ممزقة فى قدميها ، وتحطم ظهرها .. سل الدم من يديها وهى تعمل فى الحقول لكى تمنع عن نفسها غائلة الجوع وتخلت عن كبريائها وادارت ظهرها لكل شىء سبق ان تعلمته .. تعاملت مع اشخاص منحطين لا يستحقون سوى البصق عليهم .. خططت وغشت وعملت نهرا وليلا من أجل النقود . لن تسمح بذلك مرة أخرى . لن تستطيع .

وصرخت فى وجه ريت « لن تستطيع ان تاخذ نقودى . »
ولكن الصرخة خرجت من حلقها .. همسة واهنة .

وضحك قائلا : « لم اخذ منك أى شىء يا عزيزتى . كل ما فعلته اننى توقفت عن اضافة اموال إلى اموالك مادمت تعيشين فى المنزل الذى ارعاه فى شارلستون ، فليس هناك مبرر بالنسبة لى للانفاق على منزل خاو فى اتلاننا ، وبطبيعة الحال فإنك إذا عدت إلى ذلك المنزل ، فإنه لن يكون خلويا وعندئذ ساكون مضطرا لأن ادفع للانفاق عليه ، »

مشى ريت إلى المدفأة حيث يستطيع ان يرى وجهها فى ضوء السنة الذهب . واختفت ابتسامته المتحدية وتغضن جبينه بالقلق :

— « انت لم تعرفى بذلك من قبل .. هل عرفت ؟ انتظرى يا سكارليت ساعطيك قليلا من البراندى . يبدو انك ستموتين . »

كان لابد ان يمسك يديها بيده حتى يصل الكاس إلى شفتيها ، فقد كانت ترتعد . وعندما فرغ الكاس وضعه على الأرض وفرك يديها حتى تسرب اليهما الدفء وتوقفت عن الارتعاش .

— « الآن ، قولى لى الحقيقة ، هل هناك جندى يقتحم غرف النوم ؟ » .
— « ريت ، أنت لم تقصد ذلك ، هل قصدت ؟ انك لن تكف عن ارسال النقود إلى اتلانكا ؟ »

— « فللذهب النقود إلى الجحيم ياسكارليت ، لقد وجهت اليك سؤالاً » .

وقالت : « فللذهب انت إلى الجحيم ، وأنا وجهت اليك سؤالاً » .
— « كان يجب ان اعرف انك لن تكونى قادرة على التفكير فى أى شىء آخر إذا ما ذكرت النقود ، حسناً ، سوف ارسل بعض النقود إلى هنرى .
والآن ، هل تردين على سؤالى ؟ »

— هل تقسم ؟

— اقسام

— غدا ؟

— نعم ! نعم ، اللعنة ، غدا . الآن ، للمرة الأخيرة ، ما هذه القصة عن الجندى البانكى ؟

تنفست سكارليت الصعداء واحست ان شعورها بالراحة يمكن ان يدوم إلى الأبد .. وقالت له كل شىء تعرفه عن المعتدى اللئلى .

— تقولين ان اليسيا سافيج رأت الزى الذى يرتديه ؟

اجابت سكارليت : « نعم » . ثم اضافت لتثير غيظه « انه لا يهتم بأعمار الضحايا ، ربما يكون يفتصب والدتك فى هذه اللحظة » .
وجمع ريت قبضتى يديه الكبيرتين : « يجب ان اخنقك يا سكارليت » .

وظل حوالى الساعة يلقي عليها بالاسئلة إلى ان استخلص منها كل شىء سمعت به حول حادث « الجندى » ، وأخيرا قال « حسناً جداً ، سوف تعودين غداً مع عودة المد » ومضى نحو أحد الأبواب وفتحه .. ودخلت أشعة القمر ثم قال : « السماء صافية ، ستكون رحلة سهلة » وأغلق الباب عائداً إلى وسط الحجرة بعد أن غاب ضوء القمر . وساد الظلام إلى ان أشعل ريت عود ثقاب وأضاء مصباحاً غازياً ، ورفع المصباح فى يده ليقول : « تعالى معى ، هناك غرفة نوم فى الطابق الأعلى » .

كانت غرفة بدائية مثل غرفة الدور الأرضى . وقفزت إلى الفراش . ووقف لحظة إلى جانب الفراش قبل أن يغادر الغرفة . وسمعت وقع أقدامه . كلا ،

إنه لم ينزل إلى الدور الأرضي . سيكون في غرفة مجاورة . وابتسمت
سكارليت وغلبها النوم .



بدأ الكابوس ، كما كان يبدأ دائما .. بالضباب مرت سنوات لم تر
سكارليت هذا الحلم . ولكن عقلها الباطن تذكر ، حتى وهو يخلق الحلم ،
وبدأت تتلوى وتتقلب في فراشها .. وتئن وتنشج من أعماق حنجرتها .. ثم
إنها تجرى وتتعرن وتجرى خلال ضباب أبيض كثيف . وهي باردة كالمتوت
وجائعة ومرعوبة . أنه نفس الكابوس . وفي كل مرة يكون أسوأ من
ذي قبل كما لو كان الرعب والجوع والصقيع قد تراكم ونما وأصبح
أقوى .

ومع ذلك لم يكن هو نفس الحلم في الماضي كانت تجرى وتصل إلى شيء
ليس له اسم . شيء غير معروف ، والآن تستطيع أن تلمح أمامها من خلال
الضباب ظهر ريت العريض يتحرك مبتعدا دائما ، وكانت تعرف أنه .
هو . الذي تبحث عنه ، وعندما تقترب منه وتصل إليه . يفقد الحلم قوته
ويتلاشى تدريجيا ويذوى إلى غير عودة ، إنها تجرى وتجرى ولكنه بعيد
دائما . دائما . وظهره في مواجهتها .. ويزداد الضباب كثافة ثم يبدأ
يختفي ، وتناديه « ريت . ريت . ريت »
— صه .. اسكتي . أنت تحلمين .. ليس هذا حقيقيا .

— « ريت . . » .

— « نعم ، أنا هنا .. اسكتي الآن .. أنت بخير » .

ذراعان قويتان رفعتا رأسها من فوق الوسادة وامسكتا بها . إنها دافئة
وأمنة في النهاية

سكارليت . نصف مستيقظة .. ولا أثر للضباب . وإنما مصباح على
المنضدة يوزع أضواءه . وتستطيع أن ترى وجه ريت قريبا من وجهها
صاحت « أوه ، ريت ، كان مخيفا للغاية »
— « الحلم القديم » ؟

— « نعم - نعم ، حسنا يكاد يكون هو . كان هناك شيء مختلف ،
لا أستطيع أن أتذكر ، ولكني كنت أشعر بالبرد والجوع ، ولم أستطع أن
أرى شيئا بسبب الضباب ، وكنت خائفة جدا ياريت ، كان شيئا مروعا » .
كانت قريبة منه . قال .

« طبعا شعرت بالبرد والجوع ، فالعشاء لم يكن يصلح للأكل ، كما أنك
نزعْتَ عنك أغطية الفراش . سوف أثبتها عليك وسوف تنامين

نوما هانئا . ووضع راسها على الوسائد .

— « لا تتركنى سوف يعود الكابوس » .

ونثر ريت البطاطين فوقها وهو يقول « سيكون هناك بسكويت لطعام الإفطار والسخينة المصنوعة من دقيق الذرة الصفراء المغلى فى الحليب او الماء ، وزبدة وفخذ خنزير ريفى وبيض طازج - وستنامين كالطفل . لقد كنت دائما آكولة ياسكارليت » . كان صوته متفكها ومرهقا . واطبقت رموش عينيها المثقلة .

— « ريت ؟ »

خرج صوتها ضبابيا ونعسان . وتوقف عند الباب ويده تظلل ضوء المصباح « نعم ياسكارليت ؟ »

— « شكرا على مجيئك لا يفاضى . كيف عرفت ؟ »

— كنت تصرخين بصوت عال يكفى لتحطيم النوافذ » .

وكان آخر ما سمعته منه ضحكته الدافئة الرقيقة . كانت اشبه بالهددة او الاغنية الرقيقة الهادئة التى تغرى الطفل بالنوم .



وكما تكهن ريت .. تناولت سكارليت وجبة افطار هائلة قبل ان تذهب للبحث عنه وعرفت انه استيقظ قبل الفجر كعادته - لقد عاملها ريت برقة ، وكان يجب ان تحضر إلى المزرعة من قبل بدلا من الذهاب إلى مليون حفلة شاي في شارلستون . خرجت من المنزل .. إلى ضوء الشمس القوى .. ورات جدراننا كثيرة متهدمة من بقايا الحرب . هذا هو موطن ريت وحياته . لا شيء فى حياتها المضطربة يعادل هذه الحالة السيئة . انها لن تعرف ابدا مدى الألم الذى لابد ان يكون قد شعر به ومازال . مئات المرات كل يوم عندما يرى حطام بيته ولا غرابة فى انه مصمم على إعادة بنائه وعلى العثور على كل شيء من الممتلكات القديمة واستعادتها . كان يمكن ان تساعده ' ألم تحريث الحفول وتزرع الأرض وتحصد الثمار بنفسها فى تارا ؟ ستكون فخورة بتقديم المساعدة لأنها تعرف ما يعنيه ذلك ، استطيع ان اعمل معه ولا ابالى بأن أرضيه حجرات المنزل فذرة .. مادمت مع ريت . ولكن اين هو ؟ يجب ان أخبره

كانت قد تخطعت انفاسها عندما وصلت إلى المكان الذى يوجد فيه ريت . فقد جرت وفقرت وهى تشعر بمتعة كبيرة من الطبيعة حولها انها تلهث ويدها على صدرها إلى ان تستعيد انفاسها المتقطعة .

قالت « لم اجد مثل هذه المتعة من قبل .. ما أجمل هذا المكان يا ريت .

الآن افهم لماذا تحبه ، هل جريت عندما كنت صغيرا عبر هذه القطعة من الأرض الممهدة المغطاة بالعشب حول البيت ؟ هل شعرت بأنك تكاد تطير ؟ أه يا حبيبي ، كم هو مروع أن ترى الحريق ! اننى كسيرة القلب من اجلك . اننى اود أن اقتل كل يانكى فى العالم ! أوه يا ريت ان عندى الكثير الذى أريد أن اقله لك . لقد كنت أفكر . كل شئ يمكن أن يعود يا حبيبي مثل العشب . اننى افهم . اننى حقا وبصدق افهم ما تفعله .

نظر إليها ريت باستغراب وحذر :

— « ما الذى (تفهمينه) يا سكارليت ؟ »

— « افهم لماذا أنت هنا ، بدلا من المدينة ، لماذا يجب أن تعيد الزرع إلى الحياة . قل لى ماذا فعلت وما الذى تعتزم أن تفعله ، انه الأمر مثير جدا ! »

اضاء وجه ريت ، وأشار إلى الصفوف الطويلة من المزروعات خلفه . وقال « لقد احترقت ، ولكنها لم تمت ، انها تبدو كما لو كانت قد ازدادت قوة من جراء الحريق ، ربما اعطاها الرماد شيئا كانت تحتاجه ، يجب أن اعرف السر ، امامى الكثير الذى يجب أن اتعلمه . »

نظرت سكارليت إلى البقايا الكثيرة المنخفضة . ولم تعرف هذه الأوراق الخضراء اللامعة « ما نوع هذه الشجرة ؟ هل تزرع الخوخ هنا ؟ » . — انها ليست اشجاريا سكارليت ، فهي شجيرات زهور الكاميليا الاولى من نوعها التى تصل إلى امريكا هى التى زرعت هنا .

— هل تعنى انها زهور ؟

— « طبعا ، انها تكاد تكون اكمل زهرة فى العالم ، ان الصينيين يعبدونها . »

— « ولكنك لا تأكل الزهور . ماهى الغلال والمحاصيل التى تزرعها ؟ »

— « لا استطيع أن أفكر فى الغلال والمحاصيل . ان عندى مائة فدان من الحدائق يجب انقاذها . »

— هذا جنون ياريت . ما فائدة حدائق الزهور ؟ يجب أن تزرع شيئا تبعه . اننى اعرف ان القطن لا يزرع هنا ، ولكن يجب أن تكون هناك غلة تجلب الكثير من النقود ، لماذا نستخدم فى تارا كل شبر من الأرض .. أنت تستطيع أن تزرع حتى جدران البيت . انظر كيف ينمو العشب بهذا اللون الأخضر وبهذا القدر من الكثافة على هذا النحو .. ان الأرض يجب أن تكون غنية كاي شئ آخر . كل ما عليك هو أن تحرثها وتضع فيها البذور ،

وربما تثبت وتنمو بسرعة أكبر من تلك التي تدير بها ظهرك بعد البذر «
نظرت إليه بلهفة .. وهى على استعداد للمساهمة بخبرتها .
قال ريت فى تأمل : « أنت بربرية يا سكارليت . اذهبى إلى المنزل
واخبرى بانسى بأن تستعد . ساقابلكما عند رصيف السفن » .
ما الخطا الذى ارتكبته ؟ منذ دقيقة واحدة كان مليئا بالحياة والاثارة ثم
ذهب كل شىء فجأة واصبح فاترا وغريبا عنها . انها لن تفهمه أبدا حتى
لو أصبح عمرها مائة عام . وتوجهت بسرعة إلى المنزل دون أن تلتفت هذه
المرة إلى الشرفات الخضراء الجميلة .



السفينة التى اقلت سكارليت وريت وبانسى هذه المرة فى طريق العودة
كانت أحسن حالا من ذلك الزورق الذى اقل سكارليت وبانسى إلى المزرعة .
ويعد أن اصدر ريت أوامره بشأن اقلاع السفينة حاولت سكارليت مغادرة
الكليبتة والصعود إلى سطحها ، ولكن ريت منعها من ذلك ، وهو يقول .
« اعتقد انك لن تمنعنى فى أن أدخن » .

— « امانع كثيرا ، لماذا انا حبيسة هنا فى الظلام .. بينما بانسى تستمتع
بالمشاهدة ، أرجو أن اصعد إلى سطح السفينة .. فى الشمس » .
قال ريت « انها سفينة صغيرة ، وطاقمها من السود ، وبانسى سوداء ،
وانت امرأة بيضاء . هم فى غرفة القيادة وانت فى المقصورة وتستطيع
بانسى أن تدرج ناظرها على الرجلين وتضحك على غزلها غير الرقيق إلى
حد ما . وسيقضى الثلاثة وقتا طيبا ، وسوف يفسد وجودك هذه المتعة . فى
نفس الوقت فإن الطبقة الدنيا تستمتع بالرحلة ، اما أنت وانا ، النخبة
صاحبة الامتيازات ، فسنكون محبوسين فى مكان ضيق يصاحب احدنا
الأخر ، بينما تواصلين أنت التجهيم والعواء » .

— « اننى لا اتجهيم ولا أعوى اوسوف اشكرك لو توقفت عن الحديث
معى كما لو كنت طفلة » اكانت تكره أن يجعلها ريت تشعر بانها حقاء .
— « ما هذا المحجر الذى توقفنا عنده ؟ » .

— « هذا يا عزيزتى هو خلاص شارلستون وجواز مرورى للعودة إلى
احضان أهلى . انه منجم فوسفات هناك العشرات منها مبعثرة على طول
النهرين » وأشعل سيجاره ثم قال : « أرى عينيك تلمعان يا سكارليت انه
ليس مثل منجم الذهب فانت لا تستطيعين أن تصنعى عملات
أو مجوهرات من الفوسفات ، ولكن إذا تم طحنه وغسله ومعالجته ببعض
الكيمائيات ، فانه يصبح من أعظم المخصبات فى العالم . وهناك زبائن

ينتظرون أكثر بكثير من الكمية التي نستطيع إنتاجها .

— « إذن فانت اغنى من أى وقت مضى . »

— « نعم ، ولكنها أموال شارلستون المحترمة . أستطيع أن أنفق الكثير من أرباحى ، التي حصلت عليها بطريقة رديئة ومن المضاربة ، كما إنشاء الآن بلا مشاكل .. كل شخص يمكن أن يقول لنفسه أن مصدر هذا المال هو الفوسفات ، رغم أن حجم المنجم ضئيل »

— لماذا لا تجعله أكبر ؟

— لست مضطرا لذلك ، إنه يخدم غرضى وهو فى حالته الراهنة بالضبط ان عندى كبير عمال لا يغشنى كثيرا وحوالى ٢٤ عاملا يعملون بنفس القدر الذى يتسكعون به ، وعندى ما يجعل الناس يحترموننى .. وأستطيع أن أنفق وقتى ومالى وعرقى على ما أهتم به ، والآن فإن هذا الشيء هو ترميم الحدائق .

شعرت سكارليت بالضيق . ألا يشبه ذلك أن يسقط ريت فى حوض من الزبد ؟ ثم يضيع الفرصة ؟ وبصرف النظر عن حجم ثروته الآن ، فإنه يمكن أن يصبح أكثر ثراء . فليس هناك أجمل من المال الوفير ، ماذا لو تسلم العمل بنفسه . وحصل من هؤلاء العمال على يوم عمل حقيقى ، إنه يستطيع أن يضاعف الانتاج ثلاث مرات ، فإذا استعان بعد ذلك بـ ٢٤ عاملا آخرين فإنه يستطيع أن يضاعف

— « اغفرى لى مقاطعتى لعملية تشييد امبراطوريتك يا سكارليت ، ولكن عندى سؤالان جديا أريد أن أسأله لك . ماهو المقابل لأقناعك بانك يجب أن تتركينى فى هدوء وتعودى إلى اتلانتا ؟ »

وحذقت فى وجهه وهى فاعرة الفم . لقد أصابتها دهشة حقيقية . انه لا يمكن أن يعنى ما يقول . ليس بعد أن أمسك بها بين ذراعيه فى رقة فى الليلة الماضية . وقالت بصوت الاتهام « أنت تهزل ، هذه دعاية » .

— « كلا ، ليست دعاية ، اننى لم أكن جادا فى أى يوم من حياتى كما أنا الآن ، وأريدك أن تأخذى كلامى بجدية . لم تكن عادتى قط أن أشرح لى شخص ما أفعله أو ما أفكر فيه ، كما اننى لا أثق حقا فى انك ستفهمين ما سأقوله لك ، ولكنى سأحاول ، اننى أعمل بنشاط أكبر مما كنت أفعلى فى أى وقت مضى من حياتى يا سكارليت . وقد أحرقت جسورى فى شارلستون بالكامل وعلنا حتى أن الرائحة النتنة للتدمير مازالت فى أنوف كل سكان المدينة . ان ذلك أقوى بما لا يقاس من أسوأ شيء فعله شيرمان ، لأننى كنت واحدا من أبناء جلدتهم وتحديت كل شيء أقاموا حياتهم على أساسه

وفوزى بالعودة إلى حظوة شارلستون يشبه تسلق جبل ثلجي في الظلام .
مرة واحدة تنزلق فيها قدمي .. أصبح ميتا . وحتى الآن أنا حذر جدا
وبطء جدا . وقد حققت خطوات بسيطة . ولا أستطيع أن أخاطر
بتدمير كل ما فعلته . أريدك أن تغادري . وأسالك عن ثمنك » .
وضحكت سكارليت في ارتياح : « هل هذا كل شيء ! تستطيع أن تهنا بالآ
وتنعم بالهدوء إذا كان هذا هو ما يقلقك . فإن كل شخص في شارلستون
يجبني لقد ارهقتني الدعوات من هؤلاء وأولئك ، ولا يمضي يوم دون أن
تأتي احداهن إلى السوق وتسالني المشورة حول ما نشتريه » .
وضع ريت رماد سيجاره وهو يرقب ما تبقى من رماد : « أه .. نعم ،
أسمع بعض الأخبار من المدينة عندما أكون في المزرعة ، ولكنك مثل برميل
البارود المعلق على ظهري وأنا اتسلق ذلك الجبل الثلجي يا سكارليت ،
أنت عبء ثقيل لا يتغير وزنه ، غير مثقفة ، غير متحضرة ، كاثوليكية ،
وبعيدة عن كل شيء راق في اتلانتا .. أنك يمكن أن تنفجري في وجهي في أي
دقيقة . أريدك أن ترحلي . ما ثمن ذلك ؟ »
وتشبثت سكارليت بالاثهام الوحيد الذي تستطيع أن تدافع عن نفسها
أزاءه : « ساكون ممثلة لك إذا قلت لي ماهو الخطأ في أن أكون كاثوليكية
يا ريت باتلر ! اننا نخشى الله قبل وقت طويل من سماعكم أنتم أيها
البروتستانت عن الله » .
الضحك المفاجيء الذي انفجر فيه ريت لم يكن له معنى بالنسبة لها .
ولكن ما قاله بعد ذلك كان ينفذ إلى الأعماق « اننا لن نضيع الوقت في
مناقشة علم اللاهوت ، يا سكارليت . الحقيقة التي تعرفينها كما اعرفها .
ولأسباب لا يمكن الدفاع عنها ، هي أن الكاثوليك ينظر اليهم من أعلى في
المجتمع الجنوبي ، هذا غير معقول والله يعلم أن هذه النظرة غير
مسيحية ، ولكن هذا هو الواقع » .
ولزمت سكارليت الصمت . كانت تعرف انه على حق . واستخدم ريت
هزيمتها المؤقتة لكي يكرر سؤاله الاصل : « ماذا تريدين يا سكارليت ؟
يمكنك أن تقولي لي .. اطمئني فلم يحدث اطلاقا من قبل أنني شعرت بصدمة
تجاه الزوايا الأكثر قتامة من طبيعتك » انه يعني ما يقول . وهذا
ما يجعلها تشعر بالياس الآن .
كل حفلات الشاي التي حضرتها والملابس الكثيرة التي اضطرت
لارتدائها والسير على الأقدام كل صباح في الصقيع والظلام إلى السوق ..
كل ذلك ذهب عبثا . لقد جاءت إلى شارلستون لكي تستعيد ريت ، ولم
تنتصر .

قالت سكارليت في صدق صارخ واضح : « أريدك أنت » .
في هذه المرة كان ريت هو الذى لزم الصمت . كانت تستطيع أن ترى فقط
هيكله والدخان المتصاعد من سيجاره . كان قريبا جدا منها ولو حركت
قدمها بضع بوصات فإنها تستطيع أن تلمسه ، كانت تريد بهشة حتى أنها
شعرت بألم جسمانى ، ولكنها جلست تنتظره ليتكلم

صفقة الذهب

من فوق السطح .. كان يمتدح إلى الأسماع طنين أصوات تدمدم ..
بينها صوت بانسي المرتفع ، الأمر الذى جعل الصمت فى المقصورة أشد
وطأة .

قال ريت : « نصف مليون من الذهب » .

— ماذا قلت ؟

لابد اننى لم اسمع جيدا . لقد افضيت اليه بما فى قلبى ولم يجب .
— قلت اننى ساعطيك نصف مليون دولار ذهب إذا رحلت . وبصرف
النظر عن البهجة التى تجديتها فى شارلستون فإنها لا تستحق التوضيح
بكل هذا المبلغ ، اننى أقدم لك رشوة سخية يا سكارليت .. وقلبك الجشع
الصغير لا يمكن أن يفصل محاولة عقيمة لإنقاذ زواجنا على ثروة أكبر من
كل طموحاتك . وكماقاة ، فى حالة قبورك ، سوف استأنف دفع نفقات ذلك
الشيء المهول الضخم البشع فى شارع بيتشترى » .
قالت بطريقة تلقائية :

— « أنت وعدت الليلة الماضية بانك ستترسل المال إلى العم هنرى
اليوم » . أرادت أن يكون هادئا لمدة دقيقة . أرادت أن تفكر : هل هى حقا
« محاولة عقيمة » ؟ لقد رفضت أن تصدق ذلك .

قال ريت فى هدوء : « الناس يبذلون الوعود لكى يتراجعوا عنها .. ماذا
عن العرض الذى قدمته لك يا سكارليت » ؟
— احتاج أن أفكر .

— إذن فكرى بينما أنهى تدخين سيجارى ، وبعدها أريد اجابتك فكرى
فيما سيحدث إذا كان عليك أن تنفقى أموالك على ذلك الرعب المسمى بالمنزل
الذى تحببته كثيرا فى شارع بيتشترى . ليست لديك فكرة عن التكاليف ثم
فكرى فى أنه ستكون بين يديك كمية من المال أكثر ألف مرة من تلك التى كنت
تجمعينها طوال السنوات الماضية ، انها فدية ملك يا سكارليت ، كلها مرة
واحدة ، وكلها تحت تصرفك . أكثر مما تستطيعين انفاقه ، علاوة على
تكاليف المنزل التى ساتولى أنا دفعها ، بل ساعطيك حق الامتلاك » .
لاحظت نهاية السيجار .

بدأت سكارليت تفكر فى تركيز يائس . فهى لابد أن تجد طريقة للبقاء ،
لأنها لن ترحل مقابل كل أموال الدنيا .
انها تريد استعادته وسوف يتحقق لها ذلك بصرف النظر عن الوسيلة .
وكانت مستعدة عندما استدار نحوها ورفع احد حاجبيه فى تساؤل

— « ماذا سيكون موقفك يا سكارليت ؟ »

تكلمت سكارليت بطريقة سيدات الأعمال : « أنت تريد عقد صفقة كما قلت يا ريت ، ولكنك لا تساو . أنت تلقى بالتهديدات على رأسى كالصخور . علاوة على اننى اعرف انك تمارس الخداع عندما تتحدث عن الأموال التى ترسلها إلى اتلاتنا . انك حريص إلى أقصى حد على سمعتك فى شارلستون ، والناس هنا لا ينظرون بتقدير كبير إلى الرجل الذى لا يعتنى بزوجته . ووالدتك لا تستطيع أن ترفع رأسها إذا ترددت كلمة واحدة حول هذا الموضوع . الأمر الثانى - حول حجم المبلغ - أنت على حق . ساكون مسرورة بامتلاك هذه النقود ، ولكن ليس فى مقابل أن اعود إلى اتلاتنا فى الحال وساكشف أيضا أوراقى لأنك تعرفها بالفعل . لقد ارتكبت أشياء حمقاء إلى حد بعيد ولا سبيل إلى ازالتهما فى الوقت الحالى ليس لى اصدقاء فى كل ولاية جورجيا ، وأنا اكسب اصدقاء فى شارلستون رغم ذلك .. قد لا تصدق ذلك ، ولكنه صحيح . كما اننى اتعلم الكثير أيضا . وما إن يكون قد انقضى وقت كاف لكى ينسى الناس فى اتلاتنا أشياء قليلة ، حتى أقرر اننى استطيع ان ادفع ثمن اخطائى . وعلى ذلك فإن عندى صفقة اعرضها عليك : ان تكف عن التصرف على نحو مفعم بالكراهية او البغضاء نحوى ، وان تتصرف بطريقة ودية وتساعدنى على قضاء وقت طيب . ونقضى « الموسم » مثل أى زوج وزوجة سعيدين مخلصين . وفى الربيع ساعود إلى اتلاتنا واستأنف حياتى هناك . »

وحبست أنفاسها . انه مضطر للموافقة . ليس امامه طريق آخر . فالموسم يدوم ثمانية اسابيع تقريبا ، وسيكونان معا كل يوم ولا يوجد رجل يقف على قدمين يبقى إلى جانبها كل هذا الوقت ثم لا يستطيع ان يجعله يتبعها ويفعل أى شىء تطلبه منه او يمكن ان يفلت من يديها .. صحيح أن ريت مختلف عن سائر الرجال ، ولكنه ليس مختلفا إلى هذا الحد الذى يجعله صعب المنال ، فلم يوجد الرجل الذى لم تستطع الحصول عليه .

— « وتحصلين على النقود .. هل هذا ما تقصدين ؟ » .

— « طبعاً مع النقود ، هل تظننى غبية ؟ » .

— « هذه ليست فكرتى بالدقة عن الصفقة يا سكارليت ، فليس فيها ما يحقق غرضى . أنت ستأخذين النقود التى أريد أن ادفعها لك لكى ترحلى ، ولكنك لا ترحلين . ما الذى استفيده ؟ » .

— « اننى لن ابقى إلى الأبد . ولن أقول لوالدتك شيئا عن مدى

حقارتك » .

تكاد تكون على يقين من أنها راته يبتسم .
 — « هل تعرفين اسم النهر الذى نجرى فوقه الآن يا سكارليت ؟ » .
 ياله من سؤال سخيف . وهو لم يوافق بعد على الموسم . ما الذى يجرى ؟
 — « انه نهر اشلى » . وتفوه بالاسم بطريقة متميزة مغالى فيها :
 — « هذا يستدعى إلى الذهن الجنتللمان الجدير بالاحترام مسترويلكس
 الذى كنت تشتهين اجتذاب عواطفه لقد كنت شاهدا على قدرتك على
 الاخلاص العنيد يا سكارليت وتصميمك الذى يضع امامه هدفا وحيدا
 يستقطب قواه كلها ، وهو تصميم مخيف عند ملاحظته ، وكنت انت مؤخرا
 فى منتهى المودة حتى انه جدير بالذكر انك قررت ان تضعينى فى المكان
 الرفيع الذى كان يشغله اشلى ذات مرة . ان هذا الاحتمال يملؤنى
 بالذعر » .

وقاطعته سكارليت ، كان لابد من المقاطعة . فقد كان يوشك على الرفض .
 — « اوه يا ريت .. اننى اعرف انه لا فائدة من الجرى وراءك . انت
 لست لطيفا بالدرجة التى تكفى لتعويض ذلك ، إلى جانب ذلك فانت تعرفنى
 جيدا » وضحك ريت بلا مرح . وقال : « إذا اعترفت بصحة ما تقولينه ،
 فقد نكون قادرين على الوصول إلى اتفاق عملى » .
 حرصت سكارليت على أن تكسب وجهها طابعا جديا ، وقالت : « اننى
 راغبة فى المقايضة ، ماذا لديك ؟ »

فى هذه المرة ، كانت ضحكة ريت المفاجئة .. حقيقية . قال : « اعتقد ان
 مس اوهارا الحقيقية قد انضمت الينا . هذه هى شروطى : سوف تسرين
 إلى والدتى ان شخيري يعلو اثناء نومى ، ولذلك فانا دائما ننام فى غرفتين
 منفصلتين . وبعد حفل سانت سيسيليا الذى يختتم به الموسم ، سوف
 تعربين عن رغبة ملحة فى العودة بسرعة إلى اتلاندا ، وما ان تصلى إلى هناك
 حتى تعينى على الفور محاميا - هنرى هاميلتون أو غيره - ليقابل المحامين
 الذين يمثلوننى للتفاوض حول تسوية واتفاقية انفصال موثقة وعلاوة على
 ذلك فإنك لن تضعى قدمك مرة أخرى فى شارلستون ، ولن تكتبى أو تبعثى
 برسائل لى أو لوالدتى » .

سكارليت تفكر باقصى سرعة . انها تكاد تكون قد انتصرت . باستثناء
 « الحجرتين المنفصلتين » . ربما ستطلب إمهالها المزيد من الوقت . كلا ،
 لن تطلب ، فالمفترض أنها تساوم .

— « قد اوافق على شروطك يا ريت ، ولكن ليس على التوقيت الذى

تقرره . فاذا حزمت حقائبى فى اليوم التالى لانتهاى الحفلات ، فإن كل شخص سوف يلاحظ . أنت ستذهب إلى المزرعة عقب الحفل وسيكون من المعقول أن أبدا فى التفكير فى اتلاطنا عندئذ . لماذا لا نقول اننى سارحل فى منتصف ابريل ؟

— اننى راغب فى جعلك تمكثين لفترة من الوقت فى المدينة بعد مغادرتى لها إلى الريف ، ولكن أول ابريل سيكون أكثر ملاءمة .
ذلك افضل مما كانت تتمناه ! الموسم .. ثم أكثر من شهر وهى نفسها لم تقل أى شىء حول البقاء فى المدينة بعد ذهابه إلى المزرعة . وقد تلحق به هناك .

— « إذا اقسمت على أن تكون لطيف المعشر طول المدة التى اقضيها هنا قبل رحيلى .. فأننا نكون قد اتفقنا ، أما إذا انقلبت إلى وضع فستكون أنت الذى حطمت الاتفاق ، وليس أنا ، ولن أرحل » .
— « مسز باتلر . ان اخلاص زوجك سيجعلك موضع حسد كل امرأة فى شارلستون » .

كان يتحدث بسخرية ، ولكن سكارليت لم تهتم بذلك ، لقد فازت .
وفتح ريت كوة فى سقف الغرفة .. وانطلق إلى الداخل هواء محفل براقة الملح ودخل ضوء الشمس .. وللغربة دخل نسيم منعش ..



— « مس إيلانور ، لقد كان أجمل وقت أمضيته فى حياتى ! لا أدري لماذا لا يصبح كل رجل فى العالم .. بحارا » !
— « اننى سعيدة لانك استمتعت بوقتك يا عزيزتى ، ولكن لقد كان عملا شريرا للغاية من جانب ريت أن يعرضك لكل هذه الشمس والرياح . ان لوئك احمر مثل الهنود » .

وامرت السيدة باتلر .. سكارليت بالتوجه إلى غرفتها واستعمال كمادات الجلوسين وماء الورد على وجهها ، ثم تولت توبيخ ابنها الضاحك الطويل القائمة إلى أن أحنى رأسه متظاهرا بالشعور بالخزى ، وسال والدته فى خجل مصطنع : « إذا صنعت من أوراق الكريسماس الخضراء شجرة عيد الميلاد ، هل ستسمحين لى بتناول الحلوى عقب الغداء ، لم لا بد أن أقف فى ركن الحجرة ووجهى للحائط » ورفعت إيلانور باتلر يديها فى استسلام :
— « لا أعرف ما سافعله بك يا ريت » ، ولكنها فشلت تماما فى أن تمنع نفسها من الابتسام ، انها تحب ابنها بصورة غير عادية .



بعد ظهر ذلك اليوم .. حمل ريت إحدى باقات الزهور التي جلبها من المزرعة ، إلى اليسيا سافيج كهدية من والدته .

واعربت اليسيا عن شكرها لاليانور ، ودعت ريت إلى تناول مشروب ، وتحديثا عن الطقس غير المألوف . كان كل منهما يعرف الآخر منذ أيام الطفولة ، فقد كان لعائلتيهما منزلان يفصل بينهما سور مشترك لحديقة وشجرة توت تتدلى فروعها على جانبي السور وتتساقط الفاكهة ذات اللون الأرجواني من هذه الفروع .

وقال ريت بعد أن فرغ هو و « اليسيا » من استعادة ذكريات التسابق على التهام الثوت :

— « لقد فزعت سكارليت من حوادث اقتحام اليانكي لغرف النوم ، هل تمانعين في التحديث مع صديق قديم شاهد ملابسك الداخلية عندما كنت في الخامسة من عمرك » .

وضحكت مس سافيج من قلبها .

— « صفى لى شكله يا اليسيا .. قد يساعدنى ذلك على التأكد من ظنونى » .

— « لقد شاهدته لثانية واحدة فقط يا ريت » .

— « هذا يكفي ، هل هو طويل أم قصير ؟ » .

— « طويل ، نعم ، أنه طويل جدا حقا . كان رأسه على مسافة قدم فقط تقريبا تحت قمة الستائر ، وهذه النوافذ يصل ارتفاعها إلى سبعة أقدام وأربع بوصات .

ابتسامه عريضة على شففى ريت :

— « كنت أعلم اننى أستطيع الاعتماد عليك ، أنت الشخص الوحيد الذى عرفته الذى يستطيع أن يحدد ويميز أكبر كأس من الأيس كريم في حفل عيد الميلاد من أقصى الناحية الأخرى من الغرفة . كنا نسميك من وراء ظهرك - عين النسر - » .

واستأنف ريت أسئلته . وتذكرت اليسيا تفاصيل عديدة هامة بمجرد أن شرعت في التفكير : كان الجندي شابا صغيرا ، بل صغيرا جدا في الحقيقة ، وله حركات خرقاء لصبي لم يالف التدفق المفاجيء للرجولة المبكرة . وكان نحिला جدا أيضا ، والذى الذى يرتديه فضفاض يتهدل على جسمه . وظهر معصاه بوضوح تحت أزرار أكمامه وربما لا تكون هذه هى بدلته على الإطلاق . أما شعره فأسود .. والأصح أنه كان بنيا ولكنه بدا في الظلال داكنا .. نعم ، مقصوص جيدا ولكنه غير ممشط تقريبا .. ولابد

انها شميت رائحة زيت (ماكاسار) .
 وشيئا فشيئا شحذت اليسيا ذاكرتها . ثم تلعثمت وترنحت كلماتها .
 — « أنت تعرفين من هو ، اليس كذلك يا اليسيا ؟ » .
 — « لابد ان اكون مخطئة » .

— « لابد ان تكونى على صواب .. لديك ابن في هذه السن - حوالى اربعة عشر او خمسة عشر - والمؤكد انك تعرفين اصدقاءه . وما إن سمعت بهذه الحكايات .. استنتجت انه من غلمان شارلستون هل تعتقدين حقا ان جندى يانكى يقتحم غرفة نوم سيدة لمجرد ان يلقي نظرة على خطوط جسدها تحت غطاء الفراش ؟ انه ليس عهد الارهاب يا اليسيا ، انه غلام تعس اصابته الحيرة بشأن ما يفعل جسده به .. انه يريد ان يعرف كيف يبدو شكل جسد المرأة بدون مشدات الخصر والردفين ، وبدون ارداف نسائية صناعية . انه يريد ان يعرف الكثير حتى انه اضطر لاختلاس النظرات إلى النسوة النائمات . والأرجح انه يشعر بالخجل من افكاره عندما يرى واحدة في ملابسها الكاملة ومستيقظة . الشيطان الصغير المسكين . افترض ان والده لقي مصرعه في الحرب . وليس هناك رجل يتحدث اليه » .

— « ان له شقيقا اكبر ... » .
 — « اوه ؟ إذن قد اكون مخطئا ، او انك تفكرين في الغلام الخطا » .
 — « اخشى اننى لست مخطئة . تومى كوبر هو اسم الغلام . انه اطول الغلمان قامه وانظفهم . والأهم من ذلك انه كاد يموت عندما وجهت اليه التحية في الشارع بعد يومين من حادث غرفة نومى .. لقد مات والده في موقعة « بول ران » . ولم يعرفه تومى قط . اما شقيقه فانه يكبره بعشر سنوات او إحدى عشرة سنة »

— « هل تقصدين ادوارد كوبر المحامى ؟ » .
 واومات اليسيا برأسها .
 وقالت ريت : ليس هناك ما يدعو للعجب إذن ، كوبر عضو في لجنة « دار ائتلاف ولايات الجنوب » التى أسستها والدتى . لقد قابلته في المنزل . انه ليس سوى مخنث وتومى لن يتلقى منه أى مساعدة .
 — « انه ليس مخنثا على الاطلاق ، ولكنه غارق في حب أن هامبتون بحيث لا يرى احتياجات شقيقه » .

— « كما ترى يا اليسيا ، ولكنى ساعقد اجتماعا صغيرا مع تومى » .
 — « ريت .. لا تفعل انك ستفزع الولد المسكين حتى الموت » .

— « الولد المسكين » يفزع كل نساء شارلستون حتى الموت !! شكرا لله ان شيئا لم يحدث حتى الآن . في المرة القادمة قد يفقد السيطرة على نفسه ، او قد يطلق عليه الرصاص . أين يقيم يا اليسيا ؟ » .
 — « ما الذى ستقوله له ؟ انك لا تستطيع ان تذهب اليه وتسحبه من مؤخرة عنقه » .
 — « ثقى بى يا اليسيا » .



كان ريت يجلس فى شرفة منزل كوبر يشرب الشاي مع والدة تومى عندما وصل الغلام إلى البيت . وقدمت السيدة كوبر ابنها إلى ريت ، ثم أرسلته إلى الداخل لكي يضع كتبه المدرسية ويغسل يديه ووجهه . قالت : « مستر باتلر سيأخذك إلى الترزى الذى يتعامل معه يا تومى ، إن لديه ابن عم فى مدينة (أيكين) ينمو بسرعة مثلك ويحتاجك لكي يقيس على جسمك بعض الملابس حتى يستطيع ان يشتري هدية عيد ميلاد مناسبة لقرينه » . بعيدا عن انظار والدته وضييفا .. ظهرت تكشيرة مخيفة على وجه تومى ، ثم تذكر شذرات من حكايات سمعها عن شباب ريت الصاخب فقصر انه سيكون سعيدا بالذهاب مع مستر ريت ومساعدته .. فربما يجد الشجاعة لكي يطرح على مستر باتلر بضعة أسئلة حول اشياء تؤولفه . ولم يجد تومى حاجة للسؤال . فما ان خرج من المنزل حتى وضع ريت ذراعه على كتفى الغلام . وقال : « توم ، أريد ان أعلمك بعض الدروس القيمة ، اولها كيف تكذب على والدتك بطريقة مقنعة . وخلال رحلتنا فى عربية الشارع سوف نتحدث ببعض التفاصيل حول الترزى ودكانه وعاداته .. سوف تتدرب بمساعدتى إلى ان تصبح قصتك مقنعة . ليس لى ابن عم فى (أيكين) ، ولسنا فى الطريق إلى الترزى . افنا سنركب حتى نهاية خط شارع برونولدج . ثم نمضى فى تمشية صحية على الأقدام إلى المنزل الذى أريد ان نلتقى فيه مع بعض اصدقائى » .

وافق تومى كوبر بلا مناقشة . لقد اعتاد ان يستمع من الكبار إلى ما ينبغى عليه ان يفعل . وقد احب الطريقة التى يناديه بها مستر باتلر (توم) وقبل ان يمضى المساء ويتم تسليم توم إلى والدته ، كان الغلام ينظر إلى ريت نظرته إلى البطل المعبود .

كان ريت واثقا من ان توم لن ينسى ابدا الاصدقاء الذين التقى بهم . فقد كان من بين (المؤسسات) التاريخية العديدة لشارلستون .. أول بيت رسمى للدعارة « للسادة فقط » . وقد غير مكانه عدة مرات خلال قرنين

من وجوده ، ولكنه لم يغلق ابوابه يوما واحدا رغم الحروب والأوبئة والأعاصير . ومن بين السمات الخاصة لهذا البيت .. التدشين الرقيق والسرى للشبان وإطلاعهم على مسرات الرجولة . وكان من تقاليد شارلستون المدللة .

وكان ريت يتساءل أحيانا : كيف كانت حياته ستتغير لو أن والده كان يتجاوب مع هذه التقاليد ، كما كان بالنسبة لكل الأشياء الأخرى المتوقعة من جنّلمان شارلستون .. ولكن الماضى انتهى وولت أيامه . وانحنّت شفّته في ابتسامة حزينة . لقد كان قادرا على الأقل ، أن ينيوب عن الوالد المتوفى لتوم الذى كان سيفعل نفس الشيء لابنه ، وللتقاليد فوائدها لسبب واحد ، هو أنه لم يعد هناك يانكى يقتحم غرف النوم عند منتصف الليل .



التحدى

جاء يوم وصول روزمارى شقيقة ريت .. وتساءلت سكارليت عما سيكون عليه موقف روزمارى منها . ان ريت يحبها حبا جما . ومن خلال ما سمعته سكارليت عنها .. فإن روزمارى من الضحايا المحليين للحرب . كانت صغيرة جدا لم تصل إلى سن الزواج قبل أن تبدأ الحرب ، واصبحت فقيرة جدا بحيث لا تجذب اهتمام الرجال القلائل الذين اتيح وجودهم بعد أن انتهت الحرب . وكانت عودة ريت إلى شارلستون وثروته الخرافية سببا في اطلاق الالسنه . لابد أن لروزمارى دوة هائلة الآن ، ولكنها بعيدة دائما تزور ابنة عم او صديقة في مدينة أخرى . هل تبحث عن زوج هناك ؟ هل رجال شارلستون غير مقنعين بالنسبة لها ؟ الجميع ينتظرون إعلان خطوبتها منذ أكثر من عام . وكانت سكارليت تخشى أن تاخذ روزمارى الكثير من اهتمام ريت .

الفتاة التي دخلت من الباب لها ابتسامة مبهجة على وجهها . لقد وصلت روزمارى . انها تشبه ريت . نفس العينين السوداوين والشعر الاسود . وعبرت روزمارى الغرفة في أربع خطوات وهي تقول :

— « إذن هذه سكارليت ، قال ريت : انك من عائلة القطط بسبب لون عينيك ارى الآن ما يقصده ، أمل أن يكون ما يصدر عنك نحوى مجرد هدير وقرقرة وليس بصاقا ، اود ياسكارليت ان تكون اصدقاء » . الضحيج الذى تصنعه روزمارى اثناء تناول العشاء سبب صداعا لسكارليت . وقالت روزمارى : « لو اننى كنت رجلا لسمحت لى بالرجيل ، لقد كنت اقرأ مقالات عن روما كتبها مستر هنرى جيمس وشعرت اننى ساموت جاهلة إذا لم ار تلك المدينة بنفسى » .

وقال ريت بهدوء : « ولكنك لست رجلا يا عزيزتى » . وتدخلت سكارليت في الحديث : « لماذا لا تدع روزمارى تذهب يا ريت ، إن روما ليست بعيدة وأنا متأكدة من اننا لابد أن يكون لنا احد الاقارب هناك ، انها لا يمكن أن تكون أبعد من اثينا ، وعائلة تارلتون لديها مليون من ابناء العمومة في اثينا » .

وحدقت فيها روزمارى : « من هؤلاء التارلتون وما علاقة اثينا بروما ؟ وسعل ريت لإخفاء ضحكته ثم تنحنح ، وقال : « اثينا وروما اسماء مدن في جورجيا يا روزمارى ، هل تودين زيارتهما ؟ »

ووضعت روزمارى يديها على رأسها في ايماءة درامية علامة على الياس : « لا اصدق ما اسمع .. من الذى يريد الذهاب إلى جورجيا بالله عليكم ؟ »

أريد أن اذهب إلى روما ، روما الحقيقية ، المدينة الخالدة في إيطاليا ! » .
وشعرت سكارليت بالدم يصعد إلى وجنتيها .

كان لابد أن اعرف أنها تقصد إيطاليا .

ولكن قبل أن تستأنف روزماري الحديث انفتحت باب غرفة الطعام بعنف محدثا دويًا عنيفا اسكت الجميع وسبب لهم صدمة ، وتعثروا وهو يلهث ويخطو داخل الغرفة . قال لاهنا : « ساعدوني ، الحرس ورائي ، لقد اطلقت النار على اليانكي الذي يقتحم غرف النوم » .

في ثوان وبسرعة خاطفة كان ريت إلى جانب شقيقه يمسك بذراعه . قال ريت في لهجة أمرة ومهدئة : « المركب الشرعي في المرسى ، ولا يوجد قمر هذه الليلة ونستطيع نحن الاثنين أن نبحر بها » وبينما كان يغادر الغرفة ، التفت ليتحدث بثؤدة من فوق كتفه : « قولوا لهم انني غادرت فور توصيل روزماري حتى الحق بالمد في النهر ، وانتم لم تشاهدوا روس . ولا تعرفون أي شيء عن أي شيء . وسأكتب لكم » .

قشعريرة تجتاح جسد سكارليت . اليانكي قادمون ، وسيشنقون روس لأنه أطلق الرصاص على واحد منهم وسوف يشنقون ريت لمحاولته مساعدة روس على الهرب . لماذا لم يترك روس ليدبر أموره ؟ ليس له الحق في أن يترك نساءه وحدهن بلا حماية بينما اليانكي قادمون . تكلمت اليانور بصوت فولاذي ولكنه ناعم وببطيء كما كان دائما قالت : « سارفع أطباق ريت وأدواته من فوق المائدة ، ويجب ابلاغ الخدم بما سوف يقولون ويجب ألا تكون هناك إشارة إلى أنه كان هنا .. هلا تفضلت أنت وروزماري بإعادة ترتيب المائدة لثلاثة أشخاص ؟ » .

— « ماذا سنفعل يا مس اليانور ؟ اليانكي قادمون ؟ »

كانت سكارليت تعرف أنها يجب أن تظل هادئة . واحتقرت نفسها لأنها مرتاعة ، ولكنها لم تستطع السيطرة على خوفها .. وهي تزداد خوفا عندما تتذكر أن جيش الاحتلال يمكن أن يفعل أي شيء يريده ويسمى ما يفعله قانونا .

قالت السيدة باتلر « سوف ننهي عشاءنا .. ثم ساقرا بصوت عال من رواية ايفانهاو » .. كانت عيناها قد بدأت تضحكان .



— « اليس لديك ما هو أفضل لكي تفعله بوقتك من استعراض قوتك على منزل من النساء ؟ »

وحملت روزماري في الضابط الاتحادي وقبضتها مضمومتان على

فخذيها .

قالت السيدة باتلر : « اجلسي واهدئي يا روزمارى ، اننى اعتذر عن وقاحة ابنتي يا كابتن » . ولم يسعف ادب السيدة اليانور وروح المصالحة لديها فى استمالة الكابتن فامر رجاله قائلا : « اذهبوا وفتشوا المنزل » . كانت سكارليت مستلقية على ظهرها ورأسها فوق الوسادة بعد أن وضعت كمادات البابونج على وجهها الذى احرقته اشعة الشمس وعينيها المتورمتين فى رحلتها البحرية . كانت مرتاحة لأن حالتها جعلتها غير مضطرة لرؤية اليانكى . ياللاعصاب الهادئة التى تتحلل بها مس اليانور . لقد فكرت فى ترتيب مشهد غرفة مريضة فى المكتبة ومع ذلك فإن الفضول يكاد يقتلها . لم تستطع أن تخمن ما يجرى من خلال الأصوات التى تصل إلى اذنيها وترشدها .. ثم وقع اقدام وابواب تغلق ثم صمت . هل رحل الكابتن ؟ هل رحلت مس اليانور وروزمارى ايضا ؟

ولم تعد تتحمل أكثر من ذلك . وحركت بدا واحدة ببطة إلى اعلى صوب عينيها ورفعت طرفا من القماش الرطب الذى يغطيها . كانت روزمارى جالسة على المقعد قرب المكتبة فى هدوء تقرا كتابا .

وهمست سكارليت : س .. س .. س .. س ..

واغلقت روزمارى الكتاب بسرعة ، وقالت فى همس ايضا : « ماذا ؟ هل سمعت شيئا ؟ »

— لا ، لا اسمع شيئا ، ماذا يفعلون ؟ اين مس اليانور ؟ هل قبضوا عليها ؟

— « بحق السماء يا سكارليت ، لماذا تهمسين ؟ »

وعاد صوت روزمارى الطبيعى يدوى عاليا جدا : « الجنود يفتشون المنزل بحثا عن أسلحة ، وهم يصادرون كل الأسلحة النارية فى شارلستون . وماما تتبعهم لكى تتأكد من أنهم لا يصادرون أى شيء آخر » .

واسترخت اعصاب سكارليت .. هل هذا هو كل شيء ؟ لا توجد أسلحة فى المنزل ، فهى تعرف ذلك . واغلقت عينيها ونامت . لقد كان يوما طويلا . وللحظة شعرت بأنها تحسد ريت لأنه يبحر تحت النجوم الآن .. ولم تشعر بقلق من احتمال أن يقبض عليه اليانكى ، فهى لم تقلق قط على ريت فلا يوجد من يستطيع أن يقهره .

وقرر اهالى شارلستون الاحتجاج على تفتيش بيوتهم وفرض حظر للتجول ابتداء من التاسعة مساء . كان موعد زفاف « لوسيندا ريج »

فى الثالث والعشرين من يناير . وتم تقديم موعده إلى التاسع عشر من ديسمبر فى كنيسة سانت مايكل فى الساعة التاسعة مساء أى فى نفس موعد سريان حظر التجول .. وها هوذا جمهور ضخم يخرج من الكنيسة منتهكا الحظر . ولا تعرف سلطات الجيش الشمالى كيف تتصرف لأن سجون المدينة لا تكفى لاستيعاب كل هذا العدد !

وعاد ريت إلى المدينة فى نفس ذلك المساء يحمل أخبار وصول روس سالما إلى مدينته ويلمنجتون . واعترفت له سكارليت بأنها خافت من الذهاب إلى حفل الزفاف :

« لم استطع أن اصدق أن مجموعة من سيدات حفلات الشاى يمكن أن يهزمن جيش اليانكى ، لابد أن أقولها يا ريت .. إن أهالى شارلستون يملكون كل ذكاء الدنيا » وابتسم ريت قائلا : « احب كل الحمقى المغرورين .. كل واحد منهم ، حتى المسكين روس اتمنى ألا يعرف قط أنه أخطأ التصويب على اليانكى بمسافة ميل ، فسوف يشعر بارتباك شديد لو عرف الحقيقة » .

كان صوت سكارليت ينبض بالاحتقار وهى تقول : « ربما لم يطلق النار على الاطلاق ! اتصور أنه كان مخمورا » ثم قفز الخوف إلى عينها : « إذن فالمعتدى الليل لايزال مطلق السراح » ! وربت ريت على كتفها وضحك فى سعادة قائلا « كلا ، كونه مطمئنة يا عزيزتى ، لن تسمعى بعد الآن عن هذا المعتدى .. ذلك ان شقيقى والزواج السريع للصغيرة لوسيندا وضعنا فى قلوب اليانكى الخوف من الله » . وسألته سكارليت فى شك : « ماذا يضحك » ؟ كانت تكره أن يضحك الناس لسبب لا تعرفه . وقال ريت : « لن تفهمى ، كنت أهنيء نفسى على حل مشكلة بمفردى ، ثم لأن أخى أعطى المدينة كلها شيئا من السعادة والاحساس بالكبرياء .. انظرى اليهم يا سكارليت » . كانت لوسيندا ريج التى أصبحت لوسيندا جريمبول تلقى بالزهور من باقتها على الجنود .

قالت سكارليت : « أوف .. أود أنلقى عليهم بقطع الطوب » ! — « أنا متأكد من أنك يمكن أن تفعل ذلك ، فقد كنت تحبين دائما الشئ الواضح أما طريقة لوسيندا فإنها تحتاج إلى خيال » .

أصبحت طريقته الفكاهة الكسولة فى التشديق بالكلام ، حادة ولاذعة ووحشية . ورفعت سكارليت رأسها . « سأعود إلى الداخل ، افضل أن اختنق بدلا من سماع الاهانات » .

كانت روزمارى تقف على مقربة وسمعت بالمصادفة ما دار بين شقيقها وزوجته وانكششت خوفا من القسوة التى سمعتها فى صوت ريت والاحساس الغاضب بالاهانة فى صوت سكارليت .
وفى ساعة متأخرة من الليل ، دقت روزمارى باب المكتبة حيث كان ريت يقرأ ، ثم دخلت واغلقت الباب وراءها كان وجهها قد اكتسب لونا قانينا من البكاء . قالت : « كنت اظن انى اعرفك يا ريت .. ولكنى اكتشفت اننى لا اعرفك على الاطلاق . لقد سمعتك تتحدث هذه الليلة مع سكارليت .. كيف تكون وضعيا إلى هذا الحد مع زوجتك ؟ من الذى ستقلب عليه بعدها ؟ » .



إذا طارت الخنازير

كان ريت قد نهض بسرعة من مقعده وتوجه نحو شقيقته وقد مد ذراعيه ، ولكن روزمارى رفعت يديها أمامها وكفيها الى الامام وتراجعت . واطلم وجهه من الألم ووقف ساكنا وذراعاها الى جانبيه . لقد اراد قبل كل شيء أن يحمى روزمارى من الأذى ، والآن . يصبح هو مصدر ألمها . بسبب تحديه المتمرد للعائلة والمجتمع ، تبرأ منه والده . وكان اسم ريت محذوفا من كشف العائلة عندما ولدت روزمارى . كانت أصغر منه بعشرين سنة .. ولم يرها حتى بلغت سن الثالثة عشرة ، فتاة تعوزها الرشاقة في الحركة والتعبير ، بساقين طويلتين وقدمين كبيرتين وصدر صغير .. وخالفت أمها أوامر زوجها في مرة نادرة في حياتها عندما بدأ ريت حياة الأخطار . حياة مقتحم الحصار الذي فرضه الأسطول الشمالى الاتحادى على ميناء شارلستون .

جاءت في الليل الى رصيف الميناء حيث كانت ترسو سفينته ومعها روزمارى لكي تلتقى به . رحب بها بكل الحنان الذى عجز الأب عن تقديمه .. وتحركت مشاعر الحب الرقيق لدى ريت . وفي المقابل أعطته روزمارى الثقة والاخلاص اللذين لم تشعر بهما نحو الأب . ولم تنقطع الصلة بين الشقيق وشقيقته رغم أنهما لم يلتقيا أكثر من ١٢ مرة منذ اللقاء الأول على رصيف الميناء الى أن عاد ريت الى شارلستون بعد ١١ سنة من الغياب .

لم يغفر لنفسه قط انه صدق تأكيدات الأم بأن روزمارى سعيدة ومنعمة بالمال الذى أغدقه عليها بعد وفاة والده . واتهم نفسه بعد ذلك بأنه كان ينبغي أن يكون أكثر انتباها ويقظة ، فلو كان كذلك لما ترعرت شقيقته وهي فاقدة الثقة في الرجال ، وربما كانت قد وقعت في الحب وتزوجت وأنجبت أطفالا ، وعندما عاد ريت الى البيت بعد الغيبة وجد امرأة عجوزا في الرابعة والعشرين من عمرها في نفس رعونة فتاة الثالثة عشرة عندما شاهدها لأول مرة .

لم تكن تشعر بارتياح مع كل الرجال باستثناء شقيقها ريت ، واستعانت بشخصيات الروايات كبديل لعدم اليقين في الحياة الواقعية . ورفضت مواثيق المجتمع حول الكيفية التى يجب أن تنظر بها المرأة وتفكر وتصرف . وأحبها ريت واحترم استقلاليتها ، ولم يستطع تعويض السنوات التى حرم فيها من رعايتها ولكنه استطاع أن يعطيها أندر هدية - ذاته الداخلية . كان أمينا تماما مع روزمارى ، يتحدث معها على قدم

المساواة وربما يفضى بمكنوناته إليها كما لم يفعل مع أى شخص ، وعرفت
هى قيمة هذه الهدية وعبدته .

الآن تشعر روزمارى بالخيانة . لقد رأت جانباً من شخصية ريت لم تكن
تعرف بوجوده .. جانب القسوة فى الشقيق الذى عرفته رقيقاً وعطوفاً
ومحباً على الدوام ، وشعرت باضطراب وباهتزاز فى الثقة .
عينها الحمراءوان المتهمتان تنظران اليه وهى تقول : « أنت لم تجب
على سؤالى يا ريت »

قال بحذر : أنا أسف يا روزمارى ، أسفى عميق لأنه تصادف أن سمعت
ما كنت أقوله ، انه شيء كان اضطرارياً . اننى أريدها أن ترحل وتتركنا
جميعاً وحدنا .

— ولكنها زوجتك !

— لقد هجرتها يا روزمارى . لقد رفضت الطلاق الذى عرضته عليها ،
ولكنها تعرف أن زواجنا قد انتهى .

— إذن لماذا حضرت الى هنا ؟

وببطء وبلا مشاعر .. روى ريت لشقيقته قصة الزواجين السابقين
لسكارليت قبل زواجه بها ، وعرضه الزواج عليها ، وموافقة سكارليت على
الزواج منه بسبب أمواله . وتحدث ريت عن تعلق سكارليت بحب أشلى
ويلكس الذى كاد أن يكون متسلطاً عليها طوال السنوات التى عرفها
خلالها .

وسأله روزمارى : ولكن إذا كنت تعرف ذلك فلماذا باله تزوجتها ؟
وابتسم ريت : لماذا ؟ لأنها كانت مليئة بالنار ومتهورة جداً وشجاعة
بعناد ، لأنها كانت مجرد طفلة تخفى وراء كل ادعاءاتها ، لأنها كانت
تختلف عن كل امرأة عرفتها . لقد سحرتنى وأثارت غيظى وحققى ودفعتنى
الى الجنون ، لقد أحببتها بطريقة تستنفد الوقت والمال وتستغرق المرأة
استغراقاً تاماً وتختلف . منذ اليوم الذى وقعت عيناً عليها فيه ، كانت
نوعاً من المرض .

كانت هناك رنة أسمى فى صوته

وأحنى رأسه بين يديه وضحك وهو يتمايل ، وأصبح صوته مكتوماً
وغير واضح بسبب أصابعه التى يضعها على وجهه : « يا لها من نقطة
عملية غريبة الى حد يشع ومضحكة هذه الحياة . الآن أشلى ويلكس ..
رجل حر ويمكن أن يتزوج سكارليت فى أى وقت ، وأنا أريد أن أتخلص
منها . وبطبيعة الحال هذا يجعلها مصممة على أن تمتلكنى ، انها تريد فقط
ما لا تستطيع أن تمتلكه »

ورفع ريت رأسه ليقول بهدوء : اننى خائف ، خائف من ان يبدأ كل شيء مرة أخرى ، اننى اعرف انها بلا قلب وانانية جدا ، انها تشبه الطفل الذى يبكي من اجل الحصول على لعبة ثم يحطمها فور ان يمتلكها ، ولكن هناك لحظات عندما تدير رأسها لتميل بزاوية معينة ، او تبتسم تلك الابتسامة الجدلانة او عندما تبدو فى عينيها فجأة نظرة الانسانية الضائعة .. اليائسة .. المحطمة .. اشعر اننى اقترب من نسيان ما اعرف .

وضعت روزمارى يدها على ذراعه : « عزيزى ريت المسكين » ووضع يده على يدها ثم ابتسم لها ، وعاد الى نفسه مرة أخرى : « ها انت تربين امامك يا عزيزتى ، الرجل الذى كان ذات مرة اعجوبة زوارق نهر الميسيسبى . لقد قامرت طوال حياتى ، ولم اخسر قط ، وسوف افوز بهذه اليد أيضا ، سكارليت وانا عقدنا صفقة ، لم استطع المخاطرة بالابقاء عليها فى هذا المنزل لوقت طويل ، فاما ان اقع فى غرامها مرة أخرى وإما ان اقتلها ، ولذا لوحث امامها بالذهب وتفوقت شراحتها للمال على الحب الذى لا يموت الذى تتظاهر به نحوى ، سوف ترحل نهائيا عندما ينتهى الموسم ، ولحين حلول هذا الموعد فإن كل ما يجب ان افعله ان احافظ على مسافة بيننا ، وان اتفوق عليها فى القدرة على الاستمرار والصمود واتفوق عليها فى الحيلة والدهاء .. انها تكره ان تخسر ، وعلى كل حال فإنه ليس شيئا ممتعا إلحاق الهزيمة بشخص يخسر دائما »

وضحكت عيناها لشقيقته ثم زال منهما المرح : « إذا عرفت امى الحقيقة بشأن زواجى التمس فإن ذلك سيحطمها ، ولكنها ستشعر بالعار إذا عرفت اننى تخلصت من هذا الزواج بصرف النظر عن حقيقة انه لم يكن زواجا سعيدا ، مازق مخيف . بهذه الطريقة .. سترحل سكارليت ، ساكون الطرف المصاب ، ولكن الحكيم المتحرر من الانفعالات هو الذى يخضع لحكم الضرورة بشجاعة ، ولن يكون هناك ما يشين احدا »

— « لن يكون هناك ندم ؟ »

— فقط لكونى كنت احمق .. ذات مرة منذ سنوات ، وسيكون عزائى القوى جدا هو اننى لم اكن احمق للمرة الثانية ، ان ازالة هوان المرة الاولى تحتاج الى الكثير .

وحملت روزمارى فى فضول لا يشوبه ارتباك : « وإذا تغيرت سكارليت ؟ انها قد تنضج »

واتسعت ابتسامه ريت : « نقلا عن اقوال السيدة نفسها .. فإن ذلك قد يمكن ان يحدث - إذا طارت الخنازير - »

لحظة حنان

لماذا لا تجعله يشعر بالغيرة ؟ لقد بدأت حفلات الرقص والمناسبات الاجتماعية ، انها تريد أن تجعله يتغير فلا يظل فاترا وبعيدا عنها .. وسوف تبدو في الحفلات أجمل امرأة وتزين على أحسن ما يكون ولا أحد يلوم زوجة على محاولة انقاذ زواجها .

وتوجهت الى حفل عائلة وتورت مع السيدة باتلر وريت وروزمارى ، وامضت وقتا سعيدا ، وكان ريت دمثا ولطيفا وهو يراقصها ، بل كان أكثر من رقيق ، انه جذاب ، ولا أحد على الأرض يمكن أن يكون أكثر جاذبية من ريت إذا أراد ذلك .

ويقرر ريت التوجه الى المزرعة وزيارة السيدة جوليا أشلى ولن يكون هنا في شارلستون ليلة رأس السنة ولن يقبلها .. قبله العام الجديد . وتصر روزمارى على أن تصحبه الى المزرعة ، وتعلن سكارليت عزمها على الذهاب أيضا الى المزرعة .. فهناك أيضا حل ليلة رأس السنة ، وكان منزل جوليا أشلى في مزرعتها تحفة معمارية رائعة ، يبدو ان جيش شيرمان نفسه لم يجرؤ على المساس بها اثناء الحرب ، كانت زيارة عمل قام بها ريت للسيدة أشلى وبصحبة روزمارى وسكارليت . وعند العودة الى مزرعة ريت باتلر واسمها « دانمور لاندينج » حدثت مشكلة بين العمال السود والعمال البيض .

فقد تجمعهم العمال السود في مزرعة ريت .. بعد أن اتفق عمال جوليا مع عمال الفوسفات لدى ريت على أن يقولوا لها أن ريت يدفع لعمال منجم الفوسفات ضعف ما تدفعه هى لعمال مزرعتها ، وإن عليها أن ترفع أجورهم وإلا سينتقلون للعمل مع ريت ، ويلعب عمال ريت نفس اللعبة . واقنع عمال جوليا عن اللعبة ، ولكن في مزرعة ريت تردت شائعات بان السود يدبرون شيئا .

وغضب المزارعون البيض الذين يستغلون الأرض لمصلحة الملاك مقابل جزء من المحصول وفعلوا ما يفعل الفقراء البيض دائما ، أمسكوا ببنادقهم واستعدوا لاطلاق النار ، وجاءوا الى البيت وسرقوا الويسكى « لتسخين رؤوسهم » واتهموا ريت بأنه « عاشق للزنوج » لأنه قال لهم انه نجح في تسوية كل الأمور مع العمال وطلب منهم العودة الى بيوتهم ، وأخرج احدهم ويدعى « كلينش دوكنيز » سبلاحه الناري وصوبه نحو ريت ، وضرب ريت يده فانطلقت رصاصتان في الهواء ، فخرج كلينش دوكنيز مطواه . ونشبت معركة لعشر دقائق اسفرت عن قطع انف كلينش .

ظلت سكارليت وروزمارى داخل منزل المزرعة فى حالة من القلق الشديد على ريت ، وسكارليت تحاول الخروج من المنزل للاطمئنان وروزمارى تمنعها . وعندما دوى طلق نارى قفزت سكارليت من مكانها وانطلقت للخروج من المنزل ولكن روزمارى منعتها بالقوة حتى كادت تخنق سكارليت ، وفى النهاية اضطرت روزمارى ان تصفعها بالحقيقة : « انه لا يريدك ، لقد اخبرنى بذلك »

فقدت سكارليت شهيتها للطعام ، ولم تتناول العشاء ، وذهبت الى النوم ، الامر الذى اثار دهشة ريت لانه يعرف مدى تعلق سكارليت بالطعام .

وسال ريت شقيقته . هل سكارليت مريضة ؟

— انها متضايقه .

— لقد رايتها مرات عديدة لا تحصى متضايقه ، وكانت تاكل مثل عامل الشحن والتفريغ فى الميناء كل مرة .

— انه ليس مجرد مزاجها يا ريت ، بينما كنت تقطع الأنوف ، كنا انا وسكارليت فى مباراة للمصارعة .

ووصفت روزمارى الرعب الذى سيطر على سكارليت وتصميمها على ان تذهب اليه . وقالت : لم اكن اعرف مدى خطورة الاشياء خارج المنزل ولذلك منعته ، وأمل ان اكون قد تصرفت على النحو الصحيح . — تصرفك كان صحيحا تماما ، كان يمكن ان يحدث اى شئ .

واعترفت روزمارى : أخشى ان اكون أمسكت بها بشدة ، لقد كادت تموت ، انها لم تستطع ان تتنفس .

واستلقى ريت الى الوراء وضحك : يا الهى كنت اتمنى ان ارى هذا المشهد .. سكارليت اوهارا مسمرة فى السجادة بواسطة فتاة ، لابد ان هناك مائة سيدة فى جورجيا كن سيصفقن لك حتى تدمى اكفهن !

وفكرت روزمارى فى الاعتراف بالبقية . فقد تحقق لديها ان ما قالته لسكارليت سبب لها الاذى اكثر من معركة المصارعة ، ولكنها قررت الا تتكلم ، فقد كان ريت لا يزال يضحك ولا معنى لافساد مزاجه الرائق . استيقظت سكارليت قبل الفجر بسبب احساسها بجوع شديد ، والتفت بغطاء السرير ، وسارت عارية القدمين تبحث وسط الظلام عن المطبخ لعلها تجد شيئا تاكله .

— قف مكانك وإلا اخترق الرصاص جسدك !

كان هذا صوت ريت الذى حمل سلاحه بعد ان ظن ان هناك من اقتحم المنزل .

كان ريت رقيقا ، يضحك باستمرار وهو يعد لها الطعام .. وأرادت سكارليت أن تساله عما إذا كان من الممكن أن تدوم الراحة والضحك ، ولكنها خشيت أن تدمر كل شيء .. وأخيرا .. تكلمت : « ريت ، الا يمكن أن نستمتع بوقت طيب كهذا الى الأبد ؟ ان هذا وقت طيب ، وانت تعرف انه كذلك ، لماذا تضطر الى مواصلة تمثيل انك تكرهنى ؟

وتنهد ريت وقال فى ضجر وملل : سكارليت ، كل حيوان لابد أن يهاجم إذا وضع فى الزاوية . الغريزة أقوى من العقل ، وأقوى من الإرادة ، عندما جئت الى شارلستون .. كنت تضعيننى فى الزاوية ، تحشريننى وتضغطين علىّ وانت تفعلينها الآن . اننى أريد أن أكون مهذبا ، ولكنك لا تدعيننى أكون كذلك .

— سافعل ، أريدك أن تكون لطيفا .

— أنت لا تريدين الرقة يا سكارليت ، أنت تريدين الحب ، الحب الواضح بلا سؤال وبلا مطالب ، وقد أعطيتك هذا الحب مرة ، عندما كنت لا تريدينه ، وقد استهلكته كله يا سكارليت .

واخذت لهجة ريت تزداد جفاء وعصبية وبدا ان صبره ينفذ ، وابتعدت سكارليت ولمست بلا وعى المقعد المجاور لها فى محاولة للبحث عن الدفء فى غطاء الفراش الملقى على الأرض .

— دعينى أوضح الأمر بلغتك يا سكارليت ، كان فى قلبى ما يعادل ألف دولار من الحب ، وكان المبلغ من ذهب وليس أوراقا خضراء ، وقد انفقتها عليك ، كل ملجم من هذا المبلغ ، وبالقدر الذى يتصل بالحب ، أصبحت مفلسا ، لقد كان هناك من عصرنى واستنزفنى - وهو أنت - حتى جف كل شيء

— لقد كنت مخطئة يا ريت ، وأنا أسفة ، اننى أحاول تعويض ذلك .

كان عقل سكارليت يسبق الحوار بطريقة محمومة ويفكر .. استطيع أن اعطيه ما يعادل ألف دولار من الحب .. ألفين . خمسة آلاف .. عشرين ألفا .. ألف ألف ، وعندئذ يكون قادرا على أن يحبنى لأنه لن يكون مفلسا فى هذه الحالة ، سوف يستعيد كل شيء وأكثر ، إذا قبل أن يأخذ .. اننى يجب أن أحمله على أن يأخذ .

كان ريت يقول فى تلك اللحظة . سكارليت .. ليس هناك تعويض عن

الماضى ، لا تدمرى القليل الذى بقى ، دعينى اكون طيبا ، أشعر اننى ساكون افضل بالنسبة لهذه المهمة .

وتشبهت بكلماته : نعم ! نعم يا ريت ، أرجوك ، كن طيبا كما كنت قبل ان يتبدد الوقت السعيد الذى كنا نقضيه معا .. لن اضغط عليك ، دعنا فقط نمرح ، نكون اصدقاء الى ان اعود الى اتلانتا ، ساكون قانعة إذا استطعنا ان نضحك معا ، لقد استمتعت بذلك ونحن نتناول هذا الافطار .. وزال الغضب من صوت ريت : هل هذا هو كل ما تريدينه ؟ ورشف جرعة كبيرة من القهوة بينما كانت سكارليت تفكر فيما ستقوله ثم اصطنعت ضحكة قبل ان تقول :

« حسنا .. طبعاً ايها الاحمق ، اننى اعرف متى اتراجع ، لقد كنت اظن ان الامر يستحق المحاولة ، هذا هو كل شيء ، لن احشرك مرة أخرى ، ولكن أرجوك ان تجعل الموسم طيبا بالنسبة لى ، انت تعرف كم احب الحفلات » وضحكت مرة أخرى قبل ان تقول : « وإذا كنت تريد ان تكون طيبا بحق يا ريت بالتر .. فإنك تستطيع ان تصب لى فنجاناً آخر من القهوة »



بعد دقائق التقت سكارليت بريت مرة أخرى فى مكتبه فى المنزل وكانت تظن انه مضى الى النوم ، كان مرهقا للغاية ، فقد امضى الليل بطوله يحرس المنزل ويحرسها ، ومن فوق كتف ريت كانت تستطيع ان ترى نافذة الغرفة ، وتساءلت عن الشيء الذى يتطلع اليه ريت بهذا التركيز . وعندما انبثقت الشعاعات الاولى لضوء الفجر الاحمر الضعيف .. لمست المشهد خارج النافذة فاضاءت بصورة درامية ركام الطوب المحطم لمنزل دانمور لاندينج .. كان لون الركام احمر والسماء المظلمة وراءه . وصرخت سكارليت ، بدا المنظر وكأن الدخان لا يزال يتصاعد من الحطام . كان ريت يراقب مشهد موت منزله .

وتوسلت اليه « لا تنظر يا ريت ، لا تنظر ، ان ذلك لن يجدى نفعا سوى ان يحطم قلبك »

— كان يجب ان اكون هنا ، كنت ساقنهم .

كان صوت ريت متمهلاً وبعيداً كما لو لم يكن يعرف انه هو الذى يتكلم .

— لم يكن بإمكانك ان تفعل شيئاً ، لابد ان المئات منهم جاءوا الى هنا ، وكان فى استطاعتهم ان يطلقوا عليك النار ويحرقوا كل شيء فى جميع الاحوال !

قال ريت : انهم لم يطلقوا الرصاص على جوليا أشلى .
 حسرة كبيرة على المكان الذى كان يسمى قبل الحرب « الحديقة المخبأة »
 وتمدد ريت على مقعد مستطيل .. وراقبته سكارليت وهو يستغرق فى
 النوم .

لا يجب أن أقول له مرة أخرى اننى أحبه . ان ذلك يجعله يشعر بأنه
 تحت الضغط . وعندما ينقلب الى رجل بغیض اشعر باننى ضئيلة
 ورخيصة لأننى قلت ذلك ، لا ، لن أقولها مرة أخرى .. ليس قبل أن يقول
 هو أولا انه يحبنى .



تجولت سكارليت مع روزمارى فى بقايا حديقة الورد الملحقة بمنزل
 المزرعة ولم تكف روزمارى عن الحديث عن ذكريات طفولتها فى هذه
 الحديقة ، واقتрحت سكارليت جمع بعض اغصان الصنوبر لتزيين المنزل
 بمناسبة ليلة رأس السنة ، وفى تلك الليلة اقام ريت حفلا لعائلات
 المستأجرين للأرض ، وطلب من سكارليت وروزمارى وبانسى أن يلزمن
 غرفتهن قبل حضور الضيوف وحتى انتهاء الحفل .

وتابعت سكارليت من نافذة غرفة نومها أضواء ليلة رأس السنة حتى
 الواحدة ، وتمنت من كل قلبها لو كانت قد بقيت فى المدينة ، ففى اليوم
 التالى ستلزم الغرفة طوال النهار خلال الاحتفال المخصص للسود ومع
 حلول وقت عودتهم الى المدينة سيكون الوقت قد فات لغسل وتجفيف
 شعرها استعدادا للحفل الراقص ثم ان ريت لم يقبلها .

فى الأيام التالية . استردت سكارليت كل الحيوية التى نصيب
 بالدوار .. الاثارة التى تذكرها بأحسن وقت فى حياتها انها الغائنة ذات
 الجمال الأخاذ . يحتشد الرجال حولها فى الحفلات . وبطاقة الرقص
 تمثلى بأسماء من يطلبون الرقص معها بمجرد دخولها قاعة الحفل . وكل
 الاعييبها القديمة فى الغزل تسفر عن نفس الاعجاب الذى كانت تحظى به من
 قبل ، كما لو كانت قد عادت الى سن السادسة عشرة . ولم يمض وقت
 طويل حتى تبددت وانقشعت الاثارة . انها ليست فى السادسة عشرة ،
 وهى لا تريد طابورا من المعجبين وانما تريد ريت ، ولكنها ليست أقرب
 اليه الآن مما كانت عليه من قبل . ومن ناحيته حافظ على نصيبه من
 الصفة ، كان يبدى اهتماما بها فى الحفلات ويظهر الدمعة نحوها فى
 أى مكان يتواجدان فيه سواء فى المنزل او مع أشخاص آخرين ، فقد كانت
 على يقين من انه يتطلع كل يوم الى النتيجة ليعد الأيام الباقية حتى

يتخلص منها ، وبدأت تشعر بلحظات من الرعب ، ماذا إذا خسرت ؟

بدأت سكارليت تشعر بالغيرة من تومى كوبر الصغير الذى يتعلق بأذيل ريت وينظر اليه نظرة عبادة البطل ، وكان ريت يعلم الغلام فى ذلك الوقت كيف يبهر بمركب شراعى ، ولم يشعر ريت بالغيرة رغم عشرات المعجبين بها ولم يبد عليه أى قدر من الاكتراث ، يجب ان تحمله على ان يلاحظ وأن يهتم !

وقررت أن تختار شخصا واحدا من معجبيها .. شخصا وسيما غنيا واصغر سنا من ريت .. شخصا يجعله يشعر بالغيرة عليها ، ووقع اختيارها على ميدلتون كورتنى وهو رجل طويل القامة .. وسيم ذو عينين شاحبتين واسنان ناصعة البياض تشع عندما ترتسم على شفثيه ابتسامة شريرة ، انه صورة مصغرة ومجسمة من رجل المدينة المتطور فى رأى سكارليت ، والأهم من كل ذلك انه يملك منجم فوسفات أكبر عشرين مرة من منجم ريت .

وبعد أيام أصبح الغرام العلنى بينهما هو الموضوع الأول فى احاديث المدينة فى الموسم : عدد المرات التى رقصا خلالها معا فى كل حفل ، المرة التى أخذ فيها كورتنى كأس الشراب من يد سكارليت لكى يلمس بشفثيه المكان الذى وضعت عليه شفثيها على طرف الكاس وتردد الغمز واللمز .. وبدأت أدبث زوجة ميدلتون شاحبة ومهمومة ، ولم يفهم احد موقف ريت الهادىء ورابط الجأش .



أسرار المدينة !

اليانور قلقة بشأن المتاعب الواضحة بين ابنها وزوجته ، ولا تستطيع أن تسأل « ريت » حول هذا الموضوع .. فلو أنه أراد أن تعرف لكان قد أخبرها . وعندما قالت لها سكارليت بلا تردد : « احبك يامس اليانور » .. ، أمسكت اليانور باتلر بيدها . وقالت : « إننى مسرورة للغاية ياعزيزتى سكارليت . اننى أنا أيضا احبك ، ثم تنهدت بنعومة . وأضافت « احبك كثيرا إلى حد اننى لن أسالك أية أسئلة أو أعلق أى تعليقات غير مرغوب فيها . كل ما أتمناه هو أن تعرفى حقيقة ما تفعلين » .

وكان رد فعل سكارليت لهذا التلميح بشأن الوضع غير السار مع كورتنى .. يوضح أن سكارليت لا تريد أن تفضى إليها بمشاعرها أيضا . لقد سحبت سكارليت يدها من يد اليانور وقالت : « إننى لا أفعل أى شيء » . وأغلقت السيدة باتلر عينيها وحاولت أن تستريح . بعد أن يكون كل شيء قد قيل وكل شيء قد حدث وتم .. فإنه لا يوجد شيء تستطيع أن تفعله باستثناء أن تأمل في الأفضل . أن ريت رجل ناضج وسكارليت امرأة ناضجة . ومع ذلك فإنهما يتصرفان - في رأيها - مثل الأطفال المشاغبين .

وسكارليت تحاول أن تستريح أيضا . لقد صدمت وهى تتطلع من المنظر المكبر اثناء السباق بعد أن اكتشفت أن آن هامبتون غارقة في حب يائس لزوج امرأة أخرى تكيل لها المديح طول الوقت . وهذه المرأة الأخرى هى سكارليت نفسها . ولكن ألم تفعل سكارليت نفس الشيء عندما كانت في عمر أن ؟ وقعت في حب أشلى ودمرت حياتها مع ريت عن طريق التشبث بذلك الحب اليائس لفترة طويلة دون أن تستطيع أن ترى - دون أن ترغب في أن ترى - أن أشلى الذى أحبه كان مجرد حلم . هل ستهدر أن شبابها بنفس الطريقة بأن تحلم بـ « ريت » ؟ ما فائدة الحب إذا كان كل مايفعله هو تحطيم الأشياء ؟

جاءت سالى بروتون لزيارتها في المنزل وشعرت سكارليت بسعادة غامرة لرؤيتها . وطلبت من مانيجو احضار الشاي . وقالت سكارليت : « مس اليانور تحصل على قسط من الراحة وإلا لكنت قد أبلغتها أنك هنا ، وعندما تستيقظ .. » وقاطعتها سالى . ساكون قد خرجت ، أنا أعرف أن اليانور تنام فترة القبلولة وأن ريت يبحر في النهر وأن روز مارى تزور جوليا أشلى ، وهذا هو سبب حضوري الآن ، أريد أن اتحدث معك على انفراد »

وضعت سكارليت أوراق الشاي في الأبريق وشعرت بالحيرة ، وبدا عدم الارتياح على سالى بروتون ولم يكن هناك شيء في العالم يقلقها

قالت سالى فجأة « سكارليت أريد أن أفعل الشيء الذى لا يغتفر ، سوف
 تدخل فى حياتك ، والأسوأ هو أننى سأقدم لك نصيحة بدون إلحاح .. هيا
 امضى قدما واربطى بعلاقة مع ميدلتون كورتنى إذا كنت تريدين ذلك ،
 ولكن بالله عليك .. احتفظى بذلك فى طى الكتمان ، أما ما تفعلينه فإنه ينم
 عن ذوق سيئ ومروع ..

واتسعت عينا سكارليت تحت وطأة الشعور بالصدمة .. الارتباط
 بعلاقة ؟ النساء الفاسدات فقط هن اللاتى يفعلن أشياء من هذا القبيل .
 كيف تجرؤ سالى بروتون على اهانتها بهذه الطريقة ؟ وانصببت قامتها وهى
 تقول بحدة وكبرياء « عليك أن تعرفى يامسن بروتون أننى سيدة مثلك
 تماما » .

— « إذن تصرفى كسيدة ، قابلى ميدلتون فى مكان ما فى الأمسيات ،
 وحققى لذتك كما تشائين ، ولكن لاتجعلى زوجك وزوجته وكل شخص فى
 المدينة يراقبونكما وانتما تلهثان بالرغبة فى قاعة للرقص مثل الكلب الذى
 يجرى وراء الكلبة وهو فى حالة هياج جنسى » .

وتصورت سكارليت أنه لاتوجد كلمات أبشع من تلك التى تفوهت بها
 سالى ولكنها تبينت مما سمعته من عبارات تالية على لسان سالى أن هناك
 ماهو أكثر بشاعة بكثير :

— « يجب أن أحذرك - رغم ذلك - من أنه ليس رجلا كفؤا جدا فى
 الفراش ، إنه دون جوان فى قاعة الرقص ، ولكنه أبله قروى بمجرد أن
 ينزع رداء الرقص المنفوخ والبدلة الفراك » .

وحدقت عن قرب فى وجه سكارليت وقالت ببطء : « يا إلهى ، أنت جاهلة
 مثل رضيع حديث الولادة ، الست كذلك ، إنى أسفة ياسكارليت ، فأننا لم
 ادرك هذا ، دعينى أصب لك فنجانا من الشاي بكميات كبيرة من السكر » .

وتراجعت سكارليت إلى الخلف فى مقعدها . أرادت أن تصيح لتغطى على
 دموعها ، لقد كانت تعجب بسالى وفخورة بأن تكون صديقتها ، فإذا بسالى
 يتضح أنها ليست أفضل من مجرد نفاية ! وقالت سالى : « طفلتى
 المسكينة ، لو كنت أعلم ، لكان كلامى أخف وطأة بكثير عليك ، ولكن هذا
 ما حصل .. اعتبريه تعليما على السرعة . أنت فى شارلستون ومتزوجة .
 من شارلستونى ياسكارليت . لن تقدرى على أن تلقى حوك براعة المناطق
 النائية المختلفة ثقافيا لتكون بمثابة الدرع . هذه مدينة قيمة ذات حضارة
 عريقة . وجزء جوهرى من التحضر هو مراعاة حساسيات الآخرين .
 تستطيعين أن تفعلى ما تشائين بشرط أن تفعلى ذلك فى تكتم . الخطيئة

التي لاتغتفر هي أن تفرضى زلاتك وهفواتك بحيث يتطلعها اصدقائك
مرغمين . يجب أن تجعلى فى الامكان بالنسبة للآخرين التظاهر بانهم
لايعرفون ما تفعلينه »

لم تستطع سكارليت أن تصدق ما كانت تسمعه . إنه شيء مقرر . ورغم
انها تزوجت ثلاث مرات بينما كانت تحب شخصا آخر ، فإنها لم تفكر قط فى
أن تخون جسديا أى واحد من أزواجها . ربما تشوقت إلى اشلى وتخليلت
احضانه ، ولكنها لم تكن لتتسلل لتقابله لتقضى ساعة فى الفراش .
لا أريد أن اكون متحضرة .

هكذا كانت تفكر يائسة . انها لن تستطيع أن تنظر إلى أى امرأة فى
شارلستون مرة أخرى دون أن تتساءل عما إذا كانت هي وريت عاشقين
أو كانا فى وقت من الاوقات عاشقين . لماذا جاءت إلى هذا المكان ؟ انها
لاتنتمى إليه . ولا تريد أن تنتمى إلى نوع المكان الذى كانت تتحدث عنه
سالى بروتون .

قالت . « اظن ان من الافضل أن تعودى إلى بيتك ، لا اشعر اننى فى
حالة طيبة » وهزت سالى رأسها فى حزن : « اعتذر لمضايقتك ياسكارليت ،
قد تشعرين بتحسن إذا عرفت أن هناك العديد من البريئات فى شارلستون
يعازيرتى ، فانت لست الوحيدة . فتيات غير متزوجات وسيدات عوانس
عذراوات من كل الاعمار لم يقل لهن أحد إطلاقا عن أشياء لايعرفنها . هناك
زوجات كثيرات مخلصات أيضا . وأنا محظوظة بما فيه الكفاية لكى اكون
واحدة منهن . وأنا واثقة من أن مايلز زوجى قد ارتكب الاثم مرة أو مرتين
اما انا فلم افعل ذلك قط . ربما تكونين من نفس الطراز . هذا ما أرجوه من
أجلك ، واعتذر مرة أخرى عن غلطتى ياسكارليت ، ساذهب الآن .
استجمعى قواك واشربى الشاي ، وتصرفى على نحو أفضل مع ميدلتون » .
قالت سكارليت « انتظرى ، انتظرى من فضلك ياسالى . لابد أن اعرف .
ريت .. ومن ؟ » وتغصن وجه سالى الذى يشبه وجه القرد بدافع
التعاطف ، وقالت بلطف « لا أحد نعرفه ، أقسم لك لقد كان فى التاسعة
عشرة فقط عندما غادر شارلستون ، وفى تلك السن يذهب الاولاد إلى بيت
للدعارة أو إلى فتاة بيضاء فقيرة راغبة . منذ عاد ، ابدى تهديدا عاليا فى
رفض كل العروض دون إيذاء أى مشاعر . ان شارلستون ليست بؤرة
للخطيئة يعازيرتى ، فالناس لايشعرون بأى ضغط اجتماعى ليكونوا
شهوانيين . اننى متأكدة من أن ريت مخلص لك » ..

ما ان خرجت سالى حتى اندفعت سكارليت إلى غرفة نومها فى الطابق -

الأعلى وأغلقت الباب وألقت بنفسها على الفراش لتبكي . خيالات مشوشة
تناوشها عن ريت مع امرأة ثم أخرى ثم أخرى وأخرى من السيدات اللاتي
التقت بهن في الحفلات كل يوم .

كم كانت غبية عندما تصورت أنه سيشعر بالغيرة عليها
واستدعت بانسي لكي تخرج معها إلى الشوارع لتسير أميالا على قدميها
بسرعة وصمت ، وعندما عبرت المنازل القديمة الطويلة لشارلستون لم تر
طلاء جدرانها المتساقط ، وإنما رأت في هذه الجدران مجرد وسيلة لإخفاء
الحقائق الخاصة المسورة وإخفاء الأسرار ..



دعوة للمبارزة !

كان الظلام قد بدا ينشر اجنحته عندما عادت سكارليت إلى البيت ، فتحت الباب بحرص . الهدوء شامل . قالت لبانسي : « ابغى مانيجو أن عندي ضداعا ولا اريد تناول العشاء .. ساذهب مباشرة إلى الفراش » . سوف يبلغ مانيجو المطبخ والأسرة . وهي لاتستطيع أن تواجه عبء الحديث مع أحد . وتسملت بخفة عبر السلم إلى الطابق الأعلى . وساعدتها بانسي على خلع ملابسها . كانت تحاول أن تختفي من تعاسنها اليائسة ، تتمنى أن تتمكن من النوم وإن تنسى سالى بروتون وتنسى كل شيء . وتهرب .. الظلمة تحيط بها من كل جانب تسخر من عينيها الجافتين اللتين يهرب منهما النحاس . ولم تستطع أن تبكي ، فقد بددت كل دموعها في العاصفة العاطفية بعد سماعها كلمات سالى الجهنمية .

اندفع الضوء إلى الغرفة بعد أن فتح الباب فجأة وبقوة . والتفتت سكارليت نحو الباب وقد اذهلها النور المفاجيء .. كان ريت يقف في طريق الباب . وثمة مصباح في يده المرفوعة يلقي بظلاله على وجهه الذي لفحته الرياح ، وشعره الأسود الذي جعلته الأملاح أكثر خشونة . كان لايزال يرتدى ملابس السفينة وبدا يحاول السيطرة على مشاعره ولكن تعبيرات وجهه كانت تنذر بالخطر .

واتجه نحو الفراش بعد أن أغلق الباب بركلة من قدمه .. وقال : « لن تستطيعي أن تختبئي لكى لا أراك يا سكارليت . انهضى » وبحركة واحدة .. اكتسح ذراعه المصباح غير المضاء الموضوع إلى جانب الفراش فسقط على الأرض وتحطم وتناثرت أجزاءه ووضع بيده الكبيرة المصباح المشتعل بنفس العنف محدثا صوتا مزعجا . والقي بالأغطية بعيدا وقبض على ذراعها وسحبها من الفراش واجبرها على الوقوف على قدميها . وتهدل شعرها الأسود فوق عنقها وكتفيها ويديها . الشريط الذى يعقد الرقبة المفتوحة لقميص نومها يرتفع وينخفض بسرعة مع دقات قلبها . دم حار تدفق إلى خديها وصبغهما باللون الأحمر مما زاد من اخضرار لون عينيها المثبتتين على عينيهِ . والقي بها ريت بعنف على العمود السميكة للسريتر ثم ابتعد قليلا وهو يقول بخشونة « كان يجب أن أقتلك في اللحظة التى وضعت فيها قدمك في شارلستون » واستندت سكارليت على عمود السريتر حتى لاتقع . وشعرت بأحاسيس الخطر تنبثق في عروقها ما الذى حدث وجعله في هذه الحالة ؟

والتوى فمه مضيئا « لاتملى دور العذراء الخائفة معى ياسكارليت . اننى اعرفك جيدا ، لن اقتلك ، وحتى لن اضربك ، رغم ان الله يعلم انك تستحقين ذلك ، كم تبدين فاتنة باعزيتى وصدرك يعلو وعيناك تمتلئان بالبراءة .. بصرف النظر عن الالم الذى تسببت فيه لامرأة مسالمة عن طريق إلقاء شباكك على زوجها الاحمق » شفتا سكارليت انفجرتا عن ابتسامة لم تستطع ان تكتمها .. ابتسامة النصر .. انه نادر من انتزاعها حب واعجاب ميدلتون كورتنى ، لقد نجحت ، جعلته يعترف بانه غيور ، والآن عليه ان يعترف بانه يحبها ، ستدفعه لان يقولها .

وبدلا من ذلك ، تحدث ريت بلغة اخرى : « انا لايهمنى على الإطلاق ان تجعلى من نفسك اضحكة ، وفى الحقيقة انه شيء مسل ان يراقب المرء امرأة متوسطة العمر تقنع نفسها بانها مازالت فتاة صالحة للزواج لا يستطيع ان يقولها احد . انت لا تكبرين بعد سن السادسة عشرة ، اليس كذلك ياسكارليت ؟ قمة طموحك هو ان تظل إلى الابد نجمة مقاطعة كليتون » .

وصرخ قائلا : « الآن لم تعد النكته مسلية » .. وارتدت سكارليت إلى الوراء من الضجيج المفاجيء .. وضم قبضتيه . وبدا عليه ظاهريا انه يتمالك غضبه .. وقال بهدوء : « وانا اغادر الكنيسة صباح اليوم ، اقرب منى صديق قديم وهو فى نفس الوقت ابن عم وانتهى بى ركننا ، وتطوع ليعرض خدماته كمعاون لى عندما اتحدى ميدلتون كورتنى وادعوه إلى المباراة ولم يشك لحظة واحدة فى ان هذه هى نيتى ، فبصرف النظر عن حقيقة الموضوع ، فإن اسمك يجب الدفاع عنه مراعاة لخطر العائلة » . وضغطت سكارليت باسنانها البيضاء على شفتها السفلى وسالته : « ماذا قلت له ؟ »

— « بالضبط ما ساقوله الآن : « إن المباراة لن تكون ضرورية . فزوجتى ليست معتادة على المجتمع وتصرفت على نحو يمكن إساءة تفسيره لانها لم تعرف الطريقة الأنسب للتصرف . وسوف أوجهها لكى تتصرف بالطريقة المنتظرة منها » .

وتحركات ذراعه بسرعة مثل ثعبان يهجم ليلدغ فريسته واطبقت يده بقسوة حول معصمها وقال : « الدرس الاول » وجذبها نحوه بحركة سريعة مفاجئة . وسمرها قرب صدره وذراعاها ملتو ومرفوع على ظهرها . كان وجه ريت قريبا فوقها وعيناها تخترقان عينيها : « لا ابالى إذا ظن

العالم كله أننى زوج لامرأة فاسقة ، ياعزيزتى الزوجة الصغيرة المخلصة ، ولكننى لن أكون مرغما على مقاتلة ميدلتون كورتنى .
ثم قال : « الدرس الثانى : إذا قتلت هذا المغفل فسوف اضطر إلى مغادرة المدينة أو أن يشنقنى العسكريون ، ولن يكون ذلك مريحا بالنسبة لى ، وبالقطع فإننى لا أعتزم أن أجعل نفسى هدفا سهلا له ، وقد يصوب - بطريق المصادفة - مباشرة ويصيبنى ، الأمر الذى لن يكون مريحا لى أيضا . » وضربته سكارليت بيدها الطليقة ، ولكنه تلقفها بسهولة فى يده وثنائها إلى أعلى لتكون إلى جانب اليد الأخرى المقيدة وكانت ذراعاها أشبه بقفص يمسك بها أمامه ، وقال لها ريت « اسمعى الدرس الثالث ، ستكون مهزلة الزمن بالنسبة لى - أو حتى بالنسبة لعبيط مثل كورتنى - المخاطرة بالموت من أجل انقاذ روحك الصغيرة المخادعة الشريرة من العار . ولذلك - وهذا هو الدرس الرابع - سوف تتبعين تعليماتى فيما يتعلق بسلوكك فى كل الأماكن العامة إلى أن ينتهى الموسم . ولا مجال لأحزان قطع الرؤوس بإطقتى ، فهذا ليس أسلوبك ولن يؤدى ذلك سوى إلى اضافة وقود إلى نيران الشائعات . سوف ترفعين رأسك عاليا وتواصلين البحث بداب ومثابرة عن شبابك المفقود ، ولكنك ستوزعين اهتماماتك بدرجة أكبر من العدل والمساواة بين السكان الذكور . وسوف أكون سعيدا إذا نصحتك أى الرجال السادة تبدين اهتماما أكبر نحوهم وتفضلينهم ، وفى الحقيقة أننى سأنصم على تقديم المشورة إليك »

وتخلت يداها عن معصميهما وامسكت بكتفها ودفعنها بعيدا :

« الدرس الخامس : ستفعلين بالدقة ما أقول لك أن تفعله .. »

بعيدا عن حرارة جسم ريت .. بدا قميص النوم الحريري المبلل من عرقها أشبه بالجليد فوق صدرها ومعدتها . ولفت ذراعيها حول نفسها لتدفع نفسها بلا جدوى ، ولكن عقلها صار باردا مثل جسمها ، والأشياء التى قالها دوت بوضوح فى داخلها .. أنه لا يهتم . أنه يهزأ منها .. أنه مهتم فقط بـ « راحتته » وبما يناسبه ويلائمه

كيف يجرؤ ؟ كيف يجرؤ على أن يهزأ منها علنا ويشتمها مع قريبه ويدفعها ويلقى بها فى غرفتها مثل كيس من الذرة ؟ لقد اتضح لها الآن أن « جنتلمان شارلستون » هو مجرد اكذوبة مثل سيدة شارلستون « الاثنان لهما وجهان ، كاذبان ، يتعاملان بطريقة مزدوجة . رفعت سكارليت قبضتها لتضربه ، ولكنه كان لا يزال يمسك بكتفها . وتهاوت يداها فى ضعف على صدره ، واستطاعت أن تحرر نفسها ، ورفع ريت كفيه ليتقى ضرباتها ،

وخرجت ضحكات خافتة من حلقه .

ورفعت سكارليت يديها لكي تزح شعرها من على وجهها .

— « تستطيع أن تدخر جهدك ياريت بالتر ، لن احتاج إلى نصيحتك ، لأننى لن أكون هنا ، إننى أكره مدينتك الثمينة شارلستون واحترق كل شخص فيها ، وخاصة أنت ، إننى راحلة غدا » . وقفت أمامه متحدية ورفعت رأسها بينما كان جسمها يرتعش تحت الغلالة الحريرية .

ووجه ريت ناظريه إلى الناحية الأخرى وقال : « لا ، ياسكارليت ، لن تسافرى ، فإن هربك سيؤكد ذنبك وفى هذه الحالة سأضطر إلى قتل كورتنى . لقد نجحت فى ابتزازى للبقاء حتى ينتهى الموسم . ولك أن تبقى » كانت لهجته كثيبة . وأردف قائلا « وستفعلين ما أقوله لك . وستظهرين أن ماتفعلينه مقبول لديك ، وإلا فإننى أقسم أمام الله ساحطم كل عظمة فى جسدك ، واحدة بعد الأخرى » .

وسار نحو الباب ثم توقف والتفت إليها وابتنس ساعدا . « ولا تحاول أن تفعلى أى شئ من أنواع الشطارة ، سراقب كل حركاتك » . وصرخت سكارليت وهو يغلق الباب « أكرهك » وعندما سمعت المفتاح يدور فى القفل ، ألقت بساعة رف الموقد وقلابة النار داخل المدفأة على الباب .

جلست على المقعد داخل غرفة النوم ، وأخذت تضرب على مسندى المقعد إلى أن كلت يداها ، وأعلنت بصوت عال « سارجل ، وليست هناك وسيلة يستطيع أن يمنعنى بها » ..

لأسبيل إلى محاربة ريت . ويجب أن تتفوق عليه بشكل ما . لابد أن هناك طريقة وسوف تجدها ، لا داعى لكى تثقل كاهلها بالحقائب ، فهى تستطيع أن ترحل بالملابس التى ترتديها فقط . وهذا ما ستفعله . إن لديها الكثير من المال الذى يزيد على ثمن تذكرة إلى .. إلى .. أين ؟

كما يحدث دائما عندما يتوجع قلبها ، فقد فكرت فى تارا .. هناك سلام ، وقوة جديدة .. ولكن هناك سوايلين أه .. لو كانت تارا ملكها وحدها . ومرت أمامها مرة أخرى أحلام اليقظة التى اخترنتها عندما زارت مزرعة جوليا أشلى . كيف استطاعت شقيقتها كارين أن تلقى بنصيبها بالطريقة التى فعلتها ؟

وانبثقت الفكرة الجديدة فى رأسها مثل تفجر ينبوع مياه فى الصحراء . ما فائدة أن يكون لراهبة فى شارلستون نصيب فى مزرعة تارا ؟ انهم لا يستطيعون بيعه هذا إذا كان هناك مشتر ، لأن ريت لن يوافق أبدا ،

وكذلك هي .. وإذا كان ريت يريد أن تبقى فإن عليه أن يساعدها في الحصول على نصيب كارين في تارا ، وهو الثلث عندئذ تستطيع بالثلاثين - نصيبها ونصيب شقيقتها كارين - تستطيع أن تعرض شراء نصيب ويل وسوايلين ، فإذا رفض « ويل » البيع ، تستطيع إلقاءهما في عرض الطريق وخزة ضمير قطعت الطريق على أفكارها ، ولكنها نحتها جانباً . الثمن لا يهم . هل يحب ويل تارا ؟ إنها تحبها أكثر .. وتحتاجها .. إنها المكان الوحيد الذي تحرص عليه ، والمكان الوحيد الذي كان يوجد فيه كل من يحرص عليها . ان ويل سيفهم ذلك ، وسوف يرى أن تارا هي أملها الوحيد .

ودقت الجرس لتستدعي بانسي التي أدارت المفتاح في القفل من خارج الغرفة وفتحت الباب ، وطلبت سكارليت أن يأتي مستر بالتر إلى غرفتها للتحديث إليه .

لقد ضاعت . انها لن تسترد ريت .

لم يكن هذا هو ما قدرته .

بسرعة شديدة .. انقلب عالمها رأساً على عقب في بضع ساعات فقط . كانت مازال تترنخ من الصدمة التي نتجت عما قالته لها سالي بروتون . انها لا تستطيع أن تمكث في شارلستون بعد ما عرفته .. فذلك أشبه بمحاولة تشييد منزل فوق رمال متحركة .

وجاء ريت لتعرض عليه سكارليت صفقة . انه يستطيع ارغامها على البقاء في شارلستون ولكنه لا يستطيع أن يتحكم في تصرفاتها عندما تذهب إلى الحفلات الاجتماعية والراقصة ، ولكنها تعرض أن يكون سلوكها على النحو الذي يريده إذا ساعدها على شراء نصيب كارين في « تارا » قال ريت : « لا بد أن أبدى اعجابي بأعصابك ، لم أشك أبداً في صمودك ضد الجنرال شيرمان وجيشه ، أما محاولة خداع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، فقد يكون لقمة يصعب مضغها .. »

كان يبدو ساخراً وهو يضحك ، ولكنها ضحكة ودية بل يشوبها الاعجاب ، كما لو كانت الأيام الخوالي - عندما كانا أصدقاء - قد عادت . — « إنني لا أحاول أن أخدع أحداً ياريت ، فلتكن صفقة شريفة ياريت هذا كل شيء » وابتمسم ريت : « أنت ؟ صفقة شريفة ؟ انك تشعرينني بخيبة الأمل ياسكارليت . هل تفقدن أسلوبك وطابعك المميز ؟ » — « بامانة ! أنا لا أعرف لماذا يجب أن تتحدث بهذه الطريقة القبيحة ، أنت تعرف جيداً أنني لا أريد استغلال الكنيسة .. »

وأثار غضبها المزيد من الضحك من جانب ريت . وقال

— « لا أعرف شيئا من هذا النوع ، أخبريني بالحقيقة ، هل هذا هو السبب أنك قد تهرولين إلى القديس في الكنيسة كل يوم أحد تخشعشين مسبحتك ؟ هل كنت تخططين لهذا المسعى طول هذا الوقت » وعندما سألتها عما إذا كان يرغب في مساعدتها أم لا . قال ريت : « إنني أرغب في المساعدة ، ولكنني لا أعرف كيف ؟ ماذا إذا رفضت كبيرة الراهبات ؟ هل ستبقين حتى نهاية الموسم » ؟

وكان رأى سكارليت أنه ليس هناك سبب يدعوها للرفض فهي ستعرض أكثر مما يستطيع ويل أن يرسله إليها وهي ترى أيضا أن ريت يمكن أن يستخدم نفوذه ، فهو يعرف كل شخص في العالم ، ويستطيع دائما إنجاز ما يريد . وابتسم ريت : « ما هذا الإيمان المؤثر بشخصي ياسكارليت . انني أعرف كل وغد وسياسي محتال ورجال أعمال فاسدين على مسافة ألف ميل ، ولكن ليس لي نفوذ على الإطلاق لدى الناس الطيبين في العالم . وأفضل شيء أفعله تجاه هذه المسألة هو أن أقدم لك نصيحة بسيطة . لاتحاولي اللف والدوران مع السيدة ، أخبريها بالحقيقة إذا استطعت ووافقي على أى شيء تطلبه . ولاتساومي »

وتمنى ريت حظا سعيدا لسكارليت واعتبر بذلك أنه يمنحها بركته وغادر الغرفة وهو يضحك في بهجة حقيقية وستفي سكارليت بوعدها ، كما فعلت دائما وبمساعدتها سيزيل اثر الفضيحة ، وبعد أسبوعين ينتهي الموسم وترحل وسوف يتحرر من التوتر الذي جلبته إلى الحياة التي كان يحاول أن يبنيها في شارلستون ، وسيكون حرا في العودة إلى « لاندنينج » فهناك الكثير الذي يريد أن يعمل في المزرعة وهجوم سكارليت العنيد على رئيسة الدير سيكون تسليية طيبة تشغله لحين الوقت الذي يسترد فيه حياته مرة أخرى . وقال ريت لنفسه : أراهن على أن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية تعيش الزمن بالدهور وليس بالأسابيع ، ولكني لا أريد أن أراهن كثيرا .. فعندما تصمم سكارليت على شيء فإنها تكون قوة هائلة

وكما توقع ريت فإن تعامل سكارليت مع رئيسة الدير لم يكن بالامر البسيط ، فهي لاتقبل ولاترفض ولاتصفي لما تقوله سكارليت التي تشعر بإحباط متزايد .

وبدأت سكارليت تذهب إلى قداس الكنيسة كل يوم وهي على ثقة من أن الحديث عن إيمانها سيصل إلى إسماع الدير ثم بدأت تتردد على كارين

كثيرا حتى انها حفظت أسماء كل الراهبات . وصاحبت خالتيها في زيارات للسيدات الكاثوليكيات العجائز في المدينة .
وقالت ذات مرة لريت بانتر : اعتقد ان حبات مسبحتي قد بليت وذابت ونقصت إلى النصف ، كيف يمكن ان تكون تلك العجوز المرعبة بهذا القدر من الخسة ؟

واقترح ريت تفسيراً : « ربما تظن أن ذلك سيظهر روحك » .
— « روحى فى أحسن حال .. شكرا جزيلاً . ان رائحة الشموع تجعلنى اتقيا .. وابدو مثل عجوز عفريتة شمطاء لأننى لا أنام نوما كافيا على الاطلاق واتمنى ألا تكون هناك حفلة كبيرة كل ليلة » .
— « كلام فارغ . هذه الظلال تحت عيدتك تجعل مظهرك أكثر روحانية ، الامر الذى سيرك انطبعا عميقا فى نفس رئيسة الدير » .
— « اوه ياريت ، ان ماتقوله مروع ، ساذهب لأضع بعض المساحيق فوراً »

وفى الحقيقة ان نقص النوم بدأ يظهر تأثيره على وجه سكارليت كما أن الاحباط ترك خطوطاً عمودية صغيرة بين حاجبيها . وأخذ كل شخص فى شارلستون يتحدث عما افترضوا أنه نوع من الحمى الدينية . فقد أصبحت سكارليت شخصا آخر .
فى حفلات الاستقبال والحفلات الراقصة كانت مهذبة وشاردة الذهن . لقد اعتزلت الامبراطورة الحساء ، ولم تعد تقبل الدعوات للعب الورق ، وكفت عن زيارة السيدات اللاتي كانت زياراتها لهن قد أصبحت دائمة .. وقالت سالى بروتون يوماً : « اننى أفضل التعبد لله . بل انى امتنع عن شيء احبه حقاً من أجل الصوم الكبير ، ولكنى اعتقد أن سكارليت تفرط فى هذا الاتجاه ، ان ذلك تطرف » . وخالفها الراى إيما انسون عضو اللجنة التى تتزعمها السيدة اليانور .. وقالت : « إن ذلك يجعلنى أفكر فيها بطريقة افضل بكثير مما كنت افعل من قبل . أنت تعرفين اننى كنت اظن انك حمقاء عندما تحتضنينها بالطريقة التى كنت تفعلينها ياسالى . فقد كان من الواضح انها جاهلة ومتسلقة ، والآن فابنى رغبة فى أن اسحب راى ، هناك شيء يثير الإعجاب فى أى شخص لديه مشاعر دينية جدية » .
وعلمت سكارليت بعد أن تحملت مشقة الذهاب إلى الدير تحت وابل الأمطار ان رئيسة الدير سافرت إلى جورجيا لحضور اجتماع هناك ولايعرف احد موعد عودتها بالدقة .. ربما بعد اسبوع أو أكثر . وتوجهت إلى غرفة المكتبة فى المنزل .. فقد تجد « ريت » فهو الوحيد الذى تستطيع ان تتحدث

معه حول شعورها بالاحباط ، فهي لم تخبر احدا آخر بما تفعله . رفع احد حاجبيه وسالها : « كيف تجرى عملية الاصلاح الدينى للكنيسة الكاثوليكية » ؟ ودعاها للخروج إلى الشرفة ليدخن سيجاره ولاستنشق بعض الهواء .. فقد ادى هطول المطر إلى اعادة مناخ الصيف .. والجو الدافئ .

قال ريت « اعتقد أن المدرسة التي تملكها الشقيقات في جورجيا توجد في مدينة سافانا . وتستطيعين الذهاب بعد حفل سانت سيسيليا لحضور عيد ميلاد جدك . لقد الحت عليك الخالتان بما فيه الكفاية لتلبية رغبتهما في الذهاب . فإذا كان الاجتماع الذى يتحدثون عنه هاما ، فإن الاسقف سيكون هناك . وقد يكون حظك أفضل معه » .

شعور غريب سيطر على سكارليت . لقد أحست بانها خجولة .. بينما ريت يقف على مسافة قريبة منها . وغادرت الشرفة بسرعة قبل أن تبكى . ماذا بى ؟ سألت نفسها والدموع تتفجر من عينيها اننى اتحول إلى طفلة باكية من نوع المخلوقات التى أحترقها . ماذا لو استغرق الأمر فترة أطول لتحقيق ما أريد . سوف أمتلك تارا وسأمتلك ريت أيضا حتى لو استغرق ذلك منى مائة سنة !



نزهة فى الطريق

حفل ليلة القديس سيسيليا . هذا هو ما ينبغي أن تكون عليه الحفلات ،
الأضواء فى كل الأركان ، المكان يبدو مثل جوهرة تتلألأ .. أكبر جوهرة فى
العالم .. جمال سحرى وكأنه الخيال . هذا هو الحفل !
سالها ريت فيما بعد ، وهو يرقص معها : هل تستمتعين بوقتك ؟
— نعم . انه افضل حفلات الموسم .

موسيقى رائعة وضحك وسعادة . بطاقة الرقص التى أعطيت لها والتى
يسجل فيها الداعون أسماء من سيرقص معها .. شملت أسماء تعرفها
ولا تعرفها ، شيوخا وشباناً . اشخاص عاشوا كل حياتهم فى شارلستون
وأخرون عاشوا فى أماكن كثيرة أخرى ولكنهم يجيئون دائماً إلى هذه المدينة
من أجل سائت سيسيليا .

فى الساعة الواحدة صباحاً عذفت الأوركسترا لحن فالس الدانوب
الازرق . وكانت خاتمة الحفل . ولم تكن سكارليت تريد لهذا الحفل أن
ينتهى ، وانتقل الجميع إلى موائد العشاء .

فى طريق العودة اقترحت سكارليت .. على ريت أن يركبا عربة الشارع
العمومية بدلاً من العربة الخاصة التى استأقنتها والدته وشقيقته ،
وحذرهما ريت من أن عربة الشارع ستضطرهما إلى أن يسيرا لمسافة على
الأقدام بعد أن يهبط منها .. حتى يصلا إلى البيت ..
— « لا يهم ، أود أن أمشي قليلاً » .

كانت العربة استمرارا صاخبا ومرحاً للحفل .. فالجميع الذين استأقلا
هذه العربة المزدحمة اشتركوا فى أغنية جماعية . وغنت سكارليت وريت
بصوت مرتفع كالآخرين ، وعندما نزلا من العربة استمرت تردد مقاطع من
الأغنية كلما حمل الهواء رجع الصدى .. وساعد ريت وثلاثة متطوعين
آخرين السائق على فك الإحصنة ووضعها فى الطرف المقابل المضاد للعربة
تمهيدا لرحلة العودة .

الظلام فى الشارع أصبح حالكا والجو أكثر دفئاً والصمت أشد عمقا .
وشعر كل منهما بارتياح داخلى . أما سكارليت فقد طغى شعورها بالسعادة
ووضعت يدها فى مرفق ريت . وساراً . بكلام فى الظلمة نحو المنزل . وعلا
صوت وقع أقدامهما على الطريق . وشعرت أنهما الكائنات الوحيدتان على
سطح الأرض . وكانت قامة ريت الطويلة جزءاً من الظلمة . وشددت
قبضتها على ذراعه . كان ثابتاً وقوياً ، ذراع قوى ، رجل قوى . واقتربت
منه أكثر وكانت تستطيع أن تشعر بدفء جسده ..

واستعدادا بعض المشاهد الطريفة من الحفل . وضحكا معا . وضبطت
ريث خطوته لكي تسير خطواتها . وسالته سكارليت عما إذا كان يفتقد
عمليات اختراق حصار الأساطيل . ضحك وقال : « دعينا نقول إننى أود أن
أكون أصغر سنا بعشر سنوات » وضحك مرة أخرى قبل أن يضيف « اننى
العجب بالمراكب الشراعية تحت ستار اننى أريد أن أكون طيبا مع الشبان
المضطربين . ان ذلك يمنحنى بهجة أن أكون فى الحياة وأن أشعر بالريح
تهب بحرية وليس هناك مثيل لها فى جعل الانسان يشعر كأنه آلة .. »

قالت سكارليت : « أريد أن أفعل ذلك ، أريد أن أبحر أكثر من أى شئ فى
العالم .. أوه ، ياريت هل ستأخذنى معك ؟ ان الجو دافئ كما لو كان
صيفا ، وانت لست مضطرا للعودة إلى لاندننج غدا . قل إنك موافق ياريت
من فضلك »

قال « لماذا لا ؟ انه لمن العار عدم استغلال هذا الجو . » وعندما وصلا
إلى المنزل كانت الساعة قد بلغت الثالثة صباحا .

كانت سكارليت قد رفضت اقتراح خالتيها بالسفر إلى سافانا لحضور عيد
ميلاد جدها . فهو لم يهتم بها طوال حياته ولم يفعل شيئا من أجلها ولا من
أجل خالتيها ..

ودهشت اليانور باتلر عندما علمت من سكارليت باقتراح خالتيها بأن
تصاحبهما إلى سافانا لحضور عيد ميلاد جدها . وقالت وهى تكاد
لاتصدق : « يا للسماء ! هل تعنين أنه لم يمت بعد ؟ »

وبدأت سكارليت تضحك مرة أخرى « هذا هو أول ما خطر لى ، ولكن
الخالة بولين كانت ستسلخنى حية إذا قلت ذلك . لابد أن عمره الآن مائة
سنة . »

قالت اليانور : « المؤكد أنه تجاوز التسعين . فقد كان فى أواخر الثلاثين
عندما تزوج جدتك سولانج فى عام ١٨٢٠ . كانت لى خالة مجنونة به
وحاولت الانتحار عندما قررت جدتك أن تبدى اهتمامها به .. كان جدك رجلا
مندفعاً جريئاً مفعماً بالحياة ، أثيقا ، وسيما ذا لكمة فرنسية طبعاً . عندما
كان يقول « صباح الخير » كان صوته يشبه بطلا فى الأوبرا .. عشرات من
النساء كن يقعن فى غرامه .. هكذا كان بيير روبيلار . أما عن جدتك فهى لم
تكن مثل أى شخص آخر فى العالم . »

— « هل كانت جميلة جدا ؟ » .

— « نعم .. و .. لا . تلك هى المشكلة فى الحديث عنها . لقد كانت تتغير
دائما . كانت فرنسية جدا وهناك قول مأثور لدى الفرنسيين وهو : أن المرأة

لا يمكن أن تكون جميلة بحق ما لم تكن أحيانا قبيحة بالفعل .

— « أن لها صورة في تارا تبدو فيها جميلة » .

— « نعم .. هي صورة لها فقد كانت تستطيع أن تكون جميلة ، أو غير جميلة وفقا لاختيارها . وكانت تختار أى شيء يروق لها . كانت عندما تتطلع بعينها إلى شخص ما يجد نفسه منجذبا نحوها بلا مقاومة . كان الرجال يفقدون صوابهم بسببها .. كان جدك رجلا عسكريا من رأسه حتى قدميه ، اعتاد أن يصدر الأوامر .. ولكن جدتك كانت تكنفى بالابتسامة . وعندما تبسّم يصبح عبدا لها . كانت هي العالم كله بالنسبة له . وأتذكر قرارها بأنها يجب أن تحيط نفسها بالضوء الوردى لأنها تتقدم في السن . وانتهى الأمر بطلاء جدران الغرف في داخل المنزل ثم المنزل كله من الخارج باللون الوردى . كان مستعدا لأن يفعل أى شيء يجعلها سعيدة . وعندما ماتت .. مات هو أيضا بطريقة أو بأخرى ، واحتفظ بكل شيء في المنزل كما كان بالضبط عندما تركته .. أحيانا أنت تذكرينني بها .. بعينيك وحيويتك »

كان كل ما قالتة اليانور باتلر صحيحا . ولكنها تحاشت أن تقول كل شيء فهي لم ترد أن تقول لزوجة ابنها إن جدتها كان لها عشاق كثيرون وأن عشرات المبارزات قد حدثت من أجلها ..



بين الحياة والموت

وضعت سكارليت على رأسها قبعة كبيرة من القش ذات حافة عريضة .. كانت مسز باتلر تحتفظ بها قرب باب الحديقة لحمايتها من الشمس عندما تخرج لقطف الزهور . فقد خشيت أن تصاب مرة أخرى بحروق من الشمس . وأخذت في يدها أيضا مظلتها الخفيفة المفضلة .

— « أنت قلت التاسعة صباحا ياريت . وها هي التاسعة ، ألا نذهب »
وانحنى ريت انحناءة كبيرة ، ثم التقط حقيبة من القماش ووضعها على كتفيه ، وقال : « لنذهب » . كان هناك شيء يبعث على الشك في صوته . لم تكن تتوقع أن يكون الزورق صغيرا إلى هذا الحد . ووجهت نظرة اتهام إلى ريت .. قال « التيار منخفض تقريبا . وهذا هو السبب في أننا كان يجب أن نكون هنا في التاسعة والنصف وبعد أن يصبح التيار مواتيا في العاشرة سيكون أمامنا وقت صعب للوصول إلى الميناء . وبطبيعة الحال .. سيكون هذا مساعدا لنا في العودة من النهر إلى المرسى ، إذا كنت متأكدة من أنك تريدين الذهاب » .

وضعت سكارليت يدها المغطاة بقفاز أبيض على السلم وبدأت تلف حول نفسها . قال ريت : « انتظري » . ونظرت إليه في تصميم . وقال « لا أريدك أن تحطمي عنقك لتوفري على عناء مصاحبك لمدة ساعة . ان السلم يساعد على التزحلق .. » وسارع بارتداء حذاء من القماش ، وقال إن الرجل الحكيم لابد أن يعترف بالواقع إذا حاقت به الهزيمة .. وساعدها على هبوط السلم ثم ربط الأشرطة بالصاري .. وجلست بهدوء على مقعد في مؤخرة الزورق .. قال : « مستعدة » ؟

— « نعم » .

وفك ريت الحبال التي تقيد الزورق بعمود المرسى وابتعد الزورق بمساعدة التيار متجها إلى وسط النهر . « اجلسي كما أنت وضعي رأسك فوق ركبتك » وامتلأ الشراع الصغير بالهواء .. كانت السعادة تبدو على وجه ريت .. ولم تره سعيدا بهذه الدرجة من قبل .

الزورق طوله ١٦ قدما فقط . وشعرت سكارليت بأنها جزء من الريح والمياه والملح والشمس . ومد يدها بسترته لترتيبها وقالت إنها لاتحتاجها . قال « إن الهواء دافئ ولكن ليست المياه . فالرذاذ سوف يشعرك بالصقيع .. فهذا شهر فبراير » وسالت عن طعام .. ولم يكن هناك سوى طعام الملاحين . وقالت : إنه لذيذ . ولكنه نصحتها بأن تصبر لأنهم سيتناولون طعام الغداء في البيت . أما هي فإنها تريد قضاء اليوم

بطوله في النهر .. وهو يوافق على ساعة أخرى ..
وظهرت الدرافيل في المياه . إنها تحب أن تلعب .. تقفز من المياه وتحني
ظهرها ثم تغطس عائدة إلى النهر صانعة نافورة من المياه . سكارليت
تصفق بيديها وهي تقول إن الدرافيل يبتسم لنا وإنها لم تر في حياتها مثل
هذه الروعة .

الدرافيل تسبح جنبا إلى جنب أحيانا ، ثلاثة ، ثلاثة ، أو اثنين اثنين
أو واحدا إثر الآخر .. تغطس ثم تظهر على سطح المياه ، تتطلع من عيني
تبدوان بشريتين وتبدو كما لو كانت تضحك . وقالت سكارليت : « إنهم
يرقصون » . وبسبب الدرافيل لم يلحظ ريت الرقعة الداكنة من السحب
التي تنتشر عبر الأفق وراءهما .. وكان التحذير الأول له عندما زمجرت
الرياح الطازجة المنتظمة .. والأشعة المشدودة المنتفخة بدأت تترنج .
واختفت الدرافيل فجأة . وتطلع ريت - متأخرا جدا - فوق كتفه ورأى
الرياح الشديدة تتسابق فوق المياه والسماء .
قال ريت بهدوء :

— « انزلى إلى بطن الزورق ياسكارليت وتماسكى . اننا على وشك
مواجهة عاصفة . لاتخافى ، فقد سبق أن ابهرت في ظروف أسوأ » .
في تلك اللحظة ضربت الرياح القوية ضربتها . وتحول النهار إلى ليل .
فقد كانت السحب قد جعلت السماء قائمة واطلقت سيلا من الأمطار .
وفتحت سكارليت فمها لتصرخ فامتلا بالمياه في الحال .
قالت لنفسها : « يا إلهى اننى أغرق » . وانحنى إلى الامام وبصقت
وسعلت إلى أن استطاعت « تسليك » فمها وحلقها . حاولت رفع رأسها
لترى ماذا يجرى ، ولكى تسأل ريت عن ذلك الضجيج المخيف ، ولكن
قبعنها غطت وجهها فلم تر شيئا . يجب أن اتخلص منها حتى لا اختنق .
ومزقتها ، الزورق يتأرجح و « يزيق » كما لو كان يتشقق ويتحول إلى
أجزاء متناثرة . وشعرت بأن الزورق يتجه إلى أسفل .. وأسفل أو يقف على
مقدمته .. ويدخل مباشرة في أعماق المياه نحو قاع البحر .. يا إلهى .
لا أريد أن أموت !

وعلى اثر هزة توقف الزورق عن التوغل في أعماق المياه ، وأزاحت من
فوق وجهها قطع القش التي تخلفت من قبعتها . الآن تستطيع أن ترى !
نظرت إلى المياه ورفعت عينيها إلى أعلى .. وأعلى .. وأعلى . ثمة جدار من
المياه أعلى من قمة صارى الزورق يستعد للانقضاض وتدمير هذه القوقعة
الهشة من الخشب إلى شظايا .. وحاولت سكارليت أن تصرخ ولكن

حلقتها كان مشلولاً بالخوف . والزورق يهتز ويئن ويتأوه . ضاقت عيناهما في مواجهة المطر الذي يتدفق فوق رأسها ويدق رأسها بضربات مخيفة قبل أن يجرى فوق وجهها .. وعلى جميع الجوانب كانت هناك جبال من الأمواج الغاضبة المندفعة التي يعلوها الزبد وهي تصطخب يا إلهي .. أين ريت ؟ وأدارت رأسها من ناحية إلى أخرى في محاولة لرؤيته من خلال المطر . وعندئذ ، وبينما كان الزورق يغوص على الناحية الأخرى من الموج .. وجدته . عليه اللعنة ! كان راكعاً على قدميه .. ظهره ورأسه مشدودان ورأسه مرفوع .. ويضحك وسط الريح والمطر والأمواج وهو يمسك بذراع اليسرى بذراع الدفة بقوة ، بينما يده اليمنى تمسك بالحبل الذي يلتف حول مرفقه وساعده ومعصمه .. أنه يحب ذلك ، الصراع مع الريح ، خطر الموت .. هذا هو ما يحبه .. انى أكرهه !

وتطلعت سكارليت إلى التهديد الصاعق من الموجة التالية .. وللحظة يائسة انتظرت لكي تطلق بها وتدمرها . ثم قالت لنفسها إنه ليس لديها ما تخافه .. ذلك أن ريت يستطيع أن يواجه كل شيء حتى المحيط نفسه ورفعت رأسها كما يفعل هو وتركت نفسها للثارة الوحشية المحفوفة بالخطر وسكارليت لاتعرف القوة الفوضوية للريح .. فما أن ارتفع الزورق إلى أعلى مع اقتراب موجة ارتفاعها ثلاثون قدماً حتى توقفت الريح . كان ذلك لبضع ثوان شيئاً غريباً .. وتحطم الشراع .. ومال الزورق إلى جانبه وأصبح محمولاً ، بواسطة تيار المياه . وأخذ ريت يحرق نفسه بسرعة من الحبل .. وبدأ أنه يفعل شيئاً مختلفاً بالدفة المتأرجحة . ولم يخطر على بالها أن هناك خطأ ما إلى أن وصلت قمة الموجة إلى ما تحت الركبة . وصرخ ريت وألقى بجسمه بعنف فوقها . كان الشراع قد انكسر . وسمعت سكارليت أصوات تشققات قريبة من رأسها وشعرت بهدير الأمواج يزداد سرعة وثقلاً فوقها . حدث كل شيء بسرعة بالغة ورات وجه ريت قريباً جداً من وجهها ، ثم ابتعد وجلس على ركبتيه مرة أخرى . يبدو أنه يفعل شيئاً ما .. حبال تنساقط فوقها ، كما تنساقط فماش الشراع .. وحمله التيار .. ثم انقلب الزورق رأساً على عقب ..



لم تعرف صقيعاً مثل هذا الصقيع في حياتها ولا مياهها أشد برودة حولها .. لا بد أن جسدها كله قد تجمد . أسنانها تصطك دون أن تستطيع السيطرة عليها محدثة صخباً في رأسها ، يمنعها من التفكير . ولم تستطع أن تفهم ما جرى . ومع ذلك كانت تتحرك صعوداً وهبوطاً .. ثم هبوطاً

وهبوطا . اننى أموت ، يا إلهى ، لاتدعنى أموت ! أريد أن أعيش .
— « سكارليت » ! صوت اسمها كان أعلى من صوت أسنانها التى
تصطك ببعضها البعض واخترق وعبها .

— « سكارليت » ! انها تعرف ذلك الصوت ، انه صوت ريت وهذا هو
ذراع ريت حولها يمك بها . ولكن أين هو ؟ لم تستطع أن ترى شيئا من
خلال المياه التى ظلت تضرب وجهها وتضع غشاوة على عينيها وتلسعها .
وفتحت فمها لتجيب ، وفى الحال امتلأ بالمياه . وشدت سكارليت رأسها
لترفعه إلى أعلى بقدر ما تستطيع وطردت المياه من فمها .
لو سكنت أسنانها .

وحاولت أن تقول : « ريت »

— « شكرا لله » . كان صوته قريبا جدا . خلفها . وبدأت تستشعر
بعض الأشياء . وقالت مرة أخرى : « ريت »

— « الآن اسمعنى جيدا يا حبيبتى . اسمعى بانتباه أكثر من أى وقت
فى حياتك . ان امامنا فرصة واحدة ولن نضيعها . الزورق هنا . اننى امسك
بالدفعة .. يجب ان ننزل تحته ونستخدمه للحماية . وهذا يعنى أن ننزل
تحت الماء ثم نرفع أنفسنا . لنصبح تحت جسم الزورق .. هل
تفهميننى » ؟ كل شئ فيها يصرخ . كلا ! إذا غاصت فى الماء ، فإنها
ستغرق ، فالمياه تشدها بالفعل إلى أسفل . وإذا نزلت تحت الماء فإنها لن
تخرج منها أبدا ! واستولى عليها الرعب . ولم تستطع أن تتنفس .
وأرادت أن تمسك بريت وأن تصرخ وتصرخ وتصرخ ..

« كفى » . كانت الكلمة واحدة . والصوت صوتها . « يجب أن تجتازى
المحنة وتعيشى ولن تنجى فى ذلك أبدا إذا تصرفت مثل بلهاء تثرثر بكلام
غير مفهوم » .

« ما .. ما .. ذا .. ي .. يجد .. يجب يجب .. أن .. أن .. اف .. اف ..
أفع .. أفع » اللعنة على اصطكك الأسنان .

— « سوف أعد . وعندما أقول رقم ثلاثة خذى نفسا عميقا وأغلقى
عينيك .. وسوف أتولى الأمر .. سأضعك فى المكان المطلوب . ستكونين
بخير . هل أنت مستعدة » ؟ ولم ينتظر ردها ، ولكنه بدأ فوراً يصرخ
« واحد .. اثنين .. » وشعرت سكارليت بأن هناك من يجذبها إلى أسفل ..
وأسفل وبأن المياه تملأ أنفها وأذنيها وعينيها ووعياها . وفى ثوان انتهت
المحنة وأصبحت رأسها فوق المياه .. واستنشقت الهواء بامتنان .

قال ريت « كنت أمسك ذراعيك ياسكارليت حتى لاتتشبثى بى

وتغرقينا نحن الاثنين » . وحرك ريت قبضته إلى خصرها .

يذاها باردتان . وبدات تلك الواحدة بالآخرى .

قال ريت : « هذه هي الطريقة . اجعلي الدورة الدموية تعمل » . وتركها ريت لدقائق حتى يقطع ما تبقى من حبال ويزيح الصارى بعيدا لكي لا يدفع الزورق إلى اعماق المياه . ومضى الوقت وكأنه يمضي إلى ما لانهاية . وأخذت تتأمل ما حولها ، الزورق المقلوب أصبح سقفا فوق رأسها ولذلك فإن الأمطار لاتضربها . ولسبب ما .. فإن المياه أكثر هدوءا ولم تستطع أن تراها .. داخل جسم الزورق الظلام شامل .. والزورق يرتفع وينخفض مع ارتفاع وانخفاض الموج . قبل أن يتركها ريت .. قال إنه سيقطع اربطة حذاؤها ذى العنق الطويل وينزعه وحذرها من أن تركله عندما تشعر بشيء يمسك بقدمها . وقال لها إنه سينزع عنها الثياب الثقيلة حتى لا ينقل وزنها في المياه .

والآن شعرت بلمسة ريت على قدمها اليسرى . حسنا اني لم اصب بالشلل حتى الآن . كم كان حذاؤها ثقيلا وأخذت نفسها عميقا لأول مرة منذ بدء العاصفة .. ملمس الأيدي عند خصرها غريب . كلت تستطيع أن تحس بحركة السكين . وفجأة هبط ثقل هائل إلى أسفل ساقها وارتفعت كتفها إلى فوق الماء . وصاحت في دهشة . وأحدثت الصيحة صدى في الفراغ تحت الزورق الخشبي المقلوب . ثم ارتفع رأس ريت من داخل المياه . كان قريبا جدا منها . وسألها بهدوء : « كيف تشعرين ؟ »

— « متجمدة حتى الموت »

— « المياه باردة ، ولكن ليس إلى هذا الحد ، ولو كان في شمال

الأطلنطي .. »

— « ريت باتلر ، اذا كنت ستخبرني بإحدى قصص مغامرات اختراق

الحصار .. فسوف .. سوف أغرقك » .

وملأت ضحكته الهواء حولهما ويبدو انها جعلته أكثر دفئا . ولكن سكارليت مازالت غاضبة : « كيف تستطيع أن تضحك في وقت كهذا .. هذا ما أعجز عن فهمه . انه ليس أمرا مضحكا أن يتدلى المرء في مياه تؤدي إلى التجمد وسط عاصفة مخيفة »

— « عندما تكون الامور في أسوأ حال ياسكارليت ، فإن الشيء الوحيد

الذي يمكن عمله هو العثور على شيء يثير الضحك . ان هذا يساعد المرء على ان يحتفظ بعقله .. ويوقف اصطكاك الأسنان من الخوف »

كانت خائفة القوى وعاجزة عن الكلام .. أسوأ ما في الموقف انه على

حق . فقد توقف اصطكاك الأسنان عندما توقفت عن التفكير في أنها توشك على الموت .

— « الآن سأقطع أربطة مشد الخصر الذى ترتدينه ياسكارليت فانت لاتستطيعين التنفس بسهولة في هذا القفص . لاتتحركى حتى لا أقطع جلدك »

كان هناك شيء حميم يثير الارتباك في حركة يديه تحت السترة وهى تمزق صديريتها الضيقة وبلوزتها ، فقد مضت سنوات منذ أن وضع يديه على جسدها .

قال ريت : « الآن تنفسي بعمق .. النساء في هذه الأيام لا يعرفن أبدا كيفية التنفس . املئي رئتيك تماما .. استمرى في التنفس .. هذا سيدنى دمك » .



حاولت سكارليت أن تنفذ ما قاله ريت ، ولكنها شعرت بثقل مخيف في ذراعيها عندما رفعتها ، كان الأسهل أن تترك جسدها يسترخى ويتجاوب مع حركات الموج . شعرت برغبة قوية في النوم ، لماذا يصر ريت على أن يواصل الكلام بكثرة ؟ ولماذا يصر على ارغامها على تدليك ذراعيها ؟

— « سكارليت .. سكارليت ! »

كان الصوت عاليا جدا .

— « لاتنامى .. يجب أن تواصلى الحركة .. اركلى بقدميك .. اركليني إذا أردت ، ولكن حركى ساقيك »

وبدا ريت يدلك كتفيها بقوة ثم أعلى ذراعيها .

— « كفى ، انك تؤلمنى »

كان صوتها ضعيفا مثل مواء الهرة الصغيرة . وأغلقت سكارليت عينيها وأصبح الظلام أشد ظلاما .. ولم تعد تشعر ببرودة ، وإنما بإرهاق شديد ونعاس .

وبدون تحذير مسبق .. صفعها ريت بقوة على وجهها حتى أن رأسها اندفع إلى الخلف واصطدم بالهيكل الخشبي للزورق محدثا دوياء تردد صداه في المكان المغلق ، واستيقظت سكارليت تماما في حالة من الصدمة والغضب .

— « كيف تجسر ! ساعرف كيف أرد على ذلك عندما نخرج من هنا ياريت

باتلر »

قال ريت : « هذا احسن » واستمر في تدليك ذراعيها بقوة رغم أن

سكارليت كانت تحاول أن تدفع بيديه بعيدا !
 — « استمرى فى الحديث .. سأقوم بالتدليك . أعطىنى يدك حتى
 أدلكهما »

— « لن أفعل بكل تأكيد ! سأحتفظ بيدى لنفسى .. وسأشكر لو فعلت
 المثل .. أنت . كذلك لحدى حتى عظامى »

وقال ريت بخشونة « التدليك أفضل من أن يأكل لحكم سرطان البحر ..
 استمعى لى . إذا تركت نفسك تستسلمين للبرد ياسكارليت فإنك ستموتين .
 أعرف أنك تريدين أن تنامى ولكن .. هذا هو نوم الموت ، وحتى لو
 اضطررت لضربك حتى يصبح لون بشرتك أسود مشوبا بالزرقة ، فإننى لن
 أسمح لك بأن تموتى . يجب أن تظلى مستيقظة وأن تتنفسى وتستمرى فى
 الحركة . تكلمى .. واصلى الكلام . لايهمنى ما تقولينه .. »

واحست سكارليت مرة أخرى بالبرودة التى تصيب بالشلل ، بينما كان
 ريت يعيد الحياة إلى جسمها .

وسالته بصوت متجمد وهى تحاول تحريك ساقيها :

— « هل سنخرج من هذا الموقف ؟ »

— « طبعا سنخرج »

— « كيف ؟ »

— « التيار يحملنا إلى الشاطئ ، انه المد القادم وسيحملنا إلى حيث
 اتينا »

ولم يش صوت ريت بما يعرفه من أن طاقة الرياح يمكن أن تجعل
 الأنشطة العادية للمد والجزر بلا معنى . فالعاصفة يمكن أن تحملهما عبر
 مدخل الميناء إلى الأماد القصى للمحيط الأطلنطى وقالت إنها جائعة
 وتذكرت طعام الملاح الذى رفض أن يسمح لها بتناوله وكان يحتوى على
 زجاجات روم جعلتهما يشعران بالدفع بعد قطرات منها ، وبعد قليل كانا
 يرددان الاغانى التى يعرفانها ، ومد ريت ذراعيه حول سكارليت وأمسك بها
 على مقربة من جسمه لتشاركه فى دفعه .

ولكنها لم تستطع أن تواصل الغناء . لم تسعفها طاقتها .

أه .. لو وضعت رأسها على كتفه ونامت ، إنها تشعر بذراعيه حولها .
 وسقط رأسها . كان ثقيلًا ولاتستطيع حمله أكثر من ذلك . وهزها ريت .

« سكارليت هل تسمعيننى ، أشعر بتغيير فى التيار . أقسم لك اننا
 على مسافة قريبة من الشاطئ . لاتستسلمى الآن . هيا يا حبيبتي ،

دعيني أرى المزيد من ذكائك وروحك القوية . ارفعى رأسك .. لقد كادت تنتهى هذه المشقة » ..

— « .. باردة جدا .. »

— « اللعنة عليك ياسكارليت أوهارا إذا كنت انهزامية بهذا الشكل . كان يجب أن أترك شيرمان يمالك في اتلانطا ، فانت لم تكونى تستحقين الانقاذ » فتحت عينيها لملاقاة التحدى الذى تشعر به على نحو غائم .. امرها ريت بأن تأخذ نفسا عميقا . وقال وهو يضم يده الكبيرة على أنفه وفمه ويغطس تحت المياه بينما يمسك بجسمها الذى يصارع بهزال . وخرجا من تحت الزورق على مقربة من موجات طويلة متكسرة . وقال ريت بصمت لاهث وهو يشير إلى اليابسة . « تقريبا ، هناك يا حبيبى » . وثنى ذراعيه حول عنق سكارليت وحمل رأسها الثقيل فى يده وسبح بطريقة الخبير من خلال موجة متكسرة واستخدم قوتها فى حملها إلى منطقة المياه الضحلة . وحملته موجة أخرى إلى الشاطئ ونهض ريت حاملا سكارليت فى صدره واتجه إلى منطقة لاتضربها الرياح ووضع جسد سكارليت بركة على الرمال الناعمة .

وتهدج صوته وهو ينادى باسم سكارليت مرة بعد أخرى وهو يحاول أن يعيد الحياة إلى لونها الأبيض عن طريق تدليك كل جزء منها بيديه . شعرها الأسود المتلألئ المتشابك يتناثر حول رأسها وكففيها وحاجبيها .. وأهدابها وصفع ريت خديها بنعومة وبالحاح بظهر أصابعه .



عندما فتحت عينيها .. بدا لونها أقوى من الزمرد .. وصاح ريت علامة الانتصار .. كانت أصابعها نصف مضمومة على الرمال التى جعلها المطر تتماسك مؤقتا . وقالت « أرض » . وبدأت تبكى فى نسيج لاهث . ووضع ريت ذراعه تحت كتفيها ورفعها لتكون فى حماية جسمه المنحنى . وبيده الطليقة لمس شعرها وخديها وفمها وذقنها « يا حبيبتي ، يا حياتي ، لقد ظننت أنني فقدتك . ظننت أنني قتلتك ، ظننت . أوه ياسكارليت انت على قيد الحياة . لاتبكى يا أعز المخلوقات ، لقد انتهى الأمر . انت سالمة » وقبّل جبينها وعنقها وخديها .. وسرى الدفء واللون فى بشرة سكارليت الشاحبة ، وإدارت رأسها لتتجاوب مع قبلاقه وتقبله بدورها .

ولم تعد هناك برودة ولا مطر ولا ضعف . فقط شفتا ريت المحترقتان فوق شفتيها وجسدها ، وحرارة يديه ، والقوة التى شعرت بها تحت أصابعه عندما أمسك بكتفيها ، ودقات قلبها تدوى فى حلقها فى ملاقاته شفتيه

والخفقان القوى لقلبه تحت راحتها عندما لمست أصابعها صدره .
نعم أتذكر ذلك . لم يكن حلما . نعم لقد تجاوبت مع عواطف ريت ، فإن
ما تطلبه هو ما يطلبه . ولم تعد هناك كلمات أو أفكار وإنما اتحاد يتجاوز
العقل والزمن .. والعالم ..



الهروب من « الأدمان »

انه يجبنى ! كم كنت حمقاء عندما انتابنى الشك فى الحقيقة التى اعرفها . فتحت عينيه ببطء ، كان « ريت » يجلس إلى جانبها وقد احاط ركبتيه بذراعيه وأخفى وجهه بينهما . واحساس بالراحة عند سكارليت وهى تنعم بملاسة الرمال لبشرتها وتتعرف على المكان حولها . والأمطار تتدفق بلا انقطاع .. « سنموت » علينا أن نعثر على ماوى قبل أن نمارس الحب مرة أخرى . وتمد يدها لى لتحسس ظهره ، ولكنه يبتعد بحركة سريعة كما لو كانت قد لسعته بالنار ، وينظر إليها ثم يقف على قدميه . ولم تستطع أن تقرأ تعبيرات وجهه . قال : « لم أشأ أن أوقظك ، حاول أن تستريحى لدقائق أخرى .. إلى أن أجد مكانا نجفف فيه أجسامنا ونشعل بعض النار .

— « ساذب معك » . وجاهدت لى تقف . كانت سترة ريت تغطى ساقيها بينما لاتزال ترتدى سترتها .
— « لا .. انتظرى هنا » . وسار مبتعدا . ولم تصدق سكارليت عينيها .

— « ريت ، كيف تتركنى ؟ لن ادعك تتركنى » ، ولكنه واصل السير متسلقا كنبان الرمل المنحدرة ، ولم تر غير ظهره العريض الذى تعلق به قميصه المبتل . وتوقف عند قمة التل ، وثقلت حوالبه ، ثم قال : « أرى كوخا . الآن أعرف أين نحن . هيا انهضى » . وعاد ليمد يده ويساعدها على النهوض . ومدت يدها فى لهفة .

فتح باب الكوخ بركلة واحدة من قدمه ، ودلف إلى الداخل .. وسكارليت فى أعقابها . لماذا يلزم الصمت ؟ لم يتفوه بكلمة واحدة حتى وهو يحملها بين ذراعيه عبر الكنبان الرملية . وهى تريده أن يتكلم وأن تسمعه يقول كم يحبها . الله يعلم أنه تركها تنتظر طويلا بما فيه الكفاية . وجد غطاء سرير ممزقا فى دولاب قديم بالكوخ . قال « انزعى ملابسك المشبعة بالمياه ولغى جسمك بهذا الغطاء » وألقى به فى حجرها . وخلعت سكارليت ما تبقى من ملابسها الممزقة ولغت الغطاء حول جسمها وجلست على مقعد مطبخ خشن . وبعد ساعات من الصراع مع الأمواج .. بدأ جسمها يجف . ولكنها أخذت ترتجف . وأحضر ريت قطعة من الخشب الجاف ليشعل النار فى مدفأة كبيرة فى الحائط . وتفاقرت سكارليت عبر الغرفة لتدفع نفسها قرب النيران :

— « لماذا لاتنزع ملابسك المبتلة ياريت أنت أيضا ؟ ساعطيك الغطاء لكي تجفف نفسك ، فهذا شيء مريح » . وخفضت عينها كما لو كانت قد خجلت من جسارتها . وتهللت خصلات شعرها على خديها .. ولم يجب ريت . وبعدها قال « ساغرق بالمياه مرة أخرى عندما أخرج » اننا على مسافة ميلين من فورت ماولتري . ساذهب طلبا للمساعدة »
وتوجه ريت إلى الغرفة الصغيرة الملحقة بمطبخ الكوخ التي تحفظ فيها المؤر وادوات المائدة . وتمنت سكارليت أن يكف عن التنقيب في تلك العرفة ، هفيف نستطيع أن نتحدث معه وهو في غرفة أخرى ؟ وخرج ريت حاملا زجاجة من الويسكي في إحدى يديه . وقال بابتسامة مقتضبة « الرقوف عاريه ، ولخر الصروريات متوافرة » وفتح دولابا وأخرج كوبين ، وقال بعد فحصهما « نظيفان بما فيه الكفاية ، ساسب لنا كاسين » ، ووضع الزجاجة والكوبين على المائدة .

— « لا أريد شرابا ، أريد . »

وقاطعها قبل أن تقول له الذي تريده :

— « اننى احتاج إلى شراب » وملا نصف كوبه وشربه في جرعة واحدة . ثم هز رأسه : « لا غرابة في أنهم تركوا هذه الزجاجة هنا .. انها فاسدة ، ومع ذلك .. » . وصب من الزجاجة مرة أخرى .
كانت سكارليت تتابعه بنظرة تسامح وتدليل . مسكين ايها الحبيب . كم هو عصبى . وعندما تحدثت كان صوتها معبرا عن صبر العاشق : « لماذا العصبية ؟ ما حدث ليس فضيحة أو شيئا من هذا القبيل . نحن زوجان يحب أحدا الآخر .. هذا كل شيء »

وحملق ريت نحوها ثم وضع الكوب . بحرص فوق المائدة :

— « سكارليت . ماحدث هناك لاعلاقة له بالحب .. انه احتفال بالبقاء على قيد الحياة ، هذا كل ما في الأمر .. واثنت ترين ذلك يحدث عقب كل معركة في زمن الحرب .. الرجال الذين كتبت لهم النجاة يلقون بانفسهم على أول امرأة يرونها ، ليثبتوا أنهم مازالوا احياء عن طريق استعمال جسدها . في هذه الحالة أنت استخدمت جسدى أيضا ، لأنك أفلت من الموت باعجوبة .. وهذا لاعلاقة له بالحب » خشونة كلماته فاجأتها ، ولكنها تذكرت الصوت الذى كان يهمس في أذنها بكلمات « حبيبتي » « حياتي » « أحبك » التي تكررت مائة مرة . بصرف النظر عما يقوله ريت ، فإنه يحبها . وهى على يقين من ذلك في أعماقها . وهو لايزال يخشى أن يكون حبى له مزيفا . وهذا هو سبب امتناعه عن الاعتراف به

يحبني . وبدأت تتحرك نحوه : « تستطيع أن تقول ما تشاء ياريت ، ولكن ذلك لن يطمس الحقيقة . أنا أحبك وأنت تحبني ، وقد مارسنا الحب لكي يثبت كل واحد منا للآخر هذه الحقيقة » . وشرب ريت الويسكي ، وأطلق ضحكة جافة : « لم أتصور أبدا أنك رومانسية صغيرة بلهاء ياسكارليت . سيخيب أملى فيك إذا ظل هذا هو حالك . يجب أن تعترف أنه لا يمكن الخلط بين الحب وبين اتصال حسي متعجل وطائش » . وقالت : « تستطيع أن تتكلم كما تشتهي ، ولكن ذلك لن يغير أى شيء » . ووضعت يدها على وجهها لتمسح الدموع وهى تسير بضع خطوات . كانت قريبة منه ، وتستطيع أن تشم رائحة الملح في جسمه والويسكي في أنفاسه . وعلا بكأؤها : « أنت تحبني ، أنت تحبني » . وسقط الغطاء الذى يلتف حول جسمها .. على الأرض عندما تركته يسقط . وتلتصق بريت « خذنى بين ذراعيك ، وقل لى إنك لاتحبني ، وعندئذ ساصدقك » .

وبغطة . أمسكت يدا ريت براسها وقبلها بعنف . والتفت ذراعا سكارليت لتتشابكا وراء رقبته ، بينما تحركت يداها من وجهها إلى كتفها وهى مستسلمة تماما . ولكن أصابع ريت أطبقت فجأة على معصميهما لفصل ذراعيهما أحدهما عن الآخر وتدفعهما بعيدا عن رقبته .. وعنه . ولم تعد شفتاه تبحثان عن شفتيها . وتراجع جسمه إلى الخلف . وصاحت « لماذا ؟ أنت تريدنى » . ترك معصميهما . تعثرت خطواته إلى الوراء « نعم أريدك حقا .. ولكن صدرى ضاق منك . أنت سم في دمي ياسكارليت مرض في روحي . لقد عرفت رجالا يدمنون الأفيون ، أنه يشبه ادمانى لك . وأنا أعرف ما يحدث للمدمن ، أنه يصبح عبدا ، ثم يدمر نفسه . وكاد أن يحدث لى ذلك معك ، ولكنى هربت ولن أخاطر مرة أخرى ، ولن أدمر نفسى من أجلك » . واندفع من الباب وخرج إلى العاصفة .

وزمجرت الرياح من خلال الباب المفتوح .. رياح ثلجية تضرب جسد سكارليت العارى والتقطت غطاء الفراش من الأرض ولفته حولها واستجمعت كل قوتها لإغلاق الباب في وجه المطر والرياح . انها تشعر بقوتها تنهار ، كانت شفتاها لاتزالان ساخنتين من تأثير قبلة ريت ولكن ما تبقى من جسمها يرتعد . وزحفت إلى مسافة قريبة من النار وهى ملتفة بالغطاء . كانت مرهقة .. إلى اقصى حد .. وسوف تنام قليلا لحين عودة ريت . واستغرقت في نوم عميق كان اقرب إلى الغيبوبة



قال طبيب الجيش الذى احضره ريت معه من فورت مولترى . « إنهك

وتأثير العوامل الجوية .. إنها معجزة أن زوجتك لم تمت يامستر باتلر .
 دعنا نأمل في أن تحتفظ بقدرتها على استعمال ساقها .. كادت الدورة
 الدموية تتوقف تماما .. لفها في هذه البطاطين ودعنا ننقلها إلى الحصن » .
 وطوى ريت جسم سكارليت اللين بسرعة ورفعها بين ذراعيه . وقال
 الطبيب : « دع السيرجنت يحملها ، فأنت نفسك لست في حالة طيبة » .
 وفتحت سكارليت عينيها . واستطاعت وهي في شبه غيبوبة أن تلاحظ
 الأزياء العسكرية الزرقاء حولها ، ثم لم تعد ترى شيئا . وأغلق الطبيب
 جفنيها بأصابع مدربة في ميدان القتال . وقال : « الأفضل أن نسرع .. فإن
 حالتها تزداد سوءا » .



— « اشربى هذا يا حبيبتي » . كان صوت امرأة .. صوت ناعم ولكنه
 أمر .. وفتحت سكارليت شفتيها لكي تطيع . كلا ، لم يكن صوت
 « مامى » .. وإن كان قريبا جدا منه ، يكاد يكون نفس الصوت . ولأول
 وهلة تصورت أنها في بيتها في تارا .. و « مامى » ترعاها . كانت المريضة
 السوداء التي تميل على سريرها ذات ابتسامة جميلة ، ونفيس بالحنان
 والحب وتتحنن بالحكمة والصبر اسمها « ربيكا » وقالت : « إنها كانت تصل
 من أجلها .. وعندما انتهت سكارليت من تناول اللبن . توجهت ربيكا
 للصلاة مرة أخرى شكرا على نجاة سكارليت . وجاءت الكوابيس لتتحمم
 أحلام سكارليت عندما عادت إلى النوم . أفاقت لتسمع صوت « ان
 هامبتون » « واليانور باتلر » . قالت اليانور : « جئنا لنأخذك إلى الست
 ياعزيزتى » .



احتجت سكارليت على استخدام المقعد المتحرك لنقلها وسالت « أين
 ريت ؟ لماذا لم يات ليأخذني إلى البيت » قالت السيدة باتلر بحزم « لم
 أسمح له بالخروج مرة أخرى ، وقد أرسلت في استدعاء طبيبنا ، وقلت
 لمانيجو أن يضع ريت في الفراش . كار البرد قد غير لون جلده إلى
 الأزرق » وتحدثت أن بهدوء ، وهي تميل على أذن سكارليت : « انزعجت
 مس اليانور عندما هبت العاصفة فجأة وانطلقنا من المنزل إلى حوض
 السفن ، وعندما قالوا لنا ان الزورق لم يعد أصبحت شديدة الهياج
 وأثك في أنها جلست مرة واحدة طوال فترة المساء كانت تذرع الشرفة
 ذهابا وإيابا وهي تتطلع بعيدا من خلال المطر » وفلت مس اليانور
 لربيكا ، قال لي إبني إنك صنعت معجزة برعايتك لزوجته لا أعرف

كيف تشكر « . وشرحت أن هامبتون لسكارليت أن ريت انتظر في المستشفى إلى أن أبلغه الطبيب بأن زوجته تجاوزت مرحلة الخطر ثم أخذ المعديّة إلى شارلستون لكي يطمئن والدته التي كان متأكداً من أنها في حالة شديدة من القلق . وضحكت أن وقالت « لقد تلقينا صدمة كبرى عندما رأينا جندياً من اليانكي يدخل من البوابة . وقد تبين أن ريت استعار منه ملابس جافة » .

ورفضت سكارليت أن تغادر المعديّة بالمقعد ذي العجلات ، وأصرّت على أنها قادرة تماماً على السير إلى المنزل . وبدأت تمشي وكان شيئاً لم يحدث . ولكنها كانت مجهدة عندما وصلت إلى البيت حتى أنها قبلت مساعدة أن لها على صعود السلم . واستغرقت في نوم عميق بعد أن تناولت حساء ساخناً . ولم تلاحظها الكوابيس هذه المرة ، فهي في فراش ناعم وثير كما أن ريت على مسافة بضعة خطوات منها



رأت الزهور في لحظة استيقاظها .. كما رأت مظلوماً إلى جانب أنية الزهور . وتناولت سكارليت المظروف بلهفة .. انه خط ريت : « ليس هناك ما أستطيع قوله حول ماحدث بالأمس ما عدا أنني أشعر بالخجل والأسف في أعماقي لأنني كنت السبب في هذا الألم العظيم الذي أصابك والخطر الهائل الذي تعرضت له ... »

واهتزّت سكارليت فرحاً وواصلت القراءة :

« ان شجاعتك وروحك الباسلة .. تشهدان بحق ببطولتك وسوف انظر اليك دائماً بإعجاب واحترام . وإنني أسف بمرارة لكل ماحدث بعد نجاتنا من المحنة الطويلة . لقد قلت لك أشياء ما كان ينبغي لرجل أن يقولها لامرأة ، وكانت تصرفاتي تستحق التوبيخ ومع ذلك فإنني لا أنكر أن كل ما قلته هو الحقيقة . ويجب ألا أراك مرة ثانية . وطبقاً لاتفاقنا ، فإن لك الحق في البقاء في شارلستون في منزل والدتي حتى شهر أبريل وإنني أمل بصراحة ألا تختارى البقاء حتى ذلك التاريخ ، لأنني لن أزور منزل المدينة ولا « دانمور لاندينج » إلى أن أتلقي معلومات تؤكد أنك عدت إلى أتلانتا . لن تتمكني من العثور على ياسكارليت ولا تحاولي التسوية النقدية التي وعدت بها سيتم تحويلها اليك فوراً باسم العم هنري هاميلتون . أرجوك أن تقبلي اعتذاراتي المخلصة عن كل شيء يتعلق بحياتنا معا . فلم تكن مقصودة . وأتمنى لك مستقبلاً أسعد .

ريت »

حدقت سكارليت في الخطاب . في البداية شعرت بصدمة وجرح كبير ثم غضب شديد . واخيرا مزقته ببطء إلى قطع صغيرة كما لو كانت تقفل الكلمات الشريرة .

« ليست هذه المرة ياريت باتلر . لقد هربت مني تلك المرة السابقة في اتلاننا بعد أن مارست الحب معي . وسقطت مريضة بالحب انظر عودتك . حسنا ، الآن أنا أعرف أكثر مما كنت في المرة السابقة ، أعرف أنك لا تستطيع أن تتخلص مني مهما بذلت من جهد . فانت لا تستطيع أن تعيش بدوني . فلا يوجد رجل يمارس الحب مع امرأة بالطريقة التي فعلت .. ثم لا يراها بعد ذلك أبدا . سوف تعود . كما عدت من قبل ولكنك لن تجدني في انتظارك . عليك أن تأتي وتجدني في المكان الذي ساتواجد فيه » .

ودقت الجرس واستدعت بانسي وطلبت منها أن تحزم حقائبها بسرعة للحاق بالقطار المتجه إلى أوجوست .. سأعود إلى بيتي وسوف أؤكد من أن العم هنري تسلم نقودي ثم أبدا مباشرة العمل في تارا . ولكنني لم أحصل على تارا حتى الآن ! وسكنت برهة .. ثم قالت لبانسي : « سأذهب إلى سافانا ، أنه عيد ميلاد جدي » سوف ألتقي بخالتها في المحطة . وسيفادر القطار إلى سافانا في العاشرة أو الحادية عشرة . وغدا سوف تقابل رئيسة الدير وتدفعها للحديث مع الأسقف . فلا معنى للذهاب إلى اتلاننا قبل أن يكون صك نقل ملكية تارا في يدها . وبحثت عن مس الياثور لتودعها . وقالت لها روز ماري ، التي دهشت واعتراها الفضول عندما رأت سكارليت ترتدى ثوبا مزخرفا ، .. ان الوالدة ذهبت إلى الكنيسة وقالت : « لماذا لاتكتبين لها رسالة ؟ »

لم يعد هناك وقت ، فالسائق ينتظر خارج المنزل .. واندفعت إلى المكتبة وامسكت بورقة وقلم ، ماذا تقول ؟ وكتبت سكارليت لتوضح انها ذاهبة إلى عيد ميلاد جدّها وانها أسفة لأنها لم تودع الياثور قبل سفرها وأضافت : « وسوف يفسر ريت كل شيء » و « أحبك » .

— « أرجوك سلمى هذه الرسالة إلى والدتك لأنني يجب أن أسرع » . قالت شقيقة ريت « وداعا ياسكارليت » ووقفت عند الباب ترقب سكارليت وحقائبها ووصيفتها بانسي . لم يكن ريت منظما بهذا الشكل عندما غادر ليلة أمس وتوسلت اليه أن يبقى لأن حالته لم تكن طيبة ، ولكنه قبلها وودعها وخرج على قدميه في الظلام لايلوى على شيء . ولم يكن

من الصعب على روز ماري أن تستنتج أن سكارليت هي السبب في رحيله
وبحركات متمهلة أشعلت روز ماري عود ثقاب ، وأحرقت رسالة
سكارليت ، وهي تقول بصوت عال ' « لقد تحقق الخلاص » ..



القسم الثالث :

حيـة جديدة



● « فيفيان لى » (سكارليت) و « كلارك جيبيل » (ريت باتلر) . لم يعد المشاهد (للسينما) أو قارئ الرواية يتخيل شخصية سكارليت أو باتلر في صورة أخرى غير فيفيان لى و « كلارك جيبيل » وقد تكلف البحث عن ممثلة تقوم بدور سكارليت ٩٢ ألف دولار - قبل العثور عليها - وسمع المنتج ١٤٠٠ اقتراح حول اختيار الممثلة التى تقوم بهذا الدور وأجرى تسعين اختبارا لممثلات بينهن أعظم ممثلات هوليوود فى ذلك الوقت .. بلا نتيجة قبل أن يجد « فيفيان لى » .

فى منزل الجد

منزل الجد المهيب باللون الوردى كما قالت السيدة البانور ، وكل شىء بنفس اللون ، وهو مكان نموذجى لكى يجدها فيه ريت بعد أن يلحق بها . ولكن هذا الجد العجوز البخيل لم يرسل مليما لمساعدتها بعد الحرب .. ولا يفعل شيئا ، للخالتين أيضا ، واستعدت سكارليت للمعركة . كانت الخالتان تشعران برعب من أبيهما ، أما سكارليت فليس هناك ما يدعوها للخوف . لقد استردت حياتها لتكون بين أيديها ، وتشعر الآن بأنها قوية .. لا رجل . ولا وحش يمكن أن يضايقها الآن . ان ريت يجبها .. إذن فهى ملكة العالم ، وفى داخل المنزل أمرت خادماتها بأن تضع الحقائق فى أجمل غرفة للنوم ، وفزعت الخالتان لأن سكارليت لم تنتظر لحين مقابلة الجد . وقالت سكارليت لخالتيها بولين وأولاي .. انهما شبتا فى هذا المنزل فلماذا لا تشعران انهما فى بيتهما ؟

وحانت لحظة مقابلة الجد ببناء على أوامره ، الغرفة ذات سقف عال جدا ومزدحمة بالأثاث ، وفى أحد اركان الغرفة يوجد علم فرنسا .. ودمية بلا رأس ترتدى الزي العسكرى الذى تتدلى منه ميدالية ذهبية والذى كان يرتديه بيير روبيلار عندما كان شابا فى جيش نابليون بونابرت .. أما العجوز فقد كان جالسا فى فراشه منتصبا ووراءه كوم من الوسائد الضخمة ويصدق فى زائريه ، لاشئ سوى جلد وعظام .

— هالو يا جدى ، جئت لأراك فى عيد ميلادك . انا سكارليت ابنة إلين . وقال العجوز : انا لم أفقد الذاكرة ، ولكن يبدو ان الذاكرة تخونك . انت فى هذا المنزل لا يتحدث الصغار إلا إذا تم توجيه الحديث اليهم . كان صوته القوى يناقض كيانه الهش .. وعضت سكارليت لسانها حتى تصمت ، لست طفلة حتى يتحدث معنى بهذه الطريقة . ويجب أن تكون ممثنا لى شخص يأتى ليراك . ولا غرابة فى أن أمى كانت سعيدة للغاية عندما أخذها أبى بعيدا عن هذا المنزل !

وأخذ يمدم قائلا بالفرنسية : **Et vous mes filles. qu'est-ce-que vous voulez cette fois** « وانتم يا بناتى ماذا تريدون هذه المرة ؟ » .

واندفعت أولاي وبولين صوب الفراش ، يتحدثان فى وقت واحد . يا للكارثة ، انهم يتحدثون بالفرنسية ! ماذا باش افعل هنا .. سيفعل ريت خيرا لو جاء ورأى بسرعة ، حتى لا يصيبنى الجنون فى هذا المنزل .

وعندما أضاء « جيروم » كبير الخدم الغرفة بالمصابيح . وجدت أمامها لوحة كبيرة لجدتها ، نفس الأنف المتعالى كما في اللوحة المعلقة في تارا .. ومشروع ابتسامته على شفيتها ، وعينان سوداوان تنظران من كل الزوايا نحو سكارليت ، مع روح حميمة وساحرة وضاحكة تتحدى كل شخص عرفها وتأسره ، نهذاها المستديران المستفزان تغطيهما غلالة حريرية بيضاء ، وشعرت بحمرة الخجل ، لماذا لا تبدو الجدة روبيلار مثل سيدة مجتمع ، وتذكرت نفسها وهي بين ذراعي ريت والشهوة الجامحة للمس يديه لابد أن جدتها شعرت بنفس الاشتهاة ونفس النشوة . هذا ما يبدو في عينيها وابتسامتها ، هل ورثت سكارليت ذلك الجموح وروح الاقتحام من المرأة التي تنقسم لها داخل اللوحة ؟



كانت وجبة العشاء هزيلة تنم عن بخل شديد . وادركت سكارليت انها ستكون في نفس هزال جدها خلال أيام وتتحول الى هيكل عظمي إذا كانت هذه هي عينة وجبات الطعام في المنزل ، وبعد أن نام كل سكان البيت ، شقت سكارليت طريقها الى المطبخ في البدروم ، وأكلت كل ما تريد ، وتأكدت من صدق ظنونها .

أن بيير روبيلار يمكن أن يحتفظ بولاء ابنتيه عندما لا تمتلئ معدتاها ، أما خدمه فإنهم لن يبقوا في المنزل ما لم تكن لديهم وفرة من الطعام ، وفي صباح اليوم التالي ، أمرت جيروم كبير الخدم بأن ياتيها بالبيض وببسكويت ولحم الخنزير المقدد ، وحذرت : (لقد رايت كميات كبيرة منها في المطبخ) وحصلت على ما تريد .

انها ليست على استعداد لأن تكون مثل خالتيها اللتين ترتجفان مثل اوراق الشجر ، فليس هناك مبرر للسماح للعجوز بأن يخيفني ولن يحدث ذلك مرة أخرى . الآن تتعامل مع الخدم وليس مع الجد . وكان من السهل أن تلاحظ أن جيروم مستاء من طلباتها .. فتشعر بسرور مضاعف ، فهي لم تصطدم بشخص ما منذ وقت طويل ، وهي تحب أن تنتصر . وقالت لجيروم : « السيدتان الاخريان ستحصلان أيضا على بيض ولحم خنزير .. ثم ان هذا الزبد غير كاف .. » وما ضايق جيروم وسائر الخدم هو شبابهها وطاقتها ، فهي تثير الاضطراب الآن في هذا المنزل الساكن .



كانت سكارليت تتوقع مجيء ريت ، ولكن ريت لم يات وفي اليوم التالي ارسلت برقية الى العم هنري لابلأغه بعنوانها في سافنا وترددت ثم

اضافت سؤالاً هل قام ريت بتحويل أى نقود إليها ؟
 ماذا لو حاول ريت أن يمارس أى لعبة مرة أخرى وكف عن إرسال المال
 للاحتفاظ بإدارة منزل شارع بيتشترى ؟ كلا ، المؤكد انه لن يفعل ذلك ، بل
 على العكس ، فإن رسالته ذكرت انه سيرسل النصف مليون ، كما انه
 لم يكن صادقاً عندما اصطنع كل هذا التهويل وكتب كل تلك الأشياء
 الجارحة ، مثل الحديث عن الأفيون .. هذا ما قاله .. ولكنه لا يستطيع أن
 يستغنى عنها وسوف يلحق بها ، صحيح أن ابتلاع الكبرياء صعب
 بالنسبة لريت من أى رجل آخر ، ولكنه سيأتى ، انه مرغم ، ولا يستطيع
 أن يستغنى عنها وخاصة بعد ما حدث على الشاطئ ..
 وتوجهت الى « دير شقيقات الرحمة » .. إذ يجب أن يكون لديها الوقت
 الكاف أثناء انتظارها لحضور ريت ، لكى تقتفى أثر رئيسة دير شارلستون
 وتحملها على الحديث الى الأسقف كما اقترح ريت .
 قالت الراهبة العجوز التى فتحت الباب أن رئيسة دير شارلستون
 موجودة ، ولكنها لا تستطيع أن تطلب منها مقابلة السيدة باتلر فوراً ..
 فهناك اجتماع الآن ، وهى لا تعرف المدة التى يستغرقها انعقاد هذا
 الاجتماع ، ولا تعرف ما إذا كانت رئيسة الدير ستكون جاهزة لمقابلة
 السيدة باتلر بعد انتهاء الاجتماع .
 واقترحت عليها الراهبة العجوز أن تقوم بجولة فى مبنى الكاتدرائية
 الجديد . قالت سكارليت لنفسها ، انهم يشيدون كاتدرائية جديدة ، وهذا
 يكلف أموالاً كثيرة ، وربما يكون عرض شراء نصيب كارين فى تارا موضع
 قبول واستحسان الآن أكثر مما كان عليه فى شارلستون كما قال ريت ،
 إذ انهم هنا فى حاجة الى المال

لست من جنودك

وصلت رائحة الدجاج المحمر الى انف سكارليت وهى تفتح باب المنزل الوردى الكبير ، كانت تشعر بجوع شديد . ونظرت « اولاي » الى سكارليت بعينين حزينتين تعبران عن روح المواساة بينما كانت تدخل غرفة الطعام ، وقالت لها : « الاب يريد ان يراك يا سكارليت »

ان الا يمكن ان ينتظر لما بعد الغداء ، اننى اتضور جوعا .. واكدت الخالة ان ابها قال : « .. فى الدقيقة التى تصل فيها سكارليت الى المنزل » والتقطت سكارليت رغيفا من الخبز وقضمت منه قطعة وهى تمضى خارجة وفرغت من التهامها قبل ان تصل الى غرفة الجد . وعبس العجوز وقطب جبينه عندما رآها بينما كانت صينية الطعام تستقر على حجره فى الفراش الضخم . ولاحظت سكارليت ان طبقه لا يحتوى إلا على بطاطس مهروسة وكومة ضئيلة من الجزر غير الطازج . يا للبلية ! لا غرابة فى انه يبدو متوحشا ، لا توجد مسحة من الزبدة فوق البطاطس .. حتى لو لم تكن لديه سنة واحدة فى فمه ، فإن الزبد كان سيغذيه افضل من هذا .

قال العجوز : لا اتسامح مع اهمال جدول مواعيد المنزل .

— أسفة يا جدى .

— النظام هو ما جعل جيوش الامبراطور .. عظيمة ، بدون نظام لا توجد سوى الفوضى .

كان صوته عميقا ، قويا ، مخيفا ، بيد ان سكارليت رأت العظام المتهالكة الناتئة تبرز من تحت قميص نومه الكتانى الثقيل . ولم تشعر بخوف .

— قلت اننى أسفة ، هل أستطيع ان اذهب الآن ؟ اننى جائعة .

— لا تكونى وقحة ايها السيدة الشابة .

— لا توجد وقاحة فى كون المرء جائعا يا جدى ، ومجرد انك لا تريد تناول غداك لا يعنى ان لا احد آخر يجب ان يتناول اى طعام ودفع ببيروتوبيلار الصينى بغضب ، وعوى قائلا : لا تليق بالخنازير . واتجهت سكارليت ناحية الباب .

— اننى لم انه المقابل يا سيدة .

وشعرت بمعدتها تصرخ ، لابد ان الخبز قد برد الآن وان الدجاج قد نفذ بعد ان انفتحت شهية الخالة اولاي .

— يا الهى يا جدى . اننى لست واحدة من جنودك ! ولست خائفة منك مثل خالتى .. ماذا ستفعل لى ، فى رايك ؟ هل ستطلق على الرصاص بتهمة الهرب من الخدمة ؟ إذا كنت تريد تجويع نفسك حتى الموت ، فإن هذا شأنك . انى جائعة وسأذهب لأتناول ما تبقى من الغداء ..

كانت فى منتصف الطريق الى الباب عندما سمعت صوتا مختنقا جعلها تستدير الى الخلف ، يا الهى . هل تسببت فى اصابته بسكتة دماغية ؟ يا الهى لا تجعله يموت بسببى

غير انها اكتشفت ان بيير روبيلار كان يضحك ، ووضعت سكارليت يديها فى وسطها وحملت فى وجهه . لقد اخافها حتى كادت تموت . ولوح لها لى تخرج باصبع طويل من يده التى لم يتبقى منها سوى العظم ، وقال « كل » .. « كل » ثم بدأ يضحك مرة أخرى .

لم تنتظر الخالتان عودة سكارليت من غرفة جدها والتهمتا كل الطعام وجلستا فى انتظار الحلوى ، وسالتهما الخالة بولين عما حدث . وتعجبت الخالة اولاً لأنها لم تسمع صراخاً ، والتقطت سكارليت الجرس الفضى الصغير الموضوع على المائدة وهزته بغضب ، وعندما جاءت خادمة سوداء بدينة تحمل طبقين من « البودينج » وضعت سكارليت كلتا ي سكا على كتفى المرأة وادارت وجهها وجسمها الى الناحية المضادة : « الآن بالخطوة السريعة الى الامام سننزلين الى المطبخ وتحضرين لى غدائى واريد سأكنا وبكميات كبيرة ، ولا يهمنى من منكم كان بنوى ان يستولى على طعام غدائى » وانتظرت الخالتان الى ان فرغت سكارليت من طعامها ، وعندها سألت بولين فى ادب : « ماذا قال لك الاب ؟ » قالت سكارليت وهى تمسح فمها بمذيل المائدة : « مجرد انه حاول ان يستأسد ، وكان ردى عليه هو تعريفه بشخصى مما دفعه الى الضحك » وتبادلت الخالتان نظرات تعبر عن شعور بالصدمة ، الا تعرف الخالتان ان المرء يجب ان يتصدى للمتجبرين مثل والدهما وإلا فإنه سوف يسحق أمثال هاتين الخاليتين ؟ أليست ضحكات جدها تعبيراً عن اعترافه بانها تشبهه ؟



سألتان تسيطران فى الوقت الحالى على تفكيرها : السيطرة على « تارا » والفوز فى الصراع مع ريت . ولا يهم إذا كان الهدفان متعارضين ، فسوف تجد وسيلة لى تحصل عليهما .. الاثنين .



عبرت الشارع المزدحم في مدينة سافانا ، ووقع بصرها على لافتة كبيرة معلقة تحمل اسم « اوهارا » انه محل تجارى كبير يمتلك بكل انواع السلع واكبر بكثير من متجرها في اتلانطا ، لابد أن عمها اوهارا يغزو العالم ويحمل افكارا قد تسعفها في عالم التجارة . والتقت في داخل المحل بشاب يدعى جامى ظهر انه ابن عمها وانه يتولى ادارة المحل الذى يغص بالزبائن الذين لاحظت سكارليت انهم يتلقون افضل معاملة . قال جامى : « أنا ابن شقيق لاهارا ، وسوف يسعد العم جيمس كثيرا لرؤيتك ، انه عجوز ولكنه مازال نشطا ، وهو يحضر الى هنا كل يوم ويمكن حتى موعد الغداء . اما العم اندرو ، فقد توفى بعد شهر واحد من وفاة زوجته حزنا عليها . وقيم العم جيمس معى انا وزوجتى في المنزل » ودعاها الى تناول الشئ بعد ظهر نفس اليوم حيث يلتئم شمل العائلة في حفل عيد ميلاد ابنته باتريشيا . وعندما عاد ابنه دانييل من جولة لتسليم بعض السلع صاحبها الى منزل أسرة اوهارا الذى لم يكن يبعد كثيرا عن المتجر .

العنوان المطلوب

رحبت بها عائلة عمها جيمس اوهارا ، وامضت في صحبة افرادها سهرة
ممتعة حافلة بالضحك والغناء والرقص . واحسنت سكارليت بانها التقت
اخيرا مع اناس يحبون الحياة ويتميزون بالتلقائية وابعد ما يكونون عن
اصطناع العواطف ، والتقت في منزل عمها مع مورين ذات الشعر الاحمر ،
وهي زوجة جامى . انها كبيرة الحجم وممتلئة الجسم وذات ايد خشنة .
والتقت مرة اخرى مع دانييل (٢١ سنة) ثم مع برايان (١٨ سنة)
وباتريشيا التي كانت تحمل جنينا في بطنها .. والطفل الصغير جدا جاكى .
وكل هؤلاء ابناء جامى . وكان هناك بيلي زوج باتريشيا .. واشخاص
واسماء كثيرة لم تستطع سكارليت ان تحصرها او تلتقط نوع صلة
القرابة معها .. او حتى اسماءها .. فقد كان هناك جيرالد (نفس اسم
والدها) وزوجته بوى ، وهيلين ، ومارى كيت ، وستيفن وبيلي و
واعلن جامى ان الحاضرين يحتفلون بعيد ميلاد باتريشيا رغم انه يحل في
الاسبوع التالي لان الصوم الكبير سوف يحل في ذلك الاسبوع التالي .. وقال
ان هناك سببا اخر للاحتفال وهو (العنور مرة اخرى على اوهارا جميلة
مفقودة منذ وقت طويل ، هي سكارليت ، فمرحبا بها في قلوبنا وبيوتنا) ..



الراهبة العجوز التي فتحت الباب .. كررت ما تقوله مرتين : رئيسة
الدير معتكفة اليوم للصلاة والصيام . فهذا - اربعاء الرماد - اول ايام
الصوم الكبير .. وقالت سكارليت : « أرجو ابلاغها باننى اشعر بخيبة امل
كبيرة وساعود غدا ، وفي منزل الجد ، علمت سكارليت ان الصوم لا يعنى
مجرد تناول السمك ايام الجمعة بدل اللحوم ، وانما يعنى وجبة واحدة
يومية خالية من اللحوم خلال الاربعة ايام من الصيام باستثناء ايام
الاحاد التي تقدم فيها ثلاث وجبات بدلا من واحدة وبدون لحوم ايضا .
ولم تصدق سكارليت ما تسمعه ، فلم تحدث مثل هذه الطقوس في الصيام
في منزل أبيها قط . والتفسير الذي قدمته الخالتان هو ان ذلك كان يرجع الى
تأثير والدها الايرلندى الاصل الذي لم يكن يلتزم بصرامة بقوانين الكنيسة
مثلثة في ذلك مثل الايرلنديين . واجهشت الخالتان بالبكاء عندما احدثت
سكارليت دفاعا عن والدها وقالت ان تأثيره داخل الاسرة هو الذى اثر
المعاملة الطيبة والسخاء .. الشيء الذى لا تعرف الخالتان عنه شيئا ،
وتأثرت سكارليت ببكائهما واعتذرت لهما بما بدر منها وتصلحت معهما .

ووجدت سكرليت من الضروري أن تشتري كميات من الفطائر والخبز لتخفيها تحت سريرها ، ووضعت هذه « المهربات » تحت عباءتها ودخلت الى المنزل لتجد في انتظارها برقية من هنرى هاميلتون . وظنت في البداية انها برقية ريت يتوسل فيها ان تعود الى البيت او يبلغها فيها بانه في الطريق لكي يصحبها معه الى بيته . ولما تبينت انها من المحامى كادت تلقى بها في غضب ، ولكنها استحسنّت ان تقرأ ما يقوله العم هنرى ، واشرق وجهها بابتسامة بعد ان قرأت سطور البرقية :

« تلقيت برقيتك ، كذلك تحويلا مصرفيا ضخما من زوجك ، ما اعجب هذا ؟ طلب منى ريت ابلاغه بالمكان الذى توجد فيه . انظري منى رسالة قريبا جدا »

« هنرى هاميلتون »

إذن .. فإن ريت يبحث عنها ، تماما كما توقعت ، وهى محقة في مجيئها الى سافانا . وكانت تأمل في ان يبلغ العم هنرى .. ريت مباشرة وبرقيا بعنوانها بدلا من ان يرسل اليه خطابا عاديا ، ولكن ، الا يجوز ان ريت يقرأ في هذه الدقيقة خطاب العم هنرى الذى يحتوى على عنوانها .. وفي نفس الوقت الذى تقرأ فيه - هى - هذه البرقية ؟

واخذت تدندن بنغمات الفلاس وترقص حول الغرفة حاملة البرقية فوق قلبها ، ربما يكون في طريقه اليها الآن . والقطار من شارلستون يصل في هذا الوقت من النهار تقريبا . وأسرعت الى المرأة لتصلح شعرها وتضع لونا فوق خديها ، هل تغير ثوبها ؟ كلا . سيلاحظ ريت ذلك ، مما يجعله يظن انها لم تكن تفعل اى شيء سوى انتظاره . وجلست فوق مقعد في مواجهة النافذة بحيث تختفى وراء الستار ولا يراها أحد بينما هى ترى كل من يقترب من المنزل .

ومضت ساعة . ولم يحضر ريت ، ومزقت بأسنانها بعض الفطائر التى جاءت بها من الخباز . وكانت عكرة المزاج عندما نزلت الى الطابق الارضى وعندما وجدت جيروم يحمل صينية العشاء الى جدها امرته بالوقوف :

« هذا الطعام يبدو مرعبا .. عد به الى المطبخ وضع قطعة كبيرة من الزبد فوق البطاطس المهروسة ، وضع شريحة سمكة من فخذ الخنزير في الطبق ايضا ، اعرف ان لديكم لحم خنزير في المطبخ .. وعليك بإضافة علبه الكريم لكي يوضع منها فوق البودنج وكذلك علبه صغيرة من مربى الفراولة .. — مستر روبيلار لا يستطيع ان يمزج لحم الخنزير ، وقال طبيبه انه ليس من المفروض ان ياكل اى حلوى او قشدة او زبد .

— الطبيب لا يريد ان يجوع حتى الموت ايضا ، والآن افعل ما اقله لك .

ونظرت سكارليت في غضب الى ظهر جيروم وهو يختفى اسفل الدرج ..
وقالت لنفسها « لا احد يحب ان يجوع .. لا احد »
وتغير مزاجها فجأة وهى تتمتم محدثة نفسها « حتى ولا العجوز »



عيد الميلاد

شعرت بانتعاش وتجدد في طاقاتها من قطع الخبز التي تاكلها خفية .. ونزلت من غرفتها الى الطابق الأرضي ، كان الخالتان تجهزان مائدة عيد ميلاد الجد . وقالت سكارليت انها ستخرج لشراء هدية لجدها . وسالتهما إذا كانتا تريدان منها أن تشتري شيئا ، كانتا تعتزم التوجه الى الدير لمقابلة رئيسة دير شارلستون ، إذ لا يمكن أن تكون ما زالت معتكفة . ولسوف أقف عند البوابة لكي أمسك بها عندما تخرج ، فقد سمعت رفض مقابلتى . كانت تخشى أن تقترح الخالتان الخروج معها ، ولكنهما لحسن الحظ اعتذرتا بأنهما مشغولتان الى أقصى حد ، وأبدنا دهشتهم لأن سكارليت لم يقع اختيارها ولم تجهز - بعد - هدية لجدها . الأشجار في الميدان المواجه للمنزل تبدو أكثر كثافة ، والأعشاب أكثر اخضراراً من اليوم السابق ، والشمس أكثر دفئاً . وشعرت سكارليت بالتفاؤل المتسارع الذي يلازم دائماً أول بواكير الربيع . اليوم سيكون يوماً طيباً ، انها على ثقة من ذلك .. رغم حفل عيد ميلاد جدّها . نفس الراهبة العجوز هي التي فتحت الباب عندما قرعت الجرس . وتاهبت سكارليت للقتال . ولكن ..

— رئيسة الدير في انتظارك .. أرجو أن تتبعيني ..

كانت سكارليت لا تزال مصابة بالدوار عندما غادرت الدير بعد عشر دقائق . لقد كان الأمر سهلاً للغاية فقد وافقت رئيسة الدير على الفور على التحدث الى الأسقف . وقالت انها ستُرسل بخطاب في القريب العاجل . وأوضحت انها لا تستطيع أن تحدد بالذقة متى يحدث ذلك ، ولكن من المؤكد أنه سيحدث خلال وقت قصير ، وانها هي نفسها ستعود الى شارلستون في الأسبوع القادم .

شعور بالنشاط والخفة يجتاح سكارليت ، ابتسامتها مشرقة وعيناها تلمعان حتى أن صاحب المحل التجارى في الدكان الصغير بشارع ابيركورن كاد ينسى أن يطلب منها ثمن صندوق حلوى الشيكولاتة المزخرف الذي اختارته هدية لعيد ميلاد جدّها . وظلت معنوياتها عالية خلال الاعدادات النهائية لمائدة عيد الميلاد عندما عادت الى المنزل .

ولكن معنوياتها بدأت في الهبوط عندما علمت أن جدّها سوف يجلس الى المائدة من أجل ألوان الطعام الستة التي يفضلها والتي ستقدم بالتتابع ، وانهارت معنوياتها عندما ابلغتها الخالتان انه غير مسموح لها بأن تاكل

الجديد من اطيب الطعام التي ستقدم على المائدة . وقالت بولين بصراحة :
« اللحوم ممنوعة في الصيام الكبير .. كوني متأكدة من خلو الارز
او الخضراوات التي تاكليهن من اى اثر لصلصلة مرق اللحم » واضافت
بولين « كوني حريصة يا سكارليت . لا تدعى الاب يلاحظ ، فهو لا يوافق
على الصوم » كانت عينا بولين تدمعان من الحسرة .

وفكرت سكارليت : ان الخالة مكتئبة لأنها لن تشترك في الطعام ،
لا الومها فإن الروائح المنبعثة من المطبخ تسيل لعابها .

وقالت اولاي بسرور مفاجيء : « سيكون هناك حساء لنا ، وسنك ايضا
وكعك ، كعكة جميلة .. جميلة ، انه حفل حقيقي يا سكارليت » وحذرت
بولين : « تذكرى يا شقيقتى ، ان الشراهة خطيئة » وتركتهما سكارليت
حتى لا تفقد اعصابها ، انها مجرد وجبة طعام ، وطمانت نفسها .. فإنه
حتى مع وجود الجد على المائدة ، لن تكون الامور سيئة الى هذا الحد ، ففي
النهاية ماذا يستطيع رجل عجوز ان يفعل ؟ وادركت سكارليت في الحال انه
يمكن ان يرفض السماح باستخدام اى لغة للحديث سوى الفرنسية ،
ويمكن ان يتجاهل قولها له « عيد ميلاد سعيد يا جدى » وكأنها لم تقل
شيئا .. ويمكن ان يرد على تحيات الخالتين بإيماءة فاترة بينما يجلس في
مقعد ضخم اشبه بالعرش على رأس المائدة .

لم يعد بيير أوجوست روبيلار رجلا عجوزا هزيلا يرتدى ملابس
النوم .. بل انه الآن يرتدى معطفا من طراز قديم في شكل عباءة ، وبدأ
جسمه النحيل اكبر من حجمه ، وقامته العسكرية المنتصبة شديدة التأثير
حتى وهو جالس ، اما شعره الأبيض فقد كان اشبه بطوق شعر اسد
عجوز ، وكانت عيناه اقرب الى عيني الصقر تحت حاجبيه الكثيفين
البياضوين .. وانفه العظمى الكبير اشبه بمنقار طير من الجوارح ، التنبؤ
اليقيني بانه سيكون يوما طيبا بدا يتهاوى امام سكارليت .

دخل جيروم حاملا « سلطانية » فضية هائلة الحجم فوق صينية فضية
في حجم مائدة صغيرة . واتسعت عينا سكارليت ، فهي لم تشهد
« فضيات » بهذا الشكل في حياتها .. وغابة كاملة من الاشجار تحيط بقاعدة
السلطانية ، اغصانها واوراقها تتدرج الى اعلى وتلتف حول الاطار ، كان
الضييق والسخط يبدوان على وجه روبيلار طول الوقت . اما الخالتان فقد
كان من الواضح انهما في حالة من الرعب الشديد . ويبدو ان الجد قال
شيئا مهيئا باللغة الفرنسية لاحدى الخالتين . وجاء دور اطلاق السمك ..
ثم الحمام في القدور ..

كيف يتأتى لشخص ما ان يضم هذا القدر من الكراهية نحو الآخرين مثل جدّها ؟ من المستحيل تصور انه لم يحب الطعام . كما انه لم يكن من الصعب عليه ان ياكل حتى لو لم يكن لديه أسنان . وهى تعرف انه ذواق للطعام .. إذن لابد ان يكون هناك سبب آخر لامتناعه عن الأكل . وهذا السبب جلى في عينيه اللتين كانتا تلمعان عندما ينظر الى الخالتين المحببتين ، انه يحب ان يراها تتعذبان بدلا من ان تستمتعا بالطعام .. حتى لو كان طعام عيد ميلاده .

انها تحتقره بسبب الطريقة التى يعذب بها خالتها .. وهى تحتقرهما لانهما تتحملان تعذيبه لهما ، وفكرت للحظة ان تقول له رايها فيما يفعله باللغة الانجليزية التى يعرفها جيدا ، انها ظلت تجلس في هدوء ، وكان ثمة حضور لوالدتها الراحلة .. غير انها تشعر بان الين روبيلار اوهارا هنا الآن في المنزل الذى نشأت فيه ، وبسبب حبها لامها وحاجتها الى رضاها .. لم تستطع سكارليت ان تتحدى طغيان بيير روبيلار في تلك اللحظة . الاطباق تتوالى ، واصناف الطعام تتنوع حتى بدا ان المادبة لن تنتهى ابدا ، وفي كل مرة يتذوق بيير روبيلار الطعام ويرفضه . ثم جاءت كعكة عيد الميلاد .. وفوقها اعلام فرنسا ورمز لجيش الامبراطور نابليون ، وصوب العجوز عينيه الى سكارليت ، وقال بالانجليزية : (اقطعها ، ربما كان يامل في ان اطيح بالاعلام بحركة رعناء ولكننى لن امنحه هذه اللذة . وتناولت السكين من جيروم بيدها اليمنى .. ونجحت في مهمتها .



كانت تقديرات سكارليت انها لن تبقى في سافانا سوى ايام معدودة لان خالتها تتوقعان منها العودة معهما الى شارلستون ، وكلفت والقة من ان ريت سيأتى قبل ذلك ليصحبها معه .

هل تريدين الطلاق ؟

وصل خطاب هنرى هاميلتون الموعد الى منزل روبيلار مع حلول الظلام ، وامسكت به سكارليت كما يتعلق الغريق بالحبل الذى يلقي اليه . لقد ظلت تستمع الى مشاجرة لمدة تزيد على الساعة بين خالتيها حول من المسئولة عن رد فعل والدهما ازاء عيد ميلاده ، اخذت سكارليت الخطاب لتقرأه فى غرفتها بعد ان اعتذرت لخالتيها بان الخطاب يتعلق باملاكها فى اتلانطا واغلقت الباب على نفسها .. كانت تريد ان تتذوق كل كلمة فيه على انفراد .

« اى مشكلة صنعتها هذه المرة ؟ .. »

هكذا بدا الخطاب بلا تحية .. وكان خط المحامى العجوز مضطربا مما جعل قراءته صعبة . وتجهمت سكارليت وقربت الخطاب من ضوء المصباح :

« اى مشكلة صنعتها هذه المرة ؟ فى يوم الاثنين زارنى احمق عجوز مغرور .. عادة ما اتجنب رؤيته فى الطريق . وقدم لى حوالة مدهشة مسحوبة على مصرفه وقابلة للدفع لك . والمبلغ عبارة عن نصف مليون دولار ، وقد دفعه ريت . وفى يوم الثلاثاء ، ازعجنى احمق عجوز آخر ، وهو محام هذه المرة ، وسالنى عن مكانك ، لان موكله - زوجك - يريد ان يعرف . ولم ابلغه بانك فى سافانا »

وهمهمت سكارليت فى سخرية واستنكار : من الذى يصفه العم هنرى بانه احمق عجوز ؟ الاحمق العجوز هو العم هنرى نفسه ؟ لا غرابة فى ان ريت لم يحضر اليها . ودققت النظر مرة اخرى فى خط هنرى الاقرب الى خيوط العنكبوت ، وواصلت القراءة :

« برقيتك وصلت بعد مغادرته ، وفى وقت زيارته لم اكن اعرف مكانك . ولم ابلغه بعد بعنوانك لأننى لا اعرف ما هى نوايك . وعندى فكرة واضحة هى اننى لن اشترك فى هذا الامر . ان محامى دار القضاء .. هذا . لديه سؤالان من ريت : الاول هو : عنوانك . والثانى : هل تريدين الطلاق ؟ والان يا سكارليت ، انا لا اعرف ما الذى تشهريه فى وجه ريت لكى تحصل على هذا القدر من النقود ، ولا اريد ان اعرف . وبصرف النظر عما قد يكون قد فعله لكى يتيح لك مبررا للطلاق منه فإن هذا ليس شانى ايضا . ذلك اننى لم ألوث يدي ابدا بإجراءات طلاق . ولا انوى ان اشرع فى ذلك الآن . كما انك ، علاوة على ذلك ، سوف تبددين وقتك واموالك فى هذه الحالة ، ذلك انه لا يوجد طلاق فى كارولينا الجنوبية ، وهى مقر

الاقامة القانونية لـ « ريت » في الوقت الحاضر .

« وإذا استمر تصميمك على هذه الحماقة ، فسوف أعطيك اسم محام في اتلانكا يعتبر محترما رغم انه كسب قضيتي طلاق سمعت عنهما . ولكنني احذر من انك عندئذ ستكونين مضطرة لتسليمه ، هو أو أى شخص آخر ، كل شئوك القانونية ، لأننى لن أتولى أى امر من امورك بعد الآن . وإذا كنت تفكرين في الطلاق من ريت حتى تكونى حرة للتزوجى أشلى ويلكس ، دعيني اقل انك سوف تحسنين صنعا إذا أعدت التفكير في هذا الموضوع . ان أشلى ينجز عمله الآن على نحو افضل بكثير مما كان يتوقع منه أى شخص ، وتتولى مس انديا وشقيقتى الغبية توفير منزل مريح له ولولده ، وإذا أقحمت نفسك في حياته سوف تدمرين كل شئ ، اتركى الرجل المسكين وحده يا سكارليت »

أترك أشلى وحده ! حقا ! اعرف كم سيكون مرتاحا ومزدهرا إذا تركته وحده . والعم هنرى - من بين جميع الناس - كان ينبغي ان يكون أكثر حكمة من ان يثور ضدى مثل خادمة مثقلة بالتفاصيل التافهة ، ويقفز الى كل انواع الاستنتاجات الكريهة البغيضة التى تثير الغثيان . انه يعرف كل شئ عن بناء المنازل في طرف المدينة . لقد جرحت مشاعر سكارليت بعمق ، فقد كان العم هنرى هاميلتون هو الأقرب لديها الى شخصية الأب - أو الصديق في اتلانكا - واتهاماته أحدثت جرحا غائرا ، والقت نظرة على السطور القليلة الباقية بسرعة ثم كتبت ردا وأعطته لباسى لترسله من مكتب التلغراف :

« عنوانى في سافانا ليس سرا ، الطلاق غير مطلوب ، هل المال عملات ذهبية ؟ »

ولو لم يكن العم هنرى قد تصرف مثل الدجاجة العجوز النائمة .. لكنت قد وثقت به لكى يشتري ذهباً ويضعه في خزانته في البنك . ولكن شخصا لا يملك ما يكفى من الذكاء ما يدفعه الى أن يكتب عنوانها لريت .. قد لا يتوصل الى فهم اشياء أخرى أيضا . وشعرت بقلق على اموالها ، ربما يجب عليها ان تذهب الى اتلانكا لتتحدث الى هنرى ورجال مصرفها وجون كولتون ، وربما يجب ان تشتري المزيد من الأرض هناك عند أطراف المدينة وتبنى المزيد من المنازل . فالأشياء لن تكون أرخص مما هى عليه الآن بسبب آثار « الرعب » الذى مازال يسبب الركود الاقتصادى .

كلا ! يجب ان تضع اولوياتها في المقدمة ، ريت يحاول ان يجدها ، انه لن يخدعنى بحديث الطلاق ، أو بتحويل النقود كما لو كانت صفقتنا

قد نفذت ، والشئ الوحيد المهم هو انه يريد ان يعرف اين انا ؟ ،
ولن يبقى بعيدا لفترة طويلة بمجرد ان يبلغه العم هنرى بالعنوان .

● ● ●

وفوجئت الخالتان برفض سكارليت العودة معهما الى شارلستون . فقد
اعتادتا العودة يوم السبت ، وقررت سكارليت البقاء فترة في سافانا بعد ان
عرفت ان ريت يبحث عنها .. سوف تستقبله هنا في هذه الغرفة الوردية
المذهبة الانيقة وستجعله ينوسل اليها لكي تعود ، وبعد إذلاله بما فيه
الكفاية ، ستوافق ، وعندئذ يأخذها بين ذراعيه ويقبلها ..

● ● ●

— سكارليت ، هل تتكرمين بالإجابة عندما أوجه اليك سؤالا ؟

— ماذا يا خالتي بولين ؟

— ماذا تنوين ان تفعل بنفسك ؟ أين ستقيمين ؟

— لماذا ؟ هنا طبعاً !

لم يطرا على بال سكارليت انها لن تكون موضع ترحيب طوال المدة التي
ترغب في ان تبقى خلالها في منزل جدتها .. فتقاليد الكرم كانت لا تزال مقدسة
في الجنوب ، ولم يسمع احد عن ضيف طلب منه ان يرحل الى ان يقرر هو ،
او هي ، انه حان وقت الرحيل . وقالت اولالى بحزن : « الأب لا يحب
المفاجآت » وردت سكارليت وهى تنهض من مكانها « ساذهب واسأل الجد ،
هل ترغبان في المجيء معي ؟ »

الرعدة تسرى في اوصالهما .. ترعيبهما فكرة زيارة الجد بدون دعوة
صريحة ، لان مثل هذه الزيارة ستجعله مجنوناً بالغضب ، وسوف تنطلق
الحمم البركانية ! ما الشئ الحقيق الذي يمكن ان يفعله بهما ولم يكن قد
فعله حتى الآن ؟ واتجهت سكارليت مسرعة نحو غرفة الجد تتبعها
الخالتان وهما تتهاوسان في قلق . دقت سكارليت باب العجوز ..

— Entrez (ادخل) يا جيروم .

— لست بـجيروم يا جدى ، ابنتى سكارليت ، هل استطيع الدخول ؟
صوت قوى يرد : « ادخل » ورفعت سكارليت رأسها ، وابتسمت ظفيرة
لخالتيها قبل ان تفتح الباب ثم انكشفت جسارتها قليلا عندما تطلعت الى
وجه العجوز الصارم الذى يشبه وجه الصقر . ولكنها لا تستطيع التوقف
الآن . وتقدمت الى منتصف المسافة عبر السجاد السميك بثقة في النفس :
« أردت ان اخبرك يا جدى اننى ساقى لفترة بعد رحيل الخالتين اولالى
وبولين ،

— لماذا ؟

شعرت سكارليت بارتبك . لم تكن مستعدة لشرح اسبابها ، ولم تر سببا يجبرها على ان تفعل ، قالت : « لاننى اريد ذلك »
وسال العجوز مرة اخرى : لماذا ؟

« عينا سكارليت الخضراوان المصممتان واجهتا عينيه المستريبتين الزرقاوين الذابلتين . قالت : « عندى اسبابى . هل تمنع » ؟
— وماذا لو كان عندى مانع ؟

هذا فوق الاحتمال ، انها لا تستطيع العودة الى شارلستون ، ولن تفعل . فذلك يغنى الاستسلام . لابد ان تبقى فى سافانا .
— إذا لم تكن تريد بقاى هنا ، فساذهب الى ابناء عمومتى ، لقد دعتنى عائلة اوهارا بالفعل ..

واهتز فم بيير روبيلار بحركة سريعة ، وابتسامة مسوخة : « انت لا يهمك ان تنامى فى الردهة مع الخنزير ، اظن ذلك ، واحمرخدا سكارليت خجلا . كان تعرف دائما ان جدھا اعترض على زواج امھا . ولم يقبل ابدا جيرالد اوهارا فى منزله . وارادت ان تدافع عن والدها وابناء عمومتھا فى مواجهة تحيزه ضد الايرلنديين ، غير ان جدھا اردف قائلا : « لا يهم . ابقى إذا اردت ، انه امر لا اكترث له على الاطلاق »

واغلق عينيه وامتنعت سكارليت بصعوبة عن ان تصفق الباب ، وهى تغادر الغرفة . يا له من عجوز بشع ! ومع ذلك فقد حصلت على ما تريد ، وابتسمت لخالتيها ، وقالت : « كل شيء على ما يرام »
ودّعت الخاليتين فى محطة القطار . وعند عودتها الى منزل جدھا تسلمت برقية جديدة من العم هنرى :

« لن تكون لى علاقة من اى نوع باستثمار او خلافه للمال الذى تم تحويله اليك بواسطة زوجك . انه فى حسابك فى مصرفك . لقد أعريت عن اشمزأوى . من الظروف التى احاطت بهذه الصفقة ، لا تنتظرى اى مساعدة منى »

غاصت سكارليت فى مقعدها عندما قرأت البرقية . الأحقق العجوز ! نصف مليون دولار ، ربما كان المبلغ اكبر من اى اموال تسلمھا البنك منذ ما قبل الحرب . ما الذى يمنع مسئولى البنك من وضعه فى جيوبهم واغلاق البنك ؟ فالبنوك ما زالت تغلق ابوابها فى انحاء البلاد . انها يجب ان تذهب الى اتلانطا فى الحال وتحول النقود الى ذهب ، وتضيفها الى خزائنها ، ولكن ذلك يستغرق اياما ، وحتى إذا كان هناك قطار اليوم فإنھا لن تصل

الى البنك قبل يومين ، وهذا وقت كاف لكى تختفى نقودها .. نصف مليون دولار .. مبلغ اكبر مما ستحصله لو باعت كل شىء تملكه مرتين . مبلغ اكبر من عائد متجرها وملهاها ومنازلها الجديدة فى ثلاثين سنة . ويجب أن تحمى هذا المبلغ . ولكن كيف ؟

أسرعت الى محل أوهارا لكى تقابل ابن عمها جامى ، وطلبت منه أن يقدم لها النصيح بشأن أفضل بنك تتعامل معه بعد أن قررت البقاء لفترة أطول فى سافانا وتريد تحويل بضعة دولارات من مصرفها فى مدينتها . واقتراح جامى أن يصحبها الى رئيس بنك تعامل معه عمها جيمس على مدى خمسين سنة وأكثر ، ولكنه نصحها بأن تقول لرئيس البنك انها حفيدة روبيلار لأن ذلك سيفيدها أكثر مما لو قالت انها ابنة عم أوهارا ، ودعاها جامى لقضاء الامسية فى منزل عمها ، ورحبت سكارليت بالفكرة ، فهى لا تجد احدا تتحدث معه فى منزل جدها ، وإذا حضر ريت قبل المساء فإنها يمكن أن ترسل بانسى حاملة اعتذارها الى منزل العم ..

كان جدها واقفا عندما أبلغته بانها ستخرج فى المساء :

— هذا ليس فندقا حيث تستطيعين الخروج والدخول كما تشائين يا سيدة . سوف تلتزمين بنظام بيتى ، وهذا يعنى أن تكونى فى فراشك فى الساعة التاسعة .

— طبعاً يا جدى ..

فقد كانت مؤكدة من انها ستعود قبل ذلك بوقت طويل ، وعلاوة على ذلك فإنها تنظر الى جدها باحترام متزايد منذ زيارتها لرئيس البنك ، فلا بد أن جدها أغنى بكثير جداً مما تصورت ، وعندما قدمها جامى لرئيس البنك ، باعتبارها حفيدة بيبى روبيلار ، كاد الرجل أن يمزق بنظونه وهو ينحنى بالتحية .. وابتسمت سكارليت وهى تتذكر هذا المشهد ، وعندما تركها جامى .. وقالت لرئيس البنك انها تريد أن تستأجر خزانة ، وتحول نصف مليون دولار .. كاد الرجل يسقط مغشياً عليه عند قدميها .

لا أبالى بما يقوله أى شخص ، فإن امتلاك مال وفير هو أحسن شىء فى الحياة . وقالت لجامى عندما وصلت الى منزل العم بعد أن رافقها الى هناك من عند باب منزل جدها : « لن أستطيع أن أبقي لوقت متأخر ، هل يضيرك أن تعيدنى فى الثامنة والنصف ؟ »

— « سيكون لى شرف مصاحبتك الى أى مكان وفى أى وقت » ولم تكن سكارليت تتصور انها لن تعود قبل الفجر .

مطلب الجندى القديم

كان افراد عائلة أوهارا يتشاركون فى الحب والسعادة داخل الأسرة بحرية وبلا تدبير أو تخطيط .. تماما كما يتشاركون فى الهواء الذى يتنفسونه ، وشعرت سكارليت فى داخلها بنمو شىء فقدته منذ وقت طويل ، وكان يصعب تذكره . أصبحت مثلهم - تلقائية - وغير متكلفة ومنفتحة على الابتهاج الخالى من الهموم ، الآن يمكنها أن تتحرر من أساليب المكر والحسابات الحذرة ، وهى الأساليب التى تعلمت استخدامها فى معارك الغزو والسيطرة التى كانت جزءا من حياة نجمة المجتمع الجنوبى ، لم تكن فى حاجة الى الفطنة والجمال أو الاقتحام ، فهى موضع ترحيب كما هى باعتبارها فردا من العائلة ، ولأول مرة فى حياتها تشعر بانها راغبة فى أن تتخلل عن المركز الذى تسلط عليه الأضواء لتدع شخصا آخر يكون هو محور الاهتمام .. الآخرون كانوا ساحرين بالنسبة لها ، لأنهم كانوا - فى المحل الأول - أسرتها التى عثرت عليها أخيرا ، ولأنها أيضا لم تعرف أمثالهم فى حياتها .

ها هى سكارليت تتطلع الى مورين زوجة جامى .. بينما برايان ودانيل يعزفان الموسيقى وراءها ، وهيلين ومارى كيت تصفقان مع الايقاع انها لحظات من السعادة وسط الموسيقى والغناء والرقص والتصفيق ، وثمة طفلة فى السابعة من عمرها تعطى لسكارليت الدروس الأولى فى رقصة الريل - رقصة اسكتلندية - .

اوقات المرح قليلة فى حياة سكارليت ، وقد أرادت أن تدوم الى الأبد .. هذا المرح النظيف غير المفتعل . ونظرت الى أبناء عمومتها وشعرت بالزهو . انهم مفعمون بالقوة والنشاط والموهبة فى الموسيقى وفى الحياة .. كلمات والدها الراحل تتردد فى أسماعها الآن :

« نحن نوع ممتاز .. نحن عائلة أوهارا . لا شىء يمكن أن يمسنّا » قالت وهى تسير عائدة الى المنزل : « جامى ، كانت ليلة مذهشة »



ايقظتها بانسى من النوم فى السابعة صباحا :

— « جذك يريدك الآن فورا » الجندى القديم .. يرتدى ملايسه الرسمية .. فرغ لتوه من حلاقة ذقنه . ونظر بضيق الى شعر سكارليت الذى سوته على عجل وثوبها ، وأعلن من موقعه الامبراطورى فى المقعد الضخم ذى المسندين على رأس مائدة غرفة الطعام .. قلّلا : « أن طعام افطارى غير مرض » وذهلت سكارليت ، ما علاقتها بطعام افطاره ؟ هل

يظن انها هي التي تولت طهيهِ ؟ ربما فقد عقله كما حدث لأبى . لا ليس مثل أبى . فقد تحمل أبى أكثر مما يطيق .. فانسحب الى زمن وعالم لم تحدث فيه تلك الأشياء المروعة وأصبح مثل طفل مشوش . ولكن الامر يختلف مع جدى .. انه يعرف تماما اين هو ومن هو .. وما يفعله .. ماذا يقصد بإيقاضى من نوم لم يدم سوى ساعتين ليشتكى من افطاره ؟ وحرصت على أن يكون صوتها هادئا عندما تكلمت : « ما هو السيئ في افطارك يا جدى ؟ »

— انه بلا طعم وبارد .

— لماذا لا تعيده الى المطبخ إذن ؟ قل لهم أن يحضروا ما تريده وتأكد

من انه ساخن »

— انت تفعلين ذلك ، انه عمل النساء .

ووضعت سكارليت ذراعيها في وسطها ، ونظرت الى عيني جدها بعينين فولاذيتين مثل عينيهِ : « هل تعنى انك ايقظتنى من النوم لكى ابعث برسالة لك الى طبابخ ؟ ماذا تظننى ؟ خادمة ؟ اطلب افطارك أو تعذب من الجوع . يستوى الامر بالنسبة لى ، ساعود الى الفراش ا » واستدارت سكارليت وهى تنفض .

— هذا الفراش من ممتلكاتى ايتها السيدة الشابة وانت تشغليهِه بفضل نعمتى ومعروفى .. واتوقع منك اطاعة أوامرى ما دمت توجدين تحت سقف بيتى .

انها في ذروة الغضب الآن . وضاع كل امل في النوم . ولكرت في أن تحزم حقائبها في نفس اللحظة ، فهى لا تتحمل أكثر من ذلك ، ولكن رائحة القهوة الطازجة جعلتها تتوقف عن الكلام ، سوف تشرب القهوة أولا ثم تبلغ العجوز بانها راحلة .. والأفضل أن تفكر لمدة دقيقة . انها ليست مستعدة لمغادرة سافانا بعد . لابد أن ريت عرف الآن انها هنا ، ثم انها يجب أن تتلقى رسالة بشأن « تارا » من رئيسة الدير في أى لحظة . واتجهت نحو الجرس على مقربة من الباب ثم جلست على مقعد على يمين جدها . وعندما جاء جيروم تلبية لطلبها ، حدثت في وجهه وقالت :

— أريد فنجانا من القهوة ثم خذ هذا الطبق بعيدا ، ما هذا يا جدى ؟ عصيدة دقيق الذرة ؟ بصرف النظر عن هذا الشيء يا جيروم .. ابلغ الطاهية بان تاكله هى نفسها وبعد ذلك عليها أن تعد بيضا مقليا يمتزج صفاره ببياضه وفخذ خنزير ولحم خنزير مقددا وبرغلا وبسكويتا وكمية كبيرة من الزبد . وانا ساخذ كمية من اللبن الدسم لقهوتى الآن فورا .

وتطلع جيروم الى العجوز المرفوع الهامة بصمت ليحثه على أن يضع سكارليت في مكانها ، ولكن بيير روبيلار وجه نظره الى الامام مباشرة ، فلم تلتق عيناه بنظرات رئيس الخدم .

وبسرعة وبحدة ، قالت لجيروم « لا تقف هنا مثل النمثال . افعل كما قيل لك » كانت جائعة ، وكذلك جدها . ورغم ان الوجبة كانت صامتة ، كما كانت مادية عيد ميلاده ، فإنه اكل هذه المرة كل ما أحضروه له ، وراقبته سكارليت من زاوية عينها والشك يعتدل في صدرها ، ماذا يريد هذا الثعلب العجوز ؟ لم تصدق انها مجرد تمثيلية بريئة ، وقد دلتها التجربة على ان الحصول من الخدم على ما تريد هو أسهل شيء في العالم . كل ما عليها ان تفعله هو ان تصيح في وجوههم . والله يعلم ان الجد بارع في ترويع الناس ، والدليل على ذلك : الخالتان بولين وأولاي ..

وأنا مثلا ، لقد نهضت من فراشي فورا عندما أرسل في طلبى ، ولكننى لن افعل ذلك مرة أخرى . وألقى العجوز منديل المائدة الى جانب طبقه الفارغ ، وقال لسكارليت :

— اتوقع منك ان ترندى الثياب الملائمة لوجبات الطعام في المستقبل ، سوف نغادر المنزل بعد ساعة وسبع دقائق للذهاب الى الكنيسة ، وهذا سيوفر لك الوقت الكافي للاستعداد .

لم تكن سكارليت تنوى الذهاب الى الكنيسة على الاطلاق بعد ان رحلت خالتها ، كما انها حصلت على ما تريد من رئيسة الدير . ثم ان تسلط الجد يجب ان يوضع له حد ، انه مناهض للكاتوليكية بعنف كما قالت لها الخالتان . قالت والعدوبة تقطر من كلماتها : « لم أكن أعرف يا جدى انك تذهب الى القداس »

والتقى حاجبا بيير روبيلار البيضاءيان الكثيفان في تكشيرة بارزة : — أنت لا تشاركين في هذه البلاهة البابوية مثل خالتك كما أمل .

— اننى كاثوليكية جيدة إذا كان هذا ما تقصده ، وسأذهب الى القداس مع ابناء عمى .. عائلة أوهارا الذين ، بالمناسبة ، دعونى للذهاب والبقاء معهم في أى وقت أريد .. والمدة التى اختارها .

ونهضت من مقعدها واتجهت مزهوة الى غرفتها . ولم تتوصل الى استنتاج حول ما يريده الرجل الذى رافق نابليون من معركة أوسترلتز حتى معركة واترلو .

من عامة الناس

بينما كان بيير روبيلار ينتظر في فراشه صينية الطعام التي يحملها اليه جيروم .. اتجه تفكيره الى سكارليت . لا يوجد لديه فضول بشأن حياتها أو طبيعتها ولم يفكر فيها لسنوات عديدة ، وعندما ظهرت في غرفته مع ابنتيه ، لم يشعر بسرور كما لم يشعر بضيق لرؤيتها . وبدأت تثير اهتمامه فقط عندما شكى اليه جيروم من الاضطراب الذي تحدثه في المطبخ بمطالبتها ، وانها قد تكون سببا في وفاة مسيو روبيلار إذا ظلت على اصرارها على اضافة الزبد وصلصة حساء اللحم والحلوى الى وجباته . لقد تمت الاستجابة لصلوات العجوز . لا شيء في حياته سوى المزيد من الشهور والسنوات من الروتين الذي لا يتغير . النوم ووجبات الطعام والرحلة الأسبوعية إلى الكنيسة . ولم يزعجه ان حياته راكدة بلا ملامح وبلا قسما . شبيهة زوجته المحبوبة امام عينيه وهناك اليقين بأنه في الوقت المناسب سيلتقى معها بعد الموت . لقد أمضى الأيام والليالي يحلم بها وهو نائم ويستعيد ذكرياته معها وهو يقظ . وكان هذا يكفي . وقد افتقد الطعام الشهى . وفي السنوات الأخيرة أصبح هذا الطعام بلا مذاق وباردا وبلا أى تغيير ، والآن يريد أن تغير سكارليت هذا الوضع . وشكوكها في دوافع العجوز لم يكن لها مبرر . فقد تعرف بيير روبيلار على روح التحفز والمواجهة والتسلط لديها فور رؤيتها .. وأراد توظيف هذه الروح بالنيابة عنه ، الآن حيث لم تعد لديه القوة لكى يحصل على ما يريد لنفسه . فقد كان الخدم يعرفون انه عجوز ومرهق بالدرجة التي تحول دون السيطرة عليهم .. أما سكارليت فإنها شابة وقوية .. انه لا يطلب صداقتها أو حبها ، وانما يريد منها أن تدير منزله بالطريقة التي كان يديره بها ، هو نفسه ، يوما .. طبقا لمعاييره .

كان يبحث عن طريقة لتنفيذ ذلك ، ومن هنا فكر في سكارليت . قال روبيلار لـ جيروم عندما حضر الى غرفته : « قل لحفيدتى أن تأتي هنا » وقال رئيس الخدم للعجوز وهو يبتسم : « أنها لم تعد الى البيت بعد » وجيروم يتوقع الآن أن يثور غضب العجوز .. الأمر الذي اشاع السرور في قلبه ، فهو يكره سكارليت .

كانت سكارليت قد ذهبت الى سوق المدينة مع اقاربها من عائلة أوهارا واشترت برتقالا ، وكانت تتمنى لو كانت بانسى مرافقة لها .. حتى تشتري من أنواع الفاكهة الأخرى اللذيذة .. ولم تكد تصل الى باب منزل جدها حتى سمعت صوتا

— « سأحمل هذه السلة بدلا منك يا مس سكارليت » كان هذا هو جيروم .

— حسنا ، ها هي ، جيروم لقد أفرغتني ، ولم أسمع الباب يفتح .
— كنت انتطلع الى الخارج في انتظارك لأن مستر روبيلار يريدك .
جيروم ينتظر الصدام المرتقب بلهفة وشوق لم يستطع اخفاءهما .
وتصلب وجه سكارليت ، لابد من ايجاد وسيلة للتصرف مع هذا الرجل الوقح .. جيروم ، واتجهت الى غرفة جدّها ، وثمة شكوى غاضبة على شفيتها ، ولكن بيير روبيلار لم يدع لها فرصة للكلام ، فقد بادرها قائلا بجفاء :

— انت غير منظمة ، وانت افسدت جدول مواعيد منزلي ، بينما كنت تتلهين مع أولئك الفلاحين الايرلنديين .. مضت ساعة الغداء .
وبسهولة التقتلت سكارليت « الطعم » الذي القاه إليها .
— ساشرك لو تحدثت بلغة متحضرة عندما تشير الى أبناء عمي .
واخفت جفون العجوز ومضة في عينيه . وقال بهدوء : « ماذا تسمين رجلا يشتغل بالتجارة ؟ »

— إذا كنت تتحدث عن جامي اوهارا ، فإنني أسميه رجل اعمال ناجحا مجدا ، وأنا احترمه بسبب ما حققه وانجزه .
ووضع الجد خطاف صنارة الصيد : « لا شك انك معجبة بزوجته المبهرجة ذات الملابس صارخة الألوان أيضا »
— حقا انا معجبة بها ، فهي امرأة طيبة وكريمة .
— انا اعتقد ان هذا هو الانطباع الذي تحاول ان تتركه .. هل انت على علم ام لا بانها كانت تخدم في حانة ايرلندية ؟

وتسارعت انفاس سكارليت مثل سمكة القى بها على الأرض ، لا يمكن ان يكون ذلك صحيحا ! صور غير مستحبة توالى على عقلها : مورين وهي ترفع كأسها لتطلب المزيد من الويسكي .. والعزف على آلات موسيقية مستحدثة والغناء بشهوة وترديد الأغنيات ذات الكلمات الفاسقة .. تسريحة شعرها الأشعث ، وازاحته بعيدا عن وجهها الأحمر دون محاولة تثبيته بدبوس الى الوراء .. رفع ثوبها الى أعلى حتى ركبتيها وهي ترقص « الريل » ..

مبتذلة .. مورين مبتذلة .. جميعهم من السوق غير المهذبين .. من عامة الناس . شعرت سكارليت بانها توشك على البكاء . لقد كانت سعيدة للغاية مع عائلة اوهارا ، ولم ترد ان تفقدها ، ولكن .. هنا في المنزل حيث نشأت والدتها .. الفجوة بين روبيلار واوهارا اوسع بكثير لدرجة لا يمكن

التغاضى عنها ، لا غرابة في أن يكون الجد قد شعر بالخجل منى ، لو كانت أمى على قيد الحياة لتحطم قلبها وهى ترانى أمشى فى الشارع مع مجموعة مثل تلك التى وصلت معها الى باب المنزل للتو . امرأة تسير فى الطريق العام دون أن تضع وشاحا فوق بطنها وهى حامل ، ومليون طفل يتقافزون حولهم مثل الهنود المتوحشين ، ولا توجد حتى خادمة تحمل بضاعة السوق ، لابد أن منظرى كان أشبه بمنظر الرعاع والنفايات مثل بهيتهم ، وقد بذلت أمى كل جهودها لكى تعلمنى أن أكون سيدة ، وستسعد لأنها ماتت قبل أن تعرف أن لابنتها صديقة كانت تعمل فى حانة .

ونظرت سكارليت فى قلق إلى العجوز ، هل يعرف شيئا عن المبنى الذى تملكه فى أتلانتا والذى تم تاجيره الى صاحب ملهى ؟ كانت عينا بيبى روبيلار مطبقتين ، وبدأ انه انزلق الى النوم المفاجيء الملازم للشيخوخة . وسارت سكارليت على اطراف اصابعها ، وعندما أغلقت الباب وراءها ، ابتسم الجندى العجوز ، ثم غرق فى النوم ..



انتظرت فى المساء فى غرفة الجلوس ظهور ريت .. ولم يظهر ، فصبت كل غضبها على الخدم ، وخاصة جثروم ، وفى صباح اليوم التالى حمل اليها جيروم رسالتين من البريد .

العم هنرى هاميلتون غاضب لأنها قامت بتحويل النقود الى بنك سافانا ، أما الخطاب « السميك » فقد كان من الخالة بولين :

« .. اشعر بخزى شديد من سلوكك المشين ، ولو عرفنا انك ذاهبة معنا الى سافانا دون أن تتركى كلمة واحدة عن سفرك لاليانور باتلر لكننا قد صممنا على أن تتركى القطار وتعودى من حيث جئت .. »

ما هذا الذى تقوله الخالة بولين ؟ هل من المعقول أن تكون مس اليانور قد أغفلت ذكر الرسالة التى تركتها لها ؟ أو انها لم تتسلمها ؟ كلا ، ليس هذا ممكنا .. الخالة بولين تثير المتاعب فحسب .

الا توجد فى خطاب الخالة أية اشارة الى ريت .. ها هى الاشارة قد جاءت أخيرا :

« .. العريزة اليانور محقة فى قلقها لأن ريت شعر بضرورة السفر الى بوسطن من أجل لقاء بشأن شحائته من الاسمدة . ما كان ينبغي أن يذهب الى مناخ الشمال البارد فور المحنة التى تعرض لها حيث بقى لفترة طويلة فى الماء البارد عقب انقلاب زورقه .. »

إذن ، هذا هو السبب فى أن ريت لم يحضر للبحث عنها حتى الآن ، لماذا

لم يبلغنى العم هنرى بأن برقية ريت وصلت من بوسطن حتى لا يقتلنى الجنون وأنا انتظر رؤيته على باب المنزل فى اى دقيقة ؟ ولم يذكر الخطاب شيئاً عن موعد عودته من بوسطن .

والآن ماذا افعل ؟ قد يمكث ريت هناك لأسابيع وقد يكون فى طريق العودة الآن .

وخرجت سكارليت الى السوق للبحث عن طعام مناسب لجدها وهناك التقت مع كاثلين أوهارا التى قالت لها : « لابد أن الملائكة قد أرسلتك لى يا سكارليت . لست خبيرة بأنواع السمك الأمريكية ، هل تساعدنى على اختيار احسنها » وتمت عمليات الشراء ، وقالت كاثلين : « كنت ساضيع بدونك بكل تأكيد يا سكارليت ، فقد اوصتنى مورين بأن اشترى الاحسن ، لأننا ننتظر كولام »

كولام ، هل المفترض اننى اعرفه ؟ اعتقد ان مورين او شخصاً ما ذكر هذا الاسم ذات مرة أيضاً .

— لماذا كولام بهذه الأهمية ؟

واتسعت عينا كاثلين الزرقاوان فى دهشة من مجرد سماع السؤال .

— لماذا ؟ حسناً ، لأن كولام هو كولام ، هذا كل شيء .. لقد أتى بى الى هنا ، الا تعرفين ؟ انه اخى مثل ستيفن .

لم تكن تعرف ان ستيفن هو شقيق كاثلين .

وسالت سكارليت : « اى واحد من أشقاء العم جيمس هو والدك ؟ »

— أبى متوفى

— ماذا كان اسمه يا كاثلين ؟

— باتريك .. باتريك أوهارا .. وقد سميت باتريشيا ، وهى اول من

انجب جامى سميث على اسمه ، وباتريك هو اسم والد جامى نفسه .

إذن فإن جامى هو شقيق كاثلين أيضاً . واتضح ان لكاثلين أربعة عشر شقيقاً وشقيقة .. جميعهم أحياء ..

استطيع ان اسمع جدى الآن يتحدث عن الكاثوليك الذين ينجبون

كالارانج .

وعندما عادت سكارليت الى المنزل ، وجدت مذكرة من رئيسة دير

شارلستون تقول فيها ان الأسقف سيبحث طلب سكارليت الخاص بالسماح

لها بشراء نصيب كارين فى مزرعة تارا .

تارا .. ساحصل عليها ! وبدأت تخطط فى خيالها الولادة الجديدة لتارا

وتحلم بوقت تقضى فيه الفترة من اكتوبر الى يونيو فى شارلستون مع

ريت .. والصيف فى تارا .. أه لو أسرع الأسقف باتخاذ القرار !

صراع .. واستغاثة

تلقت سكارليت دعوة للاحتفال لتخصيص قاعة هودجسون لتكون « المقر الجديد للجمعية التاريخية لجورجيا » وصحبها بيير روبيلا في هذا الحفل . كانت شخصيته مهيبه في زيه ذى الطراز القديم ، وقد ارتدت ثوبا من أجمل ثيابها .. وسمعت أصوات الاعجاب من الجمهور وهى تدخل الحفل .. ووقف طابور من الضباط المسنين أعضاء الجمعية التاريخية للترحيب بالضيوف المسنين واحدا .. واحدا ، وقالت سكارليت لنفسها : « لا أستطيع الا أستطيع ان اصافح كل هذه الأيدي الميتة الباردة وابتسم وأقول : أنا سعيدة لكونى هنا » يجب ان أهرب . ومالت على كتف جدها المتصلب لتقول : لست فى حالة طيبة يا جدى ، أشعر بانى مريضة فجأة ».

قال : ليس مسموحا لك بأن تشعري بأنك مريضة ، قفى منتصبه ، وافعل ما هو مننظر منك ، وتستطيعين المغادرة بعد الحفل ، وليس قبل ذلك .

وخطت سكارليت الى الامام . يا له من وحش .. جدها هذا .. لا معنى للاستغراب إذن ، لأنها لم تسمع والدتها تتحدث عنه كثيرا ، فلا شئ طيب يمكن أن يقال عنه .

— مساء الخير يا مسٹر هودجسون ، اننى سعيدة لكونى هنا . كان تقدم بيير روبيلا على طول طابور الاستقبال الطويل أكثر بطئا من سكارليت ، فهو لم يزل ينحنى بطريقة متكبرة حتى منتصف الطريق فوق يد سيدة .. عندما أنهت سكارليت مهمتها ، واندفعت الى الخارج ، واستقلت عربة روبيلا وتوجهت الى عائلة أوهارا .

وسمعت اصوات الموسيقى والضحك قبل ان تدخل من باب المطبخ . وقدمتها العائلة لشخصية جديدة هذه المرة : « كولام » .. « أحسن فرد فى عائلة أوهارا .. ما عدا سكارليت »

كانت كلمات وتصرفات كولام توحى بأن لقاءه مع سكارليت من أسعد أحداث حياته ، وقال ان عائلة أوهارا هى أحسن العائلات حظا على وجه الأرض لأن مخلوقا مثل سكارليت بين أفرادها .. وغادرت المكان حتى تعود الى المنزل قبل عودة جدها .

ثم صراع الآن بين غرائز سكارليت وبين الطريقة التى تربت عليها ، لقد زرعت أمها الين روبيلا فيها قواعد وعقائد الأرستقراطية ، أما عائلة أوهارا فقد اجتذبتها مثل حجر المغناطيس ، حيوتهم الدنيوية وسعادتهم

المفعمة بالحيوية تخاطب أعمق وأحسن جزء في طبيعتها ، بيد أن كل شيء تعلمته من والدتها التي تقدسها يحول بينها وبين التمتع بهذه الحرية ، انها ممزقة بهذه المعضلة .. انها تهيم على وجهها في ضجر وهى تجوس الغرف الصامتة بمنزل جدها دون أن تتوقف وتتأمل جمالها الكالح ، وتسترجع الموسيقى والرقص في منزل عائلة أوهارا متمنية من كل قلبها أن تكون معهم ، ثم تفكر كما تعلمت وتربت في أن مثل هذا « المهرجان » والقصف المسترسل في مرح صاخب هو شيء مبتذل وأسلوب الطبقة الأدنى ..

وسكارليت لا تعلق أهمية حقيقية الآن على موقف جدها المتعالى تجاه أبناء عمومتها ، فهو عجوز إناني متغطرس يتعالى على أى شخص بمن في ذلك ابنتاه ، غير أن ما انغرس في ذهنها من تعاليم والدتها الرقيقة ترك أثره في حياتها ، لماذا ، إذن ، يصعب عليها أن تكف عن أن تحسد أقاربها الأيرلنديين ؟ وقررت سكارليت أن تكف عن التفكير في هذه الأمور ، وأن تحصر اهتمامها في موضوع تارا .

وجاءت مذكرة من سكرتير الأسقف جعلت موضوع تارا ينفجر في وجهها ، قالت المذكرة انه لن يستجيب لطلبها ، وشل تفكيرها في الحال . وتوجهت وحدها بلا قبعة ودون أن تلتفت الى شيء صوب منزل جامى أوهارا ، سوف يفهمون شعورها ويقدرونه .

كان والدها يؤكد ذلك مرة بعد أخرى « بالنسبة لآى أحد توجد لديه قطرة من الدماء الأيرلندية .. فإن الأرض التي يعيشون عليها مثل أهم .. انها الشيء الوحيد الذى يدوم ، انها التي تستحق العمل من أجلها ، والقتال من أجلها »

ووجدت امامها جيرالد أوهارا وكولام أوهارا .. ولأول مرة تلاحظ الياقة الرومانية حول رقبة كولام ، انه قسيس ! شكرا لله فانت تستطيع أن تبوح للقسيس بكل شيء بما في ذلك أعمق أسرار قلبك . صاحت وكأنها تستغيث : « ساعدنى يا أبى ، احتاج الى شخص يساعدنى »

خطة عائلية

في غرفة طعام منزل جامي أوهارا ، جلس جميع الكبار من منازل أوهارا الثلاثة المتجاورة حول المائدة لمناقشة موضوع تارا ، هل يمكن أن يساعدها هؤلاء الناس ؟ انهم مجرد مهاجرين ايرلنديين .
ولكنها ادركت في الحال انها مخطئة ، فمع استمرار النقاش ، ازداد الامل لدى سكارليت .. فهناك الكثير الذي يستطيع هؤلاء المهاجرون الايرلنديون ان يصنعوه .

بيل كارمودي زوج باتريشيا رئيس كل عمال البناء في الكاتدرائية وهو يعرف الاسقف معرفة جيدة ، وهذا الاسقف يقطع العمل مع الاسف ثلاث مرات يوميا لكي يقول لبيلي كارمودي .. ان هذا العمل لا يمضى بالسرعة الكافية ويحث على الاستعجال لان الاسقف يتوقع ان يقوم كاردينال من روما ذاتها بجولة في امريكا في الخريف ، وقد يزور سلانا لافتتاح هذه الكاتدرائية ، فإذا تم التجاوب مع رغبة الاسقف في تنفيذ جدول المواعيد ... خاصة وان الاسقف جروس (وهذا هو اسمه) رجل طموح .
والثلاث نظرات بيل كارمودي وجيرالد وماتيو وبرايان ودانيل وجميس العجوز والسيدات مورين وباتريشيا وكاتي . ولم تدرك سكارليت مغزى هذه النظرات . وهنا وضع جيرالد يد عروسة الشابة في يده ، وقال : « لا تكوني خجولة يا بولي ، انك من عائلة أوهارا الآن ، مثلنا جميعا ، اخبرينا من الذي يقع اختيارك عليه من بيننا لكي يتحدث مع والدك ، وغمغمت مورين قائلة لسكارليت : « ان توم ماكماهون هو مغاوير العملية كلها ، واي تلميخ من توم بان العمل يمكن ان يبسط سوف يدفع الاسقف جروس الى ان يعد باى شيء . ولا شك في ان الاسقف يرتعد خوفا من ماكماهون »

واقترحت سكارليت ان يتولى كولام مهمة التحدث الى توم ماكماهون ، كانت واثقة من ان كولام هو خير من يقوم باى شيء يحتاج الى جهد ، فرغم صغر حجمه وابتمامته الاسرة ، فإنه قوى ومؤثر .
ووافق الجميع .. وابتمس كولام للجميع ، ثم اختص سكارليت بابتسامة وقال : « سوف نساعدك إذن . اليس شيئا عظيما ان تكون للمرأة عائلة يا سكارليت أوهارا ؟ خاصة اسرة لها اصهار وتربطها علاقات نسب باشخاص يستطيعون تقديم المساعدة ايضا ، سوف تحصلين على تارا .. انتظري وسوف تريين »



سألتها بيير روبيلار : « أين كنت ؟ لقد كان عشائي غير مرض »
 — كنت في منزل ابن عمي جامي ، سوف أطلب لك صينية أخرى .
 — هل كنت تقابلين هؤلاء الناس ؟
 كان العجوز يرتعد من الغضب . ولم تنمالك سكارليت نفسها أيضا :
 « نعم ، كنت أقابلهم ، وأنوى أن أراهم ثانية ، انني احبهم كثيرا »
 وخرجت من الغرفة ، ولكنها اشرفت على اعداد وجبة العشاء الطازج
 لجدها قبل ان تذهب للنوم .
 طوال حياتها ، كانت تواجه الأزمات وحدها . وفي بعض الأحيان كانت
 ترفض الاعتراف بحاجتها للمساعدة ، والأغلب انه لم يكن هناك من تلجأ
 اليه طلبا للمساعدة . الأمر يختلف الآن . هناك أشخاص يساعدونها ، وقد
 رفعت أسرتها طواعية العبء من على كتفها ، لم تعد وحيدة .



نام بيير روبيلار فترة قليلة تلك الليلة ، فقد أزعجه تحدى سكارليت له ،
 كما تعدته والدتها قبل سنوات عديدة سابقة ، وقد فقدوا الى الأبد ..
 وانكسر قلبه عندئذ ، فقد كانت ايلين هي طفلته المفضلة ، وهو لم يحب
 سكارليت ، كل ما يملكه من حب يرقد في القبر مع زوجته الراحلة . ولكنه
 لن يدع سكارليت تذهب بدون قتال . انه يريد أن تكون ابامه الأخيرة
 مريحة .. ووضع استراتيجيه كما لو كان جنرالاً يواجه عددا أكبر من
 الأعداء . وعندما استيقظ كان قد اتخذ قراره .



فتحت سكارليت الباب : « هل أرسلت في طلبى يا جدى »
 — تعالى يا سكارليت ..
 ودهشت عندما وجدت شخصا غريبا في الغرفة ، ذلك ان جدها لم يكن
 يستقبل ضيوفا على الإطلاق .
 — هذا هو محامى مستر جونز . دق الجرس لكى يأتى جيروم
 يا سكارليت ، سوف يصحبك الى غرفة الجلوس يا جونز لتتفضل هناك الى
 ان أرسل في طلبك .
 ولم تكد سكارليت تلمس الجرس حتى فتح جيروم الباب .
 قال روبيلار : « اجذبى هذا المقعد ليكون اقرب الى فراشى . عندى الكثير
 لاقوله لك ولا أريد أرهاق صوتى »
 وعندما جلست ، قال في هدوء : سكارليت ، اننى تقريبا في الرابعة
 والتسعين . وفي صحة جيدة بالنسبة لسنى ، ولكن ليس من المرجح - ولها

لعلم الحساب - أن أعيش طويلا . اننى أطلب منك يا حفيدتى أن تبقى
معى فى المدة التى تبقت لى من عمرى »
شرعت سكارليت فى الكلام ، ولكن العجوز رفع يده المعروفة لمنعها ،
وقال : اننى لم أنه حديثى ، اننى لا أخاطب احساسك بالواجب العائلى
رغم اننى أعرف انك تصرفت بروح المسؤولية تجاه احتياجات خالتك
لسنوات عديدة ، اننى مستعد لتقديم عرض منصف بالنسبة لك ، بل
سعى ، إذا بقيت فى هذا المنزل كسيدة له وأشرفت على مراعاة راحتى
وتلبية رغباتى ، فسوف ترثين كل ممتلكاتى عندما أموت ، وهى ليست
قليلة .

وهذه سكارليت ، انه يعرض عليها ثروة . وتذكرت تذلل وخنوع مدير
البنك .

وأساء بيير روبيلار تفسير تردد سكارليت بينما كانت تفكر . ظن ان
شعورها بالامتنان قد سيطر عليها . ومعلوماته عنها لم تكن تشمل تقريرا
من نفس رئيس البنك حول الذهب الذى تمتلكه حفيدته فى اقبية البنك .
ولمع الرضا فى عينيه الذابلتين . وقال : « لا أعرف ولا أريد أن أعرف
الظروف التى أدت الى بحث فسخ زواجك »
صوته أقوى الآن حتى انه ظن انه فى موقع المنتصر « ولكنك سوف
تتخلين عن أى فكرة تتعلق بطلاقك »

— كنت تقرأ رسائل البريدية !!

— أى شئ يحدث تحت هذا السقف يصبح من شئونى
واصل جدها الحديث برقة وبرود . وكانت كلماته مثل الابر الثلجية :
— اننى أزدري الطيش والغباء ، وأنت كنت متهورة بغباء بترك
لزوجك دون تفكير فى وضعك ، ولو كان لديك من الذكاء ما يجعلك
تتشاورين مع محام كما فعلت ، لكنت قد عرفت ان قانون كارولينا
الجنوبية لا يسمح بالطلاق لأى سبب . انه قانون فريد فى الولايات
المتحدة فيما يتعلق بهذا الخصوص . لقد هربت الى جورجيا ، هذا
صحيح ، ولكن مقر الإقامة القانونية لزوجك فى كارولينا الجنوبية . ولذلك
لا يمكن أن يحدث طلاق .

كانت سكارليت لا تزال تفكر فى الإهانة التى تعرضت لها من جراء اطلاع
غرباء على رسائلها الخاصة ، لابد انه ذلك الحقيق المتسلل جيروم . لقد
وضع يديه على أشيائى ، وفتش مكتبى . والرجل الذى ينتمى الى

دمى ولحمى .. جدى .. هو الذى عهد اليه بهذه المهمة . ووقفت ، ومالت الى الامام وضغطت قبضتها على السرير قرب يد بيير روبيلار ، وصرخت فى وجهه وهى تضرب على أغطية الفراش السمكية .

— كيف تجسر على أن ترسل ذلك الرجل الى غرفتى ؟
اندفعت يد جدها الى أعلى بسرعة كما لو كان ثعبانا يتهيا للانقضاض ، وامسك بمعصميهما فى القبضة العظمية لأصابعه الطويلة :

— لن ترفعى صوتك فى هذا البيت أيتها المرأة الشابة ، اننى أكره الضوضاء . وعليك أن تضبطى سلوكك وفقا للذوق والمليقة كما ينبغى أن تكون حفيدتى . لست واحدا من اقاربك الايرلنديين من سكان الأكواخ . وصدمت سكارليت من قوته ، وأصابها بعض الخوف . ما الذى أصبح عليه هذا العجوز الهزيل الذى كانت تشعر بالأسف من أجله .. كانت أصابعه مثل الكلابات الحديدية . انترعت يديها من قبضته وهى تقول .

— « ليس غريبا أن تترك امى هذا المنزل ولا تعود اليه أبدا »
— كفى عن أن تكونى فتاة تغالى فى تصوير الأمور بطريقة مأساوية ، ان ذلك يرهقنى . ان والدتك غادرت هذا المنزل لأنها كانت عنييدة وأصغر سنا من أن تستمع الى صوت العقل .. لقد خاب أملها فى الحب ، واخذت أول رجل طلبها ، وقد عاشت لتندم على ذلك . ولكن ما حدث قد حدث . وأنت لست فتاة كما كانت هى ، انك كبيرة بالدرجة التى تكفى لاستعمال رأسك . لقد تمت كتابة العقد ، استدعى جونز الى هنا ، سوف نوقعه ونبدأ كما لو كان ضجيجك غير اللائق لم يحدث أبدا .

ادارت سكارليت ظهرها له . لن أصدق له . لن أستمع الى هذا النوع من الحديث . رفعت المقعد وأعادته الى مكانه المعتاد . وبحرص شديد وضعت على نفس العلامات التى تركها وجوده على السجاد فى ذلك المكان لسنوات ، لم تعد تشعر بخوف منه أو أسف من أجله أو حتى غضب منه . وعندما استدارت لتواجهه مرة أخرى ، بدت وكأنها لم تره من قبل على الإطلاق .. انه غريب ، وطاغية وحقير وعجوز يبعث على السأم .. لم تعرفه ، ولا تحرص على أن تعرفه .

قالت وكأنها تحدث نفسها ولا تحدثه : لم يتم حتى الآن سك العملة التى تكفى للاحتفاظ بى هنا ، والمال لا يجعل الحياة محتملة فى قبر . ونظرت الى بيير روبيلار بعينين خضراوين يتوهج منهما اللهب .. وجهه صاحب يحيط به قناع الموت ..

— أنت تنتمى الى هنا ، انت ميت بالفعل ولكنك لا تعترف بذلك ،
ساغادر المنزل فى الصباح .
واتجهت بسرعة نحو الباب ، وفتحته . « توقعت ان تكون هنا لى
تتصنت على الحديث يا جيروم ، ادخل » .



علاقات حميمة

أرسلت سكارليت بخادماتها بانسى ، إلى اثلاثنا . وضعتها في القطار المتجه إلى هناك بينما كانت بانسى تبكى .. وتسال « متى ستأتين إلى البيت ؟ »

كل شيء يتوقف على ريت . هكذا كانت سكارليت تحدث نفسها . والأفضل أن يأتى ريت سريعا . لا أعرف إذا كنت سأوفق في المعيشة مع ابناء عمى أم لا . والتفتت إلى مورين التى رافقتها إلى محطة القطار وقالت : « لا أعرف كيف اشرك على استضافتى .. سوف اسبب لك الكثير من المتاعب » .

قالت مورين زوجة جامى : « كل شيء على أحسن حال يا سكارليت ، لقد سر دانييل لأنه يعطيك غرفته لأنه سينتقل مع برايان إلى منزل بالريشيا . وكان ينتظر أن يفعل ذلك ولكن لم يجروا على أن يصارح أحداً ، وكلاهما تطير فرحا لأنها ستكون وصيفتك » .. كان من المستحيل مقاومة حرارة مورين

منزل عائلة إوهارا .. ثلاثة مشيدة بالطوب .. وتقع في صف واحد . لها نواخذ على الواجهة والخلفية وجدران داخلية مشتركة وفي النهار يكون الرجال في العزل والأولاد الأصغر قليلا في المدرسة ، وتتحول المنازل الثلاثة إلى عالم من النساء ، ولا توجد أسرار بينهن ، ولا تحفظ ، يقلن ما يخطر على بالهن .. أشياء حميمة تجعلها تحمر خجلا ، ويتشاجرن عندما يختلفن ، ثم يتعانقن ويبكين عندما يتصالحن ، ويعاملن جميع البيوت كبيت واحد ، واعتبرت سكارليت نفسها واحدة منهن ، وأخذت تذهب معهن إلى السوق للبحث عن أفضل طعام بأحسن الأسعار .

والأمسيات لها طابع مختلف . فالرجال يكدون في عملهم ويعودون مرهقين ويريدون وجبة طعام جيدة وغليونا ومشروبا . ودائما ما يحصلون على ما يريدون ، وبعد ذلك تتطور الأمسية من تلقاء ذاتها . وغالبا ما تصب العائلة في منزل ماتيو لأن لديه خمسة أطفال ناضجين في الطابق العلوى . وتترك مورين وجامى كلا من جاكى وهيلين في رعاية ماري كيت ، ويمكن أن تحضر باتريشيا طفليها (الأول في الثانية والآخر في الثالثة) دون إيقاظهما . وقبل أن يمضى وقت طويل تصدح الموسيقى . وعندما يصل كولام يتولى القيادة وفي إحدى الأمسيات ، جاء ذكر قصة المجاعة التى حدثت في أيرلندا قبل ثلاثين سنة . اختفى الطعام ، واكل الناس الأعشاب . ولم تعد هناك أعشاب . ومات الكثيرون جوعا .

ولم تكن هناك وسيلة لمساعدتهم . وهؤلاء الذين عاشوا تلك المحنة حصلوا على « فتوى » من القساوسة في بعض الابريشيات بالاعفاء من الصيام في المستقبل ، غير أن تناول اللحوم محظور . ولما كانت عائلة أوهارا قد أقامت في إحدى تلك الابريشيات فقد حصلت على الفتوى ، وهنا سألت سكارليت : « هل كنت هناك أثناء المجاعة يا مورين ؟ »

أومات مورين . « كنت هناك ، وكان والدي يمتلك حانة ، ولذلك لم تكن حالتنا سيئة مثل الآخرين . فالناس يجدون المال دائما لكي يشربوا . كنا نستطيع أن نشترى الخبز واللبن . أما المزارعون الفقراء فقد كانوا في أسوأ حال . وانهمرت دموعها وهي تقول : « لم يكن لديهم سوى البطاطس .. ثم تعفنت البطاطس في التربة ، ولم يعد لديهم شيء .. ولم تتمالك نفسها مرة أخرى واحتضنت سكارليت وبكت فوق صدرها : « لا تستطيعين تخيل ماذا يكون عليه الحال إذا انعدم وجود الطعام » . وقالت سكارليت « اعرف كيف يكون الحال » . وروت لها قصة عودتها إلى تارا من اثلاثنا المحترقة . ولم تكن هناك دموع في عين سكارليت أو في صوتها وهي تتحدث عن الخراب والدمار والشهور الطويلة من الجوع .. ولكن عندما بدأت تتحدث عن أمها وكيف وجدتها ميتة لدى عودتها إلى تارا وما أصاب عقل والدها . انهارت سكارليت .

إلى بلد الأجداد

قامت عائلة أوهارا برحلة إلى حديقة فورسيت في سافانا .. وسكارليت تتسأل وهي تحدث نفسها « لماذا لم يأت ريت ؟ أين هو ؟ ان أعماله في بوسطن لا يمكن ان تستغرق كل هذا الوقت » .

اسئلة تتصارع داخل عقلها كالطيور التي سقطت في مصيدة القفص .
فاخذت تضرب بأجنحتها على جدرانها . هل أخطأت بعدم العودة مع خالتها إلى شارلستون ؟ هل أخطأت بمغادرتها شارلستون أصلا ؟ وقررت ان تتحدث إلى كولام . فسيعرف ما يجب عمله ، ذلك ان كولام - بطريقته - يشبه ريت - فهو شخصية متكاملة مثل ريت وأى شخص آخر يبدو اقل أهمية بالنسبة له تماما كما يبدو الرجال مجرد غلمان وريت هو الرجل الوحيد في الغرفة .. وكولام ينجز الأشياء كما يفعل ريت ثم يضحك على ما فعله .

وها هي تضحك وهي تستعيد الحديث الذى جرى خلال لقاء كولام مع المقاول والد بولى فقد روى كولام ما حدث على النحو التالى .

« انه رجل ضخم جسور .. هذا الرجل كبير البنائين الجبار ماكماهون له ذراعان كل منهما مثل « المربعة » أو المطرقة الثقيلة .. كلن يحبك بطريقة بارعة الكسوة الغالية الثمن تلك الكسوة التى اختارتها له بلا شك السيدة ماكماهون لكى تنسجم مع طقم اثاث قاعة الاستقبال .. انه رجل ورع أيضا تشع من روحه التقوى لأنه يشيد بيت الله هنا في سافانا بأمريكا . وقد باركته من أجل ذلك بطريقتى المتواضعة . وقلت له : « انه الايمان ! ففى اعتقادى انك رجل متدين إلى حد انك لا تأخذ بنساء واحدا أكثر من نسبة الأربعين فى المائة ربحا من الإبرشية . وعند ذلك أبرقت عيناه وانتفتحت عضلاته كالثور .. وقلت له : هذا يؤكد ايها السيد المقاول لو كان الذى يتولى هذا العمل رجلا آخر غيرك لتقاضى خمسين فى المائة نظرا لأن الاسقف ليس ايرلنديا » .

واستأنف كولام روايته قائلا : « وعندئذ كشف الرجل الطبيب عن حسناته .. فقد زمجر كالرعد وتفوه باسم « جروس » ، حتى اننى شعرت بان النوافذ سوف تتطاير ، وتسقط فى الشارع ، قال لى « هل يصح ان يحمل كاثوليكى هذا الاسم » ؟ وعندئذ روى لى حكاياته عن المظالم والشور التى يرتكبها الاسقف .. وهى حكايات تحول ياقنى الذى ترمز إلى مهنتى دون أن اصدقها . وشاركته اساه كما شاركته كاسا أو اثنتين ، ثم اخبرته عن معاناة ابنة عمى الصغيرة المسكينة . وأبدى الرجل الطبيب

غضبا ناشئا عن دوافع أخلاقية . وكل ما استطعت أن افعله هو أن امنعه من تمزيق برج الكنيسة بيديه القويتين . واعتقادی أنه لن يدعو جميع الرجال للاضراب عن العمل ، غير أنني لست على يقين من أنه لن يفعل ذلك وقال لى : أنه سيعبر للأسقف عن قلقه ازاء اهمال رغبة سكارليت بعبارات لن يخطئ الاسقف في فهمها ، وسيقنعه بالاشكال الضرورية بخطورة المشكلة .



صبي صغير يبدو وكأنه في الثانية عشرة من عمره سمع الاغنى التي تردها العائلة في الحديقة وانضم اليهم متأثرا . وقدمت له مورين كل انواع الطعام . وغنى لهم اجمل الاغنى ومنها أغنية مطعها : « ساعود بك إلى الوطن يا كاثلين » وطلبوا منه إعادتها وبعد أن انتهت الاغنية قفزت كاثلين والدموع في عينيها وهى تصيح « لا أستطيع أن أسمع مرة اخرى » . وفى المساء قال كولام لجامى : انه يفكر فى أن ياخذ كاثلين معه عندما يذهب ، فقد امضت فى سافانا وقتا طويلا يجعلها تشعر بحنين إلى الوطن . وكادت سكارليت تصب الماء المغلى على يدها بدلا من أبريق الشاي ، وقالت :

— « إلى أين تذهب يا كولام » .

— « اعود إلى ايرلندا يا عزيزتى ، اننى هنا فى زيارة فقط » .

— « ولكن الاسقف لم يغير رايه حول تارا ، وهناك موضوع آخر أريد أن اتحدث معك بشأنه » .

بعد أن توجه الجميع للنوم .. تحدثت سكارليت . كان كولام يدخل غلبونه ، ورائحة التبغ اللاذعة الحلوة تتصاعد فى قاعة الدور الأرضى بمنزل جامى .

— « ماذا فى عقلك وقلبك يا سكارليت ؟ » .

وتنهدت من اعماقها : « لا أدري ما افعل مع ريت يا كولام . أخشى أن أكون قد دمرت كل شيء » .

المكان دافئ والضوء خافت . المناخ المناسب لكى تفتح قلبها . وكانت تعرف أنها عندما تتحدث إلى كولام فإن كل شيء سيبقى فى طي الكتمان ولا تعرفه العائلة ، فالرجل قسيس .. وكأنها تدلى امامه باعترافاتها فى الكنيسة .

وشرحت قصتها من البداية . وذكرت الحقيقة بشأن زواجها « لم احبه ، على الاقل لم أكن اعرف ما إذا كنت احبه . فقد كنت مغرمة بشخص آخر .

وبعدها ، عندما عرفت أن ريت هو الرجل الذى أحبه . لم يعد - هو -
يحبنى . هذا ما قاله على أية حال . ولكن لا اعتقد أن هذا صحيح
يا كولام . فهذا لا يمكن أن يكون . »
- « هل تركك ؟ » .

- « نعم ، ولكنى تركته بعدها . ولذلك اتساع هل كان ذلك خطأ من
جانبى » .

وبصبر لا نهائى ، أخذ كولام يحل خيوط قصة سكارليت . وبعد
منتصف الليل .. افرغ التبغ من غليونيه ووضعها فى جيبه .
- « لقد فعلت ما كان يجب أن تفعله يا عزيزتى ، لأننا نرتدى ياقاتنا
باتجاه عكسى فإن بعض الناس يظنون أن القساوسة ليسوا رجالا . انهم
على خطأ . اننى استطيع أن افهم زوجك . بل اننى استطيع أن اشعر
بتعاطف شديد مع مشكلته . انها اعمق واكثر ايلاما من مشكلتك
يا سكارليت . إنه يصارع نفسه ، وبالنسبة لرجل قوى فإن معركته
ضارية . انه سيسعى وراءك ولا بد أن تكونى سخية معه عندما يفعل ، لانه
سيكون ملثنا من المعركة » .

- « ولكن متى يا كولام ؟ » .

- « هذا ما لا استطيع أن اخبرك به . ومع ذلك فأننى ادرك انه هو الذى
يجب أن يتخذ الخطوة وأنت لا تستطيع القيام بها بالنيابة عنه . إنه يجب
أن يصارع ضد نفسه وحده ، إلى أن يتحقق من حاجته اليك ، ويعترف بأن
ذلك شيء طيب » .

- « هل أنت متأكد من انه سيأتى ؟ »

- « هذا هو ما انا متأكد منه . والآن حان وقت نومى . وأنت أيضا .
وفى الفراض شعرت بأنها تريد أن تستمتع بفكرة أن ريت سيأتى فقد
منحتها ثقة كولام فى عودته الارتياح .. ريت سيكون هنا ، ربما ليس فى
وقت قريب جدا كما كنت تريد ، ولكنها تستطيع الانتظار . »



علمت سكارليت أن كاثلين سوف تسافر مع كولام إلى أيرلندا . وقالت
انها لا تعرف ماذا ستفعل بدونها .

ورد عليها كولام : « ولماذا تفعلين شيئا بدونها . تعال معنا وشاهدى
موطن أبلك .. »

- « لا استطيع » .

- « بل ستكون مغامرة عظيمة .. أيرلندا جميلة فى أى وقت ، ولكن

في الربيع . سوف تجعل رقتها قلبك كسيرا «
— « لست في حاجة إلى قلب كسير ، شكرا يا كولام اننى في حاجة إلى
وصيفة » .

— « سأرسل اليك بريجيد . انها تتلهف على الحضور واعتقد انها يمكن
ان تبقى . أما كاثلين فقد كان إبعادها لفترة .
وسألته عن السبب في انه أراد إبعاد هذه الفتاة الحلوة .
وابتسم كولام : « يا للنساء واسئلتهن ، انتن متشابهات على جانبي
المحيط ، اننا لم نوافق على الرجل الذى أراد أن يرتبط بها . انه جندى
علاوة على انه وثنى » .

— « تقصد برونستانتى . هل تحبه ؟ » .
— « لقد أدار رأسها زيه العسكرى . وهذا كل ما في الامر » .
— « مسكينة . أرجو أن يكون في انتظارها عندما تعود إلى الوطن » .
— « شكرا لله .. فإن كتيبته عادت إلى إنجلترا . لن يشغلها بعد
الآن » .



اليوم ١٧ مارس يحتفل ايرلنديو سافانا - مثل الايرلنديين في كل مكان -
بعيد القديس باتريك . انه القديس الذى يحمى ايرلندا . ورغم انه حل
أثناء الصوم الكبير ، إلا انه لا صوم في عيد القديس باتريك . الزينات
واللون الأخضر في كل مكان وعصير الليمون وحلوى جوز الهند توزع على
الناس في الشوارع والمواكب ثم الألعاب النارية والرقص والموسيقى في
الليل .

ورقصت سكارليت وهي ترتدى حذاء السهرة ولم تعترف بالارهاق فقد
شعرت انها امضت وقتا ممتعا .

وفي طريق العودة إلى المنزل ، عاد كولام يحدثها عن ضرورة زيارتها
لايرلندا :

— « سوف تحبين البلد العريق .. رحلة السفن تستغرق اسبوعين
ويوما إلى جالواى » . وفي صباح اليوم التالى . كانت قدما سكارليت
متورمتين ومصابتين . وبدون انذار .. تقلصت معدتها وشعرت برغبة في
القيء وامتلا حلقها وسارعت سكارليت إلى النافذة في رعب وافرغت ما في
جوفها . لابد انها تناولت في مهرجانات الأمس طعاما فاسدا ولم تشعر في
حياتها بانها مريضة كما تشعر الآن وبكت . وتحاملت على نفسها ونزلت

إلى الدور الأرضى . وتدافع الجميع لمساعدتها . وبعد ثوان وجدت سكارليت نفسها وقدامها فوق وسادة وفى يدها قرح من الشاى . وشعرت بتحسن

وطلبت مورين من سكارليت ان تلزم الراحة فهى وكاثلين ستنظفان المطبخ وتذهبان إلى السوق .

وقالت مورين لكولام : « وانت أيضا ابقى حيث أنت ، أريدك أمامى فإننى لا أراك إلا قليلا . ولولا عيد ميلاد كاتى سكارليت العجوز لتوسلت اليك الا تعود سريعا هكذا إلى أيرلندا » .

وتساءلت سكارليت : « كاتى سكارليت ؟ »

والقت مورين بالملابس المتسخة التى كانت تحملها : « ولم يفكر احد فى ان يقول لك ان جدتك التى تحملين اسمها سيبلغ عمرها قرنا فى الشهر القادم » ؟ .

وضحك كولام .. « ومازال لسانها سليطا كما كانت وهى فتاة صغيرة ، انه شئ يفخر به كل افراد عائلة أوهارا » .

قالت كاثلين فى سعادة : « ساكون هناك فى العيد » .

وقالت سكارليت : « أوه ، اتمنى لو استطيع الذهاب ، لقد اعتاد والدى ان يروى لى العديد من القصص عنها » .

— « ولكنك تستطيعين يا سكارليت يا حبيبتي . فكرى فى مدى فرحة المرأة العجوز لو قمت بهذه الزيارة » .

واندفعت كل من كاثلين ومورين الى جانبي سكارليت يحثانها ويشجعانها ويغريانها على قبول الفكرة .. إلى ان اصببت سكارليت بدوار لماذا لا ؟ كان هذا هو ما سألته سكارليت لنفسها .

إذا جاء إليها ريت ، فانه لابد أن تعود إلى شارلستون . لماذا لا تؤجل هذه العودة فترة أطول ؟ انها تكره شارلستون .. والثياب الكئيبة التى لا تتغير والزيارات واللجان التى لا تنتهى ، وأسوار المنازل المتاكلة والحدائق المحطمة ، انها تكره الطريقة التى يتحدث بها الشارلستونيون .. والعبارات والكلمات بالفرنسية واللاتينية ولغات أخرى لا يعلمها إلا الله ، والأسلوب الذى يظهرون به انهم يعرفون أماكن لم تذهب اليها يوما ، وشخصيات لم تسمع عنها أبدا وكتب لم تقرأها أبدا ، وبطاقات الرقص وطواير الاستقبال والقواعد غير المعلنة التى يفترض انها تعرفها بينما هى لا تعرفها .. والا أخلاقية التى يتقبلونها والنفاق الذى يدينها بخطايا لم ترتكبها قط .

لا أريد أن ارتدى ملابس بلا لون ، وأن أقول : « نعم يا سيدى » للنساء العجائز اللواتى كان جدهن أحد أبطال شارلستون أو شيء من هذا القبيل . لا أريد أن أقضى كل صباح يوم أحد استمع إلى الخالة بولين تتشاحن مع الخالة أولاى .

وضحكت سكارليت بصوت عال وقالت : « سوف أذهب » . فجأة شعرت بأنها فى أحسن حال . حتى معدتها . ووقفت لتحتضن مورين ونسيت الأم قديمها . شارلستون يمكن أن تنتظر لحين عودتها ، وریت يمكنه أن ينتظر أيضا . الله يعلم أنها انتظرتة مدة كافية . لماذا لا تزور بقية عائلة أوهارا ؟ ان أسبوعين ويوما فى سفينة عابرة كبيرة إلى « تارا » الأخرى ليست مدة طويلة . وستكون أيرلندية وسعيدة لفترة من الوقت قبل أن تستقر وتخضع لقواعد ونظم شارلستون .

ولم تمض أيام معدودة حتى وجدت نفسها فى عربة مكشوفة مع كولام وكاثلين فى الطريق إلى الميناء . ولم يكن الاستعداد للرحلة يحتاج إلى جهد . فالأمريكيون لا يحتاجون إل جوازات سفر للدخول إلى الجزر البريطانية ولا حتى يحتاجون إلى خطابات اعتماد ، ولكن كولام أصر على أن تحصل سكارليت من البنك الذى تتعامل معه على خطاب من هذا النوع . وقال : « تحوطا للظروف » . ولم يقل : أية ظروف ؟ ولم تهتم سكارليت فقد كانت منتشية بالمغامرة .

وبينما كانت كاثلين تودع أقاربها فى الميناء . قل كولام بهدوء لسكارليت :

« لن تنسى ما قلته لك حول الاسم يا سكارليت » . قلت وهى تبسم تعليقا على المؤامرة غير المؤذية « لن أنسى » . وقال وهو يغمز بعينه « ستكونين سكارليت أوهارا فقط فى هذه الرحلة وفى أيرلندا ، وهذا لا علاقة له بك أو بكما يا سكارليت حبيبتي ، ولكن باتلر اسم مشهور جدا فى أيرلندا ، وكل شهرته شائنة » .

ولم تبال سكارليت على الإطلاق فهى سوف تستمتع بأن تكون أوهارا لأطول مدة ممكنة .

وكما وعدھا كولام فقد كانت السفينة « بريان بورو » فخمة . وأرسلت سكارليت قبلاقتها فى الهواء إلى المودعين من أفراد الأسرة . كان جامى قد أغلق متجره لمدة ساعة حتى يستطيع هو ودانيل وداعهم ولم يذهب الأطفال إلى المدرسة صباح اليوم . وبالقرب من بقية الأسرة ، وقف ستيفن الهادى على مسافة بسيطة من أقربائه المودعين . ورفع يده بأشارة

إلى كولام . وكانت الإشارة تعنى أن صناديق ثياب سكارليت قد فتحت وأعيد اغلاقها في الطريق إلى السفينة .. وبين طبقات مناديل الورق وقمصان النوم والثياب النسائية والعباءات تم وضع البنادق الملطخة بالزيت والتي تم لفها بعناية .. وصناديق الذخيرة التي اشتراها ستيفن من بوسطن .

مثل آبائهم واجدادهم واجيال سبقتهم .. كان ستيفن وجامى وماتيو وكولام وحتى العم جيمس معارضين أشداء للحكم الانجليزى في أيرلندا . وعلى مدى أكثر من مائتى عام خاطر أبناء عائلة أوهارا بحياتهم من أجل محاربة بل وأحيانا قتل أعدائهم في عمليات صغيرة فاشلة . وفي السنوات العشر الماضية فقط بدأت توجد منظمة تضطلع بهذه المهمة . وهكذا أصبح « الفينيون » المنظمون الخطرون الممولون من أمريكا .. معروفين في كل أنحاء أيرلندا . انهم أبطال في عيون الفلاحين الأيرلنديين . وهم الذين تنصب عليهم كراهية وبغضاء ملاك الأراضي الانجليز وبالنسبة للقوات العسكرية الانجليزية ، فانهم ثوريون لا يستحقون سوى الموت . كان كولام أوهارا أكثر جامعى التبرعات نجاحاً ، ومن أبرز الزعماء السريين للاخوان الفينيين .



القسم الرابع

البرج



● مشهد من فيلم « ذهب مع الريح » يصور مأساة الحرب بين الشمال والجنوب . في محطة اتلانتا .. حيث يرقد مئات الجرحى عشية الحصار الذي فرضه الشماليون على المدينة .. وقد استعان المخرج بالمئات من التماثيل الخشبية لكي يحدث أكبر تأثير لدى المشاهد .

الاكتشاف

استيقظت سكارليت فجأة مع الخيوط الأولى للفجر وهولت إلى دورة المياه الملحقة بالكابينة .. وهناك نزلت على ركبتها وتقيأت .
لا يمكن أن تكون قد أصيبت بدوار البحر . ليس هنا . فهي تحب الأبحار كثيرا . ولم تصب عندما كانت في زورق صغير يتسلق الأمواج في العاصفة . لم تشعر حتى بالغثيان ، ولا عندما انزلقت في أعماق الموج . ثم أن السفينة بريان بورو تسير بثبات كالصخر بالمقارنة بذلك الزورق .
وشيثا فشيئا ، ارتفع رأس سكارليت المنكس من ضعفه البائس .. وهي فائرة فاما .. ومفتوحة العينين من مفاجأة الاكتشاف . الإنارة تهزها وتدفع الحرارة والقوة في عروقها . إنني حامل ، إنني حامل ! الآن أتذكر . هذه هي أعراض الحمل . اسندت ظهرها إلى الحائط . أشعر بانني رائعة . ولا أبالي بحالة معدتي السيئة . انني في حالة مدهشة . حصلت على ريت . انه ملكي . لا أستطيع الانتظار لأخبره .

دموع مفاجئة تعبر عن السعادة تدفقت على خديها ونزلت يداها لتغطي بطنها بحركة تلقائية وقائية ترعى وتحمل الحياة الجديدة التي تنمو في داخلها . اه ، كم كانت تريد هذا الوليد . طفل ريت . طفلها . سيكون قويا . انها تعرف ذلك . تستطيع أن تشعر بالفعل بقوة الصغيرة جدا . شيء ضئيل مقتحم لايهاب مثل « بوني » . ذكريات « بوني » تتجدد وتعود حية امامها . كم احبها ريت .. وظهره العريض ينحنى فوق سريره وصوته العميق يداعبها . لم يوجد في العالم رجل أصبح مسلوب العقل من فرط حبه لطفل .. كما كان ريت ، سيكون سعيدا إلى أقصى الحدود عندما يعرف . تستطيع الآن . ان ترى عينيه السوداوين تشعان بالفرحة .. وابتهسامته المرحية تضيء فوق وجهه .

وفزعت وهي تتذكر كيف ماتت « ميلي » وهي تحاول ان تنجب .. وانا احشائي « ملخبطة » كما قال الدكتور ميد بعد الاجهاض الذي حدث لي . وهذا هو السبب في انني لم اعرف انني حامل ولم الاحظر رغم مرور شهر . لنفرض ان حمل هذا الطفل يقتلني .. وهزت رأسها في غضب . ماذا حدث لي اني مجرد غبية . انها قوية وتتمتع بصحة جيدة . ليست مثل « ميلي » على الإطلاق . وستكون في حالة طيبة وكذلك طفلها وحياتها .. مع ريت المحب لها ولطفلها . وستكون اسعد أسرة في العالم . وسوف تكون السيدة اليانور في قمة السعادة إذا علمت بالامر . لن تترك احدا في السوق دون ان تبلغه بالنبا السعيد . وسيكون الطفل هو حديث شارلستون قبل اول شهيق .

شارلستون كان يجب أن أكون متجهة إليها الآن وليس إلى أيرلندا أريد أن أرى ريت وأبلغه ، ثم استقر رأيها . لا حاجة للاستعجال ، لا داعي للحديث مع قبطان السفينة لإعادتها إلى الشاطئ . فهي ستقابل جدتها وأقاربها الأيرلنديين ، وستكمل مغامرة عبور المحيط . لقد جعلها ريت تقبع في انتظاره في سافانا . وهو يستطيع أن ينتظر فترة قبل أن يعلم موضوع الطفل . لا تزال هناك شهور وشهور قبل أن يولد . ويحق لها أن تستمتع قليلا قبل أن تعود إلى شارلستون . نعم ، سنرى أيرلندا أولا ، فلن نتاح لها فرصة أخرى .

عبور الاطلنطي على متن « برايان بورو » كان أشبه بسهرة مستمرة من سهرات يوم السبت لدى عائلة أوهارا في سافانا ، الركاب الأيرلنديون من أغنياء أمريكا الجدد . وشغل كولام وقته باقناع الكثيرين بعدالة القضية الأيرلندية وتضحيات الشهداء والقهر الذي يعاني منه الأيرلنديون تحت الحكم الإنجليزي ، وهكذا استطاع أن يجمع التبرعات . بينما كانت سكارليت تكسب باستمرار في لعب الورق وفي بعض الأمسيات كانت تكسب ثلاثين دولارا ، سوف يضحك ريت كثيرا إذا عرف بذلك ، فقد كان هو نفسه مقامرا في سفن نهر المسيسيبي في وقت من الأوقات . إنها لن تضطر إلى أن تلمس بنسا واحدا من نقود ريت .

موقف سكارليت من المال كان مزيجا معقدا من البخل والكرم . كان معيارها للأمان لسنوات عديدة هو الاحتفاظ بكل بنس من الثروة التي جمعتها بصعوبة مع الارتياح الغاضب في أي شخص تكون له طلبات حقيقية أو متخيلة بشأن دولار واحد منها . ومع ذلك فقد تحملت مسؤولية أن تعمل خالتها وأسرة ميلاني بلا تردد .. وحرصت على رعايتهم حتى وهي لاتعرف وسيلة لرعاية نفسها . ولو حلت بها كارثة غير متوقعة ، فإنها كانت ستواصل رعايتهم حتى لو كان ذلك يعنى أنها ستتضور جوعا ، كذلك كانت مشاعرها تجاه أموال ريت غير متسقة مع بعضها .. كزوجته انفقت بإسراف على منزل شارع بيتشستري بتكاليفه الهائلة .. وعلى ثيابها وكعالياتها ، ولكن مبلغ النصف مليون الذى أرسله إليها كان شيئا مختلفا . لأمساس به .. فهي تعتزم أن تعيده إليه بلا نقصان عندما يلتقيان مرة أخرى ونهايا كزوج وزوجة حقيقيين ، لقد عرض المبلغ كفن للانفصال ، وهي لاتستطيع قبوله لأنها لن تقبل الانفصال . وقد ضايقها أنها اضطرت لأخذ جزء من هذا المبلغ من خزانة البنك من أجل الرحلة

لأن قرار القيام بالرحلة كان فجائيا وسريعا ، ولم يكن هناك وقت للحصول على شيء من اموالها في اثلاثنا . كانت مصممة على أن تنفق اقل القليل بقدر الامكان من العملات الذهبية التي تجعل الآن ظهرها مستقيما وخصرها صغيرا والتي تملؤ قنوات المشد الذي تلفه حول خصرها فالأفضل هو الفوز في لعب الورق مع الاحتفاظ بنقودها لانفاقها . وفي الأسبوع التالي اضافت ١٥٠ دولارا أخرى إلى حقيبتها .

وصلت السفينة إلى الشاطئ الايرلندي . وكان كولام قد رأى أرض ايرلندا قبل أن تصل السفينة وخفق قلبه بالحسب من اجلها والالم لعذاباتها . وكما فعل مرات عديدة كل يوم ، فانه جدد قسمه على تدمير الظالمين لبلاده واعادتها إلى ابنائها . ولم يشعر بقلق على الأسلحة المخبأة في صناديق ملابس سكارليت ، فهو يعرف أن موظفي الجمارك في جالواي يركزون في الأساس على شحنات السفينة لكي يتأكدوا من أن الرسوم المستحقة للحكومة البريطانية قد تم تسديدها . وبالنسبة لكولام فانه كان يعتبر أن اقناع سكارليت بالمجيء أتاح فرصة الحظ السعيد لأن ملابسها تصلح لاختفاء البنادق أكثر من الأحذية والقماش القطنى الأمريكى الذى اشتراه وقد تفكر سكارليت في التبرع عندما ترى الفقر الذى يعاينه مواطنوه . ولم تكن لديه آمال كبارا ، فهو واقعى ، ولأنه قسيس فهو متسامح إزاء الضغط البشرى ما دام البشر من غير الانجليز .



في البداية لم تفهم لهجة الايرلنديين وظننت انهم يتحدثون بلغة أخرى غير الانجليزية . وفوجئت بانها لابد أن تغير العملة حتى تحصل على نقود انجليزية ، وأعطت لكولام كل ماكسبته من لعب الورق في السفينة ، وكان المبلغ ٢٤٧ دولارا . واعتبر كولام المبلغ ثروة ضخمة . كان هذا هو يوم السوق في جالواي . وأول تجربة جديدة تجتاها سكارليت هى عبور الشارع وسط قطع هائل من المشاية والأبقار . كان القطار قد غادر المدينة في الساعة الثامنة . ولابد من قضاء الليلة في فندق . والحظائى سوف تصل إلى الفندق في وقت لاحق .. وأعجبت سكارليت بملابس الايرلنديات . وشعرت بسعادة عندما علمت انها تستطيع وهى في ايرلندا أن ترتدى ملابس الايرلنديات . واشترت بالعملات الانجليزية التى لاتعرف قيمة معظمها بالدقة حتى الآن كل أنواع الملابس النسائية . قالت سكارليت : « أشعر إننى صاحب ايرلندا حقا » ١

مشاهد أيرلندية

أصرت سكارليت على أن تترك طعام الغداء على مائدة مطعم الفندق وتشارك في الرقص في الميدان الواقع أمام الفندق واضطر كولام وكاثلين إلى ترك الطعام والجلوس على أحد مقاعد الميدان قرب حلبة الرقص للتدخل إذا واجهت سكارليت المتاعب . قالت كاثلين : « أنا لا أفهمك على الإطلاق يا كولام . لماذا ننزل في هذا الفندق الانجليزي الفخم مثل الملوك والملكات وإذا فعلنا ذلك .. لماذا لا نأكل غداءنا الفاخر . إنه آخر طعام من نوعه نأكله . ألم تستطع أن تقول لسكارليت .. لا .. لن نغادر المائدة ، كما فعلت أنا »

أخذ كولام يدي شقيقته بين يديه . « سكارليت ليست مستعدة بعد لمواجهة الواقع الأيرلندي أو الواقع الذي تعيش فيه عائلة أوهارا .. أمل أن أجعل الأمور أسهل بالنسبة لها . الأفضل أن ترتدي الثوب الأيرلندي كنوع من المغامرة المرحية بدلا من البكاء عندما تعلم أن نيل ثوب فستانها الحريري الفاخر سيغطي بروت البقر .. أنها تقابل الأيرلنديين هنا في هذا الميدان وترقص معهم رقصة الريل وتجدهم ظرفاء رغم ملابسهم الخشنة وأيديهم القذرة . هذا حدث كبير .. رغم أنني كنت أفضل النوم » — « ولكننا سنذهب إلى بلدتنا غدا ، ليس كذلك »

— « سنذهب غدا . هذا ما أعدك به . سنكون في عربة الدرجة الأولى بالقطار ويجب ألا تشيرى إلى ذلك . أيضا سوف أجعل سكارليت تقيم مع مولي وروبرت . ولن تنفوهى بكلمة »

وبصقت كاثلين على الأرض ، وقالت : « هذه البصقة موجهة إلى مولي وروبرت ، ولكن ما دامت سكارليت هي التي ستقيم معهما وليست أنا ، فأنني مستعدة لأن أصمت »

أخذت سكارليت تتأمل الريف الأيرلندي من القطار .. والقلاع التي تتناثر فوق التلال ، أنها قلاع متداعية ويقول كولام : إن معظمها عمره ٤٠٠ سنة أو أكثر وأن الناس وجدوا بعد ذلك وسلل مريحة أكثر للحياة .. معه حق إذ لابد أن يرهق الإنسان من الصعود والهبوط عبر سلام الأبراج .. وهي تتأمل الآن دواوين الركاب في العربة التي تستقلها . أنها معجبة بكل شيء تراه وسوف تمكث أسبوعين في أيرلندا قبل أن يحل موعد عيد الميلاد المائة لكاتى سكارليت الأصلية . أنها لن تغيب عن هذا الحفل مقابل أى شيء في العالم . وسالت سكارليت عن اسم المكان الذي تعيش فيه عائلة أوهارا . وعرفت أن الاسم هو « آدمز تاون » . وعندما

لاحظ كولام دهشتها قال : إن الاسم ليس ايرلنديا تماما ، وكان يود لو يغيره من أجلها ، ولكن المالك انجليزى ولن يوافق على ذلك وسالت سكارليت . « هل يملك شخص واحد المدينة بكاملها » وأجاب كولام :

— « انها ليست مدينة ، إنها تكاد تكون قرية ، وقد سميت باسم الانجليزى الذى كان أول من شيدها وأهداها لابنه آدم ثم توارثها الأبناء والأحفاد .. ومالكها الحالى لا يراها أبدا ، فهو يقيم معظم الوقت فى لندن ، ووكيله هو الذى يديرها » .

كانت هناك مرارة فى كلمات كولام .. وعندما وصل القطار المحطة التالية رأت سكارليت قلعة هائلة .. لم تتداع بعد . المؤكد أن شخصا ما يعيش فيها . فارس .. أو امير .

قال كولام : « إنه أبعد ما يكون عن ذلك ، انها ثكنات حربية لكتيبة فى الجيش البريطانى » .

نزل الثلاثة فى محطة مولينجر . سيتناولون طعام الغداء فى ضيافة جيم دالى صديق كولام قبل أن يستقلوا عربة لمسافة عشرين ميلا إلى « آدامز تاون » . وأصر جيم دالى على أن تصاحبه سكارليت لالقاء نظرة على مولينجر . وتبعهما كولام وكاثلين . لم يكن هناك ما يستحق المشاهدة .. فالبلدة عبارة عن شارع واحد يمتلئ بالحانات والدكاكين . وروعت سكارليت عندما جاءت امرأة شابة تضع وشاحا اسود على رأسها وصدرها ، ومدت يدها لكى تتسول . لم يكن هناك مبرر للتسول من وجهة نظر سكارليت فالمرأة تبدو فى صحة معقولة . وسمعت سكارليت صوت ضحكات ، وأدارت رأسها لتعرف السبب . وجدت مجموعة من الجنود تدخل الميدان من شارع جانبي . كان أحدهم يشاكس المرأة المتسولة . ويمسك بقطعة نقود فى يده ويمد ذراعه إلى أعلى بحيث لا يستطيع الإمساك بالنقود . وحشية « ولكن ماذا تتوقع إذا كانت المرأة تهين نفسها وتشحذ على قارعة الطريق . ومن الجنود خاصة . والقى الجندى بقطعة النقود فى بركة موحلة قدرة مغطاة بالنفايات وضحك مرة أخرى مع زملائه .. ورات سكارليت يدي كاثلين تمسك بذراع كولام ، ولكنه انتزع نفسه منها وسار نحو الجنود والشحاذة . يا إلهى ، ماذا لو بدأ يعظهم لكى يكونوا مسيحيين طيبين ؟ . وشمر كولام عن ساعده وتنفس الصعداء . انه يشبه أباه كثيرا . هل سيخوض معركة ؟

ركع كولام فوق البركة القذرة الكريهة الرائحة ومد أصابعه وأخرج منها

قطعة النقود ثم وقف ، وظهره للجنود . كان من الواضح انهم لا يشعرون
بارتياع إزاء ما انتهت إليه دعابتهم . وأمسك كولام بذراع المرأة واقتادها
بعيدا . واستدار الجنود وساروا في الاتجاه المضاد بسرعة ، وفي فجر اليوم
التالي .. استؤنفت الرحلة ..



مزارع « قوى »

في الطريق وقع حادث اثار رعب سكارليت . لقد تم طرد عائلة من مستاجري الأرض لأنهم لم يدفعوا الايجار ، فهم لا يملكون شيئا . حاول رب الأسرة وقف الطرد عندما جاء الجنود أول مرة لتنفيذ حكم الطرد ، وضرب المزارع احد الجنود فاخذوه إلى السجن وتركوا زوجته وطفليها ودمروا بينهما حتى لا يعودوا للاقامة فيه .

وقالت سكارليت أول ما خطر على بالها : « يا له من غبى هذا المالك ، كان يستطيع أن يؤجر الأرض لشخص آخر » .

وبدا الارهاق على وجه كولام : « انه لا يريد تاجيرها على الاطلاق ، فهناك قطعة أرض صغيرة مجاورة ، وهو يريد ما يسمى بـ « تنظيم » ممتلكاته .. ولهذا رفع القيمة الايجارية حتى يجعلهم عاجزين عن الدفع فهو لم يعد مهتما بزراعة الأرض »

قالت كاتلين : « هل اخبرت سكارليت عن مولى ياكولام ؟ ان لها الحق في تلقى تحذير . » وسالت سكارليت : « من هي مولى ؟ » وقال كولام : « انها أول من ستقابلينه من عائلة اوهارا في ادامز تاون وشقيقة لكاتلين ولى . وصححت كاتلين : نصف شقيقة . وهذا النصف أكثر مما يجب في رأيي ! قالت سكارليت . « احكى » . لم تشعر سكارليت بالوقت أو المسافة ، فقد كانت تسمع عن عائلتها . كولام وكاتلين اخان غير شقيقين . والدهما باتريك الذى كان من بين اكبر اشقاء جيرالد اوهارا تزوج ثلاث مرات ومن بين أبناء زوجته الأولى : جامى الذى ذهب إلى سافانا ، ومولى التى يقول عنها كولام انها كانت رائعة الجمال .. او .. وهى صغيرة ربما كما تقول كاتلين . وبعد وفاة زوجته الأولى ، تزوج باتريك للمرة الثانية والدة كولام ، وبعد وفاتها تزوج والدة كاتلين التى هى أيضا والدة ستيفن . وقالت لنفسها : « انه ستيفن الشاب الصامت » .

وهناك عشرة أبناء وبنات عمومة ستقابلهم في ادامز تاون ، البعض لديه اطفال وربما احفاد . أما باتريك فقد وافاه الاجل منذ خمسة عشر عاما . وعلاوة على ذلك فإن هناك عمها دانييل - الذى لا يزال على قيد الحياة - وابنائهم واحفاده . ومن سلالة ماتيو وجيرالد وهما في سافانا . غير ان ستة من ابنائهم واحفاده بقوا في ايرلندا .

قالت كاتلين : « في منزل مولى .. لا يوجد احد من عائلة اوهارا ما عداها وسوف تنكر اسمها »

حاول كولام أن يشرح ما قالته كاتلين فقال : إن مولى تزوجت من

رجل يدعى روبرت دوناهو ، رجل « دافئ » بالمعنى المادى أى أن لديه مزرعة كبيرة مزدهرة مساحتها أكثر من مائة فدان انه ذلك النوع الذى يسميه الايرلنديون « مزارع قوى » . كانت « مولى » تعمل فى البداية طاهية فى مطبخ دوناهو . وعندما ماتت زوجة الأخير ، أصبحت مولى .. بعد فترة حداد مناسبة .. زوجته الثانية وزوجة الأب لاطفاله الأربعة . وانجب دوناهو من زواجه الثانى خمسة أطفال ، أكبرهم ضخّم وبصحة جيدة حتى انه ولد قبل موعده بثلاثة أشهر . غير أن الجميع كبروا الآن وانتقلوا إلى بيوتهم الخاصة .

وقال كولام بلهجة حيادية : « ان مولى ليست مخلصة لأسرتها .. اسرة اوهارا ربما لأن السبب هو أن زوجها كان الاقطاعى الذى تعمل عنده الاسرة . وقد استاجر روبرت دوناهو بضعة فدادين - علاوة على مزرعته الخاصة - وقام بتأجير مزرعة أصغر من الباطن إلى عائلة اوهارا .. اما عن الجدة العجوز كاتى سكارليت فانها تقيم فى الكوخ الذى شيده زوجها لها عندما تزوجا عام ١٧٨٩ . ولاشئ يمكن أن يقنعها بأن تغادر ذلك المكان . وقد تزوج والد كولام (الذى هو والد كاتلين ايضا) لأول مرة فى عام ١٨١٥ واخذ زوجته للإقامة فى الكوخ المزدحم . وعندما بدأ الأطفال يكبرون ، شيد مكانا كبيرا أوسع على مقربة منه يحتوى على غرفة لهؤلاء الأطفال وفراش دافئ بجانب نار الموقد خصيصا لوالدته فى سنها المتقدمة .. ولكن العجوز رفضت ولذا يقيم « شين » فى الكوخ مع جدتنا .. والبنات مثل كاتلين - يخدمنها .. »

واضافت كاتلين : « شين هو شقيق مولى ، وهو أخ غير شقيق لنا ، ونموذج تعس للرجل ، فهو لاشئ تقريبا مثل تيموتى رغم أنه يتجاوزه بعشرين عاما فى العمر » .

ولم تجرؤ سكارليت على أن تسال « ومن هو تيموتى » .. خشية أن تسمع عشرات الأسماء الأخرى التى تنتمى إلى شجرة العائلة ..

الـجـذـور

كانت مولى خالصة من العيوب سواء في ملابسها أو أسلوبها . وقدمت ألف تحية للأوهارا الأخرى التى قدمها كولام رغم أنها لم تكن تعرف أنها سوف تستقبل سكارليت ولم يكن لديها علم بوصولها . شعر أسود فاحم ، وعينان زرقاوان لامعتان . ولا يبدو على الإطلاق أن مولى فى الخمسينات من عمرها ، قالت سكارليت : « اننى سعيدة جدا للقائك يامولى واشعر بامتنان للكلمات التى اغدقتها علىّ فى منزلك اللطيف » . ونظرت اليها سكارليت مرة أخرى .. ان بشرتها ناعمة ومخملية لم تر سكارليت لها مثيلا ولا بد أن كولام أخطأ فى تقدير عمرها . وشكت سكارليت لكولام فى اليوم التالى : « كيف استطعت أن تذهب وتتركنى هنا وحدى .. ان روبرت دوناهو المروع هو أكثر الناس إثارة للسمام فى العالم .. لقد ظل يتحدث طول الوقت عن إبقاره وكمية اللبن التى يحلبها من كل بقرة . وشعرت باننى على وشك الخوار قبل أن تنتهى من تناول الطعام »

على مسافة ربع ميل يقع كوخ جدتها . قطعته سيرا على الأقدام مع كولام وشعرت سكارليت بأنها عصبية . كانت خائفة . كيف يبدو الشخص الذى يبلغ المائة من عمره ؟ هل ستتحمل الموقف . وكان كولام قرا أفكارها ، فقال « لن نبقى طويلا .. ان كاثلين فى انتظارنا لنشرب فنجانا من الشاي » . وتبعته سكارليت . وعند الباب لم تر شيئا فى الداخل سوى الظلال . وكانت هناك رائحة غريبة أقرب إلى رائحة التراب وبها شيء حمضى جعل أنفها يتغصن . هل هذه هى رائحة الشيخوخة المتقدمة ؟ قال كولام : هل تشمين نيران المواد النباتية المتفحمة .. انها جزء من الحياة الأيرلندية .. انها رائحة تشبه الدخان ، ولكنها ليست كذلك . داخل الكوخ حاولت سكارليت أن تالف عيناها الظلمة .

— « هل هذا هو أنت أخيرا ياكولام أوهارا » ؟ أريد أن أعرف لماذا أرسلت مولى عندى بينما بريدى وعدتني بهدية من ابنة ابنى جيرالد ؟ جاء الصوت رفيعا ومشاكسا .. ولكنه ليس مبجوحا ولا ضعيفا . ارتياح ونوع من الاستغراب لدى سكارليت . هذه هى والدة أبيها التى روى عنها الكثير مرات عديدة ..

دفعت كولام جانبا وذهبت لتركع قرب العجوز التى كانت تجلس على مقعد خشبى ذى ذراعين قرب المدفأة .

— « اننى ابنة جيرالد ياجدنى وقد اطلق اسمك على شخصى كيتى سكارليت » كانت كيتى سكارليت الأصلية ضئيلة وسمراء . أصبحت

بشرتها داكنة بفعل قرابة قرن من الهواء الطلق والشمس والمطر . وكان وجهها مستديرا مثل التفاحة ، وذابلا مثل التفاحة التي تم الاحتفاظ بها لوقت طويل » ولكن العينين الزرقاوين الداويتين كانتا صافيتين ونفاذتين . وثمة وشاح صوفي سميك لونه سماوى على كتفيها وصدرها .. وتمتد اطرافه في حجرها . شعرها الأبيض الخفيف مغطى بطاقيّة حمراء مشغولة . قالت : « دعيني أنظر إليك يا فتاة » ، ورفعت اصابعها المكسوة بالجلد ذفن سكارليت إلى أعلى ورسمت علامة الصليب بسرعة ، وهى تقول : « بحق كل القديسين . لقد ذكر الحقيقة . لك عينان خضراوان مثل عيني القطّة . من أين أتت . أريد أن أعرف لقد ظننت أن جيرالد كان ثملا عندما كتب لى هذه الحكاية . قولى لى يا كيتى سكارليت الصغيرة ، هل كانت امك العزيزة ساحرة » ؟ وضحكت سكارليت وقالت : « كانت أقرب إلى القديسة ياجدتى » .

— « هل كانت كذلك ؟ وتزوجت من ابني جيرالد ؟ هذا هو أعجب الأشياء . أو ربما كان زواجها منه هو الذى جعل منها قديسة بكل ما في ذلك من بلايا . قولى لى : هل ظل ميالا للشجار حتى أواخر إقامه ؟ فليرع الله روحه ؟ »

— « أخشى أن أقول إن هذا صحيح ياجدتى » ودفعتها الاصابع بعيدا . — « تخشين ؟ اننى ممتنة . لقد كنت أصلى لكى لاتدمره أمريكا . كولام اشعل شمعة في عيد الشكر من اجل في الكنيسة . » — « سافعل » . وفحصت العينان الهرمتان سكارليت مرة أخرى وابتسمت فجأة وهى تقول : « لم تقصدى شيئا سيئا يا كاتى سكارليت . اننى أسامحك » . وانفجرت الشفتان المضمومتان عن ابتسامة تنم عن رقة تكسر القلوب . لم تكن هناك أسنان في فكيها .

« سوف أمر بشمعة أخرى للبركة التي حلت بى من رؤيتك بعيني رأسى قبل أن اذهب إلى قبرى » وامتلأت عينا سكارليت بالدموع . « شكرا ياجدتى » وقالت كاتى سكارليت العجوز : « عفوا ، عفوا . خذها بعيدا ياكولام . انى استعد لراحتى الآن » وأغلقت عينيها وتدلّى ذقنها في صدرها الدافئ المغطى بالوشاح ولس كولام كتف سكارليت . « هيا بنا » .



استقبلتها كاتلين في الكوخ المجاور وهى تقفز من السعادة والمرح . كانت تبدو قوية للغاية . والكوخ أكبر قليلا من كوخ الجدة ولكنه صغير جدا بحيث لا يتسع لأسرة . أين ينامون جميعا ؟ حدثت سكارليت نفسها .

« إن أسرتى فقيرة جدا بحق ، لماذا أرهقت كاثلين عينيها من البكاء لى تعود إلى هذا المكان ؟ » لقد خلقت عائلة أوهارا فى سافانا نوعا من جزيرة السعادة يسكنونها هم انفسهم ويعيدون سيرة الحياة التى عرفوها فى ايرلندا وهنا يوجد الأصل .

مسلسل متتابع من الرؤوس والأصوات ظهر فى النصف الأعلى من الباب ثم ظهرت سيدات وفتيات وأطفال وأولاد ورجال ورضع جاءوا وذهبوا فرادى وجماعات ووجهت أصوات الموسيقى الايرلندية التحية إلى سكارليت ورحبت بها وكذلك التحية والترحيب بعودة كاثلين مرة أخرى إلى مسقط رأسها . كل ذلك بدفء يصل إلى القلب . انه شيء يختلف عن العالم الرسمى للزيارات والاستقبالات اختلاف الليل عن النهار . روى الرجال والنساء قصصا حول والدها .. وقصص الكبار ذكرياتهم ، والشبان نقلوا ما سمعوه من آبائهم وأجدادهم .

كان فى استطاعتها أن ترى وجه جيرالد أوهارا فى العديد من الوجوه حولها وأن تسمع صوته فى أصواتهم . كل شخص يعرف كل شخص ويعرف عمله . هذه هى احسن اجازة يمكن للشخص ان يقضيها . ان عندى الكثير لأقوله لريت وربما نأتى إلى هنا معا فى وقت ما . وبدأت كاثلين تعد مائدة الطعام . والتقت سكارليت بدانييل شقيق والدها .. رجل نشط طويل القامة . فى الثمانين . والتقت بأولاده . كان هناك أربعة منهم تتراوح أعمارهم بين العشرين والرابعة والعشرين ، علاوة على - فهى تتذكر الآن - ماثيو وجيرالد فى سافانا .

ثورة على الفتاة بريدى لأنها استحمت فى النهر ، وكولام يقول لها : « ألا تعلمين إن نهر بوين يأخذ روحا عن كل ميل من طوله كل سنة ؟ » وفسرت بريدى موقفها : « كاثلين أخبرتنى بأن ابنة عمى سكارليت ستحضر ، وإلين ، قالت لى ان وصيفة السيدة يجب أن تغتسل كل يوم قبل ان تلمس ملابس السيدة او شعرها ، لذلك ذهبت لأغسل » . ونظرت مباشرة إلى سكارليت لأول مرة « كانت نيقتى هى ان اكون موضع الرضا حتى تأخذينى إلى أمريكا » . وارتاحت سكارليت لنظراتها . لن تذرف الفتاة دموع الحنين إلى مسقط رأسها . وسكارليت متأكدة من ذلك ، ولكنها تستطيع استخدامها فقط إلى ان تنتهى الرحلة .. فلا توجد جنوبية استخدمت وصيفة بيضاء حتى الآن . وأخذت تفتش عن الكلمات المناسبة التى تقولها للفتاة . وقال كولام لبريدى :

« لقد تقرر بالفعل ان تذهبي إلى سافانا معنا يابريدى . ولذلك كان يمكنك تجنب المخاطرة بحياتك .. » وأطلقت الفتاة صيحات الفرح ، وقالت :

« ارتفاع المياه لم يتجاوز ركبتى . فلست غيبية إلى هذا الحد » ..
تحدث الجميع ماعدا دانييل الذى لم يتفوه بكلمة ، وعندما وصل الحفل
إلى نهايته .. دفع مقعده إلى الخلف ووقف على قدميه وقال : « احسن
ينبوع مياه فى هذه الفترة الجافة .. هو أنت أينها الشابة كاتى سكارليت
أوهارا ، أنت تشرفين بيتى وأنا أرحب بك ، كان أبوك محبوبا إلى درجة
عظيمة ، وغيباه هو حجر فى صدرى طوال تلك الخمسين سنة وأكثر » .
عقدت الدهشة لسان سكارليت ، وفى اللحظة التى فكرت فيها أن ترد
المجاملة .. كان دانييل قد خرج عائدا إلى حقوله ..
قال كولام : « لقد وضعت خاتمك على هذا البيت . هذه هى المرة الأولى
التي اسمع فيها دانييل أوهارا يستخدم كلمات عن أى شيء ليست له علاقة
بالمزرعة ، ومن الأفضل أن تأخذى حذرك وإلا فإن الأرامل والعوانس فى
المنطقة سوف يشتترين تعويذة لكى يضعنها عليك . ودانييل أرملة كما
تعلمين ، ويستطيع أن يستعين بـ زوجة جديدة »
— « كولام ! انه رجل عجوز ! »
— « الا تزال والدته منتعشة وقوية وهى فى المائة من عمرها ؟ ان امامه
سنوات طويلة يعيشها . والأحسن أن تذكريه بأن لديك زوجا فى الوطن » .
وقالت كاتلين : « إن كولام محق فيما يتعلق بشيء واحد ، وهو أن دانييل
منحها بركته كـرب للمنزل عندما قال : « إذا عجزت عن تحمل البقاء لدقيقة
أخرى فى منزل مولى .. ستجدين مكانا لك هنا إذا شئت » .
ولم تتصور سكارليت انها ستقدم على مثل هذه الخطوة .. سبعة
اشخاص فى بيت واحد صغير لايتسع لأكثر من أربعة اشخاص على أقصى
تقدير ..

أيام غير عادية

أقامت مولى حفل شاي على شرف سكارليت .
 — « ماذا يفعل روبرت ياموى .. هل يرتدى القفاز الأنيق المصنوع من
 جلد الجدى طول الوقت ؟ وكانت سكارليت تشعر بسرور عندما تتجهم
 مولى لدى سماعها لسؤالها .
 واقترحت مولى أن تذهب هى وسكارليت بالمركبة (ذات عجلتين وجوادم
 واحد) للنزهة . وطلبت سكارليت أن تشاهد نهر بوين .
 قالت مولى : « سنذهب إلى « البيت الكبير » لنرى النهر من حديقته ..
 لا توجد مشكلة فـ « الايرل »^(١) ليس هناك ، وروبرت حصل على إذن من
 مستر الدرسون »
 — من هذا ؟

— ناظر زراعة الايرل . انه يدير كل المزرعة وروبرت يعرفه .
 مولى تتحدث عن الرجل كما لو كان شيئاً مهماً !
 اما البيت الكبير .. فقد كان هائلاً . ليس مبنى واحداً ، ولكنه مجموعة
 من الاسقف المزودة بفتحات لكى تطلق منها النار علاوة على الأبراج
 والجدران . انه اقرب إلى مدينة صغيرة منه إلى أى منزل وقع بصر
 سكارليت عليه او حتى سمعت عنه . وادركت السبب فى ان مولى تبتدى
 احتراماً شديداً لناظر الزراعة ، فان إدارة مكان كهذا تحتاج إلى عدد ضخم
 من الناس وإلى جهد خارق فى العمل أكثر من أى مزرعة ظهرت حتى الآن .
 واصيبت مولى بالفزع عندما طلبت سكارليت أن ترى « البيت الكبير »
 من الداخل ، وقالت : « لدينا تصريح بالمشى فى الحديقة .. فقط » .
 كانت سكارليت تتشوق لرؤية النهر . وفجأة ظهر امامها من خلال ثغرة
 من صنع الطبيعة وتبدو كأن فناناً قد صنعها . اسمر وذهبى .. ولم تر
 سكارليت مياهها كهذه من قبل . وصاحت : « انه جميل » . كان والدها
 يحدثها عن هذا النهر . وسمعت عنه طوال حياتها . والآن أصبحت قادرة
 على أن تلمسه . وشعرت سكارليت بعاطفة غريبة لديها .. بشعور
 لا تستطيع وصفه . ومدت سكارليت بصرها .. ورأت برجاً على الضفة
 الأخرى من النهر . انه يشبه الأبراج التى شاهدها خلال رحلة القطار ..
 مصنوع من الأحجار وقد تداعى جزء منه . الطحلب يكسو قاعدته وأغصان
 الكرم تتسلق على جانبيه .. انه اكبر بكثير مما ظننت لأول وهلة .



(١) الايرل لقب انجليزى أدنى من ماركيز وارتفع من فيكونت

— « كولام ، أظن أنني سأقتل ابنة العم العزيزة مولى . لو كنت قد سمعت هذا المروع روبرت الليلة الماضية يتحدث على العشاء ويقول لنا كيف نالنا الشرف الكبير بمجرد السير في ممرات حديقة الايرل الصامتة . لابد انه كرر هذا القول حوالى سبعمائة مرة . وفي كل مرة ترتفع شقشقات مولى لمدة عشر دقائق حول حجم الاثارة التي ينطوى عليها هذا الحدث . ثم في هذا الصباح اصيبت باغماء عندما رأتني ارتدى هذه الملابس التي اشتريتها من جالواى ، والقت المواعظ حول اثر ذلك في تحطيم مركزها واحراج روبرت .. تصور احراج روبرت لابد ان يصيبه الحرج في كل مرة ينظر فيها إلى وجهه الغبى في المرأة . كيف تجرؤ مولى على أن تنصحنى بالا اسبب لها العار » .

ونصحها كولام بالا تفسد متعتها بالحديث عن مولى . وتوجهها لزيارة بلدة « تريم » ذات التاريخ العريق . وهناك شاهدت قلعتها الشهيرة ، والمتجر الذى كان يعمل به جامى وهو في السادسة عشرة قبل ان يذهب إلى سافانا وهو في الثانية والأربعين . وتحدثنا إلى صاحب المتجر الذى كان لابد ان يخلق متجره ويرافق صاحبيه لمقابلة زوجته التى ستموت حزنا لو لم تسمع اخبار سافانا من شفتى كولام مباشرة ولو لم تقابل الزائرة اوهارا التى أصبحت حديث الريف لجمالها وسحرها الأمريكى . ثم كان لابد من ابلاغ الجيران بأنه يوم غير عادى وبشخصية الزائرين .. وأسرع الجميع إلى الغرف الواقعة فوق المتجر حتى ان سكارليت شعرت بان الجدران تهتز .

ثم إن اسرة هامونى سوف تتأذى مشاعرها إذا جاء الزائران الى بلدة تريم دون رؤيتها .. فهى عائلة موريين .. وازداد عدد المحنثسين .. ووصل الطعام وعزفت الموسيقى .

وقالت سكارليت في طريق العودة : « هل تعتقد أنني أستطيع الاقامة في بيت دانييل ؟ إننى اكره حقا البقاء في منزل مولى ، لماذا تضحك يا كولام » ؟ ! — « كنت أتساءل كيف أغرى مولى لكى تعطينا المركبة يوما آخر . الآن اعتقد انها مستعدة لأن تضع المركبة تحت تصرفك لحين انتهاء اقامتك هنا .. لا تتضايقى يا سكارليت ولكنها سوف تعذنى بأى شيء إذا وعدتها بان انقلك إلى مكان آخر ، فهى لن تغفر لك ، ما تحدثت به حول وضع روبرت للقفاز المصنوع من جلد الجدى في يديه وهو يعتنى بأبقاره .. انها الآن القصة الراجحة في كل مطبخ ابتداء من هذه القرية حتى مولينجر » . واستقرت سكارليت في الغرفة التى تقع « فوق » المطبخ في كوخ العم دانييل الذى يتكون من غرفتين وهى تشعر براحة كبيرة .

« تارا » القديمة

كان الجو ممطرا عندما أخذها كولام إلى « تارا الحقيقية ». وصعدت سكارليت درجات حجرية غير مستوية على جانب التل الذى حكم منه ملوك أيرلندا العظام وعزفوا الموسيقى وأحبوا وكرهوا وأقاموا المآداب . وخاضوا المعارك . وفى النهاية لحقت بهم الهزيمة ولم يبق أثر لشيء .. حتى قلعة واحدة . وتلفتت سكارليت حولها ولم تر شيئا سوى بعض رؤوس الماشية ترعى فى المكان . بدا صوفها رماديا تحت سماء رمادية وضوء رمادى . وسارا ببطء عبر حشائش كثيفة فوق أرض غير مستوية . وتوقف كولام ليقول : « القديس باتريك نفسه وقف حيث نقف الآن . كان رجلا عاديا عندئذ مجرد مبشر .. والأرجح أنه لم يكن أكبر منى حجما . وحلت به القداسة فيما بعد ، وكبر فى عقول الناس ليصبح عملاقا محصنا ومسلحا بكلمة الله المقدسة .. واعتقد أنه من الأفضل أن نتذكر أنه كان رجلا عاديا فى البداية وإنه أصيب بالفزع وهو وحيد .. لا يملك سوى خفه وعبأته الصوفية الخشنة ويواجه سلطة الملك النبيل وسحرته ، ولم يكن باتريك يملك سوى إيمانه ورسالته الحقيقية والحاجة إلى إبلاغها . لابد أن الرياح كانت باردة ، وإن حاجته إلى إبلاغ رسالته كانت اشبه بالشعلة التى تبدد الظلمة . لقد حطم بالفعل قانون الملك النبيل مضيقا مشعله فى ليلة حالكة فى ظل قانون ينص على ضرورة اخماد كل النيران . كان يعلم أنه يمكن أن يلقي حتفه من جراء هذا التحدى والانتهاك للقانون . وقد تحمل المخاطرة الكبرى لكى يلفت نظر الملك ولكى يثبت له عظمة الرسالة التى يحملها . لم يخش الموت . كان يخشى فقط أن يخذل الله . وقد اعطى الملك لوجير من عرشه العريق المرصع بالجواهر .. للمبشر الجسور الحق فى أن يعظ بلاعائق .. وأصبحت أيرلندا مسيحية . »

وسار كولام بضع خطوات وأشار إلى سلسلة من الروابى المنخفضة ، وقال : « هذا هو كل ما تبقى من قاعة المآداب ذات الألف شمعة .. عائلة اوهارا كانت هنا .. كل الأبطال كانوا هنا .. والطعام والشراب بوفرة هائلة . والف ضيف .. والف شمعة لإضاءة القاعة .. »
هذه هى تارا القديمة .

« السفن النعوش »

في اليوم التالي ، جاء كولام ليصحبها إلى نهر بوين ، قال : « هناك شيء أريدك أن تشاهده »

.. النهر . أسرع نبضها . شيء هناك يجذبها ويثير نفورها في نفس الوقت . بدأت السماء تمطر . وسوف تمتطى جوادا هذه المرة وبلا سرج لأول مرة . وخرجت الطيور من أوكارها وهى في الطريق إلى النهر . فقد توقف المطر . وعلى ضفة النهر . جلسا لتناول الافطار . الأشجار نمت على مقربة من النهر وزهور صفراء اللون أوراقها تتخذ شكل القلوب .. واغمضت عينيها واصغت إلى خرير المياه الهادئ وإلى حفيف أوراق الأشجار فوق رأسها وإلى تغريد الطيور . قال كولام : « عندى قصة سارويها لك ونحن ناكل .. هذه الأرض التي نجلس عليها تسمى بوليهارا . منذ حوالى مائتى سنة . كانت موطن اهلك .. اهلنا . هذه هى أرض أوهارا » . وتنبهت حواس سكارليت فجأة . وواصل كولام حديثه :

« منذ الفى سنة استقر أول أفراد أوهارا هنا ووضعوا أيديهم على الأرض . ومنذ ألف سنة اكتشف الفايكينج الذين نسميهم الآن الاسكندينايفين القراصنة القدامى ، ثروات ايرلندا الخضراء وحاولوا الاستيلاء عليها . وراقب الايرلنديون - مثل أفراد أوهارا - الأنهار لمواجهة احتمال غزو الزوارق الطويلة التى تحمل رؤوس التناثن واقاموا تحصينات قوية ضد العدو . وتم طرد الفايكينج ، وحرث الأوهارا أرضهم وقاموا بتسمين قطعان ماشيتهم لمائتى سنة أو أكثر . وشيدوا قلعة حصينة تضم غرماً لأنفسهم ولخدمهم .. فالأيرلنديون يتمتعون بذاكرة قوية ، ولذلك شعروا انه كما جاء الفايكينج من قبل ، فإن الغزو قد يتكرر ، وهذا ما حدث . ولم يكن الفايكينج هذه المرة وانما الانجليز الذين كانوا في وقت من الاوقات .. فرنسيين ، واستولوا على نصف ايرلندا . غير أن جماعة أوهارا كانوا هم السادة وراء أسوارهم القوية وزرعوا أرضهم لخمسمائة سنة أخرى .. إلى أن وقعت معركة بوين . وهكذا .. بعد الفى سنة من عمل أوهارا في الأرض ، أصبحت الأرض انجليزية . وتم طرد جماعة أوهارا عبر هذا الجزء الضحل من النهر .. وهم الذين تبقوا من الارامل والاطفال . أحد هؤلاء الاطفال كبر واصبح مزارعا أجيرا لدى الانجليز عبر النهر . وكان حفيده مزارعا من نفس الحقول وتزوج جدتنا كاتى سكارليت .. وإلى جانب والده ، كان ينظر عبر المياه السمراء لبوين ويرى قلعة أوهارا تتحطم

ومنزلا انجليزيا يشيد مكانها . غير أن الاسم بقي كما هو بوليهارا «
وبكت سكارليت وهي تتذكر والدها وفورته الغاضبة وهو يتحدث عن
معركة بوين . وذهب كولام إلى النهر وشرب من يديه وغسلهما ثم ملامها
بالمياه لسكارليت حتى تشرب . ومسح دموعها من أعلى خديها بأصابعه
المبتلة ..

قالت سكارليت : « انتظر أن أسمع منك البقية . أعرف أن هناك المزيد .
وجهك ينبغيء بذلك » .

كان كولام شاحب الوجه .. يبدو وكأنه يعاني من ألم لا يطلق .
— « نعم . هناك المزيد . فقد شيدت بوليهارا الانجليزية من أجل لورد
شاب . كان عادلا ووسيعا مثل الإله الإغريقي أبوللو كما يقال . وظن نفسه
إله أيضا . وصمم على جعل بوليهارا أعظم مزرعة في أيرلندا . كان يمتلك
كل حجر وورقة شجر في بوليهارا . وقرر أن تكون قريته أعظم من أى قرية
أخرى أعظم من دبلن نفسها .. حتى حظائر الخيول والمثنية كانت أشبه
بالكاتدرائية . نوافذ قصره كانت ناصعة مثل المناس ، وحدائقه سجاد ناعم
يقود إلى نهر بوين . والطاوييس تنشر مراوحها المرصعة بالمجوهرات في
ممرات القصر والحديقة .. وتتهادى السيدات الجميلات بجواهرهن في
حفلاته .

كان سيد بوليهارا . وأصبح حفيده هو السيد بعد وفاته . أننى أتذكر
ذلك اللورد الشاب ، كنت طفلا ، وكان يمثل بالنسبة لى كل ما هو مذهل
وأنيق ، كان يمتلئ جوادا طويلا أغبر ، وعندما كانت حاشيته تطأ بحوافر
جياها أعواد القمح في حقولنا بينما يصطادون الثعالب ، كان هو يلقي
دائما بقطع النقود إلينا نحن الأطفال . كان يجلس على حصانه طويل
القامة .. نحىلا بمعطفه الوردى وبنظلولنه الأبيض القصير المخصص
لركوب الخيل وحذاءه اللامع ذى الرقبة العالية . ولم أكن أفهم السبب
الذى يجعل والدى ينتزع منا قطع النقود ويكسرها ويلعن اللورد لأنه
لقى بها إلينا » .

وقف كولام وبدأ يمشى على ضفة النهر وعندما واصل حكايته ، كان
صوته ينبض بالتوتر الناشئ عن محاولة التحكم فى نبرته :

— « جاءت المجاعة ومعها الفناء والموت . وقال لورد بوليهارا :
« لا أستطيع أن أتحمل رؤية عمالى الزراعيين فى هذا العذاب ، سوف
أشتري سفينتين كبيرتين وأهينى لهم رحلة مجانية آمنة إلى أمريكا حيث
الطعام الوفير ، ولا أبائى بأن أبقارى لن تجد من يحلبها وبأن تمتلئ

حقول بالاشواك لأنه لن يوجد من يزرعها ، إن حرصى على أهالى بوليهارا اكبر من حرصى على قطعان المشية أو القمح .. وقبل المزارعون والقرويون يده لطيبته .. واستعد الكثيرون منهم للرحلة . ولكن لم يكن الجميع بقادرين على تحمل الام مفارقة ايرلندا . فقال البعض « سنبقى رغم اننا نتصور جوعا » . وابلغوا اللورد الشاب بذلك ، فأرسل تعليماته الى انحاء الريف بأن أى رجل وامرأة يطلب أو تطلب .. مكانا شاغرا على سطح سفينته .. يعطى له أو لها مجانا وبكل سرور . ولعنه أبى مرة أخرى وثار على شقيقه ماتيو وبراين لقبولهما هدية الانجليزى . ولكنهما اصرا على الرحيل . وقد غرقا مع جميع المسافرين عندما غرقت السفن المتعفة لدى وصولها إلى أعلى البحار . واستحقت اسم « السفن النعوش » . وكمن رجل من بوليهارا فى الاسطبلات ينتظر ، لم يهتم بانها جميلة مثل الكاترائيات . وعندما وصل اللورد الشاب لكى يمتطى جواده الأغبر الطويل ، أمسك به الرجل وشنق اللورد ذا الشعر الذهبى .. شنق سيد بوليهارا .. فى البرج المطل على نهر بوين الذى كانت جماعة اوهارا تحرسه ذات يوم من السفن الخنائن » .

وطارت يد سكارليت بسرعة لتضعها على فمها . كان كولام شاحبا بصورة غير عادية ويتكلم بصوت ليس صوته .

البرج ا لابد أنه هو نفسه . وانطبلت يدها بشدة على شفيتها . يجب الا تتكلم . وقال كولام : « لا احد يعرف اسم الرجل الذى كان فى الحظيرة او الاسطبل .. البعض يقول اسما . والبعض يقول اسما آخر . وعندما جاء الجنود الانجليز ، لم يفصح الرجال الباقون . فى بوليهارا عن اسمه ، فقام الانجليز بشنقهم جميعا عقابا لهم على موت اللورد الشاب » .

بوليهارا مهجورة منذ قرابة ثلاثين سنة ولا أحد يقترب منها .. وعندما تجولت سكارليت فى شوارعها . رأت الجدران الحجرية الضخمة للبرج . لم يكن يوجد اسمنت بين قطع الأحجار ، ومع ذلك فإنها لم تتحرك بوصة واحدة من مكانها .. كم عمرها ؟ ألف سنة ؟ ألفا سنة ؟ لا يهم ، فهى لا تخشاها ، فالبرج هو مجرد مبنى ، افخم عمل رآته حتى الآن ، وليس مخيفا على الاطلاق . واقتربت من الأحجار لكى تلمسها باصابعها ، قال كولام : « أنت شجاعة يا عزيزتى سكارليت . لقد حذرتك ، فهناك من يقول ان البرج مسكون بروح رجل مشنوق » .

— « هراء ! ليست هناك أشباح أو أشياء من هذا القبيل . علاوة على ذلك فإن الحصان ما كان ليقرب لو كانت هناك هذه الأشياء .. كل امرئ يعرف ان الحيوانات تستطيع أن تحس بهذه الأشياء » وضعت سكارليت

يدها على الحجارة ، كانت ناعمة من تأثير العوامل الجوية في تركيب وشكل هذه الأحجار على مر الدهور . كانت تستطيع أن تشعر بدفء الشمس في داخلها وببرودة المطر والرياح ، حالة من الصفاء النفسى لم تشعر بها من قبل .

قال كولام : « لقد عاشت هذه الأحجار مثل شجرة قوية لها جذور قوية تضرب في الأعماق .. إلى مركز الأرض » ..

« جذور تضرب في الأعماق » .. أين سمعت هذه العبارة من قبل ؟ طبعاً قالها ريت عن شارلستون ، وابتسمت سكارليت . تستطيع أن تقول له أشياء عن الجذور التي تضرب في الأعماق . فقط سانتظر إلى أن يبدأ في التفاخر حول عراقه شارلستون .

— « هل كان للورد بوليهارا أطفال ؟ » وقال كولام بارتياح .

— « كلا ، كانت له زوجة .. اعتقد أنها عادت إلى أهلها أو ذهبت إلى

ملجأ ، فالبعض يقول أنها أصيبت بالجنون » ..

القرية أكبر من أن تكون مجرد قرية . لا توجد بها نوافذ .. ولا يوجد باب غير محطم .. الكراهية صنعت ذلك كله .

وسالت كولام : « ما هو أفضل طريق للعودة إلى البيت ؟ »



عيد الميلاد المائة

اليوم عيد الميلاد المائة للجدّة كاتى سكارليت .. قامت سكارليت الصغيرة بنصبيها من العمل اليدوى الشاق للاعداد للحفل . وبعد الغداء جاءت جميع نساء القرية إلى المنزل مع اطفالهن للمساهمة فى العمل . انه حفل ليس له مثيل . جميع افراد عائلة أوهارا من كل انحاء مقاطعة « ميث » وما وراءها جاءوا بعربات تجرها الحمير ومركبات تجرها الجياد او على ظهور الجياد .. او على الأقدام . نصف سكان بلدة تريم وصلوا .. وكل كائن حى فى « آدمز تاون » لم يتخلف عن الحضور . احضروا معهم الهدايا والأطعمة التى جرى اعدادها خصيصا للحفل رغم ان سكارليت كانت تعتقد ان هناك بالفعل طعاما يكفى جيشا بأكمله . ووصلت عربة آل ماهونى من تريم محملة ببراميل من مشروب يشبه الجعة ، وكذلك فعل جيم ديلى القادم من مولينجر . وركب سيماس (ابن دانيل الاكبر) حصان المحراث الى تريم وعاد حاملا على ظهره صندوقا من الغلايين المصنوعة من الصلصال وجوالين من التبغ معلقين فى رقبتة مثل السرج لأن كل رجل - وعديدا من النساء أيضا - يجب اعطاؤهم غليوننا جديدا فى هذه المناسبة البالغة الأهمية ..

واستقبلت جدّة سكارليت سيلا من الضيوف والهدايا .. وهى جالسة كالملكة فى مقعدها على الظهر مرتدية فوق ثوبها الحريري الأسود قلادتها الجديدة التى أهدتها اليها سكارليت الصغيرة .. يغلبها نعاس خفيف عندما تشعر برغبة فى ذلك ، وتشرب الويسكى مخلوطا بالشاى . ومع مضى الوقت تجمع أكثر من ثلثمائة شخص داخل وخارج الكوخ الصغير ، جاءوا لتكريم كاتى سكارليت فى عيد ميلادها المائة .. وبدأ عزف الموسيقى الى ما لا نهاية ، كما استمر الرقص حتى الصباح فى باحة المزرعة ولم ينم أحد باستثناء كاتى سكارليت العجوز عندما كانت ترغب فى ذلك .

قالت سكارليت « لم أكن أتصور أن هناك حفلا مثل هذا الحفل » . كانت تلهث قليلا قبل أن تعود للانضمام الى الرقص مع شروق الشمس . وتعجب أبناء العم المصدومون مما سمعوا والذين جاءوا من حيث لا تدرى : « هل تعنين أنك لم تحتفلى أبدا بعيد مايو ؟ .. وقال تيموتى أوهارا « يجب ان تطيلي بقاءك حتى عيد مايو ياكاتى سكارليت الصغيرة » وانضم اليه « كورس » من المشجعين .

— « لا أستطيع ، يجب أن نلحق بالسفينة » .

— « هناك سفن أخرى بالتأكيد » .

وقفزت سكارليت من مقعدها ، فقد استراحت بما فيه الكفاية والآن تبدأ
جولة جديدة من رقصة الريل ، وبدأ السؤال يتردد في ذهنها : « هناك سفن
أخرى بالتأكيد » فلماذا لا تبقى وتستمتع برقص لذبح لفترة أطول ؟ ستظل
شارلستون باقية هناك ، وعندما تعود ستجدها كما هى .. نفس حفلات
الشاي في نفس البيوت المتداعية وراء نفس الجدران العالية الكثيبة ،
وسيكون ريت لا يزال هناك أيضا ساعده ينتظر لقد انتظرته طويلا في
أتلانتا ، غير أن الأمور مختلفة الآن ، فالجنين في أحشائها جعل ريت ملكا
لها في أى وقت تريد ، أن تطالب به ، نعم لقد قررت البقاء حتى عيد مايو
فهى تستمتع بوقتها .

وفي اليوم التالى سألت كولام عما إذا كان يعرف شيئا عن مواعيد ابجار
سفن بعد عيد مايو . وكانت هناك بالفعل سفينة أخرى فاخرة سوف تتوقف
أولا في بوسطن حيث ينزل منها كولام وتستكمل هى وبريدى الرحلة فيها
إلى سافانا . وقال كولام :

— « سوف تبحر في مساء التاسع من مايو ، وسيكون لديك نصف يوم
فقط للتسوق في جالواى » لم تكن في حاجة حتى إلى هذا الوقت للتسوق ،
فليس هناك في شارلستون من سيرتدى جوارب أو ثيابا من جالواى ، فهى
فاتحة جدا وسوقية ، وسوف تحتفظ ببعض ما اشترته منها على سبيل
التذكار وستعطى الباقي لكائلين والأصدقاء الجدد في القرية الايرلندية ..
— « التاسع من مايو . انه موعد متأخرا جدا عما كنا نريده ياكولام » .

— « انه مجرد اسبوع ويوم واحد بعد عيد مايو . الزمن سوف يسقط
ياسكارليت فور ان يموت الانسان » .

هذا صحيح ! لن تتاح لها هذه الفرصة مرة أخرى . علاوة على ان
ستفعل شيئا طيبا لكولام . فاضطراره إلى القيام برحلة أخرى عائدا من
سافانا إلى بوسطن سيكون مشقة حقيقية بالنسبة له وبعد ان كان رقيقا
معه إلى هذا الحد ، فإن هذا هو أقل ما تفعله من أجله ..

قصور في الهواء

تسلم كولام خطابا من جامي في سافانا .. كان الخطاب يحتوى على رسالة من توم ماكهاون ، مقال الكاندرائية ، يعلن فيها أن الأسقف - بعد قليل من الاقناع - وافق على السماح لسكارليت بان تسترد دوتة شقيقتها . تارا . يا « تارتى » سوف اصنع أشياء رائعة .. ولكن سكارليت توقفت عن مواصلة قراءة الرسالة .

— « ما هذا كولام ، هل رايت هذا ؟ هذا الأسقف الخسيس يطلب خمسة آلاف دولار نظير نصيب شقيقتي كارين .. ثلث تارا ايا إلهي ! إنك تستطيع أن تشتري كل مقاطعة كلينتون مقابل خمسة آلاف دولار .. يجب عليه أن يخفض الثمن » .. وقال لها كولام أن إساقفة الكنيسة لا يساوون ، فإذا كانت تريد الدوتة ، ولديها المال ، فإنها يجب أن تدفعه ، وستكون بذلك قد ساهمت في عمل الكنيسة ، وربما تعطيها هذه المساهمة الاحساس بان الصفقة مقبولة .

— « أنت تعرف انها غير مقبولة يا كولام . اننى اكره ان يعاملنى أحد على اننى مغفلة بلهاء حتى لو صدرت هذه المعاملة من الكنيسة .. انى أسفة إذا كان ما اقله يضايك ، ما زلت أريد تارا ، أه كم كنت حمقاء إذ وافقتك على البقاء لمدة أطول . كان يمكن أن نكون في طريقنا إلى سافانا الآن » ! ولم يعلق كولام ، وغادرها ، وهى تبحث عن ورقة وقلم : — « يجب أن اكتب إلى العم هنرى هاميلتون فوراً ، إنه يستطيع أن يدبر كل شيء . وسوف يسوى الأمر عندما اصل إلى هناك » ..

توجهت سكارليت إلى بلدة تريم وحدها . فقد كانت كل من كاثلين وبريدى مستغرقتين في العمل بالمرعة . أما كولام فقد اختفى دون أن يخبر أحدا إلى أين سيذهب أو متى يعود . واشترت سكارليت من تريم بعض الاواني الفخارية التى تعجبها .. والتى كانت كاثلين تستخدمها في المطبخ كما اشترت مجموعة من السلال من كل الاشكال وكميات كبيرة من الملابس المصنوعة من الكتان والبياضات . إنها تريد أن تجعل المطبخ في تارا دافئا وحميما مثل المطبخ الايرلندى . اليس اسم تارا ايرلنديا ؟ أما عن ويل وسوايلين فانها ستكون سخية معهما لأن ويل يستحق ذلك ، وهناك مساحات كبيرة من الأرض الطيبة تنتظر من يشتريها في المقاطعة ، ويمكن أن يحضر « ويد » و « ايللا » للإقامة معها ، هى وريت ، في شارلستون . فقد كان ريت يعتز بهما حقا . وسوف تجد لهما المدرسة المناسبة . وقد يظهر العبوس على وجه ريت كما كان يفعل عادة بسبب طريقة معاملتى

لهما ، ولكن عندما يولد الطفل ويرى كم أحبه سيكف عن توجيه الانتقادات
فى طول الوقت . وفى الصيف سوف يذهبون الى تارا .. التى ستكون
قد ولدت من جديد .

كانت سكارليت تعرف انها تبني قصورا فى الهواء ، فقد لا يغادر ريت
شارلستون بتاتا ، وفى هذه الحالة سوف تكتفى بزيارات عرضية بين وقت
وأخر لتارا .. ولكن لماذا لا تكون أحلام اليقظة هى كل ما تريده فى يوم
جميل كهذا من أيام الربيع ؟



كل الوعود التى قيلت حول احتفال عيد مايو .. تحققت بالفعل . فقد
كان هناك طعام ورقص فى كل شارع فى بلدة « تريم » .. وعلى الحشائش
الواقعة داخل جدران القلعة المحطمة . وعادت سكارليت إلى البيت مع
طلوع الفجر . سارت على قدميها مسافة الأميال الأربعة مع بقية الأسرة
لأنها لم تكن تريد لهذه الليلة أن تنتهى رغم طلوع النهار بالفعل ، ولأنها
بدأت تشعر بأنها سوف تفتقد أبناء وبنات عمومته وكل الناس الذين
التقت بهم فى هذا المكان . ومع أنها كانت تتطلع إلى العودة إلى أمريكا
لتسوية الأمور التفصيلية المتعلقة بشأن تارا ، إلا أنها كانت مسرورة
لبقاءها لحضور عيد مايو . لم يبق سوى أسبوع . وأحست أنه مدة
صغيرة جدا .



وضع كولام ظرفا على المائدة إلى جانب سكارليت ، وقال : « هناك بريد
وصل باسمك .. وهذا فنجان من الشاي لك عندما تشائين » .. كانت
سكارليت تجلس أمام كوخ كاثلين .

التقطت الظرف ورفعته لكي يكون قريبا من الباب حتى يسقط عليه
ضوء المصباح الغازى . كان مرسلا إلى الأصل إلى عنوان جدها ولكنه - وفقا
للطوابع والاختام التى تتزاحم فوق المظروف - لم يرسله إلى مورين أوهارا
فى سافانا إلا بعد أسابيع .. وفتحت المظروف فى عجلة . كان يحتوى على
ورقة مرسلة من أحد المكاتب الحكومية فى أتلانتا .. وموجها إلى عنوانها فى
شارع بينشترى ..

انها تأمل ألا تكون قد نسيت تسديد ضريبة ما أو شيء من هذا القبيل ،
فهى تحتاج إلى أموال للأسقف من أجل تارا إلى جانب التكاليف التى
تتحملها فى تشييد المنازل فى أطراف أتلانتا .. وكل ذلك على حساب مدخراتها
التي تتناقص ، كما أنها ستحتاج إلى الكثير من أجل العمل فى تارا ، إلى
جانب ما ستحتاجه لشراء مكان لـ « ويل » . ولذا فإنها فى غنى الآن عن

دفع غرامات مالية متأخرة لأى جهة ، ولمست بأصابعها الكيس الموضوع تحت قميصها .. لا . اموال ريت .. هى اموال ريت ..



تاريخ الوثيقة هو ٢٦ مارس ١٨٧٥ ، نفس اليوم الذى أبحرت فيه من سافانا على السفينة « برايان بورو » ومرت عينا سكارليت بسرعة على السطور القليلة الأولى ثم توقفت ولم تفهم شيئاً .. وعادت إلى بداية الوثيقة وشرعت فى القراءة ببطء . وامتقع وجهها بشدة :

« كاتلين ، أين كولام ، هل تعرفين مكانه ؟ »

— « انه مع العجوز فيما أعتقد ... »

— « لا استطيع الانتظار .. » لابد أن ترى كولام . شئ مخيف قد حدث لابد أن تسافر اليوم .. هذه الدقيقة . يجب أن تعود إلى أمريكا . الهدوء غير الطبيعي الذى كان يسيطر على سكارليت .. زال تماماً عندما وصل كولام . وأخذت تصرخ عندما اقتربت منه :

— « خذنى إلى بيتى ياكولام . اللعنة عليك وعلى كل عائلة أوهارا وعلى أيرلندا . ما كان يجب أن أغادر الوطن على الإطلاق » كانت يدها مضمومة بطريقة مؤلمة .. أظافرها انغرست فى لحمها .. وفى داخلها وثيقة تكورت فى يدها من ولاية جورجيا ذات السيادة بأنها وضعت فى سجلاتها مرسوم الطلاق الممنوح للمدعو ريت كينيكات بالتر بسبب هجر زوجته المدعوة سكارليت أوهارا بالتر له وقد أصدر المرسوم المنطقة العسكرية لكارولينا الجنوبية التى تديرها الحكومة الفيدرالية للولايات المتحدة الأمريكية . قالت سكارليت : « ليس هناك طلاق فى كارولينا الجنوبية .. اثنان من المحامين ذكرا لى ذلك » .. وكررت نفس العبارة مرة بعد أخرى إلى أن بح صوتها وعجزت عن اخراج صوت من حلقها .. فأخذت شفتاها تتحركان بنفس الكلمات فى صمت .. وعقلها يردد العبارة ذاتها .. مرات ومرات

اقتادها كولام إلى ركن هادئ من حديقة الخضراوات أمام البيت . وجلس بجانبها ، وبدأ يتحدث ولكنه لم يستطع أن يحملها على الاصغاء ، فأخذ يديه المضمومتين فى يديه بروح المواساة . وجلس فى هدوء بجانبها . وجاءت بريدى تبحث عنهما للإعلان عن طعام العشاء . وقال لها كولام « سكارليت ليست على مايرام بابريدى ، أبلغهم فى البيت ألا يقلقوا ، انها تحتاج فقط إلى بعض الوقت لكى تتغلب على الصدمة ، فقد وصلت أخبار من أمريكا ، بأن زوجها مريض جدا ، وهى تخشى أن يموت دون أن تكون إلى جانبه » .

واسرعت بريدي لنقل الأخبار . وقالت إن سكارليت تصلى . وادت الأسرة الصلاة أيضا . وعندما شرع أفرادها في نهاية المطاف في تناول الطعام ، كان قد أصبح باردا .. وقال دانيل « خذ فانوسا وضعه في الخارج للضاءة يا تيموتى » . وانعكست أضواء من عيني سكارليت الزجاجيتين .

— « أرسلت كاثلين شالا أيضا » . همس تيموتى . واوما كولام ، ووضع الشال على كتفى سكارليت ، وأشار إلى تيموتى لكى يبتعد ومضت ساعة أخرى . ولعلت نجوم في سماء غاب عنها القمر ، وأخذت ترسل أضواء أقوى من ضوء الفانوس .

— « ماذا يجب أن أفعل ؟ » كان صوت سكارليت الخشن مرتفعا في الظلام . وتنهذ كولام بهدوء وشكر الله . فقد تجاوزت سكارليت أسوأ فترات الصدمة .

— « سنعود إلى أمريكا كما وضعنا خططنا ياسكارليت حبيبتي . لم يقع شيء يستحيل علاجه » كان صوته هادئا وواثقا ومسكنا .

— « مطلقة » !

صعود مقلق في درجة الهستيريا في الصوت المعطوب المشروخ . وفرك كولام يديها بخفة وسرعة ..

— « ماحدث يمكن التراجع عنه ياسكارليت » .

— « كان يجب أن أبقي . لن أغفر لنفسي أبدا .. »

— « اصمتي الآن . كلمات مثل « لو لم أفعل كذا » لن تحل شيئا . ان ما يستحق التفكير هو ماسيحدث بعد الآن » .

— « انه لن يعيدنى أبدا . لو لم يكن قلبه قاسيا لما طلقنى . لقد ظلمت انتظر أن يلحق بى ياكولام . كنت واثقة تماما من أنه سيفعل . كيف تاتى أن أكون غيبية إلى هذا الحد ؟ انت لاتعرف كل شيء . اننى حامل ياكولام كيف انجب وليدا وأنا بلا زوج ؟ قال كولام بهدوء ، تعبيرا عن الرضا والتشجيع : « هو ذا .. هو ذا ، الا يعنى ذلك أن المسألة ليست صعبة . كل ما عليك أن تفعله هو ابلاغه بذلك » . وامتدت يدا سكارليت بسرعة إلى بطنها . طبعا ! كيف أصبحت حمقاء إلى هذه الدرجة ؟ ضحكة جريئة انحشرت في حلقها .

لاتوجد قطعة من الورق في الدنيا يمكن أن تجعل ريت باتلر يتخلى عن وليده . انه يستطيع أن يلغى الطلاق وأن يستأصل اجراءاته ووثائقه من كل السجلات . ريت يستطيع أن يفعل أى شيء . لقد برهن على ذلك مرة

اخرى . فلا يوجد طلاق في كارولينا الجنوبية ما لم يحزم ريت باتلر امره لكي يحصل عليه .

— « اريد ان اسافر الآن فورا ياكولام . لا بد ان هناك سفينة ستبحر قبل التاسع من مايو . سوف يصيبنى الجنون إذا انتظرت أكثر من ذلك » .
— « سنغادر في ساعة مبكرة من صباح الجمعة ياسكارليت حبيبتي ، وسوف تبحر السفينة يوم السبت . وإذا تحركنا من هنا غدا سيكون أمامنا يوم قبل الإبحار . الا تفضلين تمضية هذا اليوم هنا ؟ »
— « لا . اريد ان اشعر باننى مسافرة ، حتى ولو لجزء من الطريق ، فإن هذه المسافة تعنى اننى اتجه عائدة إلى ريت . كل شيء يمكن علاجه ، سوف اجعل الأمور تمضى في الطريق الصحيح . وسيكون كل شيء على مايرام .. اليس كذلك ياكولام ؟ » ..



الصدمة

مثل الكثيرين ممن سبقوه .. وقع كولام في خطأ التقليل من تقدير قوة سكارليت أوهارا . فقد أعدت عدتها للسفر بنشاط ، بينما كان يروج لقصتها الحزينة حول مرض زوجها حتى لا يتعجب الأهل والأصدقاء ويتساءلون عن السبب الذي جعل الأمريكية أوهارا ترحل مثل اللصبة في الليل دون كلمة وداع . ولكنها قامت بتوديع العائلة . فقط أثناء توديع كاتي سكارليت العجوز لم تتمالك نفسها وانهارت . قال الجدة : « الله معك والقديسون يرشدون خطواتك . اننى سعيدة لأنك حضرت هنا من أجل عيد ميلادى يا ابنة جيرالد . الشيء المؤسف الوحيد هو انك لن تحضرى السهر على جفتى قبل دفنها . لماذا تبكين يا فتاة ؟ ألا تعرفين أنه لا يوجد حفل اعظم من حفل الميت ؟ »

جلست سكارليت صامتة في العربة التى أقلتها إلى مولينجر وفي القطار الذى أقلتها إلى جالواى وفي صحبتها كولام وبريدى .

وبعد أن استقر بهم الحال في الفندق في جالواى ، أصرت سكارليت على أن تصحب كولام إلى الميناء للاطمئنان على موعد سفر السفينة التى ستقلهم إلى أمريكا واسمها « نجمة المساء » . وهناك التقى كولام بطريق المصادفة مع أحد أقربائه ويدعى فرانك ماهونى . كان يحمل معه جوالين من البريد من السفينة التى وصلت للتو من أمريكا . وقال لكولام . - « هل تحب أن تلقى نظرة على الجوالين أم تفضل الانتظار لحين عودتك إلى وطنك أيرلندا لكى تقرأ رسائل الحب التى تصل إليك ؟ »

— « هذا فضل منك يا فرانك . سألنى نظرة لو سمحت لى . وفتح كولام الجوال القريب من قدميه وأخذ يفتش بين الرسائل إلى أن قال « إن الحظ يحالفنى اليوم » .. فقد وجد بسهولة رسالة موجهة إليه من سافانا . ووجد مطروفا صغيرا داخل مطروفه الكبير . وقال : « هذا لك ياسكارليت . ووضع المظروف الأزرق في يدها . وشرع كولام في قراءة رسالته القادمة من ستيفن عندما سمع صيحة ممتدة وشعر بثقل يزلزل بجانبه . وقبل أن يمد ذراعيه . كانت ترقد عند قدميه . لقد فقدت الوعي .

حملها كولام إلى عربة بمساعدة بريدى ، وعاد إلى الفندق وطلب أحد الأطباء لفحصها .. وبدأ كولام يشعر لأول مرة بقلق على صحة سكارليت .



قال الطبيب وهو يغادر غرفة نوم سكارليت في الفندق : « لقد أغمى عليها ، هذا هو كل شيء يا ابى ، ولكنها اغماءة شديدة . لقد تركت بعض

المعويات مع الفتاة لكي تتناولها .. تم أن هؤلاء السيدات سيوقفن الدورة الدموية في أجسامهن بسبب الملابس التي يستخدمونها وفقا للموضة . ومع ذلك لاداعى للقلق . سوف تستعيد صحتها « شكره كولاوم ودفع له وودعه عند الباب . كان مهموما يسأل نفسه عما إذا كانت سكارليت ستعود كما كانت .

الأوراق المنبعجة التي بللها الماء والموضوعة على المائدة بجانبه هي الرسالة التي تسلمتها سكارليت . ووسط هذه الأوراق فصاصة من صحيفة جاء فيها .

« في حفل خاص أقيم أمس في الدار المتحدة للأرامل والإيتام ، عقد قران الأنسة أن هامبتون على السيد ريت بتلر » .



مواجهة الفشل

أفاقت سكارليت لكي تجد نفسها على سرير غرفة الفندق .. واستعادت ما حدث . لقد فقدت ريت . طلقها ، وتزوج آن هامبتون . انها لاتستطيع ان تصدق . ولكنها يجب ان تفعل . فهو صحيح . لماذا ؟ لماذا فعل مثل هذا الشيء ؟ لقد كانت على يقين من أنه يحبها . ليس في استطاعته أن يفعل ذلك . ليس في استطاعته . ولكنه فعلها .

اننى لم أعرفه قط . سمعت سكارليت هذه الكلمات كما لو كانت قد قالتها بصوت عال . اننى لم أعرفه على الإطلاق . من هو هذا الشخص الذى أحبته ؟ طفل من الذى أحمله في أحشائي ؟ ما هو مصيرى ؟ في تلك الليلة ، وفي الظلمة المخيفة داخل غرفة صغيرة في فندق في بلد على مسافة آلاف الأميال من وطنها . أقدمت سكارليت على أشجع خطوة كانت مدعوة إلى اتخاذها طوال حياتها .. وهى مواجهة الفشل .

انها غلطتى . كان يجب أن اعود إلى شارلستون فور أن علمت أننى حامل ، ولكنى اخترت الاستمتاع ، وهذه الأسابيع من المتعة كلفتنى السعادة الوحيدة التى أحرص عليها بحق . اننى لم أفكر فيما سيعتقده ريت عندما أهرب بعيدا . لم أفكر فيما سيحدث في اليوم التالى ، بل لم أفكر على الإطلاق . ولم أفكر في يوم من الأيام .

كل الأخطاء التى نجمت عن الطيش وعدم التروى في كل حياتها تجمعت أمامها في الصمت الحالك هذه الليلة ، وأرغمت نفسها على أن تنظر إليها وتواجهها .

تشارلس هاميلتون ، لقد تزوجته نكابة في أشلى . ولم تكن تهتم على الإطلاق بذلك الرجل الذى تزوجته .

فرانك كنيدي ، كانت بشعة في موقفها منه ، كذبت عليه بشأن سوايلين لكي يقدم على الزواج منها بدلا من سوايلين ولكي يعطيها نقودا تنقذ بها تارا .

ريت . أوه ، لقد ارتكبت العديد من الأخطاء التى لايمكن أن تحصى . لقد تزوجته وهى لم تكن تحبه ، ولم تبذل أدنى جهد لتجعله سعيدا ، ولم تهتم في يوم من الأيام بأن حالته هى حالة رجل غير سعيد .. إلى أن فات الوقت .

يا إلهى .. اغفر لى . اننى لم أفكر يوما فيما أفعله لهم ، ولم أفكر في إحاسيسهم . لقد أدبتهم وأسات إليهم وجرحت مشاعرهم .. جميعا ، لأننى لم أتوقف لحظة لكي أفكر .

وميلانى أيضا ، خاصة ميلانى . لا أستطيع أن اتحمل أن اتذكر كيف كنت شريرة معها . ولم أشعر أبدا بالامتنان تجاه الطريقة التى أحبتنى بها ووقفت بواسطتها إلى جانبى . بل اننى لم أقل لها قط اننى احبها لأننى لم أفكر فى ذلك حتى حلت النهاية ، عندما لم تكن هناك فرصة لأن يقال أى شىء .

هل حدث اننى انتهيت مرة واحدة لما أفعله ؟ هل فكرت ، ولو مرة واحدة ، فى عواقب ما أفعله ؟ اليأس والخجل استحوذا على قلب سكارليت . كيف أمكن أن تكون بهذا القدر من الحماسة . انها تحتقر الحمقى .

واطبقت يديها وتصلب فكرها .. انها لن تسمح باستعادة ذكريات الماضى والشعور بالأسى نحو نفسها . انها لن تبكى حالها لآى شخص آخر ولا لنفسها . وحملت فى الظلام فوقها بعينيهما الجافتين . انها لن تبكى . ليس الآن . امامها بقية العمر كله لكى تبكى . الآن عليها أن تفكر ، وأن تفكر بعناية ، قبل أن تقرر ما ستفعله . يجب أن تفكر فى الجنين .. وللحظة واحدة .. كرهته . كرهته أن يزداد سمك خصرها والانتفاخ الذى سيصيب جسمها . كان من المفترض أن يعيد هذا الجنين إليها ريت ولكن لم يحدث . هناك أشياء تستطيع النساء أن تفعلها . لقد سمعت عن نساء يتخلصن من الاطفال غير المرغوب فيهم .. ريت لن يسامحها أبدا إذا فعلت ذلك . وما الفرق ؟ لقد تركها ريت إلى الأبد .

نشيج مكبوت أفلت من بين شفثيها رغم كل قوة إرادتها . ضائعة . لقد فقدته . اننى مهزومة . وريت هو المنتصر . واجتاحها غضب مفاجئ .. أعاد الحياة إلى جسمها وروحها .

لقد هزمت ، ولكنى سأواجهك ياريت باتلر . سأضربك على نحو اقصى مما ضربتنى .

ووضعت يديها برفق على بطنها . كلا ، انها لن تتخلص من الطفل ، بل ستحرص عليه أكثر من أى طفل فى تاريخ العالم بأسره ، واحتشدت فى مخيلتها صور ريت وبونى . لقد احب بونى دائما أكثر مما احببني . انه سيقدم أى شىء ، سيقدم حياته لكى يعيدها . ستكون عندى بونى جديدة ، كلها ملكى . وعندما تكبر بما فيه الكفاية ، وعندما تحببني أنا فقط أكثر من أى شىء أو أى شخص على الأرض ، عندئذ سادع ريت يراها .. ويرى ما فقدته ..

ما هذا الذى أفكر فيه ؟ لابد أننى جننت . منذ دقيقة واحدة فقط ، أدركت إلى أى مدى الحققت به الأذى وإساءات اليه ، وكرهت نفسى . والآن ،

أنا أكرهه وأخطط لإيذائه على نحو أسوأ لن أكون كذلك . ولن أتخيل مثل هذه الأمور .

لقد ذهب ريت . واعترفت بذلك ولا أستطيع أن ادع نفسي للاستسلام للأحزان أو رغبات الانتقام . هذا الهدار للوقت بينما يجب أن أصنع حياة جديدة من لاشيء . ويجب أن أجد شيئاً جديداً ، شيئاً هلم ، شيئاً أعيش من أجله ..

وعندما بدأ ضجيج الأصوات في الشارع يعلن عن صباح جديد .. عاد كل شيء إلى مكانه في عقلها . وعرفت سكارليت ما يجب عليها أن تفعله

أنا أيرلندية حرة

جلست سكارليت إلى منضدة الكتابة في غرفتها بالفندق وأخذت تكتب صفحات تلو الصفحات . وفرغت من كتابة رسالتين . وشرعت في كتابة الرسالة الثالثة التي تمنح تفويضا لهنرى هاميلتون بإدارة شئونها في اتلانطا وحق التصرف في كميات الذهب التي وضعتها في بنك اتلانطا . لآخوف من أن يغشها المحامى العجوز . ولكن الذى يعتصر قلبها الآن انها لن تعرف شيئا عما يجرى . انها تعطيه الإشراف على أموالها وسلامتها ونجاحها . وارتفع أنينها : « لا أستطيع أن أفعل ذلك » ولكنها واصلت الكتابة ، فهذا ما يجب أن تفعله . انها ستمنح نفسها إجازة طويلة . هكذا تكتب . وستقوم ببعض الأسفار ، ولن يستطيع أحد أن يتصل بها ، وهى بلا عنوان يمكن أن يصل اليه البريد . فمن الضرورى قطع كل الخيوط حتى لا يستطيع ريت أن يقتفى أثرها . وينبغي ألا يعرف شيئا عن الطفل إلى أن يقع اختيارها على التوقيت المناسب لذلك .

ولكن كيف ستتحمل أن تجهل تماما ما يفعله العم هنرى بأموالها ؟ أو ما وصلت اليه حالة الرعب التي تسيطر على دوائر المال والأعمال هناك مما يهدد مدخراتها ؟ أو ما إذا كان منزلها قد احترق ؟ أو ما هو أسوأ .. متجربها ؟ لابد من تحمل ذلك . وتحرك القلم بسرعة عبر الصفحات .. يفضى بتفاصيل التعليمات . وعندما جاءت بريدى ، كانت كل الرسائل جاهزة . وبعد ثلاثين دقيقة كانت تدق باب غرفة كولام في الفندق : « هل ستحمى ملابسك الدينية .. سمعتك إذا دخلت غرفتك ؟ عندى أشياء خاصة أقولها لك » .

وضعت الرسائل الثلاث التي أعدتها على المنضدة ، وقالت : « ساعدتك عن هذه الرسائل بعد دقيقة . ولكن أولا يجب أن أخبرك إننى لن أذهب معك أنت وبريدى إلى أمريكا . اننى سابقي في أيرلندا » ورفعت يدها « لا .. لاتقل شيئا . لقد فكرت جيدا في هذا الأمر . لم يعد لى شيء في أمريكا بعد الآن » .

— « كلا ياسكارليت ياعزيزتى . أنت متعجلة جدا . ألم أقل لك إنه لأشئ حدث يستحيل التراجع عنه ؟ لقد حصل زوجك على الطلاق مرة ، وسيحصل عليه مرة أخرى عندما تعودين وتخبرينه عن الطفل » .

— « انت مخطيء ياكولام » . ريت لن يطلق أن أبدا . انها من نوعه ومن أهله في شارلستون . وبالإضافة إلى ذلك ، فانها مثل ميلانى هذا لايعنى شيئا بالنسبة لك ، فانت لم تعرف ميلى قط . ولكن ريت عرفها ، وعرف

انها من النوع النادر . عرف ذلك قبل أن أعرفه أنا بوقت طويل . وقد كان يكن الاحترام لميلي . وهي المرأة الوحيدة التي احترمتها بحق باستثناء - ربما - والدته . وقد أعجب بها على النحو الذي تستحقه . وهذه الفتاة التي تزوجها تساوى عشرا من أمثالي . مثلما كانت ميلي . وريت يعرف ذلك . وهي تساوى عشرة من أمثال ريت أيضا ، ولكنها تحبه .. » كانت كلماتها تطفح بمرارة وحشية . وحدث كولام نفسه : لابد أن هناك طريقة لمساعدتها . وقال لها : - « أنت تحصلين على تارا العزيزة عليك الآن ياكاتي سكارليت ، وعندك أحلامك بشأنها . الا يجعلك ذلك تشعرين بالراحة إلى ان يلتئم قلبك ؟ تستطيعين ان تشيدي العالم الذي تريدينه للطفل الذي تحمليه .. مزرعة كبرى من صنع جده ووالدته . وإذا كان ولدا فسوف تسمينه جيرالد » .

— « انت لاتفكر في شيء لم أفكر فيه بالفعل . شكرا ، ولكنك لن تستطيع ان تجد اجابة إذا لم استطع أنا ان أجد هذه الاجابة ياكولام صدقني . هناك شيء واحد . ان عندي طفلا . ولا أستطيع ان اعود إلى تارا بعد ولادته ، فالناس لن يصدقوا أبدا ان هذا الطفل نتاج فترة الزوجية . ففي المقاطعة وفي اثلاثنا كان ظن الناس انني لست افضل مما يجب ان اكون . وقد تركت شارلستون في اليوم الذي أعقب .. الذي أعقب بدء الحمل .. ولن يصدق احد أبدا ان هذا طفل ريت . فقد كنا ننام في غرفتين منفصلتين لسنوات . سوف يعتبرونني عاهرة وان طفلي ولد سفاحا .. » ظهر اثر الكلمات القبيحة على شفيتها الملتويتين .

— « لا .. لا .. ياسكارليت . لن يكون الامر كذلك . هذا ما لن يحدث .. فزوجك يعرف الحقيقة ، وسيعترف بالطفل » .

وتوهجت عينا سكارليت : « حسنا ، سيعترف ويأخذ الطفل مني . كولام . أنت لا تتصور شعور ريت من ناحية الأطفال .. أطفاله .. انه مثل مجنون بالحب . فهو لابد أن يمتلك الطفل .. سيأخذه مع اول شهيق في جسمه الضئيل . لاتتصور انه لا يستطيع ان يفعل ذلك . فقد حصل على الطلاق في ظروف يستحيل فيها الحصول على الطلاق . فهو سيغير أى قانون أو يستصدر قانونا جديدا . فلا يوجد شيء لا يستطيع ان يعمل .. » صوتها أصبح أكثر خفوتا وأقرب إلى النعومة . ولم يبق سوى البريق الذي يتالق في عينيها الخضراوين ، وظهرت ابتسامته على شفيتها .. الامر الذي جعل كولام أوهارا يتجمد ساكنا . قالت :

« هذا هو طفلي .. طفلي وحدي . ولن يعرف عنه ابدا حتى يجيء الوقت

حتذى أريده أن يعرف فيه . عندما يكون الوقت متأخر جدا بالنسبة له .
انى اتمنى أن أنجب فتاة ، فتاة جميلة ذات عينين زرقاوين .. »
خرجت منها ضحكة مزعجة :

« مسكين كولام ، لابد أنك سمعت عن المرأة المحتقرة . لا تؤرقك
الصدمة . ولا تضطرب ، لن أخيفك بعد الآن »

وابتسمت وهى تقول : « أعرف أنك تحاول أن تساعدنى ، وأشعر
بامتنان نحوك . لقد كنت صديقا طيبا معى ، ربما أفضل صديق عرفته حتى
الآن ماعدا ميل . انت مثل الشقيق . وكنت اتمنى دائما أن يكون لى شقيق .
وامل أن تكون صديقى على الدوام » .

واكد لها كولام أنه سيكون كذلك . وقالت سكارليت :

— « أريدك أن تأخذ هذه الرسائل إلى أمريكا من أجلى ، أرجوك ياكولام .
هذه الرسالة لخالتي بولين . أريدها أن تعرف اننى تلقت رسالتها ،
وسوف تستمد من رسالتى اللذة التى تشعر بها وهى تقول للناس : « ألم
اقل لكم » . وهذه الرسالة لمحامى فى اتلانطا ، فهناك اعمال يجب تسويتها .
والرسالتان يجب أن تبعث بهما من بوسطن ، فانا لا أريد أن يعرف أحد
المكان الذى اقيم فيه أما هذه الرسالة الثالثة فاننى أريدك أن تتولى تسليمها
بنفسك . وذلك يعنى أن تقوم برحلة أخرى ، ولكنها مهمة للغاية . انها
لبنك سافانا .. حيث احتفظ بكم من الذهب ومجوهراتى فى خزانته ،
واننى اعتمد عليك فى أن تحمل هذه الأشياء وتأتى بها سائلة وتسلمها لى ..
والآن احتاج لمحامى أثق به ، إذا كان لمثل هذا المحامى وجود ، وأرجو أن
تدلىنى عليه . سوف استخدم نقود ريت باتلر . سوف اشترى بوليهارا
حيث بدأت عائلة أوهارا . وهذا الطفل سيكون له ميراث لن يستطيع والد
توريثه لابنه . سوف أريه شيئا عن الجذور التى تضرب فى الأعماق » .
— « سكارليت ياعزيزتى . اتوسل اليك . تمهلى قليلا . نستطيع البقاء

فى جالواى لفترة نعتنى خلالها - أنا وبريدى - بك ، انت لم تغلبى على
الصدمة . لقد جاءت الواحدة تلو الأخرى . كان هذا كثيرا وفوق الاحتمال
بالنسبة لك ، ولذا ليس هذا وقت اتخاذ مثل هذه القرارات الكبرى »
— « انت تعتقد اننى فقدت صوابى . ربما . ولكن هذه طريقتى
ياكولام . وسوف اتمسك بها سواء بمساعدتك أو بدونها . لامبرر لبقائك
انت وبريدى . سوف اذهب غدا إلى بيت دانييل وأطلب منهم أن يسمحوا لى
بالاقامة معهم مرة أخرى إلى أن احصل على بوليهارا . وإذا كنت ترى اننى
فى حاجة إلى من يرعانى ، فانك تستطيع أن تتق فى كاتلين وفى الآخرين » .

وفيما بعد .. رافقها كولام إلى مكتب محام انجليزي يتمتع بسمعة طيبة في نجاحه في انجاز أى عمل يضع يده عليه .. وهكذا بدأ البحث عن مالك بوليهارا ..

وفي اليوم التالي ، حمل كولام معه الثياب السوداء والقمصان والجوارب والعباءات وغيرها من الملابس التي طلبت سكارليت أن يشتريها لها من السوق ، وقال وهو يعطى سكارليت كل هذه الأشياء .

— إليك أيتها الأرملة الجديدة المسكينة . لقد أخبرت بريدى بأن الأخبار التي تسببت في انهيارك ، هي أن زوجك فارق الحياة متأثرا بمرضه قبل أن يسعفك الوقت لكي تكوني بجانبه ..

وأهداها كولام ملابس ايرلندية اشتراها أيضا من السوق .. وكان يعرف انها أهدت كل ما معها من هذه الملابس الى بنات العم في أنمزتاون . وقدمت له بدورها كل صناديق الملابس التي جلبتها معها من أمريكا ، فهي لم تعد في حاجة اليها ولن تضع على جسمها مشدات الخصر بعد الآن ..

— أنا سكارليت أوهارا .. فتاة ايرلندية .. حرة يا كولام ، وسوف اصنع لنفسى عالمى الخاص وفقا لقوانينى الخاصة وليس وفقا لقوانين أحد آخر . لا تقلق بشأنى ، فسوف أتعلم أن أكون سعيدة ..



أرض أوهارا

تلقت العائلة صدمة بعودتها وتعاطفت معها في حزنها بأحسن وسيلة ممكنة ، وبعد أن عبروا عن شعورهم ، لم يتحدثوا في الموضوع مرة أخرى . وبدلاً من ذلك سألوها عما إذا كان هناك أى شئ يستطيعون أن يفعلوه من أجلها . وطلبت سكارليت منهم تعليمها .. فهي تريد أن تتعلم كل شئ عن المزرعة الأيرلندية وتبعت دانييل وأبناءه في نظام عملهم اليومي .. وارغمت نفسها على أن تتعلم حتى كيف ترعى الماشية .. وكيف تحلب البقرة ، وبعد شهر تلقت خطاب المحامى من جالواى : لقد تزوجت أرملة مالك بوليهارا بعد وفاته بسنة ، وماتت هذه الزوجة بعد ذلك بخمس سنوات ووريثها هو ابنها الأكبر الذى يبلغ السابعة والعشرين من عمره الآن ويقيم في إنجلترا ، وهو الوريث لأملاك والده الذى لا يزال على قيد الحياة . ويقول هذا الوريث انه مستعد لدراسة أى عرض يتجاوز خمسة عشر ألف جنيه .

وعكفت سكارليت على فحص خريطة بوليهارا الملحقة بالخطاب . انها اكبر بكثير مما كانت تعتقد ، انها على جانبى الطريق الى تريم . وهناك نهر آخر . فالحدود هى نهر بويين من ناحية ونهر نايتسبروك من ناحية أخرى نهران ! يجب أن احصل على بوليهارا ، ولكن ، خمسة عشر ألف جنيه ! وبعد تقصى الأسعار واجراء الحسابات ، توصلت سكارليت الى ان الثمن الملائم لـ ١٢٤٠ فدانا يتراوح ما بين ٤٩٦٠ و ٥٥٨٠ جنيه ، وهناك ايضا المنزل الكبير والمباني الأخرى ، وكنيستان . وخمسة من المنازل تعتبر كبيرة ، و ٢٤ منزلاً هى مجرد أكواخ ، ولكنها جميعاً مهجورة ولا أحد يعنى بالمكان ، وبالجمل ، فإن عشرة آلاف جنيه تعد مبلغاً معقولاً بل أكثر من المعقول . وسيكون الوريث محظوظاً إذا حصل عليه . عشرة آلاف جنيه .. هذا يساوى خمسين ألف دولار ! وارتاعت سكارليت ، انها ثروة .

بعد كل انواع الاقتصاد والتقتير والادخار والمعاملات المتشددة في مصنع الخشب وفي المتجر وبيع مصنع الخشب وبيع الملهى وعدم انفاق أى سنت - واحد على مائة من الدولار الأمريكى - دون ضرورة قصوى على مدى عشر سنوات ، وكل ما استطعت أن اجمعه يتجاوز قليلاً الثلاثين ألف دولار . ولولا أن ريت كان يدفع كل شئ خلال معظم السنوات السبع الماضية لما كان معى نصف هذا المبلغ . ويقول العم هنرى اننى امرأة غنية بسبب هذه الثلاثين ألفاً . أى نوع من الناس يدفع خمسين ألف

دولار نظير شراء بلدة اشباح متداعية للسقوط وأرض لا تمتد اليها يد عاملة ؟

ناس من نوع ريت باقتر . وأنا عندي خمسمائة ألف دولار من امواله لكي اشترى الأرض المسروقة من أهلي ، وبوليهارا ليست مجرد أرض وانما هي أرض اوهارا . كيف يتأتى لها إذن أن تفكر بصدد ما يجب وما لا يجب أن تدفعه ؟ وقدمت سكارليت عرضا نهائيا للوريث .. يقبله كما هو أو يرفضه كما هو ١٥ ألف جنيه .

الآن أصبح البرج القائم في بوليهارا هاما جدا بالنسبة لها ، انها دائما ما تتجه الى هناك عندما تشعر بالهم والكدر . أحجاره الضخمة تحثوي على الحرارة والبرودة معا ، فهي تستطيع أن تضع يديها فوقها أو تلصق خديها بها .. فتجد السلوى والراحة اللذين تحتاج اليهما . وفي بعض الأحيان كانت تتحدث الى الأحجار كما لو كانت تحدث والدها . وحدث انها مدت ذراعيها فوق الأحجار وبكت فوقها . ولم تسمع أى صوت سوى صوتها وأغاني الطيور وهمسات النهر . ولم تشعر قط بوجود العيين اللتين كانتا تراقبانه .

عاد كولام الى ايرلندا في الثامن عشر من يونيو ، وارسل برقية من جالواي تقول : اصل في ٢٥ يونيو مع سلع سافانا ، وسد القرية جو من الصخب والضجيج . فلم يحدث أن وصلت برقية من قبل الى آدمز تاون ، ولم تمض ساعتان حتى جاءت برقية ثانية الى سكارليت من جالواي مما تسبب في مناخ من الاثارة لا يعرف الحدود في القرية ، وكان نص البرقية الثانية : « العرض مقبول . الخطاب والعقد في الطريق »

ولم يستغرق الأمر مناقشة طويلة قبل أن يتفق القرويون على أن يتصرفوا كما يجب . البقال والحداد يغلقان أبوابهما ، وكذلك الطبيب ، وتعين الأب دانهام متحدثا باسمهم والتوجه سيرا على الأقدام الى منزل دانييل اوهارا لمعرفة حقيقة ما يجري .. كما ان كل شخص من حقه أن يمسك بالبرقيتين ويقرأ سطورهما .

ولسوء حظهم فإن كاثلين لم تكن تعرف أكثر مما يعرفون كما ان سكارليت كانت قد غادرت البيت لكي تتجول في أرض تارا القديمة وهي تشعر بسعادة غامرة . انها تنتظر مولودها في الرابع عشر من نوفمبر ، وامامها - إذن - عشرون اسبوعا من العمل قبل الولادة ، كم هو شيء طيب ان يكون المرء سعيدا !

قرية للثوار !

دهش كولام عندما وجد سكارليت في انتظاره لدى وصوله بالقطار الى محطة مولينجر . قدم لها رفيقه في الرحلة قائلاً : « هذا ليام راين شقيق جيم راين » كان ليام رجلاً ضخماً يرتدى الزى الأخضر للشرطة الايرلندية الملكية ، كيف يمكن أن يكون كولام صديقاً لواحد منهم ؟ فقد كانت الشرطة موضع كراهية أكبر من الميليشيا الانجليزية لأن أفرادها هم الذين يتولون القبض على أبناء بلدتهم بناءً على أوامر الانجليز . وعرفت سكارليت ان كولام أتى بالذهب ، كما عرفت انه اصطحب ليام راين ببندقيته لكي يقوم بمهمة الحراسة . وقال كولام :

— لقد جئت بالعديد من الحقائق والصناديق في حيتي ولكن لم اكن عصبياً مثل هذه المرة ..

وقالت سكارليت : اننى استأجر مولينجر للأمان ، إذ توجد بها أكبر حامية عسكرية . وقد أحضرت معي رجلاً من البنك لياخذوا الذهب .. اما بنك بلدة تريم فإنه يمكن استخدامه في ايداع المبالغ الصغيرة ، وعندما اطمانت سكارليت الى ان الذهب انتقل في امان الى الخزينة ووقعت على اوراق شراء بوليهارا ، حتى أخذت ذراع كولام واسرعت به الى الطريق العام .

قالت : « لقد اشتريت مركبة يجرها حصان صغير . نستطيع الذهاب فوراً الآن ، هناك الكثير الذى ينبغي عمله يا كولام ، احتاج الى حداد فوراً وستساعدنى في العثور على أحد الحدادين . سادفع له أجراً طيباً حتى ينتقل الى بوليهارا وأجراً طيباً عندما يصل الى هناك . وقد أعددت مناجل وفئوساً وجواريف ومجارف .. اننى احتاج الى عمال أيضاً لقطيع الحقل ونجارين لاصلاح البيوت والى عمال تركيب زجاج واسقف وعمال طلاء .. وكل ما تتخيله ! »

الانارة اكسبت خديها لوناً وردياً .. وتالقت عيناها . وكانت جميلة على نحو لا يصدق في ثوبها الأسود الفلاحى .

وتناولوا الغداء في منزل جيم راين الذى احتفى معهما بوصول شقيقه ليام من جالواى . ولم تستطع سكارليت أن تكتم ثورتها عندما أبلغها كولام بأنه لن يستطيع أن يذهب معها الى بوليهارا في الحال لأن لديه ما يعمل في مولينجر . ولن يعود الى موطنه قبل ثلاثة أيام .. فإن عندها الكثير الذى تريده أن يراه والكثير الذى تتحدث عنه وتخطط له .

ولكى يهدىء غضبها حدد لها موعداً هو الساعة الثانية من بعد ظهر

يوم عودته - بعد ثلاثة أيام - في بيت دانييل .

قالت سكارليت :

— حسنا سنلتقى في بوليهارا ، فقد نقلت سكنى بالفعل انه منزل اصفر في منتصف الشارع .



وفي وقت متأخر من ذلك المساء ، وعقب اغلاق حانة جيم راين ، ترك بابها مفتوحا لكي يتسلل منه الرجال بهدوء واحدا بعد الآخر لكي يجتمعوا في غرفة بالطابق العلوى ، وطرح كولام بالتفصيل الأشياء التي يجب أن يقوموا بها ، قال في حماس متوهج :

— انها فرصة اتاحها لنا الله . بلدة بكاملها ملك لنا . كل الرجال الفينيين^(١) وكل مهاراتهم تحتشد وتتركز في مكان واحد لا يخطر على بال الانجليز أن يفتشوا فيه ، فالعالم كله يظن بالفعل ان ابنة عمى معتوهة لانها دفعت مثل هذا الثمن في املاك كان يمكن أن تشتريها بلا مقابل لمجرد أن توفر على المالك عبء تحمل الضريبة بدلا منه ، ولكنها امريكية ايضا وهو جنس معروف بغرابة أطواره . والانجليز مستغرقون في الضحك عليها الى الحد الذي يجعلهم لا يشكون فيما يجرى في املاكها . لقد كنا نحتاج دائما الى مفر قيادة يتوافر له الأمان . وسكارليت تتوسل اليها لكي نأخذها دون ان تعلم شيئا .



وعندما وصل كولام الى بيت سكارليت في بوليهارا .. كان يتبعه الحداد بكل معداته . ووجد البيت من الداخل بسيطا للغاية لا يحتوى إلا على أقل الأدوات وقطع الأثاث الضرورية للحياة اليومية ، ولكنه ثار غاضبا عندما وجد مسدسا موضوعا الى جانب فرش الشعر ومساحيق الوجه :

— يمكن أن يضعوك في السجن لحيازتك هذا السلاح .

— هراء .. ان قائد الميليشيا هو الذى اعطاه لى ، لأن امرأة تعيش وحدها ومعروف ان لديها الكثير من الذهب يجب أن تحمى نفسها كما قال وكان يمكن أن يضع أحد جنوده للحراسة لو اننى تركته يفعل ذلك . وأثار ضحك كولام .. دهشتها ، فهي لا تعتقد أنها ذكرت شيئا يبعث على الضحك .



(١) جمعية سرية ثورية ايرلندية تشكلت في نيويورك في حوالى عام ١٨٥٨ لتحرير ايرلندا من الحكم الانجليزى ، وكان الاسم يطلق على الميليشيا القديمة الامرانة

— انك صنعت العجائب يا كولام اننى متآثرة بالفعل
كانت سكارليت تغف فى وسط سارع بوليهارا العريض الشهير ، وهى
تطلع الى النشاط الذى دب فى كل مكان على طول الشارع . كان يمكن سماع
دقات المطارق من كل اتجاه . وكانت هناك رائحة الطلاء الطازج وتالفت
النوافذ الجديدة فى أكثر من عشرة مبان وفى مواجهتها ، كان رجل قد
تسلق سلما ليضع لوحة كتبت بحروف مذهبة على باب المبنى الذى كان
كولام قد اختاره ليبدأ فيه العمل

وسالت سكارليت : « هل نحتاج بالفعل الى تشطيب العمل فى الحانة ؟ »
وقد ظلت تطرح نفس السؤال منذ أعلن كولام عن بدء العمل فى ذلك المبنى ،
واجاب للمرة الألف « سوف تجد من المزيد من العمال الراغبين فى العمل إذا
كان هناك مكان لهم يتناولون فيه كأسا بعد أن يفرغوا من العمل » وحاول
كولام اقناعها بلا جدوى ان من سمات الشخصية الفومية الايرلندية
الحصول على المسرات التى تتيحها الحياة أولا ثم الانشغال بالواجبات فى
وقت لاحق ، وان هذا هو ما يكسب الايرلنديين جاذبيتهم ويمنحهم
السعادة .

واعربت سكارليت عن امتعاضها لأن شهر أغسطس قد حل ولم يتم
تطهير حقل واحد . وقال كولام :

— مازال أمامك شهرين يا عزيزتى سكارليت ، يكفى أن تنتظري الى ما تم
انجازه على يديك فى اسابيع فقط .

ونظرت سكارليت ، وتلاشى التقطيب من على جبينها وابتسمت : « هذا
صحيح »

ولم يقل كولام شيئا عن الاغراء والضغوط التى كان لابد أن يمارسها
لمنع الرجال من القاء معداتهم والرحيل ، فهم لا يرتاحون الى قيادة امرأة
لهم وخاصة إذا كانت مطالبها كثيرة مثل سكارليت ولولا ان الروابط
السرية للاخوان الفينيين هى التى ألزمتهم بإحياء بوليهارا .. لما بقى
سوى القليل من العمال ان كان قد بقى احد رغم أن سكارليت تدفع أكثر من
المتوسط العادى للأجور .

وتطلع كولام أيضا الى الشارع المزدهم ، ستكون حياة طيبة لهؤلاء
الرجال عندما يتم ترميم بوليهارا ، لقد تلقى بالفعل طلبات بفتح متاجر
ومحال فى البلدة ، والمنازل هنا ، حتى اصغرها ، أحسن من الأكواخ التى
يشغلها الآن معظم العمال الزراعيين الذين اختارهم ، انهم أكثر حماسا من
سكارليت لإصلاح السقوف والنوافذ حتى يتركوا العمل مع كبار الملاك
ويبدأوا من جديد فى حقول بوليهارا .

لم يحدث من قبل أن طفلا في أحشائها سبب لها هذا القدر من المتاعب حتى أصبحت تظن أن في بطنها توأما . ولا شيء يسرها أكثر من أن تنجب توأما في حالة إذا أنجبت « أن » طفلا وأثار احتمال أن تنجب « أن » طفلا الألم في نفس سكارليت ، واتجهت بتفكيرها بعيدا . إلى حقول بوليهارا .

وفي كل مرة تغادر بيتها .. كانت تقف أمام البرج وتتأمله ، كم كانوا بنائين عظاما منذ وقت طويل .. هؤلاء الذين ينتمون إلى جماعة أوهارا وعندما أبدت أسفها لعدم وجود سلم .. شرح لها دانييل العجوز كيف أنه لم يكن هناك سلم أبدا في الأصل خارج البرج ، فالسلم يكون عادة في الداخل وعندما يأتي الخطر . يصعد الناس إلى البرج بسرعة ويسحبون السلم خلفهم ، ويطلقون السهام ويقذفون بالأحجار أو يصبون الزيت الساخن من أعلى على المهاجمين من الشقوق الطولية الضيقة ، التي كانت تستخدم كنوافذ ، ويصبحون في مأمن من هجوم الأعداء تحتهم .

في أحد الأيام سوف أضع سلما وألقى نظرة على داخل البرج . وأمل ألا تكون هناك خفافيش . فإنني أكرهها ، لماذا لم يتخلص القديس باتريك منها عندما كان ينظف المكان من الثعابين ؟



حددت سكارليت في ذهنها المنازل التي ستعطيها للأسرة ، جميعهم سيأخذون بيوتا كبيرة رحيبة وفسيحة . وسيكون الأصغر من نصب كولا ، فهو الذي اختاره لنفسه ثم أنه قسيس ولن تكون له أسرة

أما أكبر البيوت فهو لدانييل لأن كاثلين ستكون معه وربما سيريدان أن تكون الجدة معهما ، كما أنه يجب أن تكون هناك غرفة لكاثلين عندما تتزوج .. وبيت لكل ابن من أبناء دانييل وباتريك أما عن الأرض الزراعية فإن لهم أن يأخذوا منها ما يشاءون حتى يكونوا قادرين على الزواج ، فالتقبان من الرجال والنساء لا يستطيعون الزواج لأنهم بلا أرض وبلا مال . ويكره الملاك الانجليز قساة وبلا قلوب ويتضح ذلك من خلال الطريقة التي يحتفظون بها بالأرض الأيرلندية تحت نعالهم . فالأيرلندي يتحمل كل أعباء زراعة الذرة أو الشوفان وتسمين الدواب والمواشي ثم عليه أن يبيعها للانجليزى بالأسعار التي يحددها هو . ويتولى الانجليزى تصدير الحبوب والماشية إلى إنجلترا حيث تجلب الحبوب والماشية المزيد من المال للانجليز ، ولا يبقى للمزارع أى شيء بعد سداد الإيجار وتحدد القيمة الإيجارية وفقا لنزوات الانجليزى ، كما فعل

اليانكى بعد الحرب فى امريكا عندما أخذوا كل شىء يريدونه تم رفعوا
الضرائب على تارا الى رقم خيالى . ولا غرابة ان يكره الايرلندى ..
الانجليزى اما هى فإنها تكره اليانكى حتى يوم ممانها ..
بيد ان عائلة أوهارا ستتحرر قريباً جداً من ذلك كله ، عندما تكون
البيوت جاهزة والحقول مستعدة . وهى تريد كل شىء على الوجه الاكمل
فقد كانوا طيبين معها .. ثم انهم أسرتهم .



عملية انقاذ

ظهر كولام على باب منزل سكارليت في أواخر أيام أغسطس ، كانت ساعه الفجر ، والأفق لا يزال ورديا . عشرة رجال أقوياء البنية وقفوا صامتين خلفه في الضوء الضبابي الخفيف ، قال « هؤلاء هم الرجال الذين سيظهرون حقولك ، هل أنت سعيدة الآن »

أطلقت صيحة الفرح . وأسرعت الى الداخل وهي تقول « رافهم الى أول حفل وراء البوابة »

ولم تكن قد استكملت ترتيب هذامها عندما خرجت حافية لترى الرجال وقد تجمعوا بوجوه كالحة حول كولام . وهم يرددون بعض الكلمات « لم نر مطلقا هذا المنظر . انها اقرب الى الأشجار منها الى الاعشاب الضارة .. تبدو في كأنها كلها نباتات شوكية . الانسان يمكن ان يقضى عمره كله في فدان واحد .. »

قالت سكارليت بصراحة هل تخشون تلويث أيديكم ؟ ونظروا اليها في ازدياء . لقد سمعوا جميعا عن المرأة الضئيلة وأساليبها المنسلطة ، وهم يعرفون انها لا تحتوى على اى شيء اثنى . وقال كولام مهدئا « نحن نناقش افضل الطرق لكى نبدا » ولم تكن سكارليت في حالة مزاجية تؤهلها لتقبل الاسترضاء . وقالت « لن تبدأ على الإطلاق إذا تناقشت لمدة طويلة ، سوف أريك كيف نبدا » ووضعت يدها اليسرى على الانحناءة التى تتحمل ثقل الجنين في بطنها المتضخم لكى تسندها ثم مالت الى الأمام ، ومدت يدها اليمنى وامسكت بحفنة كبيرة من النباتات الشوكية التى اقتلعتها من جذورها ، وقالت باحتقار وهي تلقى بالنباتات تحت أقدام الرجال : « هيا .. لقد بداتم الآن » كان الدم يسيل من يدها ، وهي تسير بتثاقل بعيدا .

وحقق الجميع في ظهرها ، ثم خلع الأول والثانى وبعدهما الجميع . قبعاتهم

الم يكن هؤلاء هم الوحيدون الذى تعلموا أن يحترموا سكارليت أوهارا ، فقد اكتشف عمال الطلاء انها يمكن أن تتسلق أطول السلالم وتتحرك بخفة لكى تشير الى بعض البقع التى لم تصل اليها الفرشاة أو ان ضربات الفرشاة لم تكن مستوية عندها . والنجارون الذين حاولوا استخدام عدد غير كاف من المسامير وجدوها تدق ما نقص من هذه المسامير عندما عادوا الى العمل . بل كانت تصفق الأبواب المصنوعة حديثا بصوت كالرعد « يوقظ الموتى » لكى تختبر كل مفصل في هذه الأبواب . وتقف في داخل

المدخن لكي تتأكد من سلامتها . وقال عمال اصلاح وتركيب السقوف في
فزع ان ذراع الأب أوهارا القوية هي وحدها التي حالت دون صعودها
الى اسطح المنازل لكي تحصى عدد الألواح التي استخدمت لكسوة
السقوف .

ونجحت سكارليت في دفع الجميع الى عمل جاد وحقيقي كما حملت
نفسها على القيام بعمل أكثر مشقة .

وتحدثت سكارليت مع كولام أثناء تناول طعام الافطار عن مشروعاتها
الخاص بالأسرة كلها . توفير سكن فاخر وحديث لكل افراد أوهارا في
بوليهارا .

وانتظر كولام حتى فرغت من الطعام ، ثم قال انهم لن يهتموا بذلك ،
فهم يزرعون الأرض التي يوجدون عليها هناك طوال مائتي سنة تحريبا «
— بل سيوافقون على المجيء الى هنا ، فكل انسان يريد دافدا افضل
مما لديه يا كولام

وهز رأسه علامة على عدم الموافقة ، فقالت

— سوف أثبت لك انك على خطأ .

وانتقل كولام الى موضوع آخر

— سكارليت ، لقد أحضرت معي المزارعين هذا الصباح .

— هؤلاء الكسالى

— لقد استاجرت هؤلاء الرجال ، وزوجاتهم واطفالهم في الطريق الى
هناك الآن للسكنى في الأكواخ الواقعة في نهاية الشارع ، لقد تركوا العمل
لدى كبار الملاك

كانت سكارليت تنتظر ان يعمل هؤلاء الرجال في خدمة أبناء عمومته

● ● ●

صاح كولام مناديا سكارليت لكي تهبط من أعلى السلم حيث كانت تتفقد
الاصلاحات الجارية .

— أريدك ان تشاهدي ما فعله الكسالى

وطغى الفرح على سكارليت حتى تفجرت الدموع من عينيها
لقد تم تمهيد الطريق امام بيتها واصبح أكثر اتساعا .. بحيث تستطيع
ان تستقل مركبتها ، من على مقربة من باب البيت .

● ● ●

انفجر غضبها في وجه كولام ، فقد رفضت الأسرة - بلباقه تسديدة وأكثر
من مرة - دعوتها الملحة لأفرادها للانتقال الى بوليهارا ، وفي هذه الليلة

الدافئة من أغسطس وفي الوقت الذى يرخى فيه الليل أستاره .. بكت
سكارليت لساعات الى أن غلبها النوم .
وظن كولام انها ستفضل أن تتجنب لقاءه لبضعة أيام ، فالأشخاص
الأقوياء لا يحبون شهود لحظات ضعفهم ولكنه أخطأ مرة أخرى في فهم
سكارليت ، هل عرف هذه المرأة حقاً ؟
في الصباح .. قالت له « يمكنك أن تبدأ في التفكير في المستأجرين الجدد
لهذه المنازل ، وانتوقع ايجارات جيدة »



شعرت سكارليت بجرح عميق رغم انها لم تعبر عن ذلك ، ولم تشر الى
هذه المسألة مرة أخرى ، واستمرت زياراتها لعائلة دانيل أوهارا وعملت
بجهد كالسابق في بوليهارا رغم ان حملها أصبح عبئاً مرهقاً ، ومع نهاية
سبتمبر كانت الاصلاحات في البلدة قد انتهت . كل مبنى أصبح نظيفاً
ومطلياً من الداخل والخارج ومجهزاً بآبواب محكمة ومدخن صحية
وسقوف متينة ، اما عدد السكان فقد كان يزايد بسرعة .
وجاء يوم تولى فيه كولام تذكيرها بأن المنزل الدائم الكبير الذى اختارته
لاقامتها في بوليهارا هو الذى لم يتم اصلاحه واعداده للاقامة بعد .
ابتسمت بصعوبة وهى تقول : يا ليتنى أفرغ من اعداد المنزل بسرعة
وانتقل اليه ، الحقيقة يا كولام اننى أكاد أكون قد استنفدت طاقتى .
وما لم تقله سكارليت هو ان العمل في البلدة قد أصبح مجرد .. عمل ،
بعد أن قال أبناء وبنات العم انهم لن ينتقلوا الى بوليهارا . لقد انتزع
رفضهم بهجة إعادة بناء أراضى أوهارا لأن أبناء أوهارا لن يستمتعوا
بالعودة الى أرضهم .

وحاولت أن تفهم سبب رفضهم ، ولم تجد تفسيراً سوى انهم لا يريدون
أن يكونوا على مقربة منها وانهم لا يحبونها حقاً رغم كل المعاملة الطيبة
والرفيقة التى يعاملونها بها . وهى تشعر بانها وحيدة الآن ، حتى وهى
معهم ، وحتى وهى مع كولام .

وتوجهت سكارليت الى زيارة الجدة حامله معها التبع الذى طلبته منها .
وكان شين هو أول من لقته هناك عند خروجه من كوخ الجدة ورفضت أن
تستجيب لعرضه بأن تستند على ذراعه وهى تدخل الكوخ . انها لا تهتم
بالأشخاص الذين يتحدثون ويضحكون ويبدو عليهم أن لديهم أفكارهم
الخاصة السرية .. فهى تشعر بعصبية ازاء الفشل والفاشلين ، وشين هو
الـ « أوهارا » الفاشل . انه ابن باتريك الثالث . فقد مات الابن الأكبر ،

أما جامى فقد عمل فى تريم بدلا من الزراعة ، وعندما توفى باتريك فى عام ١٨٦١ ، ورث شين المزرعة وكان فى الثانية والثلاثين فقط فى ذلك الوقت ، وفشل فى إدارة كل شىء ، ورفض العمل فى مزرعة دانييل .
قالت الجدة : ابنة جيرالد ، اننى مسرورة برؤيتك يا كاتى سكارليت الصغيرة .

— جئت معى بالتبغ لك .

— يا له من شىء عظيم .

ومدت سكارليت قدميها المتورمتين بسبب الحمل .. انها تفضل الآن أن تمضى حافية لأنها لا تتحمل ارتداء الأحذية وما هى ذى ننعم بالهدوء فى كوخ الجدة ، وسمعت فجأة صرخات فى الخارج ، فخرجت فى الحال لتعرف ما يجرى وهى ساخطة على هؤلاء الذين افسدوا نعمة السلام والهدوء وتسمرت فى مكانها . رأت جنودا ورجال شرطة فى ساحة مزرعة دانييل ، ووقع بصرها على ضابط يمتطى جواده وقد شهر سيفه ، ووقفت كاتلين تبكى على باب البيت . كان الجنود يقيمون عمودا مثلث القوائم من جذوع الأشجار . وصاح أحد الجنود : « هذه واحدة منهم . انظر إليها .. هؤلاء الايرلنديون البؤساء يلدون مثل الارانب ، لماذا لا يتعلمون كيف يلبسون الأحذية بدلا من الانجاب ؟ »

وقال جندى آخر . « لاجحة للأحذية فى الفراش .. أو تحت الشجرة . »
وضحك الانجليزى . وأطرق رجال الشرطة برؤوسهم إلى الأرض وصاحت سكارليت بصوت عال : انت ! .. « انت يامن تركب الحصان . ما الذى تفعله أنت وهذه المخلوقات فى هذه المزرعة ؟ وتطلع الضابط من أعلى فى عجرفة .

— « هل تخاطبينى يافتاة » ورفعت رأسها وركزت عليه عينيها الخضراوين النافرتين : — « لست فتاة ياسيد ، وانت لست مهذبا حتى لو تظاهرت بانك ضابط » وفغرفاه وانكمشت أنفه الطويلة حتى كادت أن تنمحي من وجهه . ربما لأن الأسماك بلا أنوف . وهو يبدو الآن مئسمة خرجت من المياه إلى اليابسة .. ولذة القتال جعلتها تنفجر با والحيوية ..

قال الضابط : « ولكنك لست ايرلندية . هل انت الأمريكية ؟ »

— « من اكون .. هذا ليس من شأنك . أما ما تفعله هنا فهو من شأنى .
قدم تفسيراً لتصرفك . »

وتذكر الضابط هويته في تلك اللحظة وشد قامته ولوح بورقة في يده :
« اننى انفذ امر حكومة صاحبة الجلالة بإجلاء هؤلاء الناس المقيمين في
هذه المزرعة لأنهم لم يدفعوا اجارها » .

تسارعت دقات قلب سكارليت . ورفعت رأسها إلى اعلى وراء الجنود .
كانت تستطلع أن ترى دانييل وأبناءه يقفزون مسرعين في الحقول وكل منهم
يحمل مذارته وهراوته استعدادا للقتال .

وقالت سكارليت : « الواضح أن هناك خطأ ، ماهو المبلغ المفترض انه
لم يتم تسديده » ؟

قالت لنفسها . (اسرع . بالله عليك ايها الغبي المتعجرف .. فاذا ضرب
اى رجل من رجال أوهارا جنديا فسيكون مصيره السجن أو ماهو أسوأ .
وبدا كل شيء بطيئا . استغرق الضابط دهرًا ليفتح لفافة الورق .
وتحرك دانييل وسيماس وتوماس وباتريك وتيموتى كما لو كانوا يسبحون
تحت سطح الماء . وفكت سكارليت أزرار قميصها ..

قال الضابط أخيرا . « واحد وثلاثون جنديا وثمانية شلنات وتسعة
بنسات » .

كل كلمة تخرج من فمه كانت تستغرق ساعة . ثم سمعت الصرخات من
الحقول ورات رجال أوهارا الكبار ، يسرعون وهم يلوحون بقبضاتهم
واسلحتهم .

لحسن الحظ أن سكارليت كانت تحمل معها أجور كل عمال بوليهارا ..
أكثر من خمسين جنديا .. وأخرجت النفود من الحزام الموجود في صدرها .
وقذفت بالكيس الذى يحتوى على المبلغ ، فاصطدم بالضابط في فمه .
وقالت :

— « .. وهذا أكثر مما تريد .. نخلير تعبك أيها الوغد سىء التربية »
وتناثرت الشلنات والبنسات على ملابسه وعلى الأرض .

وقالت سكارليت مرة أخرى « نظفوا المكان من الفوضى التى
صنعتوها وخذ معك هذه القمامة التى جلبتها » !

وإدارت ظهرها للجنود وهمست
— « بالله عليك ياكاثلين ، اذهبى إلى الحقل واطلبى منهم أن يكفوا قبل
أن تقع متاعب حقيقية »



بعد دقائق . كانت المواجهة بين سكارليت ودانييل العجوز . شحوب
شديد في وجهها . لو لم تكن قد جاءت حاملة التبغ ؟

لو لم تكن قد جاءت اليوم ؟ وحملت مغضبة في وجه عمها ثم انفجرت
— لماذا لم تقل لي أنك في حاجة إلى النقود ؟ كان يسرنى أن أقدمها
لك . »

قال دانييل . « عائلة أوهارا لا تقبل الاحسان »
— احسان ؟ هذا ليس احسانا عندما يتعلق الأمر بعائلتك ياعم
دانييل . »

ونظر اليها دانييل بعينين هرميتين « مالا تكسبينه من عمل يديك هو
احسان ، لقد سمعنا قصتك ياسكارليت أوهارا الصغيرة عندما فقد اخي
جيرايد عقله ، لماذا لم تستدعي أشقاءه في سافانا ؟ انهم جميعا أسرتك . »
وارتعتشت شفتا سكارليت . انه على حق . فهي لم تطلب أو تقبل
المساعدة من أى شخص . كان عليها أن تحمل العبء وحدها ولم يكن
كبرياؤها يسمح بأى استسلام أو ضعف . وكان لابد أن تعرف كل شىء
وسالت :

— « وفي المجاعة ؟ كان والدى سيرسل اليكم كل ما عنده ليساعدكم
وكذلك كان سيرسل إلى العم جيمس والعم اندرو أيضا »
— « كنا على خطأ . لقد تصورنا أنها سوف تنتهى »

ودقت النظر في كتفى عمها النحيلتين المنتصبتي انحناءة راسه
المتكبر إلى اعلى . وفهمت . كانت ستفعل نفس الشىء . وفهمت أيضا كيف
اخطأت عندما عرضت عليهم بوليهارا كبديل للأرضى التي ظلوا يفلحونها
ويزرعونها طوال حياتهم . فالقبول كان يعنى ان كل عمله كان بلا معنى
وكذلك عمل ابنائه وأشقائه ووالده وجدده

قالت : « ألم يرفع روبرت الإيجار لأننى تحدثت عن فقاره ، انه يريد أن
ينتقم منى .. عن طريقكم »

— « روبرت رجل جشع ، وما حدث لاعلاقة له بك . »
— « هل تسمح لي بالمساعدة ؟ ان هذا سيكون شرفا لي » ورات سكارليت
الموافقة في عيني دانييل العجوز .

الاهوارا

روزالين مارى فيتز باتريك هى مدبرة المنزل الجديدة التى جاء بها كولام لكى تساعد سكارليت إنها شقيقة أحد أعضاء جماعة الفينيين الذين اعدمهم الانجليز ، كما انها ابنة وحيدة رجال غرقوا فى « السفن النعوش » بعد مغادرتهم بوليهارا خلال محاولة الذهاب إلى أمريكا . وهى من اخلص أعضاء الحلقة الضيقة الأساسية للثوار .

وفى البداية شعرت سكارليت بأن مسز فيتز باتريك نتحداها وخاصة عندما طلبت من سكارليت أن تناديها باسم مسز فيتز باتريك وليس باسمها الاول .. ولكنها سرعان ما تبينت أن السيدة تملك ثقة بالنفس تثير الاعجاب وتبدو مخلصه تماما لعملها وتتمتع بروح المسئولية .

— « أود أن اعبر عن سرورى للقائك والعمل من أجلك . فسوف اتشرف بأن اكون مدبرة منزل « الاهوارا » ..

ماذا يعنى هذا الكلام ؟

واستأنفت مسز فيتز باتريك حديثها :

— « ألا تعرفين ؟ كل شخص يتحدث عن موضوع واحد . فلم يحدث فى حياتنا أن امرأة فعلت ذلك . ربما لم تظهر مثل هذه المرأة خلال مئات السنين . إنهم يسمونك « الاهوارا » رئيسة عائلة اوهارا بكل فروعها وروافدها وتشعباتها . فى زمن الملوك النبلاء الكبار ، كان لكل عائلة زعيم أو بطل أو ممثل لها . وكان أحد اسلافك من اجداد اجدادك هو « الاهوارا » الذى كان يرمز لكل بسالة وكبرياء جميع افراد اوهارا الآخرين . واليوم ولد هذا اللقب المميز من جديد ليكون من نصيبك » .

— « اننى لا افهم ؟ ماذا يجب أن أفعل ؟ »

— « لقد فعلت وانتهى الأمر بالفعل أنت الآن موضع الاحترام والاعجاب والثقة والتكريم . وقد تم منح اللقب عن استحقاق ولم يحدث ذلك عن طريق الوراثة . كل مايجب أن تفعله هو أن تكونى كما انت أنت « الاهوارا » .

قالت سكارليت وهى تشعر بالوهن :

— « اظن اننى سأتناول فنجانا من الشاي » .

انها لم تعرف عن أى شئ تتحدث مسز فيتز باتريك . هل تروى نكتة أو دعاية أو تهزا وتسخر منها ؟ كلا . هذه ليست المرأة التى تتحدث بالنكات وتلقى بالدعابات . ماذا كانت تعنى ؟

وجربت أن تقول الكلمة فى صمت وتحاول النطق بها .. بلسانها :

« الـأوهـارا » . انـها أشـبه بقرع الطبول . شـيء ما . عميق .. كامن
فطرى فى داخلها .. يضىء ويتوهج وينتقد ويضطرم ويضرم النار
« الـأوهـارا » .. الآن يشع ضوء فى عينيها المتعبتين الشاحبتين ، فتلمعان
باللون الأخضر الزمردى النارى . الـأوهـارا
سافكر فى ذلك فى الغد .. وكل يوم بقية حياتى . آه ، اننى أشعر باننى
مختلفة تماما وقوية للغاية ..
« .. ان تكونى فقط كما انت » هذا ما قالتة . ماذا يعنى ذلك ؟
« الـأوهـارا » .



لم تكن سكارليت قد زارت « البيت الكبير » الذى خصصته لنفسها فى
بوليهارا . والآن تراه لأول مرة مع مسز فيتزباتريك . إنه أية فى العظمة
والروعة . ولكنه يحتاج إلى اصلاحات كثيرة بينما لم يتبق على موعد
الولادة سوى ستة اسابيع ، وهى تريد أن يولد الطفل فى « البيت
الكبير » .

ولم توافق على ما قاله كولام عن حاجة هذا البيت إلى العديد من الخدم
والوصيفات والطهاة فهى لاتريد أن تقيم « مملكة » .. كما انها لا توافق
على ما تقوله مسز فيتزباتريك الآن عن خدم كثيرين .
وترغم سكارليت نفسها على أن تسير يوميا على قدميها بلا احذية لمتابعة
عمليات ترميم البيت الكبير . ووضعت دلو مملوء بالمياه داخل الباب
الامامى لمنزلها المؤقت لكى تنظف قدميها من الطين عندما تعود . وضحك
كولام عندما رأى هذا المشهد :
« الجانب الايرلندى فى داخلك يقوى يوما بعد يوم ياسكارليت حبيبتي .
هل تعلمت ذلك من كاثلين ؟ »

— « من ابناء العم العائدين من الحقول ، فهم يغسلون اقدامهم من
التراب دائما . وفهمت ان السبب هو ان كاثلين كانت ستفقد صوابها إذا
جاءوا معهم بالطين من الحقول وغطوا به ارضية البيت النظيفة »
— « ليس لهذا أى علاقة بالموضوع . انهم يفعلون ذلك لأن الايرلندى
بما فى ذلك النساء كانوا يفعلون نفس الشيء ابا عن جد منذ الماضى السحيق
الذى يمكن ان تعيه الذاكرة » « هل تلقين المياه خارج البيت دون
تعاويد ؟ »

— « لاتكن سخيفا . طبعا لا اقرا تعاويد . ولا اضع اناء اللبن على
عتبة الباب كل ليلة ، كما يفعل البعض ، حتى يتناول الجن عشاءه .. كلها

حرافات صبيانية .

ونظر بعصبية تحت فراشها ووسادتها وهو يقول :
— « هكذا تقولين .. إذن ، سيأتى « البوكا » يوما ويعاقبك على وقاحتك » .

وغرقت سكارليت فى الضحك وقالت « من هو « البوكا » ؟ هل هو ابن العم الثانى للجنى الخبيث فى الأساطير الايرلندية ؟
— « الجن الخبيثاء كانوا سبرتعدون خوفا من تصور هذه القرابة . البوكا مخلوق مخيف وحقوق وماكر . انه يفسد قشدة اللبن عندك فى ثانية او يستخدم نفس مرشاته فى تشويش شعرك » .
— « وربما هو السبب فى تورم كاحلى قدمى الآن .. ان هذا اشد الأوجاع خبثا التى تعرضت لها حتى الآن ؟ »
— « ياحملى الوديع . كم تبقى من الوقت ؟ »
— « حوالى ثلاثة أسابيع »

وأعربت سكارليت عن رضاها عن عمل مسز فيتزباتريك ، ولكنها اشتكت من انها تنفق النقود كما لو لم تكن هناك نهاية لها .. فقد تم تشغيل ثلاث وصيفات بالفعل ، وهى فى انتظار احد الطهارة . ولكن إعداد الافران تكلف مائة جنيه .

انها تشعر بان كولام بعيد عنها ولم تعد تستريح معه كما كانت من قبل ، ولكنها سألته . « هل سمعت عن هذا الذى يسمى موضوع الاوهارا ؟ »

نعم .. لقد سمع ، وهو فخور بها ، ويعتقد انها تستحق ذلك .
— « انت امرأة غير عادية ياسكارليت اوهارا . لا أحد يعرفك يقول بغير ذلك . لقد تحملت ضربات كانت تكفى للجهاز على أى امرأة أخرى او .. رجل . ولم تتوجعى قط او تنتظرى من أحد .. الاشفاق » .
وابتسم فى خبث وهو يقول :

— « لقد فعلت ايضا ما يقترب من المعجزة ، جعلت كل هؤلاء الايرلنديين يعملون بالطريقة التى يعملون بها الآن ، ووجهت الاهانة إلى الضابط الانجليزى .. ثم إن دانيال العجوز نفسه كان اول من أطلق عليك اسم الاوهارا . كما أن الريف أصبح أكثر ثراء بوجودك هنا » .
وتغيرت لهجة كولام وهو يقول
« هناك شيء واحد ، أرجو أن أحذرك منه ياسكارليت . لا تحتقرى معتقدات الناس ، فهم يعتبرون ذلك اهانة لهم » .

— « اننى لا أفعل ذلك مطلقا ' وأذهب إلى القديس كل يوم أحد رغم أن الأب فلاين يبدو وكأنه سوف يستغرق في النوم في أية لحظة » .
 — « لا أتحدث عن الكنيسة . وإنما أتحدث عن الجن والجنيات . ولاتنسى أن من أعظم مفاخرك التي يمتدحها الكافة عودتك إلى أرض أوهارا بينما يعرف الجميع أنها مسكونة بشبح اللورد الشاب » .
 ولم يطرأ على بال سكارليت أنه يتحدث بجدية . قال .
 — « لايهم أن تصدق أو لاتصدقى . المهم أن الايرلنديين يصدقون هذه الحكايات ويؤمنون بها ، فإذا هزأت مما يؤمنون به ، فانك توجهين اليهم اهانة جارحة » .

ووعده سكارليت بأن تضع لسانها في فمها وبأن تمتنع عن الضحك إذا جاء ذكر هذه الموضوعات « الحساسة » . ومع ذلك فقد ضحكت إلى أن تلقت رفسات الجنين داخل رحمها والذي أصبحت تطلق عليه اسم « الفيل » لضخامة حجمه .

وطلب منها كولام أن تلتزم بوعدها وهو أن تبقى في المنزل في مساء السبت وتحكم إغلاق بابها وتسدل الستائر فهذه الأمسية هي عشية « كل المقدسين » .. والايرلنديون يعتقدون أن كل الجن منذ بداية العالم يخرجون ، كما تخرج العفاريت والأشباح والأرواح حاملة رؤوسها تحت أذرعها ، وتحدث كل الأشياء الخارقة . وقال كولام « التزمى بالعادات واغلقى بابك لتبقى في أمان من رؤيتهم » .



توجهت سكارليت في مركبتها الصغيرة لزيارة جدتها . كانت الجدة تغفو ولم تجلس سكارليت وهي ترى جدتها بين اليقظة والوسن .
 — « أحببت أن أراك لحظة ياجدتي ، لن أفسد غفوتك »
 — « إذن .. اعطينى قبلة الوداع ياكاتى سكارليت الصغيرة .. انت فتاة لطيفة » .

واحتضنت سكارليت الجسم الضئيل الجامد برفق ، وقبلت الوجنة العتيقة بقوة . وفي الحال سقط فك جدتها على صدرها .
 ومرت على بيت كاثلين التي دعته إلى تناول الشاي .
 وقالت كاثلين « هل عندك وقت لرؤية الجدة ياسكارليت ؟ »
 — « لقد ذهبت إليها بالفعل قبل أن أمر عليك ، انها تغفو الآن »
 — « هذا عظيم حقا .. فسيكون شيئا مؤسسا .. لو انها تخلعت عن توديعك . لقد أخرجت كفنها من الصندوق الذى تحتفظ فيه بكنوزها .

سوف تموت قبل أن يمضى وقت طويل .
 وتطلعت سكارليت بذهول إلى وجه كاثلين الساكن وجحظت عينها .
 كيف تستطيع أن تقول أشياء كهذه بنفس لهجة الصوت التى تتحدث بها
 عن الطقس ؟ ثم انها تشرب الشاي وتاكل الكعك فى هدوء تام ؟
 ومضت كاثلين تقول : « اننا نأمل فى أن تحل بضعة أيام جافة أولا ، فلو
 أن الطرق كانت غارقة فى الوحل ، فإن الناس سيلقون المتاعب فى الوصول
 لحضور السهر على الجثمان . ولكن علينا أن نتقبل ما سيحدث ..
 وهنا لاحظت كاثلين ما ارتسم على وجه سكارليت من رعب .. ولكنها لم
 تفسره على نحو صحيح :
 — « كلنا سوف نفتقدها ياسكارليت ، ولكنها مستعدة للرحيل ، وكل من
 يعيشون طويلا مثل كاتى سكارليت العجوز يعرفون بطريقة ما موعد
 رحيلهم .. اسمحى لى أن اصب لك المزيد من الشاي »



عملية قيصرية

الوقت غير كاف لأوراق جديدة للجدران . اسبوعان مدة قصيرة ، وأسرت سكارليت إلى تذكير مسز فيتزياتريك بانها ستنجب طفلها في هذا البيت الكبير . وقدمت لها مدبرة المنزل المفاجأة التي تعوضها عن عدم وجود أوراق جديدة على الحوائط ، إلى جانب نيران كافية في المدفأة وستائر سمكية ذات ألوان زاهية وسجاد وأثاث .. فقد فتحت مسز فيتزياتريك بابا يفضى إلى غرفة ملحقة بغرفة النوم . وعقدت الدهشة لسان سكارليت وأخذت تحمق في ذلك الشيء الغريب في وسط الغرفة . انه سرير ضخم طوله عشرة اقدام على الأقل وعرضه ثمانية وثمة ناج من الذهب وأربعة أعمدة من خشب البلوط محفورة في شكل ألهاة إغريقية . وقالت مسز فيتزياتريك : إنه يحتمل أن يكون هذا السرير قد صنع خصيصا لنائب الملك ، وهو رئيس حكومة أيرلندا .

وقالت سكارليت : « انه ضخم بحيث يكفى هذا الطفل العملاق في أحشائي . هذا إذا استطاع الطبيب أن يمسك به » .
واتفقا على إعداد حاشية للفراش خلال يومين .

وقالت سكارليت إنها لو نامت أسبوعا في هذا السرير فإنها لن تلمس مطلقا نفس البقعة مرتين مهما تقلبت في الفراش . واقتنعت سكارليت بأن هذا السرير الذي يعتبر منزلا قائما بذاته يغني مؤقتا عن أوراق الحائط . وبدأت الأمطار تهطل بشدة والرياح تهوى في الخارج .. وفي تلك اللحظة شعرت سكارليت بالأم الوضع . وطلبت من مسز فيتزياتريك أن تساعد على الصعود إلى المائدة لكي تتمدد فوقها ، وطلبت منها أن تذهب لتستدعي الطبيب .



سكارليت تنزف بغزارة ، وهي وحيدة .. وقد تأخرت عودة فيتزياتريك جف حلقها ولا احد يقدم لها جرعة ماء .. وزادت سرعة الرياح . وهبت عاصفة عاتية وتحول المطر إلى سيول . ورفسات الجين تتزايد . ومضى وقت من العذاب قبل أن تعود مسز فيتزياتريك . قالت إنها اشترت ملايات وبطاطين ووسائد ناعمة وإن رجالا سيحضرون حاشية الفراش . وطلبت منها سكارليت بعض الماء . وقالت مسز فيتزياتريك إن كولا من ذهب لاهضار الطبيب ولكنه لم يستطع عبور النهر - بسبب ارتفاع المياه - والذهاب إلى الطبيب في آدمز تاون ، فاضطر للذهاب إلى بلدة تريم . وطلبت سكارليت المزيد من الماء لتشرب .

حاولت مسز فيتزباتريك أن تخفى فزعها وهي ترى كمية الدماء التي تنزف من جسم سكارليت .

— « كم الوقت في ساعتك يامسز فيتزباتريك ؟ »

— « الخامسة وست عشرة دقيقة »

— « أعتقد أن العاصفة تعوق السفر .. أريد تغيير المنشقة فقد أغرقته الدماء ، وأريد بعض الشاي المحلى بكمية كبيرة من السكر » .

المطر يضرب النواذف والرياح تهزها . وكاد كولام أوهلرا يسقط صريعا عندما انكسر فوقه فرع شجرة على مقربة من المنزل .. وجاهد لكي يسلك الطريق المؤدى إلى الباب .

وسالت سكارليت : « كم الساعة الآن ؟ »

— « السابعة تقريبا » .

وصل كولام وسال : « هل الحالة سيئة جدا ياسكارليت حبيبتي ؟ » رفعت نفسها لكي تجلس نصف جلسة :

— « هل الطبيب معك ؟ الجنين لم يعد يرفس كثيرا كما كان يفعل ؟ »

— « وجدت قابلة في بلدة دانشوجلين لأن الطريق إلى تريم مغلق بعد أن اجتاح النهر هذا الطريق . والآن أرقدى على ظهرك الآن مثل أم طيبة ولا ترهقى نفسك »

— « أين هي ؟ »

— « على الطريق .. كان جوادى أسرع ولكنها على مسافة قصيرة خلفى . وقد قامت بتوليد مئات السيدات . ستكونين في أيد أمينة »

— « لقد أنجبت من قبل ياكولام . هذه المرة مختلفة . هناك خلل ما »

— « ستعرف القابلة كيف تتصرف . اهدئى » .



وصلت القابلة بعد الساعة الثامنة والمياه تغطى كل ملابسها . ونزعت معطفها وناولته لكولام لكي يضعه على مقربة من النيران حتى يجف . ثم طلبت صابونا ومياها دافئة لكي تغسل يديها . وعندما اقتربت من المائدة التي ترقد فوقها سكارليت ورأت الدماء جفلت وهبطت عزميتها . وتبادلت الهمسات مع مسز فيتزباتريك .

ذبل الضوء في عيني سكارليت وأرخت جفونها فوق دموعها المفاجئة . وقالت القابلة في مرح زائف : « دعونا نرى ما هناك .. » ومدت يدها تحت الملاءة وتحسست أحشاء سكارليت ، ثم قالت « طفل قوى بديع ، لقد وجه لى التحية على الفور برفسة . سوف ننظر في دعوته للخروج الآن ونوفر لأمه بعض الراحة » .

واستدارت نحو كولام وقالت : « الأفضل أن تتركنا لعملنا النسائي ياسيدي ، وسوف ندعوك عندما يولد ابنك » .

وتكشف كولام عن ياقته التي ترمز إلى عمله كرجل دين .
— « سامحنى يا أبى » .

وجذبت القابلة .. القس إلى ركن بعيد ، وقالت له « قد يكون من الأحسن أن تبقى يا أبى حتى الشعائر الأخيرة »
كان صوتها مرتفعاً جداً . وسمعتها سكارليت . وبكت وهى تقول
« يا إلهى الحبيب » :

وصرخت سكارليت عندما مدت القابلة يدها فى رحمها .
— « كفى ! يا إلهى .. الألم . اجعلوها تتوقف » .

وعندما انتهى الفحص كانت ثثن من الأذى . وغطى الدم كل ما حولها وتناثر على ملابس مسز فيتزباتريك وعلى زى القابلة وعلى الأرضية لمسافة ثلاثة أقدام على جانبي المائدة . وشمرت القابلة عن ساعدها الأيسر . وكانت ذراعها اليمنى مصبوغة باللون الأحمر إلى منتصف المسافة من مرفقها . وقالت : « يجب أن أحاول بكلتا يدي » . وارتفع اثنين سكارليت .

هنا تقدمت مسز فيتزباتريك من القابلة وهى تقول :
« أنا عندى ستة أطفال .. أخرجى من هنا ، كولام .. اطرد هذه السفاحة من هذا المنزل قبل أن تقتل مسز أوهارا وقبل أن أقتلها .. وساعدنى يا ربى » .

واشرقت الغرفة فجأة بومضة من الضوء عبر كوة فى السقف ومن خلال النوافذ ، واشتد هطول الأمطار التى كان صوت ارتطامها بالزجاج يزداد علواً .

وزمجرت القابلة : « لن أخرج الآن ، .. الظلام دامس » وقالت مسز فيتزباتريك : « ضعها فى غرفة أخرى إذن ولكن المهم أن تخرجها من هنا . وعندما تبعد ياكولام ، عليك أن تذهب لاحضار الحداد انه يداوى الحيوانات والمرأة لاتفعل كثيرا عن مرضاه » ..
وامسك كولام بالقابلة من ذراعها وهى تصرخ ، وأخذ يهزها مثل الخرقة وهى تتضرع فى خنوع . قال : « هدئى نفسك يا امرأة » . ونظر إلى مسز فيتزباتريك بنظرات يائسة وقال :

— « لن يأتى ياروزالين . لا أحد سيأتى الآن . الدنيا ظلام . هل نسيت اى ليلة هذه ؟ » ومسحت مسز فيتزباتريك وجنتى سكارليت بقطعة

من القماش المبللة بمياه باردة ، وقالت :
 « إذا لم تحضره معك ياكولام . سوف اتولى أنا هذه المهمة . عندي
 سكنين ومسدس في الدرج في منزلك . ويكفى أن ألوح بهما أمام عيني
 الحداد . ومن المؤكد أن هناك أشياء يخافها أكثر من الأشباح » .
 وقال كولام : « سأنذهب » .



رسم جوزيف أونيل علامة الصليب على وجهه وصدره .. وتصيب وجهه
 عرقا ، وقال : « لقد فعلت ذلك في حصان ذات مرة في حالة كهذه .. أما امرأة
 فأننى لا أستطيع أن أمارس معها هذا العنف » .
 ونظر إلى سكارليت وهز رأسه ، وهو يضيف :
 « أن هذا ضد الطبيعة . لا أستطيع » . العاصفة تزمجر في الخارج
 وتهاجم الجدران الحجرية السمكية للمنزل .
 — « يجب أن تفعلها يارجل ، وإلا فإنها ستموت » .
 — « ستموت وكذلك الجنين ، أن لم يكن قد مات منذ بعض الوقت ،
 فليس هناك حركة » .

قال كولام بصوت حاول أن يجعله ثابتا وأمرأ :
 — « لا تنتظر إذن يا جوزيف . حبا في الله يارجل ، إن هذا هو أملها
 الوحيد » .

ارتعشت جفون سكارليت .. وظهرت الحمى في عينيها وبللت روزالين
 فيتزباتريك شفقتها بالمياه .
 قال كولام : « جوزيف .. إننى امرئ » .
 وارتعد الحداد . ورفع ذراعه البديئة المفتولة العضلات فوق بطن
 سكارليت المنتفخ . ولح نصل السكين في يده عندما انعكس ضوء
 البرق الساطع .

وقالت سكارليت بصوت واضح : « من هذا ؟ »
 وصاح الحداد : « حمايتك يا قديس باتريك ! »
 وقالت سكارليت مرة أخرى : « من هذه السيدة الجميلة ياكولام في
 الثوب الأبيض الرائع ؟ »

والقى الحداد بالسكين على الأرض وابتعد بينما كانت يدها ممدتين
 أمامه وكفاه مرفوعتين ليحمي نفسه من الرعب .. وهبت الرياح وكسرت
 أحد فروع الأشجار وأطلقتها ليحطم النافذة ، وأصابته ذراعى جوزيف
 أونيل وسقط على الأرض وهو يصرخ .

ومن خلال النافذة المفتوحة عوت الرياح فوقه . وغطى ضجيج الرياح على صراخ الحداد . وقفزت السنة اللهب داخل المصابيح واهتزت وانطفا بعض هذه المصابيح .

وبهدوء وسط زئير العاصفة المقتحمة ، فتح باب المطبخ وأغلق مرة أخرى وسار جسم كبير يغطي بشال عبر المطبخ وسط الأشخاص المدعورين متجها إلى النافذة . كانت امرأة ذات وجه مستدير تخطه التجاعيد . وبلغت المغسلة . وعصرت واحدة من المناشف .. فسال منها الدم .

وقالت روزالين فيتزباتريك التى أفأقت من رعبها وهى تخطو نحو المرأة :

— ماذا تفعلين ؟

ومد كولام ذراعه وأوقف روزالين .

لقد تعرف على الـ « كايلىش »* المرأة الحكيمة التى تعيش بالقرب من البرج .

وكومت المرأة الحكيمة منشقة ملطخة بالدم واحدة بعد الأخرى فوق بعضها إلى أن سدت الثغرة فى النافذة . ثم استدارت لنقول : « اضيئوا المصابيح مرة أخرى » .

كان صوتها خشنا ، كما لو كان الصدا قد بلغ حنجرتها . وخلعت شالها الأسود المبلل بمياه المطر وطوته بعناية ووضعته على مقعد . وكانت تردى تحته شالا بئيا . وخلعته أيضا وطوته ووضعته على المقعد ، ثم شال أزرق داكن به ثقب على إحدى الكتفين .. وشال آخر أحمر به ثقوب أكثر .

وقالت بلهجة توبيخ لكولام : « أنت لم تفعل كما أخبرتك » . ثم اتجهت نحو الحداد وركلته بحدة فى جنبه وقالت : « عد إلى دكانك أيها الحداد » . ونظرت إلى كولام مرة أخرى ، فاضاء مصباحا وبحث عن مصباح آخر واضاءه إلى أن استقرت الشعلة فى كل منهما وأرسلت نورها .

وقالت فى ادب : « شكرا أيها الأب .. أرسل أونيل إلى البيت ، فالعاصفة تنتهى . ثم تعال وارفع المصباحين عالنيا إلى جانب المائدة » ثم استدارت نحو مسز فيتزباتريك ، وقالت : « أنت ، افعل نفس الشيء ، سوف أجهز الاوهارا » .

* « كايلىش » باللغة السلالية القديمة فى أيرلندا .. معابها الساحرة .

حبل حول خصرها يحمل دسنة أو أكثر من الأكياس النني يشبه كل منها « الجراب » وهى مصنوعة من خرق مختلفة الألوان ومدت يدها إلى أحد هذه الأكياس وسحبت قارورة تحتوى على سائل أسود . ورفعت رأس سكارليت بيدها اليسرى ، وصبت السائل فى فمها بيدها اليمنى وخرج لسان سكارليت من فمها لكى يلحق شفيتها وضحكت الـ « كايلىش » بصوت خافت وأعدت رأس سكارليت لتستقر فوق الوسادة .

وبدا الصوت الصدى يدندن بنغمة ليست بنغمة . ولمست الأصابع المعروفة حلق سكارليت وجبينها وجذبت جفونها ثم تركتها . وأخذت المرأة العجوز ورقة نبات مطوية من أحد أكياسها المعلقة فى خصرها ووضعها فوق بطن سكارليت . ثم أخرجت علبة سعوط من القصدير من كيس آخر ووضعها إلى جانب الورقة . ووقف كولاوم ومسز فيتزباتريك كتمثالين يحملان المصابيح ، ولكن عيونهما كانت تتابع كل حركة .

الورقة النباتية تحتوى على مسحوق ، وقد نثرته المرأة فوق بطن سكارليت ثم أخرجت من علبة السعوط عجيبة وأخذت تفركها فوق المسحوق وتذلك بها بشرة سكارليت .

وقالت المرأة : « سوف أقيدها حتى لاتجرح نفسها » وأخرجت حبلا من حول خصرها استخدمتها فى هذا الغرض . ونظرت إلى مسز فيتزباتريك ثم إلى كولاوم ، وقالت : « إنها ستصرخ ، ولكنها لن تشعر بالألم . حذار من الحركة ، لأن الضوء مسألة حيوية » .

وقبل أن يتمكن من الرد ، أخرجت سكيناً رقيقاً ومسحته بشئ ما من أحد أكياسها ثم غرسته فى بطن سكارليت التى كان صرختها اقرب إلى صيحة روح يائسة .

وقبل أن يتبدد الصوت ، كانت الـ « كايلىش » تحمل فى يديها طفلاً مغطى بالدم وبصقت شيئاً من فمها على الأرض ، ثم نفخت فى فم الوليد مرة واثنين وثلاثاً . وتحركت ذراعاً الطفل ثم ساقاه .

وهمس كولاوم : « المجد للعذراء » .

ضربة خاطفة بالسكين قطعت الحبل السرى . ووضع الطفل على الملاءات المطوية . وعادت المرأة لتقرب من سكارليت . وقالت « اقتربا بالمصابيح » وتحركت يداها وأصابها بسرعة ، أحياناً كان الضوء ينعكس بسرعة على السكين .. وتساقط قطع صغيرة دموية من العظم الغشائى على الأرض إلى جانب قدميها . وصبت المزيد من السائل الأسود بين شفتى سكارليت ثم سائلاً بلا لون فى الجرح المخيف فى بطنها ..

وصاحبت الدندنة المشروخة الحركات الصغيرة الدقيقة بينما كانت تمارس
 خياطة الجرح . وقالت . « عليكما بلفها في كتان ثم في صوف بينما اغسل
 الطفل » . وفي تلك الاثناء كانت قد قطعت الحبال التي تقيد سكارليت .
 وعندما فرغ كولام ومسز فيتزباتريك من مهمتهما ، علدت المرأة حاملة
 طفل سكارليت داخل بطانية ناعمة بيضاء . وقالت وهي تضحك مشيرة إلى
 الطفل :

« ان القابلة نسيت هذا » . وعلى صوت ضحكها خرج صوت من حلق
 الطفل .. انها طفلة .. وهاهي ذى تفتح عينيها .. حدقة العين الزرقاء بدت
 مثل الحلقات الباهتة حول بؤبؤ العين الأسود .. انفها الدقيق واذناها
 وفمها وجمجمتها الناعمة .. كلها كانت نموذجية . وبشرتها الزيتونية
 كانت داكنة فوق البطانية البيضاء ..



حكايات عن الشياطين

وهى تستعيد وعيها بصعوبة وببطء . عرفت سكارليت أنها لم تفقد جنينها ، وانها أنجبت طفلة جميلة سمراء البشرة مثل والدها . وقد تم تعميدها في نفس غرفة النوم بحضور الأب فلاين والأشبين كولام والأشبينتين كاتلين ومسز فيتزابترك . وسميت الطفلة كاتى كولام أوهارا . واضطرت كاتلين إلى ارتداء أجمل ثيابها ولونه أزرق رغم أنها في فترة حداد . فقد ماتت كاتى سكارليت العجوز . واتفق الجميع على تاجيل ابلاغ سكارليت بالخبر حتى يقوى عودها .

وصحب كولام .. الأب فلاين إلى حانة كنيدي في بوليهارا حيث دعا الحاضرين إلى تناول الشراب على حسابه بهذه المناسبة . وكان يامل في أن يساعد هذا التصرف على وقف الشائعات التي تتردد في مقاطعة ميث . كان جو أونيل الحداد قد انكمش رعبا في زاوية في مطبخ بوليهارا حتى طلع النهار ، ثم أخذ يعدو إلى دكانه ليتناول شرابا يستعيد به شجاعته . وبدأ يتحدث لأي شخص مستعد للاستماع إليه .. وكانوا كثيرين :

« كنت مستعداً لانقاذ حياة الاوهارا عندما اخترقت الساحرة الجدار الحجري وطرحتنى أرضا بقوة مخيفة ، وبعدها أخذت تركلني . وكان لحمي يشعر بأن القدم ليست قدما بشرية وإنما ظلف مشقوق شيطاني . وعندئذ ألقت تعويذة على الاوهارا وبعدها شقت الطفل من الرحم . كان الطفل عبارة عن دم .. كما غطت الدماء الأرضيات والجدران والهواء . ولو كان جوزيف أونيل أقل شجاعة لغطى عينيه ليحميها من المنظر المروع ، ولكن جوزيف أونيل رأى البنيان القوى البديع للطفل يتشكل تحت الدم . وأنا أقول لكم إنه طفل رجل ، وعلامة الرجولة واضحة بين أطرافه . وقالت الشيطانة : « ساغسل الدم وإزيله » وأدارت ظهرها وقدمت للأب أوهارا مخلوقا هشاً نحيلاً يكاد يكون خالياً من الحياة .. مخلوقاً أنثى واسمر مثل تراب القبور . الآن ، من الذى سيخبرنى ؟ ما لم يكن استبدال طفل باخر .. هذا الذى رأيته ، فماذا يكون ؟ لن يأتى شيء طيب من وراء هذا .. لا للاوهارا ولا لأي رجل لمسّه ظل الطفل الجنى الذى وضع في مكان .. وليد الاوهارا الصبى المسروق » .

ووصلت القصة القادمة من دانتشوجلين إلى بوليهارا بعد أسبوع . قالت القابلة إن الاوهارا كانت تحتضر ، ولم تكن هناك وسيلة لانقاذها سوى تخليصها من الجنين الميت في رحمها . من الذى يفهم في هذه المسائل افضل من قابلة أمضت حياتها في توليد الأمهات ؟ وفجأة جلست الأم

المعذبة في فراش الألم ، وقالت « إنني أراها .. البانثى .. طويلة عارية الرأس وكل ثيابها بيضاء وجمال الجنيات على وجهها » . ثم دفع الشيطان برمح من الجحيم اخترق النافذة ، وطارت البانثى إلى الخارج لكي تندب نداء الموت . لقد كانت تزور روح الطفل الميت وتدعوها ، ولكن الطفل الميت أعيد إلى الحياة عن طريق امتصاص روح العجوز الطيبة التي كانت جدة الاوهارا . انه عمل الشيطان بلا جدال . والطفل الذي تعتبره الاوهارا وليدها ليس سوى غول .

قال كولام لروزالين فيتزباتريك : « اشعر باننى يجب ان احذر سكارليت ، ولكن ما الذى يمكننى ان اقله لها ؟ ان الناس يؤمنون بالخرافات ؟ ان جميع ليالى « كل المقدسين » هى موعد خطر للولادة بالنسبة للطفل ؟ لا استطيع ان اجد عندى اى نصيحة اقدمها لها ، وليست هناك وسيلة لحماية الطفلة من الاقاويل » .

قالت مسز فيتزباتريك . « سارعى سلامة كاتى . لا اُحد ولا شئ سيدخل هذا البيت ما لم اسمح بذلك ، ولا اذى او ضرر سيقرب من هذه الطفلة الصغيرة . والاقاويل سوف يطويها النسيان في حينها .. ياكولام وانت تعرف ذلك . شئ آخر سوف يكتسح الاقاصيص والحكايات وهو ان يرى الجميع ان كاتى هى فتاة صغيرة مثل اى فتاة صغيرة اخرى » .
.. اما سكارليت فقد نفد صبرها وهى تشكو كل يوم لمسز فيتزباتريك :
لماذا لا تتركها تستمتع مع الطفلة بضوء الشمس ؟ لماذا لا تذهبان في نزهة بالمركة ؟ وتشعر سكارليت بسرور لان الطفلة ورثت منها لون عينيها الخضراوين وتقول « سوف اسميها كيتى كات .. فإى طفلة يمكن ان يكون اسمها كيتى .. »

ولم يسبق ان شعرت روزالين فيتزباتريك بخوف في حياتها كما تشعر الآن .

تأملات

سكارليت أوهارا التي جعلت من وقوع الرجال في غرامها .. رياضة وتسلية لم تعد شيئا الآن سوى مصدر الطعام للشخص الذي تحبه أكثر مما أحببت في حياتها . كات .
ولأنها لم تحب أشلي في الحقيقة .. فإنها كانت تريد ما لا تستطيع أن تحصل عليه واعتبرت ذلك حبا
لقد أضعت أكثر من عشر سنوات على الحب المزيف وفقدت ريت ، الرجل الذي أحببته حقا .
هل أحببته حقا ؟

واخذت تفتش في ذاكرتها رغم الألم . انه شيء مؤلم دائما التفكير في ريت وفي فقدته وفي فشلها . وتخف حدة الألم عندما تتذكر الطريقة التي عاملها بها .. فالكراهية تمحو الألم .

في هذه الأيام التي لا تعمل فيها شيئا تسترجع ماضى حياتها . ولا تستطيع أن تتجنب تذكر ريت . هل أحبته ؟ لابد أن هذا صحيح . ولابد أنني مازلت أحبه ، وإلا ما كنت أشعر بقلبي يتوجع عندما أتخيل ابتسامته وأسمع صوته . ولكن طوال عشر سنوات كانت تستحضر أشلي في ذهنها بنفس الطريقة ، وهي تتخيل ابتسامته وصوته . وقد أردت ريت أكثر من أي وقت بعد أن تركني . انه شيء محير . وقد أصيب رأسها بالصداع .



كنت سعيدة حتى قبل وصول كات . كنت سعيدة منذ اليوم الذي ذهبت فيه إلى منزل جامي . والسبب في هذه السعادة هو أن آل أوهارا أخذوني كما أنا .. لم يتوقعوا أبدا أن أكون مثلهم . لم يجعلوني أشعر على الإطلاق بأنني يجب أن أغير . لم يجعلوني أشعر أبدا بأنني على خطأ . وقد رغبت في أن أقيم دانييل والجميع في منازل كبيرة في بوليهارا وأن يصبحوا مزارعين كبارا يملكون مساحات شاسعة من الأرض واستأجرت عمالا ليضطلعوا بمعظم العمل . أردت أن أغيرهم . ولم أسأل نفسي أبدا عما يريدونه هم . لم أأخذهم كما هم .

لن أفعل ذلك مطلقا مع كات . لن أسعى لكي أجعلها مختلفة عما هي عليه . وسوف أحبها دائما كما أفعل الآن بكل قلبي بصرف النظر عن أي شيء . لقد أرادت والدتي أن أكون مختلفة عن نفسي . وكانت على خطأ . كانت تؤمن دائما بأن والدتها هي السيدة النموذجية الكاملة . ولهذا لم يكن مطروحا للتساؤل مجرد الظن بأن ألين أوهارا يمكن أن تخطيء في أي

أن أكون سيدة مثلها ليس الطريق الوحيد لكي أكون . وليست دائما أحسن وسيلة لكي أكون وخاصة إذا لم تكن تجعلك سعيدا . أن تكون سعيدا هي أفضل وسيلة لأن تكون لأنك عندئذ يمكنك أن تجعل غيرك سعيدا بطريقته الخاصة

جميعهم كانوا على خطأ . جميعهم . كل من حاربوني في اتلاننا والخالة اولالى والخالة بولين ، وكل شخص تقريبا في شارلستون . لقد أرادوا مني أن أكون مثلهم ، ولأنى لست مثلهم فأنهم اعترضوا على شخصي ، وجعلوني أشعر وكأن هناك خطأ ما مريعا في شخصي ، وجعلوني أظن أنني شخص سيئ ، وبالتالي استحق أن يتعالوا على أمثالي . ولم يكن هناك شيء فعلته يمكن اعتباره مريعا . وما عاقبوني من أجله هو أنني لم أحترم قواعدهم . أصبحت موضع لومهم بسبب اهتمامي بالعمل وكسب المال ، وأصبحت هدفا لتوبيخهم لأنني ناجحة ، ولأنني منعت أشلي من أن يدق عنقه في قبر ميلي . ولو كان ما حدث هو العكس ، أي لو أنني أنقذت ميلي خلال دفن أشلي لكان كل شيء على مايرام . يا للمنافقين ! ما الذي يعطى أشخاصا .. حياتهم كلها عبارة عن كذبة .. الحق في إصدار الحكم على شخص ؟ ما هو الخطأ في العمل بأقصى مايسطيع المرء من همه ؟ وما هو الخطأ في الحيلولة دون وقوع كارثة وخاصة لصديق ؟ أنهم هم المخطئون .

هنا في بوليهارا عملت باقصى ما أستطيع من همه وكنت محل اعجاب . وكنت سببا في حماية مزرعة العم دانييل من الضياع ، وبدأوا يسمونني الأوهارا .

ماذا قالت مسز فيتزباتريك ؟ « ليس مطلوبا منك أن تفعل أي شيء . كل ما يجب أن تفعله هو أن تكوني كما أنت » وأنا أكون سكارليت أوهارا التي ترتكب أخطاء أحيانا وتفعل ما هو صواب أحيانا ، ولكنها لا تتظاهر ولا تدعى أبدا أن تكون غير ماهي عليه . أنني الأوهارا . وما كان يمكن أن يسموني هذا الاسم لو كنت رديئة كما يصوروني في اتلاننا . لست سيئة على الإطلاق . ولست قديسة أيضا . أنني الأوهارا . وأنا فخورة بذلك . وأثارت طفلتها ضجيجا لكي تلفت النظر إلى أنها مستيقظة ومستعدة لكي تلتهم غذاءها .

« أهدك يا طفلي كات أوهارا أنك تستطيعين أن تكبري لتكوني ما تريدين أن تكوني حتى لو كنت مختلفة عنى اختلاف النهار عن الليل . »

المرأة الحكيمة

مسز فيتزباتريك تعترض طريق سكارليت كلما حاولت الخروج وتسد الباب بجسدها . وتحاول سكارليت اقناعها بأن الهواء النقي سوف يفتح شهيتها ويفيد صحتها .. بلا جدوى .

كانت مسز فيتزباتريك هي رفيقتها الدائمة أثناء مرضها وفترة نقاهتها الطويلة .. تقوم على خدمتها طول الوقت وتسهر على راحتها وترعى الطفلة ، وفي نفس الوقت تستقبل الضيوف والزوار الذين توافدوا للاطمئنان على صحتها . كبار شخصيات أوهارا من أبناء عمها كانوا يزورونها عقب قداس كل يوم أحد .. وكولام يكاد يزورها كل يوم ، وكاتلين كل يومين على الأكثر .. وموني زارتها أكثر مما كانت سكارليت تحب . ومسز فيتزباتريك تقوم بواجبات الضيافة ، وترفض أن تفصح لسكارليت عن اسمها الأول وأن تنادي سكارليت باسمها مجردا بناء على طلبها . وكل ما سمحت به هو مناداتها باسم « مسز فيتز » على سبيل الاختصار وأن تنادي سكارليت باسم « مسز O » ولكن عندما تكونان وحدهما فقط . اما امام الآخرين فإنه يجب مراعاة الشكليات على الوجه الاكمل .

وانتظرت سكارليت إلى أن تنشغل مسز « فيتز » بعملها ولا تراها واستعدت للخروج . لقد ظلت مطيعة لمدة طويلة . وهذا يكفي . فالحقيقة المعروفة أن المرأة تالزم البيت بعد الولادة شهرا تقضى معظمه في الفراش وهذا ما فعلته . وليس هناك سبب لإضافة ثلاثة أسابيع أخرى لمجرد أن ولادة كات لم تكن طبيعية وقد اعترف طبيب بوليهارا الدكتور ديفلين بأن لاختبره لديه في الأطفال الذين جاءوا عن طريق السكين ، فلماذا تستمع إلى مشورته .. خاصة ان هناك شيئا يجب أن تفعله ؟

كانت مسز فيتز قد حدثتها عن السيدة العجوز التي ظهرت - كما لو كان بفعل السحر - لكى تولد كات وسط زوبعة ليلة « كل المقدسين » . وحدثها كولام عن حقيقة تلك المرأة ، انها « كاليبش » من البرج وسكارليت مدينة بحياتها لهذه المرأة الحكيمة . وكذلك كات . ولابد أن توجه إليها الشكر .

برودة الطقس كانت مفاجأة لسكارليت . فقد كان أكتوبر دافئا إلى حد كبير . كيف يتغير الطقس إلى هذه الدرجة خلال شهر واحد ؟ ولفت أطراف عبايتها حول الطفلة المغطاة بالبطانة . وكانت كات متيقظة . وتطلعت عينها الواسعتان إلى وجه سكارليت . وقالت الأم بنعومة . « أيها الشيء الحبيب . أنت طيبة جدا . لاتبكي أبدا .. » وسارت عبر فناء الاسطبل

المكسو بالطوب إلى طريق كانت تستخدمه في أحيان كثيرة وهي تستقل المركبة .



ونادت سكارليت بصوت عال وهي تتجه إلى الأجمة التي تشبه غابة من الشجيرات الصغيرة تحت الأشجار العالية التي تتأخم البرج : « أعرف أنك هنا في مكان ما ، أرجو أن تخرجى وتتحدثى معى لأننى ساقف هنا واتجمد حتى الموت إلى أن تخرجى ، وكذلك الطفلة .. إذا كان هذا يهكم » . وانتظرت في ثقة . فالمرأة التي جاءت به « كات » إلى الدنيا لن تتركها طويلا معرضة للرطوبة الباردة تحت ظلال البرج . وتركت عينا كات وجه سكارليت لكي تتحرك من ناحية إلى أخرى كما لو كانت تبحث عن شيء ما . وبعد دقائق سمعت سكارليت على يمينها . صوت حفيف وخشخشة في الدغل الكثيف الذي يتكون من نبات الأيلكس ذى الأوراق الشائكة الأطراف والزهور الصغيرة الضاربة إلى البياض . وخرجت المرأة الحكيمة من بين شجيرتين من ذلك الغبات . وقالت وهي تتراجع إلى الخلف : « تعالى في هذا الطريق » .

وعندما اقتربت سكارليت شاهدت ممرا . وكان من المستحيل أن تتمكن من العثور على هذا الممر لو لم تكن المرأة الحكيمة قد أزعجت بشالها أغصان الأيلكس ذات الأشواك لكي تفسح الطريق . وتبعث سكارليت الممر إلى أن اختفى داخل بستان صغير من الأشجار ذات الأغصان المنخفضة . قالت سكارليت : « اعترف بعجزى عن الاستمرار .. إلى أين الآن ؟ » وترددت ضحكة صديئة خلفها . وقالت المرأة الحكيمة : « من هذا الطريق » وسارت حول سكارليت وانحنى تحت الغصون . وفعلت سكارليت المثل . وبعد بضع خطوات ، أصبح من الممكن أن تشد قامتها . ثممة كوخ من الطين مسقوف بحزم من القصب في الساحة التي تقع في وسط بستان الأشجار الصغيرة .. وخيط رفيع من الدخان يتصاعد من مدخلته . قالت المرأة . « تعالى » . وفتحت الباب .



قالت المرأة الحكيمة : « انها طفلة ممتازة » . كانت قد فحصت كل أجزاء جسم كات حتى أظافر أصغر أصابع قدميها .

— « أى اسم اخترته لها ؟ »

— « كاتى كولام اوهارا » ؟

كانت هذه هى ثانى مرة فقط تتكلم فيها سكارليت . المرة الأولى خارج

الباب ، وقد شرعت تشكر المرأة الحكيمة لما فعلته ، ولكن المرأة استكتتها .
قائلة وهي تمد يديها : « دعيني أرى الطفلة » . وناولتها سكارليت الطفلة
في الحال ثم لزمت الصمت أثناء الفحص الدقيق . وكررت المرأة . « كاتى
كولام ، اسم ناعم ضعيف بالنسبة لهذه الطفلة القوية . اسم جرينى ..
اسم قوى » . صوتها الخشن جعل لهذا الاسم الايرلندى القديم رنين
التحدى . وتململت سكارليت على المقعد الذى تجلس فوقه والذى كان
بلا ظهر وبلا ذراعين ، ولم تعرف كيف ترد .

وحزمت المرأة جسم كات فى اللفة ودثرتها بالبطاطين ثم رفعتها وهمست
فى اذنها الصغيرة شيئا بخفوت شديد حتى أن سكارليت لم تسمع شيئا مع
أنها أرهفت السمع ، وأمسكت أصابع كات بشعر جرينى . وحملت المرأة
الحكيمة كات على كتفها . وقالت : « حتى لو سمعت فإنه من الصعب عليك
الفهم يا أوهارا ، فقد كنت اتحدث باللغة الايرلندية القديمة . إنها
تعويذة . انت سمعت اننى اعرف السحر مثلما اعرف ما يتعلق
بالأعشاب . »

واعترفت سكارليت بأنها سمعت عن ذلك . وقالت المرأة . « ربما اعرف .
عندى إلمام بالكلمات القديمة والأساليب والطرائق القديمة ، ولكنى
لا أسميها سحرا . اننى أنظر وأصغى وأتعلم . وبالنسبة للبعض ، فإن
ذلك قد يبدو مثل السحر فى نظر الآخرين . عندما يتمتع إنسان بالنظر بينما
الآخرون عميان ، وعندما يتمتع إنسان بالقدرة على السمع بينما الآخرون
يعانون من الصمم .. فإن ذلك فى نظر الآخرين .. سحر . هذا يعتمد إلى حد
كبير على التصديق والاعتقاد . لاتتصورى اننى أستطيع أن أصنع سحرا
لك » .

— لم أقل قط اننى جئت لهذا الغرض »

— « فقط لتعبرى عن الشكر ؟ هل هذا كل شيء ؟ »

— « نعم ، هو كذلك ، والآن بعد أن شكرتك ، فإننى يجب أن اذهب

حتى لايشعروا بغيايى فى المنزل » .

قالت المرأة الحكيمة : « وأنا ادعوك أن تسامحنيى . القلائل هم الذين
يشعرون بالامتنان عندما أدخل حياتهم . واستغرب أنك لست غاضبة منى
بسبب ما فعلته بجسدك » .

— « انت انقذت حياتى وحياة طفلى ايضا » .

— « ولكنى حرمت من الحياة كل الاطفال الآخرين ، لابد أن الطبيب كان

يعرف كيف يتصرف بطريقة أحسن » .

— « حسنا ، أنا لم أستطع استدعاء طبيب . ولو كنت أستطيع ..
لفعلت » !

وأطبقت سكارليت على شفيتها بقوة تعبيرا عن الضيق من لسانها المنفلت . لقد جاءت لتوجة الشكر وليس لإهانة المرأة الحكيمة . ولكن لماذا تتحدث المرأة بالالغاز بصوتها المروع المثير للأعصاب . انه يجعل القشعريرة تسرى في العروق .

قالت سكارليت : « أنا أسفة . هذه وقاحة منى . إنا واثقة ان الطبيب لم يكن ليفعل أحسن مما فعلت ، والأرجح ولا نصف مافعلت . وانا لا أفهم ما تقصدين بحديثك عن الأطفال الآخرين . هل تريدين القول أن تواما كان في بطنى وأن الطفل الآخر مات ؟ وفكرت سكارليت .. من المؤكد أن هذا احتمال ، فقد كان بطنها كبيرا جدا أثناء الحمل . ولكن لو كان هذا صحيحا .. لكانت مسز فيتز أو كولام قد أخبراها بكل تأكيد . ربما لا .. فهما لم ينقلان إليها خبر وفاة كاتى سكارليت العجوز إلا بعد أسبوعين من موتها .

شعور غير محتمل بالخسارة اعتصر قلب سكارليت .

— هل كان هناك طفل آخر ؟ يجب أن تصارحينى ! »

— « صه ، انت تزعجين كاتى كولام . لم يكن هناك طفل آخر في الرحم . لم اعرف انك ستخطئين فهم كلماتى . كانت المرأة ذات الشعر الأبيض تبدو ذكية . واعتقدت انها فهمت وانها ستخبرك . لقد رفعت الرحم مع الطفل . ولم تكن عندى المهارات اللازمة لإعادته إلى مكانه . لن تستطيعى الإنجاب مرة أخرى » .

كان هناك شيء حاسم وقاطع ونهائى على نحو مخيف في كلمات المرأة والطريقة التى نطقت بها هذه الكلمات . وادركت سكارليت تماما أن ما تقوله صحيح ، ولكنها لم تستطع أن تصدق . لن يكون لها أطفال آخرون ؟ الآن . عندما اكتشفت في النهاية الفرحة الطاغية للأمومة ، وعندما عرفت ، بعد فوات الأوان ، معنى الحب ؟ يا للقسوة .

لم تكن سكارليت قد فهمت في أى وقت معنى أن تخاطر ميلانى بحياتها .. وهى تعلم ذلك .. لكى تنجب طفلا آخر . الآن تستطيع أن تفهم . فهى مستعدة لأن تفعل كما فعلت ميلانى .. وتحمل الألم والخوف ونزيف الدم مرة بعد أخرى لكى تستمتع باللحظة التى ترى فيها وجه طفلتها لأول مرة .

وأطلقت كات صوتا كالمواء إعلانا عن بدء إحساسها بالجوع . وشعرت

سكارليت بان اللبن بدأ يجرى فى صدرها .. استجابة للنداء . لماذا انا
حزينة ؟ ألا توجد بين ذراعى الآن أجمل طفلة فى العالم كله ؟
قالت : « لا بد أن اذهب ، انه موعد رضاعة الطفلة » .
وقالت جريئى : « كلمة أخرى . تحذير » . وشعرت سكارليت
بالخوف . أضافت السيدة : « احتفظى بطفلتك على مقربة منك .. فهناك من
يقولون إن ساحرة هى التى جاءت بها ولذلك فإنها مسحورة » . وارتجفت
سكارليت ، بينما كانت المرأة تقبل رأس الطفلة وهى تقول بصوت خفيض :
« كونى بصحة جيدة يا دارا .. سوف اسميها دارا فى ذاكرتى . ومعناها
شجرة البلوط . واننى ممتنة لنعمة رؤيتها ولتشكراتك ، ولكن لا تحضرىها
إلى هنا مرة أخرى . ليس من الحكمة أن تكون لها علاقة بى . إمضى الآن .
شخص ما قادم ، وينبغى ألا يراك أحد . »
واسرعت سكارليت فى طريق العودة ، فقد كانت السماء قد بدأت تمطر .



أمضت سكارليت وكات عيد الميلاد فى بيت دانييل . وحصلت كات على
الاعجاب الكافى لارضاء سكارليت .
قالت سكارليت : « كولام .. أريد الذهاب إلى الوطن »
— « الست فى وطنك الآن ، على أرض شعبك التى جعلت منها أرض
أوهارا مرة أخرى ؟ »
— « كولام ، لا تمارس روحك الايرلندية معى ! انت تعرف ما أعنيه ..
أشعر بحنين إلى الأصوات الجنوبية وأشعة الشمس الجنوبية والطعام
الجنوبى . أريد شيئاً من الخبز المصنوع من القمح والدجاج المحمر وطبق
القمح والشوفان المجروش . لا يوجد فى أيرلندا من يعرف ما هو القمح ،
فالكلمة هنا تستخدم فى التعبير عن أى نوع من أنواع الحبوب »
— « لا أعرف ياسكارليت . وأنا أسف على ماتشعرين به من حزن . لماذا
لاتذهبين فى زيارة عندما يحل الطقس الملائم للرحلات البحرية ؟ يمكنك أن
تتركى كات هنا فى رعاية مسز فيتزباتريك وأنا . »
— « أبدا . لن أترك كات أبدا » .
لأشء يقال . غير أن الفكرة تراود ذهن سكارليت من وقت إلى آخر :
أسبوعان ويوم واحد فقط لعبور المحيط ، وأحيانا تلعب الدرافيل لساعات
على جانب السفينة .



وجاء أول أيام السنة الجديدة . ولابد من أداء طقوس معينة لضمان
٢٦٦

الحظ السعيد طوال السنة . والبداية هي أن تتذوق سكارليت قطرات من الشاي . ثم يجب أن يكون أول طعام يؤكل في البيت كعكة على صينية . على أن يقضم منها ثلاث مرات فقط باسم الثالث القدس . والخطوة التالية هي القاء الكعكة بكل قوتك صوب الحائط حتى تتحطم إلى أجزاء صغيرة . ما هذا الجنون ؟ ولماذا أفسد كعكة جميلة ؟ ولماذا أتناول كعكا في طعام الإفطار ؟ والمطلوب هو أن تحمل الكعكة الضخمة بين يديها وتكرر الصلوات التي تحمى من الجوع خلال السنة والتي علمتها إياها مسز فيتز . هذه هي التقاليد الأيرلندية . ولا يستطيع أحد في المنزل أن يأكل قبل تدمير الكعكة . وكان لابد أن تطيع سكارليت كل التعليمات الصادرة إليها من مسز فيتز في صباح ذلك اليوم .. وعلى كل رجل وامرأة وطفل في بوليوهارا أن يأخذ قطعة صغيرة من بقايا الكعكة من أجل الحظ السعيد .



أول فبراير هو بدء السنة الزراعية في أيرلندا . ووقفت سكارليت - وفي رفقتها كل شخص يعمل ويقيم في بوليوهارا - في وسط حقل كبير . وبعد أن رددت إحدى الصلوات من أجل محصول وفير ناجح ، نغرس جاروفا في الأرض ثم تسحب منها وتقلب أول حفنة من التراب . الآن يمكن أن تبدأ السنة بشرط أن يقام حفل لتناول كعكة التفاح واللبن ، لأن أول فبراير هو أيضا يوم الاحتفال بعيد القديس بريجيد ، وهو راعي مزارع إنتاج الألبان .

كلمة سكارليت هي القانون في تسوية الخلافات والمنازعات في بوليوهارا . والمكتب المختص بهذه الشؤون يوجد داخل منزلها : « البيت الكبير » . والمزارعون يعرفون في الزراعة أكثر مما تعرف ، ويمكنها أن تتعلم منهم خلال مناقشة تلك المنازعات الصغيرة . وقد وضعت ثلثمائة فدان جانبا لتكون مزرعتها الخاصة . والمزارعون الذين يعملون بها يدفعون فقط نصف الأيجار المعتاد . ولكن المزارعين يتعلمون منها أيضا ، فهم لم يسمعوا من قبل عن التسميد بالفوسفات إلى أن تسلموا منها أكياس المخصبات . وقد يسترد ريت بضع بنسات من أمواله إذا كان المحصول جيدا . وتبقى أجمل الساعات التي تعيشها سكارليت وهي التي تقضيها مع « كات » التي كانت قادرة على أن تسلي نفسها وأن توجه نظراتها بانتباه إلى أمها وهي تتحدث .

وعندما كانت سكارليت في العشرين من عمرها اضطرت لأن تنسى شبابها وتدفنه .. وفي ربيع عام ١٨٧٦ وهي في الحادية والثلاثين من عمرها .. عاد الأمل والشباب والحنان .

حاولت مسز فيتز اقناع سكارليت بتأجير البيت الذى كانت تقيم فيه قبل انتقالها إلى البيت الكبير لصانعة أزياء نسائية ، خاصة أن سكارليت تحتاج إلى بعض الملابس بعد أن أمضت الشهور السابقة في ملابس سوداء رثة . ولم تمنع سكارليت . فقد كان الحصول على الأيجار هو ما يهمها في المقام الأول . واقترحت مسز فيتز أيضا على سكارليت الموافقة على تأجير البيت الملاصق لحانة برندان كنيدى في بوليوهارا لكنيدى نفسه لكى يستخدمه كفندق صغير . ولم توافق سكارليت .

كان الفينيون يزدادون عددا وقوة باطراد في كل أنحاء أيرلندا ، وفي بوليوهارا أصبح لديهم الآن أهم ما يحتاجونه : موقع آمن يستطيع زعمائهم في كل مقاطعة أن يصلوا إليه ويجمعوا فيه لوضع خططهم .. وحيث يستطيع أى شخص مطلوب القبض عليه أن يجد فيه الملجأ الذى يحتمى بداخله . والمشكلة الوحيدة هي أن وجود الغرباء في بلدة أكبر قليلا من قرية يمكن أن يكون ملحوظا .

وكانت مسز فيتز تشعر بارتياح لأنها استطاعت أن تضع في داخل بوليوهارا .. مارجريت سكارلتون « خياطة السيدات » ، ولكنها كانت تريد أن تحصل على موافقة سكارليت على فكرة الفندق الصغير ، وناقشت كولا لى يتدخل ويساعد في اقناع سكارليت ، ولكنه طلب منها التمهل حتى يأتى الوقت المناسب .



حزمت سكارليت أمرها في اليوم الذى رأت فيه الغلالة الرقيقة من اللون الأخضر فوق السهول المزروعة حيث قلبت بجاروفها أول حفنة من التراب . يجب أن تقوم برحلتها إلى أمريكا بعد عيد الفصح مباشرة ، وسيكون لديها ما يكفي من الوقت بحيث تحضر موسم الحصاد في بوليوهارا . اللون الأخضر جعلها تشعر بنشوة كبيرة .. وكبرياء . انها تريد أن تصيح وتعلن بأعلى صوت : « هذه ملكى ، أرضى ، بذورى أصبحت تتفجر بالحياة » .

ستأخذ معها حفنة من التراب من أرض أوهارا لكى تنثرها على ضريح جبرالد أوهارا في تارا . كما انها ستحضر معها ابنها ويد وابنتها ايللا ليعيشا معها هي وكات الحياة الجديدة في أيرلندا . الآن هي تريدهما بعد أن اكتشفت معنى الشعور بالحب للطفل .. ومعنى أن تكون أما حقيقية .



رحلة العودة

أكد كولام صعوبة السفر قبل عيد الفصح لأن الاوهارا يجب ان تحضر حفل الجمعة العظيمة . ولم تجادل سكارليت ، لأنها حريصة على أن تكون الاوهارا ، ولكنها شعرت بضيق لأن زرع أول شجرة بطاطس بهذه الدرجة من الأهمية . وكان يثير سخطها أيضا أن كولام لن يذهب معها في الرحلة إلى أمريكا وأنه كان متباعدة كثيرا في الفترة الأخيرة .

كل شيء كان يثير أعصابها .. لأنها بعد أن قررت السفر ، تريد أن تسافر .. وقد تحدثت مع الخياطة مارجريت سكانلون بفضافة لأنها أخذت وقتا طويلا في إعداد ثيابها ولأنها أبدت اهتماما غير عادي عندما طلبت سكارليت فساتين حريرية ملونة إلى جانب ملابس الحداد .

وحجزت سكارليت أكبر وافخم مقصورة في السفينة برايان بورو التي تغادر ميناء جالواي يوم الجمعة التالي لعيد الفصح .

وفي يوم أحد السعف ، انقلب الجو وأصبح باردا واشتد المطر الذي بدأ يهطل منذ يوم الجمعة العظيمة . وعادت سكارليت إلى منزلها وهي مبجلة بالمياه وترتعد من البرد عقب الاحتفال الذي جرى في الحقل لزرع الشجرة . وكانت تحلم بحمام ساخن ، غير أنها لم تجد الوقت لكي ترتدى حتى ملابس جافة . فقد كانت كاثلين في انتظارها وهي تحمل رسالة عاجلة : « دانييل العجوز يريد أن يراك ياسكارليت . لقد أصيب بمرض في صدره وهو يحتضر » .



ركعت سكارليت إلى جوار الفراش وأمسكت بيد عمها دانييل اوهارا . كان وجهه أشبه بجمجمة مغطاة بالجلد .

— « العم دانييل . أنا كاتي سكارليت » . فتح دانييل عينيه .. كان يبذل جهدا خارقا لكي يتكلم مما جعل سكارليت توشك على البكاء .. قال : « اطلب منك معروفا » .

— أي شيء .

— ادفينيني في أرض اوهارا .

— سأفعل .

واغلقت عينا دانييل . وبدأت سكارليت تبكي . واقتادتها كاثلين إلى مقعد إلى جانب المدفأة . لم تكن سكارليت تدرك حتى هذه اللحظة كيف أصبح عمها جزءا هاما من حياتها . كان يتكلم قليلا جدا . ونادرا ما كانت هي نفسها تتحدث إليه . غير أنه ببساطة .. كان هناك موجودا .. قويا ..

صلبا .. هادئا .. ثابتا .. لايتغير . رب الأسرة . وفي ذمها . كان العم
دانيل هو الاوهارا .

مات دانييل يوم الاثنين بعد صحوه قليلة بعد ظهر يوم الأحد . واصبح
من المستحيل على سكارليت ان تسافر يوم الجمعة لأن « البقاء إلى جانب
الميت قبل دفنه » سوف يستغرق ثلاثة أيام على الأقل ، وربما أربعة ..
وبعدها الدفن . ولا مفر أمام سكارليت من أن تكون على رأس الأسرة .
— « لا مناص ياسكارليت » .. هكذا قال كولام ..



كثيرون جاءوا للتعزية في وفاة دانييل . لم يتسع لهم المكان . شموع
سميكة طويلة تحترق على الموائد عند رأس وقدمى الفراش الكبير . ووقد
دانيل فوق الاغطية في حلة بيضاء ذات حواف سوداء .. ويداه المرهقتان
من العمل معقودتان فوق صدره . وثمة امرأة تميل بجسها ناحية اليمين
وناحية اليسار وهي تنتحب وتندب : « لماذا تركتنا ؟ لماذا تركتنا ؟ »
ودفن دانييل اوهارا يوم الخميس . وكانت الجنازة هائلة مثل جنازة
كاتي سكارليت العجوز . وتولت سكارليت قيادة الموكب الجنائزي إلى القبر
الذى حفره ابناءؤه في الضريح القديم المحاط بالاسوار في بوليهارا والذي
عثرته عليه هي وكولام وقاما بتنظيفه .

وعندما انتهت الجنازة ، توجهت الأسرة إلى البيت الكبير لتناول
المرطبات . وسرت الطاهية التي تعمل عند سكارليت لأن المناسبة جاءت
لاستعراض مواهبها . ومدت الموائد على طول غرفة الجلوس والمكتبة
اللتين لا يستخدمهما أحد . وغطيت باطباق اللحوم والدجاج والخنازير ..
وتلال من الخبز والكعك وبراميل الوبسكي وانهار الشاي . كان المئات من
جماعة اوهارا قد قاموا بالرحلة إلى هنا لحضور الجنازة رغم الطرق
الموحلة . وحملت سكارليت طفلتها « كات » لتقابل أسرتها وأهلها .
وقوبلت الطفلة بإعجاب جماعي يفوق ما كانت تتمناه سكارليت . ولم
تمض دقائق حتى بدأ عزف الموسيقى .

وقبل أن ينتهى « الحفل » ، اقترب اثنان من أبناء عمومتهما وانحنيا فوق
مقعدهما ، وقال « جو » ابن باتريك بصوت منخفض :

— « نرجو أن تتفضل بالحضور إلى المنزل غدا بعد الافطار »

— « ما الحكاية ؟ »

— « سنخبرك غدا في جو هادئ يساعدك على التفكير » .



كانت الحكاية هي : من الذى يرث مزرعة دانييل ؟ فالمعروف أنه بسبب
الازمة القديمة التى نشأت عن وفاة العجوز باتريك ، تنازع اثنان من عائلة
اوهارا على حق ملكية المزرعة . ولم يكتب دانييل وصية قط فى حياته .
تماما مثل والدها جبرالد هاهى ذى قصة تارا تعود مرة أخرى .
والقرار سهل . لقد عمل سيماس ، ابن دانييل ، بجد فى المزرعة طوال ثلاثين
سنة بينما كان شين ، ابن باتريك ، يقيم مع كاتى سكارليت العجوز
ولا يعمل فى أى شىء .

واعطت سكارليت المزرعة لسيماس . كما كان يجب أن يفعل والدها .
كان يجب أن يعطينى تارا .
انها الاوهارا ، ولذلك فإن حكمها لا يخضع للنقاش . واحسنت سكارليت
بالزهو والابتهاج ، فهى واثقة من أنها كانت عادلة واعطت سيماس حقه ،
بينما لم يفعل أحد معها ذلك أبدا .

وفى اليوم التالى ، وضعت سيدة غير شابة سلة من البيض على عتبة باب
البيت الكبير . وعلمت مسز فيتز أن التى وضعتها هى حبيبة سيماس التى
انتظرت قرابة عشرين عاما لكى يطلب الزواج منها .. وهى الخطوة التى لم
يقدم على اتخاذها إلا بعد ساعة واحدة من صدور قرار سكارليت حول
المزرعة .

موعد الرحلة هو السادس والعشرون من أبريل . وثمة كابينة محجوزة
فى سفينة شحن . وكان هذا هو الحل الوحيد لأنها أصبحت فريسة
لخرافاتها الخاصة التى تحذرهما من أنها إذا قامت بتأخير سفرهما مرة أخرى
حتى عيد مايو . فإنها لن تسافر على الإطلاق . وكان كولام يعرف السفينة
وقبطانها ، ورغم أنها سفينة شحن إلا أنها لاتحمل سوى بالات من أجود
أنواع الكتان الايرلندى . كما أن زوجة القبطان ترافقه مما يتيح لسكارليت
صحبة نسائية .

٢٦ أبريل يعنى مرور سنة كاملة على الموعد الذى كان محددا فى الاصل
لإنهاء « عطلتها » فى أيرلندا .



الإنسان والوطن

في اليوم السابق على سفرها .. تسلمت سكارليت ما تبقى من الثياب الجديدة من مارجريت سكانلون ، وكادت ترقص فرحاً . وبينما كانت السيدة تلف الثياب في فرخ من الورق .. تطلعت سكارليت إلى شوارع البلدة المهجورة وقت الغداء ، ورات كولام يدخل مبنى الكنيسة البروتستانتية الخالية على الناحية الأخرى من الشارع العريض . إذن ، فقد استمع إلى نصيحتي وإلى صوت العقل . فليس من المعقول أن يتكس كل السكان في كنيسة صغيرة كل يوم احد بينما هذه الكنيسة الضخمة خاوية على عروشها لا يستخدمها احد لمجرد أن البروتستانت هم الذين شيدوها . لماذا لا يستولي عليها الكاثوليك . لا أعرف لماذا كان كولام عنيدا طول الوقت . غير أنني ساعرب له عن سعادتى لأنه غير موقفه .

وقالت لمسز سكانلون : « ساعدو حالا » ، واسرعت إلى الشارع واجتازت ممرا بين الاعشاب يقود الى مدخل جانبي صغير ، وطرقت على الباب ودفعته لتدخل .

وانطلق دوى عال ، وتبعه آخر وشعرت بشيء حاد يضرب ساعدها .. رجل غريب يحرق فيها بعيني حيوان مفترس وهو يحمل مسدساً . لقد اطلق النار عليها . وتقدمت إلى الامام في تصميم . وسمعت الطلقة الثانية التي كانت انفجارا ترددت اصداؤه بعنف في احجار السقف . والفت سكارليت بنفسها على الأرض ، وعندما رفعت عينيها رات ذراع كولام اليمنى تلتف حول رقبة الرجل بينما يده اليسرى تلتف حول معصمه ، وفوهة المسدس مصوبة ناحية السقف . قال كولام : « إلق بالمسدس ايها الغلام ديفى » . وسقط المسدس . وبسرعة .. سحب ذراعه من حول عنق الرجل ، وجمع قبضتيه وهوى بهما على رأسه . ووقع الرجل فاقد الوعي . وقال كولام « سوف يفيق » . واتجه بسرعة نحو الباب واغلقه بهدوء بالمزلاج .

قالت سكارليت وهي تضغط على كل حرف : « ماذا . يجرى .. هنا ؟ » حاول كولام ان يتودد إليها بطريقته المعهودة ، ولكنها رفضت ان تستمع إلى شيء .

— « هذا الرجل حاول قتلى يا كولام . من هو ؟ ولماذا تتسلل لكى تقابله ، وما الذى يجرى هنا ؟ »

وحديثا كولام عن الإخوان الفينيين . وعندما فرغ من حديثه ،

استطاعت ان تستعيد صوتها :

— « يهوذا ! قدر ، كاذب ، خائن . لقد وثقت بك ، وظننت انك صديقى » .

كل شيء كان عبارة عن خيانة . لقد كان يستخدمها ، ويخدعها منذ اللحظة التى التقيا فيها لأول مرة . وكلهم فعلوا نفس الشيء : چامى ومورين ، وكل ابناء عمومتهما فى سافانا وإيرلندا ، وكل مزارعى بوليهارا ، وكل سكان بلدة بوليهارا . وحتى مسز فيتز . كانت سعادتها وهما . كل شيء وهم ..

— « هل تسمعيننى الآن ؟ »

كرهت صوت كولام . لن اسمع . وحاولت ان تغلق اذنيها . ولكن كلماته تسلفت من بين اصابعها :

— « تذكرى جنوبك .. ونعال الغازى تطلا اراضيه ، وفكرى فى ايرلندا وجمالها ، والأيدي الأثمة للعدو الذى يغتالها . لقد سرقوا لغتنا منا .. وتعليم طفل كيف يتحدث الأيرلندية .. جريمة فى هذه الأرض . وتصورى ان اليانكى لديك يتحدثون بكلمات لاتعرفينها .. كلمات تم تلقينها لك تحت تهديد السيف .. لأن كلمة مثل كلمة « قف » يجب ان تعربها وإلا سيكون القتل مصيرك لأنك لم تتوقفى .. لقد أخذوا أرضنا ، التى هى امنا ، ولم يتركوا لنا شيئا . لقد عرفنا طعم الهزيمة داخل ارواحنا .. هل تذكرين ياسكارليت .. عندما جاءوا يأخذون منك تارا ، لقد قاومت من اجلها بكل إرادتك ، بكل قوتك . وبكل حرارة قلبك وذكاكك . وعندما كان الامر يتطلب الكذب ، كان يمكنك ان تكذبنى .. الخداع .. كان يمكنك ان تخدعى ، والقتل .. كان يمكن ان تقتلى . وهذا هو نفس الحال معنا نحن الذين يقاتلون من اجل ايرلندا . ومع ذلك فإننا محظوظون أكثر منك ، لأن لدينا الوقت للاستمتاع بحلاوة الحياة .. بالموسيقى والرقص والحب . أنت تعرفين ما هو الحب ياسكارليت . لقد كنت اتابع نمو طفلك .. الحب كاس مترعة .. طافية دائما .. الشرب منها يجعلها تمتلىء مرة أخرى وتطفو .. وهذا نفس الحال مع حبنا لايرلندا ولشعبها . لقد احببتك ياسكارليت ، جميعنا احبوك لم يكن من الممكن الا نحبك ، لأن ايرلندا هى حبنا لأحبابنا .

« هل من الضروري ان تهملى اصدقاءك لأنك تحبين طفلك وتعتنين بها؟
ان الإنسان لا يتكرر للإنسان . لقد ظننت اننى صديقك ، كما تقولين ..
شقيقك . وانا كذلك يا سكارليت وسأظل حتى آخر الزمن . ان سعادتك

تبهجنى .. واحزانك هى همى . ومع ذلك فإن أيرلندا هى روحى . ولا يمكن اعتبارى خائناً مادامت أفعالى مكرسة لتحريرها من نيرها ، ولكنها لاتسلب الحب الذى أكنه لك ، بل تضاعفه .

ارتفع انين الرجل الممدد على الأرض بعد أن أخذ يسترد وعيه . « هل هو من الفيينين ؟ » .

— « نعم . انه هارب . رجل كان يظن أنه صديقه .. وشى به لدى الانجليز » .

— « أنت الذى أعطيته المسدس .. »

— « نعم يا سكارليت . ها أنت ترين . لا اكتم عنك سراً . لقد اخفيت اسلحة فى هذه الكنيسة الانجليزية . وأنا مسئول توريد واختبار السلاح للإخوان .. وعندما يأتى اليوم الموعود .. وأرجو ان يكون قريباً جداً ، فإن الافا عديدة من الإيرلنديين سيكونون مسلحين للقيام بانتفاضة . وهذه الأسلحة سيكون مصدرها .. هذا المكان الانجليزى » .

— « متى ؟ »

— « لم يتحدد موعد . نحن فى حاجة إلى خمس شحنات أخرى او ست إذا أمكن ذلك » .

— « هل هذا هو ما تفعله فى أميركا ؟ »

— « نعم . اجمع التبرعات بمساعدة الكثيرين ، ثم يجد آخرون وسيلة لاستخدام هذه الأموال فى شراء اسلحة ، وأنا انقلها إلى أيرلندا » .

— « على متن السفينة برايان بورو » .

— « وسفن أخرى » .

— « هل ستطلقون النار على الانجليز ؟ »

— « نعم ، ومع ذلك فسنكون رحماء أكثر . فقد قتلوا نساءنا وأطفالنا علاوة على رجالنا . ونحن سنقتل الجنود . فالجندى يحصل على مرتبه ليموت » .

— « ولكنك قسيس ، لاتستطيع ان تقتل » .

أطرق برأسه ولزم الصمت . ومضت دقائق قبل ان يرفع عينيه اللتين يظللها الأسى :

— « عندما كنت فى الثامنة من عمري . كنت اتابع عربات الدقيق وقطعان الماشية على طريق آدمزتاون المتجه إلى دبلن وموائد المادب الانجليزية بما تحفل به من طعام وشراب . وكنت أقرب أيضاً شقيقتي وهى تموت حوفا لأنها كانت فى الثانية فقط من عمرها ولم أكن أملك القوة لكى

أحملها وأنا لا أجد الطعام وكان هناك شقيق فى الثالثة وكان ضعيفا هو الآخر . فالأصغر سنا هم دائما أول من يموتون .. كانوا يكون لأنهم جوعى وأصغر من أن يفهموا عندما يقال لهم انه لا يوجد طعام . أما أنا فقد فهمت لأننى كنت فى الثامنة وأكثر تعقلا . ولم أبك لأننى كنت أعرف أن البكاء يستهلك القوة المطلوبة للبقاء على قيد الحياة بدون طعام . شقيق آخر مات كان فى السابعة ثم مات الشقيق الذى كان فى السادسة ، ومات الشقيق الذى كان فى الخامسة . وسوف يخجلنى إلى الأبد اننى نسيت ايهم كان الفتاة ، وايهم كان الصبى . وماتت أمى عندئذ ، ولكننى كنت واثقا على الدوام من أن ألام قلبها الكسير كانت سبب موتها أكثر من ألام بطنها الخاوى .

« إن الموت جوعاً يستغرق شهوراً عديدة ياسكارليت . انه ليس موتا رحيمًا . وطوال كل هذه الشهور ، كانت العربات المحملة بالطعام تمر أمامنا » ..

كان صوته يبدو خاليا من الحياة ثم ينتفض ويعود لينكسر « ثمة رؤية عندى .. اتخيل الأطفال الجوعى يتجمعون .. وأعدادهم تخفف من ضعفهم ، وينهضون بالآلاف .. وتمتد أذرعهم الصغيرة الخالية من اللحم وتقلب العربات المحملة بالطعام .. وبعدها لايموت هؤلاء الأطفال ... »

سكارليت تعرف كيف يكون المرء عاجزا فى مواجهة جيش ، وتعرف الإحساس بالجوع .. وهى ذكريات لاتمحوها أية كميات من الذهب .. ووجهت سؤالها إلى كولام : « كيف يمكن أن أساعدك ؟ انه يقاتل من أجل أيرلندا ، وإيرلندا هى وطن أهلها وطفلتها .

عرض زواج !

الرحلة فى السفينة تتيح الفرصة للتفكير . وتوصلت سكارليت إلى ان امامها الكثير لتعمله . سوف تجد مشتريا لمتجرها ولمنزل شارع بيتشترى الذى يدفع ريت تكاليف نفقاته . فقد أصبح من السخف الاحتفاظ به خاويا بينما لاتنوى استخدامه مرة أخرى . وسوف تبيع الملهى أيضا ، فهو يدر دخلا طيبا ولن تجد صعوبة فى بيعه . لقد قررت ان تقطع كل صلة باتلاننا .

وماذا عن المنازل التى تشيدها ؟ انها لاتعرف أى شىء عن هذا المشروع . وعليها ان تتحرى مايجرى وان تتأكد من ان المقاول لايزال يستخدم الخشب الذى ينتجه مصنع أشلى ، فهى لابد ان تلمئن إلى ان أشلى على ما يرام وكذلك « بو » ابنه .. فقد وعدت ميلانى . وبعد أن تنهى كل شىء فى اتلاننا ، سوف تتوجه إلى تارا لكى تعد « ويد » و « ايللا » للسفر معها إلى ايرلندا بعد توديع .. تارا .



وصلت السفينة الى سافانا .. ولأول مرة تسمع « كات » أصواتا أمريكية ووجدت سكارليت مطبخ مورين كما هو بلا تغيير . وكذلك العائلة والحب والمودة .. وضجيج أطفال أوهارا . ووجدت الطفل الذى أنجبته باتريشيا .. وهو صبي عمره سنة ، وكاتى .. حامل . وشعرت سكارليت بالغيرة وهى ترى « كات » وقد اندمجت فى الحياة الجديدة .. الجميع يداعبونها ، وهى تشد شعر فتيات وسيدات العائلة . انها لن تفتقدنى على الإطلاق ، وأنا لا أحمل أن أتركها ، ولكنى مضطرة لذلك . كثيرون فى اتلاننا يعرفون ريت ويمكن ان ينقلوا إليه خبر الطفلة . وسوف يقتله قبل أن ادعه ينتزعها منى . لا أستطيع أن أخذها معى . ليس أمامى اختيار . وكلما أسرعت بالسفر .. ستكون عودتى أسرع . وسوف احضر معى شقيقها وشقيقتها كهدية لها .

وأرسلت برقية إلى العم هنرى هاميلتون فى مكتبه وبرقية إلى بانسى فى منزل شارع بيتشترى ثم استقلت القطار الى اتلاننا فى الثانى عشر من مايو . كانت عصبية .. ومتوترة .. لقد غابت لفترة طويلة . ويمكن أن يكون أى شىء قد حدث . ولكنها لن تشغل نفسها الآن . ولن تضى ساعات قبل أن تعرف كل شىء .



هذا ليس وقت البيع ..

هكذا قال العم هنرى هاميلتون . فالكساد مستمر ، والنشاط الاقتصادي فى أزمة فى كل مكان . الضرر الأكبر أصاب العقارات . والمنازل الكبيرة مثل منزلها هى التى أضيرت أكثر من غيرها . فالناس تتحرك هبوطاً وليس صعوداً . أما المنازل الصغيرة مثل تلك التى شيدها على أطراف المدينة ، فإنها تباع بأسرع ما يمكن حتى قبل أن ينتهى بناؤها . وهكذا تكون قد كسبت ثروة من هذه المنازل . ثم لماذا تريد أساساً أن تبيع ؟ فالمنزل لا يكفلها شيئاً .. وقد دفع ريت كل الفواتير . وتبقت نقود أخرى أيضاً .



— « هل السيدة باتلر موجودة ؟ »
عرفت سكارليت فى الحال صوت أشلى .
— « أشلى » أيها العزيز ، اننى سعيدة برؤيتك
ومدت كلتها يديها نحوه ، فامسك بهما بقوة فى يديه :
— « سكارليت ، لم تكونى قط أجمل مما أنت الآن ، الطقس فى الدول الأجنبية يوافقك . قولى لى أين كنت وماذا كنت تفعلين ؟ قال العم هنرى :
انك ذهبت إلى سافانا ثم فقد الاتصال بك . ودهشنا جميعاً » .
شكراً لله . لقد تلاشت من عينيه نظرة الرجل المذنب اليائس المثير للشفقة . ولابد ان هنرى هاميلتون على حق عندما قال انه ناجح فى عمله .
انه مازال رجلاً وسيماً .. ولامحه الأرستقراطية الدقيقة أصبحت أكثر وضوحاً مع السن ، ولكنه كان يبدو أكبر من سنه ، فهو لا يمكن ان يكون قد تجاوز الأربعين ولكن اللون الفضى يغلب على شعره . انه يتحدث عن ابنه بفخر واعتزاز فهو سيكمل الثانية عشرة ولكنه يبدو كما لو كان فى الخامسة عشرة وأصبح رئيساً لما يشبه النادى الذى شكله الغلمان فى الجوار ، وهو يعرف عن صناعة الأخشاب أكثر من والده وحصل على جائزة مدرسية فى مادة الإنشاء باللغة اللاتينية ، ويقرا كتباً فوق مستوى سنه .

أشلى يبدو مبتسماً وفى حالة لائقة . والتزامها نحو ميلانى لم يعد يشكل الآن عبئاً ثقيلاً .
وأخذ أشلى يدها فى يده وهو يبدو مثل أشلى القديم .. أشلى ويلكس فى منزل أشجار البلوط الاثنتى عشرة .. وقال :
« إننى أفهم شعورك . انه لم يكن جديراً بك . أحسنت صنعاً بالتخلص من ريت بصرف النظر عن الطريقة ، تستطيعين النسيان كما لو لم يكن قد حدث شيء على الإطلاق ... »

يا إلهي .. إن أشلى يوشك أن يعرض الزواج !
وقال أشلى « أنت تحررت من ريت ، قولي انك ستتزوجيني
ياسكارليت ، وسوف أرهن حياتي لكي تكوني سعيدة بالطريقة التي
تستحقينها » .

كان هناك وقت .. كنت مستعدة لأن أبيع فيه روعي من أجل هذه
الكلمات ، وليس شيئاً لطيفاً أن أسمعها الآن ولا أشعر بأي شيء على
الإطلاق . لماذا يضطر أشلى لأن يفعل ذلك . إنها تعرف الإجابة . فالسبب
هو الشائعات القديمة والتي أصبحت أكثر قدماً الآن . أشلى مصمم على أن
يحررها من الخطيئة في عيون مجتمع اتلانكا .. انه يتصرف بطريقة
الجنون حتى لو كان ذلك يعني تمزيق حياته كلها . وهو لم يهتم بأن
يستطلع موقفي . وكتمت سكارليت غضبها . مسكين أشلى . إنها ليست
غلطته ، فهذه هي شخصيته . وقد سبق أن قال ريت : ان أشلى ينتمي إلى
زمن ما قبل الحرب ، وليس له مكان في عالم اليوم .

لن أغضب ، فانا لا أريد أن أفقد أي شخص كان جزءاً من الأيام
المجيدة . فكل ما يتبقى من ذلك العالم هو الذكريات والناس الذين شاركوا
فيها .

قالت سكارليت : « أشلى أيها الأعز . انني لا أريد ان أتزوجك . هذا هو
كل ما في الأمر ، لن أخدعك وأضلك بالأكاذيب وأجعلك تلهث ورائي . انني
أكبر سناً بالنسبة لهذه التصرفات ، كما انني أحرص عليك كثيراً . فقد كنت
جزءاً كبيراً من حياتي بطولها . وستظل كذلك . قل إنك ستدعني أحافظ على
ذلك » .

— « طبعاً يا عزيزتي ، انني انتشرف بشعورك هذا ، ولا أريد أن
أضايقك بالإشارة مرة أخرى إلى الزواج » .

وابتسم ، وبدا في تلك اللحظة شاباً مثل أشلى الذي جعل قلب
سكارليت يخفق بعنف في الماضي . أشلى العزيز .. انه يجب الايحدس
انها سمعت بوضوح رنة الارتياح في صوته . كل شيء على مايرام
وأحسن . الآن يمكن أن يصبح بحق صديقين . لقد طويت صفحة
الماضي .

وقبل ان يغادر المنزل ، نجحت سكارليت بعد جهد في الحصول على
موافقته على أن تتولى تعليم ابنه « بو » في الجامعة وتمويل رحلة له مع
ابنها « ويد » تشمل عدة عواصم .

استغرق انجاز أعمالها في اتلانتا فترة أطول مما توقعت ، فلم تغادرها إلى تارا إلا في اليوم العاشر من يونيو . وما أن استقرت على مقعد القطار المتجه إلى جونزبورو حتى هدأت نفسها ، فرغم التأخير إلا أنها حققت كل ما جاءت من أجله وبصورة أفضل مما كان يتوقعها هنرى هاميلتون ومحاميها الجديد الشاب الذى نصحتها هاميلتون بالتعامل معه نظراً لتقدمه في السن .

كان أسهل شيء هو بيع الملهى ، ولكنها حزينّة لبيع المتجر ، فقد كان يساوى أكثر من ثمن البيع بسبب الأرض التى كان يشغلها . وسوف يهدمه الملاك الجدد لكى يشيدوا مكانه مبنى من ثمانية طوابق . وحصلت سكارليت من هاتين الصفقتين على مايكفى لشراء خمسين فدانا أخرى وتشيد مائة منزل جديد فى أطراف المدينة . وسيكفل ذلك حالة رخاء لأشلى لمدة عامين . كما أن المقاول أبلغها بأن مقاولين آخرين بدأوا يشترون من أشلى فقط أيضاً . وبدأ حقا أن أشلى ينجح رغم أنه . كما أنها بسبيلها إلى أن تجنى ثروة من صفقة المنازل الصغيرة .. ثروة تكفى لتغطية كل النفقات التى كانت تقلقها فى بوليهارا .

وتلقى المقاول تعليمات بأن يرسل كل الأرباح فى المستقبل باسم ستيفن أوهارا فى سافانا لكى ينفذ بها ما يطلبه منه كولام . أما منزل شارع بيتشترى فقد اشترته مدرسة بنات .. وشعرت سكارليت بأن أغلالاً كانت تقيدها .. قد انكسرت الآن وتحررت منها رغم أنه المنزل الذى عاشت فيه مع ريت والذى شهد مولد بونى وحياتها القصيرة . أما الشعور بالتححر فإنه يرجع إلى سبب هام وهو أنه لم تعد لديها التزامات فى اتلانتا الآن . ولاشئ يربطها بهذه المدينة .

والآن ستأخذ تراب بوليهارا لكى تنثره فوق ضريح والدها وستكون فخوراً يا أبى بابنتك كاتى سكارليت .. فأنا ، يا أبى . الأوهارا .

نظرة على الماضي

كان ويل بنتين في انتظارها بمحطة جونزبور .
« انك اكثر شخص اسعدتني رؤيته في هذه الرحلة يا ويل » .
وكان هذا صحيحا . فقد كان أحب لديها من آل أوهارا في ساقانا ، ربما
لأنه كان بجانبها في الاوقات الصعبة ، وربما لأنه أحب تارا كثيرا مثلها ،
وربما لأنه ببساطة رجل طيب نزيه . .
— « أين خادمك ياسكارليت ؟ »

إنه لايعرف انها لم تعد تستخدم خادمتها وانها استغنت عن اشياء
اخرى اعتادت أن تستخدمها . وارايت ان تشرح له سبب سعادتها ، وأن
تتحدث معه عن كات وبوليهارا .. فهي تثق به ، لولا انه زوج سوايلين ،
وهي لا تثق في شقيقتها .

— « ما هي الاخبار ياويل . لم اسمع شيئا منذ فترة غير قصيرة ؟ » .
— « اتصور انك تريد ان تعرفي اخبار الاطفال أولا ، إيلا وسوزي
اصبحتا بدينتين-، ولما كانت سوزي هي الأصغر فإنها تسلم قيادتها
لـ « إيلا » وربما لن تعرفي ويد إلا بصعوبة عندما تريه ، فقد بدأ يزداد
طولا ، تقريبا في اليوم الذي بلغ فيه الرابعة عشرة في يناير الماضي ،
ويبدو انه لن يتوقف عن الامتداد إلى أعلى ، ورغم نحوله فإنه قوى
كالبغل وبفضله فإن لدينا عشرين فدانا جديدة من الحبوب هذا العام » .
وابتسمت سكارليت . كم سيقدم يد المساعدة في بوليهارا وكم
سيحبها . لقد ولد ليكون مزارعا .. الأمر الذي لم تفكر فيه من قبل .
واستأنف ويل حديثه : « ابنتنا مارتا عندها سبع سنوات الآن والطفلة
جين بلغت الثانية من عمرها في سبتمبر . وفقدت سوايلين طفلا في العام
الماضي . كانت بنتا صغيرة »

— « أوه ، يا ويل انا أسفة جدا » .

— « قرنا أن تكف عن المحاولة ، فقد كان ذلك صعبا على سوايلين
وهذا ما نصح به الطبيب . لدينا ثلاث بنات أصحاء ، وهذا أكثر مما
يحتاجه معظم الناس ليحققوا السعادة لأنفسهم . طبعا كنت أود أن يكون
عندي ولد . وهذه رغبة كل الرجال . ولكنني لا أشكو ، كما أن ويد كان
الابن الذي يتمناه أي رجل . انه ولد رائع ياسكارليت » .

كانت سعيدة بسماع ما يقوله عن ويد .. الذي كان غلاما مذعورا شاحباً
جبائناً أن ويل على حق ، فهي لن تعرفه .
قال ويل :

— « أننى فخور بـ » ويد « لقد وافقت على أن اتحدث معك بالنيابة عنه رغم أننى لست مولعاً بوجه عام بأن أفسد أنفى فى شئون الآخرين . ولكنه كان دائماً يخاف منك يا سكارليت وأنت تعرفين ذلك . انه يريدنى ابلاغك بأنه لا يريد الاستمرار فى الدراسة . لقد فرغ من المدرسة هنا هذا الشهر .. ودراسة القانون لن تفيده فى شيء . » وهزت سكارليت رأسها :

— « لا ياويل . لقد ذهب والده إلى الجامعة . وهذا ما سيفعله ويد أيضاً . بدون إساءة ياويل ، فإن الرجل لإيستطيع ان يقطع شوطاً بعيداً بدون تعليم . »

— « لم أشعر بإساءة وأنت لم توجهى إساءة لأحد ، ولكنى افلنك مخطئة . أن ويد يستطيع أن يقرأ ويكتب ويجرى كل الحسابات التى يمكن أن تحتاجها مزرعة فى أى وقت . وهذا هو ما يريده . الزراعة . زراعة تارا لكى نتحدث بطريقة مباشرة . انه يقول ان جده شيد تارا بدون أن يحصل تعليماً أكثر منه . وهو لا يرى سبباً يحتم عليه أن يكون شخصاً مختلفاً . ان الولد ليس مثلى ياسكارليت . الجحيم . أنا لا أكاد أعرف ان أكتب سوى اسمى . أما هو فقد امضى أربع سنوات فى المدرسة التى قمت أنت بالحاقه بها فى اتلانتا ثم ثلاث سنوات أخرى هنا . إنه يعرف كل ما يحتاجه أبناء الريف ، وهو ياسكارليت ولد ريفى ، وهو سعيد بذلك .. »

وانتفضت سكارليت . هل نسى ويل بنتين انه يتحدث إلى والدة ويد التى تعرف ما هو الأحسن لابنها ؟

وواصل ويل حديثه وهو يقود المركبة الى تارا وينظر مباشرة الى الطريق : « وما دام قد ثار غضبك فإننى سأنهى ما أريد أن أقوله .. لقد أطلعونى على الأوراق الجديدة بشأن تارا فى دار القضاء بالمقاطعة . وفهمت أنك أصبحت المالكة لنصيب كارين . ولا أعرف ما تفكرين فيه يا سكارليت وأنا لا أسال . ولكننى أقول لك شيئاً واحداً إذا جاء أى شخص عبر هذا الطريق وهو يلوح بشيء قانونى فى وجهى لإبلاغى انه سياخذ تارا ، فإننى ساقابله فى نهاية الطريق والبندقية فى يدي . »

— « ويل أقسم لك اننى لا أنوى شيئاً بالنسبة لتارا » وشعرت بارتياح لأنها تقول الصدق .. فكلما ويل الهادئة التى تخرج من أنفه أكثر افزاعاً منها أعلى الصرخات .

قال ويل :

— « اننى مسرور لسماع ذلك . استنتاجى هو ان ذلك يجب ان يكون ميراث ويد . فهو الحفيد الوحيد لوالدك . والأرض يجب ان تبقى بين يدى الاسرة . أمل ان تتركه هنا - حيث هو - يا سكارليت ليكون يدى اليمنى .. ومثل ابن لى .. كما هو الحال الآن . ستفعلين ما يحلو لك . كما كنت دائماً . لقد وعدت ويد بان اتحدث معك . وقد فعلت . وقلت كل ما يجب ان اقله » .



احسنت سكارليت صنعا عندما لم تخبر احداً فى سافانا حول خطتها بشأن سفر « ويد » و « ايللا » معها إلى ايرلندا . ولذا فإنها ليست مضطرة الآن لأن تفسر سبب تركهما فى تارا . كانت ستشعر بالهوان وهى تروى الحقيقة ، وهى ان طفليها لا يريدانها . انهما غريبان بالنسبة لها ، وهى غريبة عنهما . ولم تستطع ان تعترف لآى شخص ولا حتى لنفسها بحجم الألم الناشئ عن هذا الموقف .. ومدى اللوم الذى توجهه لنفسها . شعرت بانها صغيرة وحقية ، فهى تكاد تفقد الشعور بالسور من أجل « ايللا » و « ويد » اللذين كانا سعيدين على نحو واضح . كل شىء كان جارحاً فى تارا . شعرت بانها غريبة . وباستثناء صورة الجدة روبيلار .. فإن كل شىء تغير داخل المنزل ، فقد استخدمت سوايلين الاموال التى ترسلها إليها كل شهر فى شراء اثاث جديد . وزارت عائلة فونتين . وربما كان افضل الاوقات .. زيارة عائلة تارلتون . غير ان سكارليت كانت مسرورة بمغادرة تارا . وهذا أكثر إيلاماً . ولو لم تكن تعرف ان ويد يرغب فى بقائها لتحطم قلبها ، فقد استطاعت بصعوبة ان تنتظر أياماً قبل ان تهرب . عزأؤها ان ابنها سياخذ مكانها .

وها هى ذى بعد ان انتهت زيارتها لتارا ، تتوجه إلى محاميتها الجديد فى اتلانتا لى تكتب وصية تمنح بموجبها نصيب الثلثين الذى تملكه فى تارا .. إلى ابنها . فهى لن تفعل كما فعل والدها ، وكما فعل عمها دانييل .. ولن تترك وراءها الغموض والارتباك والفوضى . وإذا حدث وتوفى ويل قبل زوجته فإن سكارليت لاتلق البتة فى شقيقتها . الآن أصبحت حرة ، وتستطيع الذهاب إلى « كات » التى ضمدت كل جراح سكارليت فى لحظة . واضاء وجه الطفلة عندما رأتها ومدت ذراعها للصغيرتين نحوها . قالت مورين : « هذه الغجرية الصغيرة تحب أشعة الشمس » .



نقل ستيفن إلى سكارليت التعليمات الخاصة برحلة العودة إلى جالواى . إنها لا تحب ستيفن ، ولكن كولام أخبرها بأنه المسئول عن كل الترتيبات .

السفينة اسمها « ندف الثلج الذهبية » ، وهى أخصيصة فى الفخامة . ولم تجد سكارليت ما تشكو منه بصدد حجم جناحها أو مدى توافر الراحة فى داخله . غير أن المشكلة هى أن السفينة لن تعبر المحيط مباشرة ولذلك سوف تستغرق الرحلة مدة أطول .. وبالتحديد أسبوعا أكثر من المدة المقررة .. بينما سكارليت تريد العودة إلى بوليهارا بسرعة للاطمئنان على المحصول .

ولم تعرف سكارليت مسار السفينة إلا بعد أن اجتازت المعبر الذى يمتد من رصيف الميناء إلى السفينة فقد رأت خط رحلة السفينة إلى جانب « اعلان السفر » .

ولو كانت قد عرفت خط الرحلة قبل ثوان .. لرفضت السفر بصرف النخل عما يقوله ستيفن . يوضح خط الرحلة أن « ندف الثلج الذهبية » سوف تحمل ركاباً من سافانا وشارلستون وبوسطن الى كل من ليغربول فى إنجلترا وجالواى فى أيرلندا .

وسيطر الرعب على سكارليت . انها لا تستطيع المرور على شارلستون . سوف يعرف ريت انها على ظهر السفينة فهو يعرف دائما كل شيء بطريقة أو بأخرى ، وسوف يدخل مباشرة إلى كابينة الخاصة ويأخذ كات ويمضى . ولكننى سأقتله قبل أن يفعل ذلك . الغضب يسيطر الآن على فزعها . واستدارت سكارليت لكى تسير على سطح السفينة . لن يرغمها ريت باتلر على أن تولى الإدبار وتجرى . فكل حقائبها وامتعتها أصبحت داخل السفينة بالفعل وهى متأكدة من أن ستيفن قام بوضع أسلحة فى صناديقها لتهريبها إلى كولام . انهم يعتمدون عليها . ثم انها تريد العودة إلى بوليهارا . ولن تسمح لأى شيء أو أى شخص بأن يعترض طريقها .

وفى اللحظة التى وصلت فيها إلى جناحها فى السفينة ، كان قد تراكم غضب هائل فى صدرها .. على ريت . أكثر من عام قد مضى منذ طلقها وتزوج على الفور من « أن هامبتون » . وخلال ذلك العام كانت سكارليت مستغرقة تماما وأحدثت تغييرات فى حياتها ، وكانت قادرة على أن تطرد الألم الذى سببه لها . الآن يمتزج الألم بالخوف من قدرة ريت التى لا يمكن التنبؤ بمداها .

كانت بريدى تسافر مع سكارليت حتى مدينة بوسطن فقط حيث عثر افراد من عائلة أوهارا هناك على وظيفة لها .



وصلت السفينة إلى ميناء شارلستون مع أول شعاع من صباح اليوم التالي ولم تنم سكارليت طوال الليل . وخرجت إلى سطح السفينة مع شروق الشمس . السفينة تدخل الآن المياه التي وصلت إليها مع ريت وحيث شاهدت معه الدرافيل قبل أن تهجمهما العاصفة وشاهدت سكارليت من السفينة معالم شارلستون ومنازلها التي تعرفها جيداً .. وها هو ذا منزل باتلر بشرفاته وبابه الأمامى ونوافذ غرفة الاستقبال .. وغرفة نومها .. النوافذ ! وأسرعت إلى جناحها .

وأمرت بأن يكون طعام الإفطار فى الغرفة وأصرت على بقاء بريدى معها ومع كات . الأمان الوحيد هنا وراء باب مغلق بعيداً عن الأنظار . قال خادم السفينة وهو يضع أطباق الطعام على المائدة : أن السفينة سوف تستأنف رحلتها فى الساعة الخامسة بعد شحن البضائع وركوب المسافرين الجدد ، وأن الفرصة متاحة لمن يريد التجول فى المدينة أو مشاهدة معالمها من البحر .. حيث توجد عربة خفيفة كما يوجد زورق يستطيع كل من يجلس فيه أن يرى كل شيء .. على أن تنتهى هذه الزهرة خلال أربعين دقيقة .

حاولت سكارليت أن تاكل قطعة من الخبز المحمص ، ولكنها التصقت بحلقها . وارتفع صوت دقات الساعة .. وبعد نصف ساعة قفزت من مكانها وطلبت من بريدى ألا تتحرك وأن تبقى لرعاية كات إلى أن تعود قبل أن تبصر السفينة .

وضعت سكارليت نفسها فى الزورق مع حوالى عشرة من الركاب الذين يريدون إلقاء نظرة على أماكن « جرت فيها حرب أهلية كبيرة منذ عشر سنوات تقريباً » .. وعلى بقايا قصور أحرقتها الجيوش المتحاربة . وثمة حديث عن ملاك العبيد القساة .

وحدثت سكارليت نفسها : حقاً لقد أحببنا السود عندما وجعلناهم جزءاً من أسرتنا .. وبعضهم كانوا يمتلكوننا أكثر مما نمتلكهم . أما عن « كوخ العم توم »^(١) فهذا هراء !

١ - رواية من تأليف توم بين .. تعد من أعظم ما ظهر فى الأدب الأمريكى وهى تندد بالفرقة العنصرية وتدعو إلى المساواة والديمقراطية .

امامها الآن منجم الفوسفات . انه أكبر بكثير . ويجرى شحن خمسة صنادل والى جانبه « دانمور لاندينج » ، ومصاريح النوافذ مغلقة فى الجناح الذى تبقى منه . المكان الذى استخدمه ريت لكى يصدق من النافذة الى مداخله المحترقة . الآن تشعر انها تتفوق عليه .. فهى لديها مئات الأفدنة من المحاصيل الجيدة واعادت بناء بلدة بكاملها .. وادارت بصرها بعيدا ، فهى لا تريد ان ترى الحقائق التى امتدت إليها يد التشذيب والتقليم .. فهى تعرف ان « ان هامبتون » تحب هذه الزهور مثلها مثل ريت . والمصاريح المغلقة التى تم تجديدها تعنى ان الاثنين يعيشان هنا معا ولم يبق سوى ان تقارن بين ما اختزنته الذاكرة وبين المشاهد التى تتوالى امامها الآن . وانتهت الاربعون دقيقة فى الزورق الذى يحمل اسم « ابراهام لنكولن » .



لقاء فى الميناء

الساعة الخامسة تدق .. بينما « ندف الثلج الذهبية » مازالت ساكنة لاتتحرك ، والمعبّر مازال يجعلها موصولة بالرصيف .. وضابط السفينة يقول : ان ركاباً آخرين .. قادمون . لماذا لاتبحر السفينة فى موعدها وتلتزم بالمواعيد ؟ إنها تريد الابتعاد عن شارلستون بأسرع وقت . لابد ان هذا هو أكثر الأماكن حرارة على وجه الأرض .

وظللت سكارليت بيدها على عينيها لتتنظر إلى السماء . لا غمامة .. لا مطر .. لا رياح ، وإنما حرارة فقط . وهمت بأن تعود إلى جناحها ، فالمؤكد ان الحرارة سلخت جلد كات الآن .. غير أن اصوات ضحكات نسائية تناهت إلى أسماعها . يبدو أن هؤلاء هم الركب الجدد الذين تنتظرهم السفينة .

وتطلعت إلى أسفل ناحية الرصيف . كانت هناك مركبة مكشوفة وثلاث قبعات نسائية رائعة غالية الثمن لم تشاهد سكارليت مثلها من قبل . ومالت سكارليت قليلاً فوق حاجز السفينة لكي تدقق النظرة إلى السيدات الانيفات ، فهى لم تر مثل هذه الثياب فى سافانا او اتلانتا . من هؤلاء الناس ؟ يبدو من الضحكات انهن امضين وقتاً طويلاً ولا يتعجلن الصعود إلى السفينة . ونزل الرجل ، الذى يرتدى قبعة خفيفة من القش الملون ، إلى الشارع .. وخلع بيده اليسرى قبعته ، وامتدت يده اليمنى إلى أعلى ليساعد المرأة الاولى على النزول من المركبة . وقبضت يدا سكارليت على حاجز السفينة . يا إلهى . انه ريت . لو صعد إلى هذه السفينة ، فإننى لابد ان امسك بـ « كات » وأجد مكاناً لى أختفى ، وأبحث عن سفينة أخرى . ولكنى لا أستطيع ان افعل ذلك .. فهناك فى عنبر السفينة ، يوجد صندوقان من الثياب .. حملتهما معى ، وهما يحتويان على بنادق كولام . فماذا افعل بحق السماء ؟

وأخذ عقلها يقفز من فكرة مستحيلة إلى أخرى .. وهى تحديق بلا تركيز فى المجموعة الواقفة تحت أنفها .

وببطء استطاع ذهنها ان يلتقط ما تشاهده : ريت ينحنى ويقبل يداً - ممدودة برشاقة - بعد الأخرى . وسمعت أذناها عبارة تتكرر على السنة النساء : « وداعاً وشكراً » .

كات فى امان .

اما سكارليت ، فإنها لم تكن كذلك . فقد اختفى غضبها الوقائى واصبح قلبها عارياً .

« انه لايرانى . استطيع ان انظر إليه كما أريد . أرجوك ، أرجوك
لاترتدى قبعتك ياريت . كم يبدو رائعاً . بشرته سمراء ، وابتسامته بيضاء
مثل حلته الكتانية انه الرجل الوحيد فى العالم الذى يرتدى ملابس
كتانية لاتوجد بها ثنية واحدة . أه ، هذه الخصلة من الشعر التى
تضايقه .. تتدلى مرة أخرى فوق جبينه . وهو ينفضها الآن بأصبعين من
أصابعه بحركة تعرفها سكارليت جيداً . وتسلمت عليها الذكريات . ماذا
كان يقول ؟ شئ شديداً الجاذبية بكل تأكيد ، ولكنه كان يستخدم ذلك
الصوت الخافت الحميم الذى يدخره للنساء اللعنة عليه ، وعلى هؤلاء
النساء . لقد ارادت ان يتحدث هذا الصوت .. إليها هى وحدها .

وتحرك القبطان . و ارادت سكارليت ان تصيح لاتتجملهن . انتظر
لفترة اطول . انها فرصتى الأخيرة . لن أراه بعد اليوم . دعنى أتملى من
رؤيته . لابد انه قص شعره منذ ساعات ، فهناك الخط الخفيف فوق أذنيه
يبدو واضحاً . هل ازداد اللون الرمادى فى فوديه ؟ اللون الفضى الذى
يتخلل شعره الاسود .. يبدو ساحراً .

دوت صفارة السفينة . وقفزت سكارليت . سمعت وقع اقدام سريعة .
وازيئ المعبر الذى يفصل السفينة عن البر ولكنها ظلت تركز عينيها على
ريت . كان يبتسم وهو ينظر إلى يمينها رافعاً رأسه . واستطاعت ان ترى
عينية اسوداويين وحاجبيه الغزيرين وشاربه المصقول ، ورجولته
القوية ، ووجهه الذى لاينسى ، والذى يشبه وجه القرصان .
وهمست : « يا حبى » .

وانحنى ريت مرة أخرى بينما بدأت السفينة تتبعد عن المرسى ،
ووضع القبعة على رأسه واستدار ومضى ورفع بأصبعه القبعة فمالت
قليلاً إلى الوراء .

وهتف قلب سكارليت : لا تذهب ، وتطلع ريت من فوق كتفه كما لو كان
قد سمع صوتاً . والتقت عيناه بعينيها وجمدت المفاجأة جسمه
الرشيق . وعلى مدى لحظة طويلة لايحدها الزمن تطلع الاثنان إلى
احدهما الآخر بينما كانت المسافة بينهما تتسع .

الرقعة غلبت على ملامحه .. وانفجرت أسارير وجهه ولمس حافة قبعبته
بأثنين من أصابعه للتحية . ورفعت سكارليت يدها .

وكان لايزال واقفاً هناك على رصيف الميناء عندما استدارت السفينة
لكى تخرج من القنال إلى البحر . عندئذ لم تعد سكارليت ترى ريت
وارتمت فى مقعد على سطح السفينة فاقدة الحس

إنها تريد أن تعرف شخصيات هؤلاء السيدات والسبب في وجودهن مع ريت . وعرفت فور دخولها قاعة الطعام في السفينة انهن انجليزيات . كانت هذه هي اللكنة المميزة التي تسيطر على مائدة القبطان حيث يجلسن . وطلبت سكارليت تغيير المائدة لأنها تريد أن تجلس إلى جانب الحائط على مائدة صغيرة . وكانت الأخيرة بجوار مائدة القبطان . كان الجميع يتحدثون عن شارلستون التي لم تكن موضع إعجابهم . وقال احدهم : إن رجال المدينة مهذبون للغاية . وعلق صوت نسائي شاب . « هذا الرجل الجذاب على نحو هائل .. باتلر .. قال ان فصل الشتاء جميل ، ودعانا للعودة » .

وقالت سيدة اكبر سنا :

— « أنا متأكدة انه دعاك للعودة يا فيليسييتي ، فقد كان سلوكك شائنا » . واحتجت فيليسييتي : « لم يصدر مني شيء وإنما كنت استمتع لأول مرة في هذه الرحلة الكثيرة . لا أستطيع ان أفهم السبب في ان والدي أرسلني إلى أمريكا . انه مكان بائس » .

ومضى الحديث دون إشارة إلى ريت . وانتظرت سكارليت ان يعودوا الى الكلام عنه . ولم تنتظر طويلا ، فقد كان رجل يدعى روجر هو الذي استحضر اسم ريت :

« عرض علينا باتلر رحلة صيد مشوقة إذا عاد في الخريف ، إذ يبدو انه كانت لديه حقول أرز تحولت إلى حشائش . ويهبط فيها البط عمليا مع ماسورة بندقيتك » . اللعنة على هذا الحديث عن البط .. ومن الذي يهتم بشئون البط ؟ وقد اتضح ان الانجليز الآخرين يعتبرون موضوع البط شديد الأهمية حتى انه شغلهم طوال معظم فترة الغداء ، وأحست سكارليت انه كان من الأفضل ان تمكث مع بريدي ، وتهيات للعودة الى جناحها ، غير ان اذنها التقطت محادثة خاصة بصوت منخفض بين فيليسييتي وشقيقتها التي اتضح ان اسمها مارجورى .

تعتقد السيدتان ان ريت هو أحد أكثر الرجال إثارة للاهتمام والفضول من بين كل الرجال الذين التقيا بهم حتى الآن .

واستمعت سكارليت ، بمزيج من حب الاستطلاع والكبرياء .

قالت مارجورى : « المصيبة انه مخلص جدا لزوجته » .

وغاص قلب سكارليت .

وقالت فيليسييتي « انها شيء ضئيل باهت .. غير ممتع » وشعرت سكارليت بتحسّن في حالتها . وأضافت مارجورى .. « هذا رد فعل مباشر

لإخفاق بكل معنى الكلمة ، ألم يخبرك احد ؟ لقد كان متزوجاً فى السابق من امرأة خارقة الجمال . وقد هربت مع رجل آخر وتركت ريت باتلر طريحاً على الأرض ، ولم يتغلب مطلقاً على هذه الأزمة . »

— « تصورى .. يا مارجورى .. هل تتصورين ما يجب ان يكون عليه الرجل الآخر إذا كانت قد تركت باتلر من أجله ؟

وابتسمت سكارليت . فقد ارضاها كثيراً ان تعرف ان الشائعات تقول انها هى التى تركت ريت وليس العكس . فى اليوم التالى « اكتشف » الانجليز سكارليت .

وانفق الشبان الثلاثة على انها رومانسية إلى اقصى حد وإرملة شابة غامضة .. وجميلة . وقال روجر ان شقيقاته يعتبرنه اصيب بالعمى .. فعلى الرغم من بشرتها الشاحبة وشعرها الفاحم وعينيها الخضراوين ، فإنها ليست جميلة فقط وإنما رائعة الجمال ، وكل ما تحتاجه هو بعض الملابس المناسبة وعندئذ سوف تدير الرؤوس اينماحلت .

واقتربت مارجورى من سكارليت ، وأبدت إعجابها بالطفلة كات . وكان من السهل على سكارليت ان تخطر قصة ترضى شوقهم الشديد إلى القصص المفجعة الميلودرامية .. عن زواجها وكيف حرماها الموت من زوجها حتى جعلها ترتدى ملابس الحداد .

الانجليز جعلوا الرحلة مسلية . وشعرت بالأسف وهم يغادرون السفينة فى ليفربول .

الآن امامها يومان قبل الوصول إلى جالواى ، ولن تؤخر أكثر من ذلك التفكير فى ذلك اللقاء الذى حدث مع ريت فى شارلستون . انه لم يكن لقاء حقيقياً . ولكن ، هل شعر بنفس صدمة التلاقى كما حدث لها عندما التقت عيونهما ؟

لقد شعرت بان بقية العالم تخفى وإنهما وحدهما فقط اللذان يتمتعان بالوجود فى مكان ما وزمن ما منفصل تماماً عن كل شيء وكل شخص له وجود .

وعندما دخلت السفينة خليج جالواى .. وجدت فى نفسها القدرة على ان تودع هذا الحدث برمته الذى وقع فى شارلستون فى ذاكرتها مع ذكرياتها الغالية الأخرى مع ريت . فقد كانت بوليهارا فى الانتظار .. وموعد الحصاد يقترب .

عيد الحصاد

كان كولام فى انتظار وصول السفينة فى جالواى . ومرت حقائبها امام رجال الجمارك بلا أسئلة فيما عدا « كيف الحال فى أمريكا ؟ » و « كم عمرك هذه الطفلة الجميلة الكبيرة الحجم ؟ »

ولكن المفاجأة السارة التى كانت تنتظر سكارليت هى ما حدث لدى وصولها الى بوليهارا . فقد أقام سكان البلدة الأقواس المغطاة بالأغصان الخضراء والشرائط الذهبية على طول الطريق عبر البلدة . واصطف السكان امام الأقواس واخذوا يلوحون بمناديلهم وقبعاتهم للتعبير عن فرحتهم بعودتها .

وغلبها الانفعال . ولم تستطع مقاومة البكاء . وظلت الدموع تفيض من عينيه طول الطريق وهى تردّد كلمة « شكرا » و « شكرا لكم » . وفى البيت الكبير .. اصطفّت مسنّ فيتزباتريك والخادّات الثلاث والعاملات الأربع فى مخزن الألبان والزبد والجبن والمسئول عن الحظيرة لتقديم التحيّة لها .

وبعد أقل من ساعة ، كانت سكارليت ترتدى ملابس الفلاحات التى سبق ان اشترتها من جالواى وتتجه بسرعة إلى الحقول وتستمتع بالمشى بعد ساعات وأيام واسابيع من الجلوس فى المكاتب والمقاعد وركوب العربات والقطارات والسفن .

حقول الذرة غنية باللون الأصفر وتبشر بمحصول وفير . الأوهار فى بيتها مرة أخرى .

تم جمع محصول البطاطس فى أغسطس . وقال المزارعون انه احسن محصول حتى الآن ، وبعدها بدأ جمع الذرة . وكانت سكارليت تحب متابعة عمل المزارعين وتحل محل أى واحد منهم عند الضرورة . غير ان ما كان يحزنها هو انها ستحرم من رؤية كاثلين التى حل موعد زواجها من « كيثين اوكونور » .

وكانت سكارليت ترغب فى ان تقيم حفل زفاف كاثلين فى البيت الكبير ، ولكنها علمت ان التقاليد تحتم ان يقام الحفل فى البيت الذى سيعيش فيه الزوجان . وقبلت كاثلين هدية مائة جنيه من سكارليت التى شعرت بالملل من ملابس الحداد ورقصت كل رقصات الريل فى حفل الزفاف وهى ترتدى ثيابا تجمع بين اللونين الأزرق الفاتح والأخضر الداكن .

كانت سكارليت تستيقظ أحيانا فى الليل ، والظلام فى غرفتها يشبه السر القاتم فى عيني ريت خلال لقاءهما بعينيهما عندما كانت السفينة تغادر

شارلستون . ترى ، ماذا كان شعوره ؟
وحيدة فى صمت الظلمة ، وحيدة فى فراشها المزخرف الواسع ،
وحيدة فى الفراغ الحالك لغرفتها الخالية من الضوء .. سكارليت تتساءل ،
وتحلم بأشياء مستحيلة ، وأحيانا تبكى من ألم الشوق اليه .



« كات » تنظر فى المرأة وتقول : « كات » .
أخيرا بدأت تتكلم . وكانت سكارليت تخشى من ان طفلتها لن تنطق
ابدا . وحاولت ان تحملها على ان تقول كلمة « ماما » .
— « معتدة بنفسها هذه الصغيرة المفتوسة ، كل الاطفال يقولون
« ماما » عندما يشرعون فى الكلام ، بينما هى تبدأ بان تقول اسمها ! »
وتحركت « كات » وهى تمشى بحماس وبلا مهارة .. وعندما ابتعدت
قليلا ، قالت : « ماما » .
وقالت الام للاب فلاين وهى تضحك : « لقد القت بالكلمة كما تلقى
بالعظمة للكلب » .



البلدة كلها تحتفل بعيد الحصاد . نصبت الموائد على طول الشارع
الرئيسى فى بوليهارا ووضعت فوقها أكوام من الطعام والشراب .
وتجمعت حول كل مائدة مجموعة من الأشخاص يمرحون ويتحدثون .
وأثناء الحفل وصلت جماعة من الشرطة : ثلاثة ضباط وثلاثة جنود .
وخفتت اصوات المحتفلين . وسأل احد الضباط : « اين الطريق إلى
البيت الكبير ؟ اريد صاحبتة » . وقدمت نفسها . وفى البداية لم يصدق
الضابط ان هذه السيدة ذات الشعر الأشعث التى ترتدى ملابس الفلاحات
يمكن ان تكون صاحبة البيت الكبير ، بينما كان الخوف ينهش أعماقها .
كان الضابط يحمل خطابا الى السيدة أوهارا ينص على ان الحامية
سوف تقيم مركزا تابعا لها فى بوليهارا من اجل الحماية .
قالت سكارليت : انها تشكر الكولونيل قائد الحامية ولكنها لا ترى حاجة
لوجود قوة حراسة فى البلدة حيث كل شىء على ما يرام علاوة على انه
لايستطيع ان يرسل أى قوة بدون موافقتها .
قال الضابط : « شكرا مسز أوهارا ، ولكن .. اللوائح .. بالنسبة لى
شخصيا فإن ما تقولينه هو الأفضل .. ولكن ، .. ولكن الكولونيل لن .. قد
يظن .. » .

قالت سكارليت : « افهم ما تقصد . ربما .. فى وقت آخر ؟ »

أنا رجل ميت !

اصبح تايبدها للفوار الإيرلنديين امراً شائعاً فى حانة كنىدى فى بوليهارا . وكانت تذهب إلى الحانة كلما شعرت بالملل والوحدة ، ولكنها سئمت الاغاني التى تدور حول شهداء الحرية الإيرلندية والتهديدات عالية النبرة حول طرد الانجليز . وتحتاج سكارليت الآن إلى المزيد من العمال بسبب الحقول الجديدة ، ولكن كولاى لم يكن راغباً فى دخول غرباء إلى بوليهارا رغم وجود أكواخ عديدة خالية من السكان فى البلدة . وتفهمت سكارليت الموقف . فهى تدرك حاجة « الفينيين » إلى السرية . واخيراً وجد كولاى حلاً وسطاً وهو استخدام عمال لفترة الصيف فقط ، واقترح ان يذهباً معاً إلى « سوق العمال » فى دورجيدا حيث يجرى « استئجار » الأيدي العاملة وإلى سوق الخيول فى نفس البلدة لكى تشتري سكارليت الخيول التى تحتاج إليها ، وكانت توبخ نفسها على صفقة الخيول التى أبرمتها من قبل لأن سرعة الخيول التى اشترتها لا تتجاوز .. سرعة السلحفاة على طريق صخري . وهى لن تكون ضحية للغش مرة أخرى . ويقول كولاى لنفسه : سكارليت امرأة مدهشة تتميز بكفاءة مذهلة فى أشياء عديدة ، ولكنها لن تستطيع ان تتفوق على تاجر خيول ايرلندى . وفى الطريق الى دورجيدا ، لفت كولاى نظرها إلى أن هيلثا تشبه الفتاة القروية وأنه لا احد يمكن ان يصدق انها سيدة من الطبقة العليا مالكة الاراضى وقادرة على دفع ثمن الخيول . فهى لا تبدو قادرة على دفع ثمن ركوب خيول المراجيح الدائرية .. أما سكارليت فإنها ترى انها إذا ظهرت بمظهر الثرية ، فإن أول ما سيفكر فيه التاجر هو رفع اسعاره كما يشاء . دورجيدا سوق كبير جداً ، بل اكبر من أى سوق شاهده من قبل . وكان كولاى يعرف ان سكارليت تهوى جو الإثارة فى الأسواق ، كما انها تحب ان تكون الأشياء واضحة ومفهومة بسهولة .. الامر الذى يثير قلقه لأنها لاتعرف ابعاد الخطر الناشئ عن تورطها مع الأخوان الفينيين .. فالجهل يمكن ان يؤدى إلى كارثة .

وعند بلوغ مدخل السوق ، قال لها : ان سوق الرجال الذين يؤجرون قوتهم للعمل يقع فى أحد طرفي الساحة ، بينما الخيول فى الطرف الآخر . واتفقا على ان يتولى ، هو اختيار الرجال بينما تتولى ، هى بنفسها ، شراء الخيول . واتفقا على ان ينضم إليها بعد ان يفرغ من مهمته . واتجهت إلى سوق الخيول فى إحدى زوايا السوق .. كولاى على حق . ففي سوق دورجيدا ، توجد احسن الخيول فى ايرلندا . ورات خيماً فسيحة ضخمة

من الخيش نُصبت لاستخدامها كاسطبلات مؤقتة للخيول .
ولم تر من قبل مثل هذا العدد الهائل من الخيول يتجمع فى مكان واحد .
وبعد ساعة من البحث .. وفحص لأسنان بعض الخيول وتدقيق بعين
خبيرة . اختارت سكارليت ثلاثة خيول . وقد أصرت على أن يتم الفحص
فى ضوء النهار وليس فى عتمة الخيمة ، فهى تريد أن تعرف أعمار
الخيول . ثم تطلعت بحسد إلى الأشخاص الذين يشتررون افراس الصيد .
كان قد مضى وقت غير قصير . ومازالت فى حاجة لشراء المزيد من
الخيول التى تستخدم فى حرث الأرض . واعتادت عيناها على الجو المعتم
داخل الخيمة . وبدأت تشعر بالإرهاق . واتكات على احد حوامل الخيمة .
— اين بيجاسوس * الذى حدثتنى عنه يا بارت . اننى لا ارى شيئا
يخلق فوق الحواجز » .

ماهذا ؟ انه .. انه . اننى لايمكن أن اخطيء .. فلا يوجد صوت فى
العالم مثل صوت ريت . واستدارت بسرعة وهى تنظر بعينين نصف
مفتوحتين إلى الميدان الذى تضيئه أشعة الشمس . هذا هو ظهره . اليس
كذلك ؟ انه هو . اننى متأكدة من ذلك . لو انه قال شيئا آخر أو أدار راسه .
ولكن لا يمكن أن يكون هذا هو ريت . ما الذى سيأتى به الى ايرلندا ؟ غير
اننى لايمكن أن اخطيء فى تحديد صاحب هذا الصوت .
واستدار ليتحدث الى الرجل الأشقر النحيل الذى يقف إلى جانبه . انه
ريت . تحول لون مفاصل أصابعها إلى البياض . وتشبثت بحامل الخيمة
بقوة . وانتفض جسمها كله . وقال الرجل الأشقر شيئا ما مشيرا بمقبض
سوطه ، وأوما ريت ثم سار الرجل مبتعداً عن ناظرها . ووقف ريت
بمفرده . وقبعت سكارليت فى الظل وهى تنظر إلى الضوء .
« لاتتحركى .. » هكذا أصدرت الأمر إلى نفسها عندما وجدت قدميها
تتحركان وتسيران نحوه . ولم يصدع كيانها لهذا الأمر . فاندفعت من
الظلال لكى تعدو ناحيته .

« ريت » اوتوقف مرتبكا . ولم يكن ريت من قبل يبدو متناقلا إلى هذا
الحد . واستدار بسرعة حول نفسه . ولم تستطع أن تتعرف على حقيقة
مشاعره من خلال تعبيرات وجهه التى كانت تظهر ثم تختفى ، ولاحظت أن
عينيه السوداوين تلمعان بشدة تحت حافة قبعته . وارتسمت على وجهه
تلك الابتسامة الساخرة المعهودة التى تعرفها جيدا . وقال : « انت

* بيجاسوس : حصان مجنح تحدثت عنه الاساطير الإغريقية القديمة ، وهو رمز للإلهام
الشعرى .

تظهرين بالفعل فى الاماكن التى لايمكن توقع ظهورك فيها .. ياسكارليت .
انه يسخر منى ، ولكنى لا ابالى . لا يهمنى شىء مادام يتلفظ باسمى ويقف
إلى جوارى . وكانت تسمع خفقات قلبها . قالت : « أهلا ، ياريت . كيف
حالك ؟ » كانت تعرف ان ما تقوله لايفى بالغرض وانه سخي ، ولكنها كان
ينبغى ان تقول شيئاً . واختلج فمه . وقال ببطء وهو يضغط على كلماته :
« بالنسبة لرجل ميت ، فاننا فى احسن حال ، ام اننى أخطأت . اظن اننى
لمحت أرملة فى مرسى ميناء شارلستون » .

« حسنا . نعم . كان لابد ان « اقول شيئاً » . لم اكن متزوجة . اقصد ،
انه لم يكن لى زوج ... »

— « لا تحاولى ان تشرحى ياسكارليت . ليس هذا هو الجانب الذى
تتجلى فيه موهبتك . » .

— ... « ماذا تقصد ؟ » — « لانهتمى . ماذا جاء بك الى ايرلندا ؟ لقد
ظننت انك فى انجلترا » .

— « ما الذى جعلك تعتقد ذلك ؟ »

لماذا نقف هنا ونجرى محادثة حول لاشىء على الاطلاق ؟ لماذا
لا استطيع ان افكر ؟ ولماذا اقول هذه الاشياء الغبية ؟ وقال ريت :

— « انت لم تنزلى من السفينة فى بوسطن » وقفز قلب سكارليت .
معنى مايقوله انه تكذب مشقة محاولة التعرف على المحطة الاخيرة

لرحلتها ، وانه مهتم بها ، واراد ان يكون على علم بمكانها . وفاض قلبها
بالسعادة . وقال ريت : « هل يحق لى ان افترض ان فترة الحداد على موتى

قد انتهت مادمت ترتدين هذه الملابس التى تعبر عن ابتهاج صاحبيتها ..
الا تخجلين من نفسك ياسكارليت ، ان جفتى لانتزال دافئة فى قبرى » .

وتطلعت فى فزع الى ملابس الفلاحات التى ترتديها ، ثم الى ملابس
الانيقة . وتساءلت : لماذا يجب ان يجعلها تشعر دائما بانها حمقاء ؟

ولماذا لم تشعر بالغضب على الاقل ؟ لأنها تحبه . سواء صدق ذلك ام لم
يصدق ، فهذه هى الحقيقة . وبدون تفكير .. وبدون تبصر فى العواقب ،

نظرت سكارليت الى الرجل الذى كان زوجها لها لعدة سنوات من الاكاذيب ،
وقالت : « احبك ياريت » . تفوهت بالعبرة ببساطة وكبرياء .. قال :

« يالسوء حظك ياسكارليت . يبدو انك دائما تغرمين بزواج امرأة اخرى » .
ورفع قبعته فى ادب وقال : « عندى ارتباط آخر . ارجوك ان تسمحى لى

بان اتركك الآن ، وداعاً . » وادار ظهره لها وابتعد . ونظرت اليه
سكارليت ، وشعرت كما لو كان قد صفعها . هذا ما حدث بلا داع

وبلا سبب معقول . انها لم تطلب منه شيئاً ، وإنما اهدته اعظم شىء
٢٩٤

تعلمت ان تقدمه ، ولكنه سحق الهدية بقدميه في الطين . وجعلها تبدو كالبلهاء . كلا ، هى التى جعلت من نفسها بلهاء .

وظلت سكارليت متجمدة فى مكانها وسط ضجيج سوق الخيول لفترة من الوقت لاتعرف مداها . ثم عاد العالم ليصبح فى مركز الرؤية فقد رأت ريت وصديقه بجوار خيمة أخرى وسط حلقة من المتفرجين على عمليات البيع والشراء . وتحركت سكارليت بطريقة الية نحوهما . وعبرت المسافة التى فصلتهما دون ان تشعر بالأشخاص الذين تسير وسطهم .. فقد ذابوا تماما من الوجود .

كان البائع يعرض بضاعته كما لو كان يردد ترنيمة شعائرية .. ويقدم للجمهور حصانا كبيرا يصفه بأنه « الوحش النبيل » وي طرح سعرا للحصان على طريقة المزاد .. وكان البائع قد وصل إلى رقم جنيه وثلاثين بنسا . وتقدمت سكارليت وعرضت جنيهها وأربعين بنسا . وتمت الصفقة . ونظرت سكارليت إلى صديق ريت وقالت : « أمل ألا تكون قد اصبت بخيبة أمل شديدة » .

كانت تتحدث بصوت حلو . « لماذا ، بالطبع لا ، .. يمكن القول ... » ، وتدخل « ريت » - « بارت ، أقدم لك » وتوقف عن مواصلة التقديم . ودون ان تنظر سكارليت ناحية ريت ، قالت لصديقه الذى اختلط عليه الأمر : « مسز أوهارا .. اننى أرملة » وقدم صديق ريت نفسه : « جون مورلاند » . ثم تناول يدها الكالحة وانحنى وقبلها . وابتمس وقال : « لا بد ان رؤيتك وانت تقفزين فوق الحاجز .. متعة كبيرة يامسز أوهارا .. هل تقومين بالصيد على مقربة من هنا ؟ »

وفوجئت سكارليت واضطرت للاعتراف بانها تصرفت بناء على نزوة امرأة . وانها أحببت ان تمتلك هذا الحصان . وقال جون مورلاند انه يسعده ان تشارك مسز أوهارا فى رحلة صيد تبدأ من منزله الذى يقع على مقربة من « دانسانى » .

كانت سكارليت قد سمعت عن « السير جون مورلاند » باعتباره من الكبراء وملاك الأراضي . وحدد مورلاند يوم السبت التالى موعدا لرحلة الصيد . وعندما نظرت سكارليت الى ريت بعد ذلك وجدته يتطلع اليها كما لو كان يفعل ذلك منذ وقت طويل . كانت عيناه تنطقن بأنه يستمتع بما يشاهده .. وبشيء آخر لم تستطع تحديده .

ومدت سكارليت برشاقة يدها المتسخة وهى تقول بكياسة : « مستر باتلر ، لقد سررت بلفائك » . ونزع ريت قفازه ليتناول يدها . وقال وهو ينحنى : « مسز أوهارا » . ورفعته إحدى طبقات ثيلها وأخرجت النقود وقدمتها للبائع ، وابتمدت . وقال جون مورلاند : يالها من امرأة غير عادية » . وقال ريت موافقا وهو يبتسم : « مدهشة » .

الوقوع فى مصيدة

فرسها كبير الحجم . ضحكت وهى تصفه فى حديثها مع كولام بأنه « فيل » . اسمه « الهلال » وهو يصلح لرجل ضخم الجثة ، أما هى فإنها تبدو ضئيلة للغاية وهى تمتطى هذا الفرس . وخشيت سكارليت ان تكون موضع سخرية خلال الصيد . وكانت مقتنعة بان ريت سوف يثلج صدره ان يراها تتصرف بضعف وجبن . واستقبلها جون مورلاند مرحباً ، وقال : — « لم اصدق أنك ستأتين » . وضاعت عينا سكارليت وسالته : « هل هذا ما قاله ريت ؟ »

— « على العكس . لقد قال ان الوحوش لن تمنحك من الحضور » . وكان السرج الجانبى الذى تستقر سكارليت فوقه بحيث تكون كلتا قدميها على جانب واحد من الفرس .. غير مريح بالنسبة لها ، وهى تخشى ان يؤدى إلى سقوطها على الأرض . وبدأ الصيد . واصبح الحاجز وراءها . إذن فقد قفز الفرس فوقه دون ان تشعر بالقفزة . لاغربة إذن فى ان جون مورلاند كان يرغب بشدة فى شراء هذا الفرس . وضحكت سكارليت بصوت عال . انها لم تشارك فى عملية صيد فى حياتها ولم تجلس فوق سرج جانبى منذ أكثر من خمسة عشر عاماً . وتوارت بعيداً الآن أشباح والدها وبونى .. اللذين توفى كل منهما على اثر السقوط من فوق الجواد .



حيثما ادارت رأسها فى قلعة مورلاند .. ترى الرجال فى ذروة الأناقة والنساء الجميلات وزجاجات الشمبانيا فوق الصواني الفضية والخدم والثروة والناس الذين يقضون وقتاً طيباً ويمارسون حياة ممتعة . تماماً كما كان الحال قبل الحرب . وبدأ « ريت » هادئاً وعلى سجيته فى الحفل الذى أعقب عملية الصيد وهى تتلقى التهاني بفوزها . كان يقف إلى جانبها عندما قال « تهنئتي ياسكارليت » . لم تكن قد راته يقترب منها . واهتز ذراعها .. وتناثرت الشمبانيا على ثوبها . : « اللعنة ، ياريت هل ينبغى ان تقترب منسلا على هذا النحو ، أنك افزعتنى » . وقدم ريت منديه وهو يقول : « .. وأنا أسف لسلوكى كالأجلاف فى سوق الخيول . وعذرى الوحيد هو اننى صدمت عندما رأيتك هناك » . وقررت سكارليت ان تمتنع عن إظهار مدى اهتمامها .. والى أى حد جرح مشاعرها . قالت وعيناها تتالقان بالأضواء وشفتاها تنفرج عن ابتسامة : « كلانا تلقى صدمة .. تصور كيف كان منظرى . ماذا تفعل فى أيرلندا ؟ »

— « اشتريت خيولاً .. اننى مصمم على الفوز فى السباق فى العام

القادِم . وتتمتع اسطبلات جون مورلاند بالشهرة فى انتاج صغار الخيول .
وساسافر إلى باريس يوم الثلاثاء لأبحث عن المزيد . ما الذى جاء بك إلى
دورجيدا فى ملابس محلية؟ وضحكت سكارليت !! انت تعلم ياريت
ولعى بارتداء احسن الملابس ، ولكنى استعرت هذه الثياب من إحدى
خادمات المنزل الذى أقيم فى ضيافته .. وتلفتت حولها ، وقالت انها
يجب أن تحبى المضيف وتغادر المكان قبل أن يغضب أصدقائها لتأخرها
فى العودة . ونظرت إلى ريت لحظة ثم أسرع إلى الخارج ، فهى لم تجرؤ
على البقاء .. وعلى أن تكون قريبة منه .. فى نفس الغرفة .. أو حتى فى
نفس المنزل .



— « كولام .. من هذا الرجل الذى يدعى بارنيل ؟ لقد كانوا يتحدثون
عنه خلال تناول الإفطار يوم رحلة الصيد ، ولكننى لم أفهم ما يقولونه .
قال كولام انه بروتستانتى وانجليزى وانه لا يستحق ان يشغل
تفكيرها . وأرادت سكارليت أن تناقشه . ولكنها كانت تعلم ان مثل هذه
المناقشة مضيعة للوقت ، ذلك ان كولام قد استقر على افكار نهائية بصدد
الانجليز ، وخاصة الانجليز من ملاك الأراضى فى ايرلندا الذين عرفوا
باسم الانجلو - ايرلنديين . وكان يضايق سكارليت انه لا يعترف بأن بعض
الانجليز يمكن ان يكونوا اشخاصا ظرفاء . لقد أحببت الشقيقات
الانجليزيات اللاتى كن معها على السفينة المتجهة من امريكا إلى ايرلندا
كما أحببت كل شخص كان لطيفا معها فى رحلة الصيد . وفى إحدى المرات
وجهت سكارليت سؤالها إلى مسز فيتز عن عائلة باتلر الإيرلندية التى
يكرها الجميع . وجاءت مدبرة المنزل بخريطة لاييرلندا . وقالت :
« هذه هى مقاطعة كيلكىنى ، انها موطن باتلر ، انهم من عائلة الدوق
أورموند ، وقد يكونون أقوى عائلة انجليزية فى ايرلندا » . ونظرت
سكارليت عن كذب إلى الخريطة . انها مقاطعة كبيرة مثل مقاطعة ميث التى
توجد بها الآن . وعلى مسافة قريبة من مدينة كيلكىنى .. رأت اسم « كهف
دانمور » وتذكرت « دانمور لاندينج » اسم مزرعة ريت القريبة من
شارلستون .. وبدأت سكارليت تفرق فى الضحك . كانت تشعر بانها
متفوقة لأن الاوهارا كانوا يحكمون ١٢ ألف فدان ، وها هى ذى عائلة باتلر
تحكم مقاطعة كاملة . ودون ان يرفع اصبعه .. فاز ريت مرة أخرى . انه
يفوز دائما . كيف يمكن اللوم على امرأة لانها تحب مثل هذا الرجل ؟



جاء السيرجون مورلاند (بارت) .. لزيارتها ليبدى إعجابه بحظائره الخيول لديها وليرى الفرس « الهلال » . وحرصت سكارليت على ان تدفعه للحديث عن « ريت » .. قال انه لايعرفه ، وإن بعض الاصدقاء القدامى كتبوا إليه منذ شهر لابلأغه بانهم سيرسلون ريت ليرى خيوله ، ثم وصل ريت حاملا خطاب تقديم منهم .. « انه رجل متميز ، وهو مهتم للغاية بالخيول ، ويعرف الكثير أيضا . كنت أتمنى لو أقام لفترة أطول . هل انتم صديقان قديمان ؟ انه لم يحدثنى بشيء » .

وقالت سكارليت : « التقيت به عندما كنت أزور عائلتى فى شارلستون » . وقال بارت : « إذن لأبد انك التقيت مع الزوجين بروتون ، انهما صديقان لى . عندما كنت فى كيمبردج ، اعتدت ان أزور لندن فى الموسم على أمل ان تكون سالى بروتون هنا . اننى متيم بها .. مثل الجميع » . وقالت سكارليت بدون تفكير : « سالى بروتون ! وجه القرد ؟ وظل بارت يتحدث عن سالى على مدى نصف الساعة التالية .. وسكارليت نصف مصغية ، إلى ان التقت اذناها اسم ريت ، فانتهت تماما . كان بارت يقهقه وهو يروى الشائعات التى تحدثت عنها سالى فى خطابها . فقد سقط ريت فى أقدم مصيدة فى التاريخ فيما يبدو . قال بارت :

« والحكاية ان جماعة من دار للأيتام كانت تقوم بنزهة فى مزرعته . وعندما حانت لحظة العودة إلى الدار اتضح ان إحدى اليتيمات مفقودة .. فما كان من ريت سوى ان ذهب مع إحدى المدرسات للبحث عنها . وانتهى كل شيء على خير وجه ، فقد تم العثور على الطفلة ولكن بعد حلول الظلام ، الامر الذى يعنى بطبيعة الحال فضيحة بالنسبة للمدرسة العانس مما فرض على ريت ان يتزوجها . واضاف بارت :

« اطرف ما فى هذه الحكاية انه كان قد اضطر منذ سنوات للهرب من البلدة عندما رفض ان يتزوج فتاة تصرف معها تصرفا طائشاً ، وكان المتصور ان يكون قد تعلم ان يكون حريصا بعد تلك المرة . ولابد ان يكون هذا الرجل شارد الذهن .. الاتجدين فى ذلك ما يبعث على الضحك ياسكارليت .. سكارليت .. سكارليت .. »

— « كائننى ، أقول ان شرود ذهن مستر باتلر هو الأفضل بالنسبة له ، فإن نظراته هى نظرات رجل تسبب فى الكثير من المتاعب للكثير من الفتيات عندما لم يكن شارد الذهن أو ذاهلا » وانفجربارت فى نوبة من الضحك . أما سكارليت ، فقد ابتهجت مما سمعت ومع ذلك شعرت وكأنها توشك على البكاء . إذن ، هذا هو السبب فى ان ريت كان متعجلا فى الطلاق والزواج مرة أخرى . يالها من مأكرة هذه الفتاة « أن هامبتون » .

لقد خدعتنى تماما .. وربما لم تفعل ولكن الحظ التمس يلاحقنى مما جعل العثور على اليتيمة النათية يستغرق وقتا طويلا ، ومما جعل أيضا « أن » هي المفضلة عند السيدة اليانور باتلر ومما جعلها تشبه كثيرا الراحلة « ميلى »



سيدة تدعى شارلوت مونتيخ طلبت ان تقابلها وتذكرت بعد جهد انها التقت بسرعة معها فى حفل أقامته السيدة اليس هارينجتون التى تعرفت بها سكارليت فى رحلة الصيد عند قلعة جون مورلاند . كانت شارلوت مونتيخ اكبر سنا من سكارليت وتضع على رأسها قبعة من الريش . وظهر من البداية انها من النوع العملى ، ولا تريد إهدار الوقت فى الحديث عن الطقس . فقد علمت ان سكارليت سيدة اعمال ناجحة سواء فى ايرلندا أو فى أمريكا . « لا تنزعجى ، فإن ما اعرفه احتفظ به لنفسى ، ان هذه هي أهم صفاتى الحسنة ، علاوة على انى املك الوسائل التى اعرف بها الاشياء التى لايعرفها الآخرون . اننى سيدة اعمال أيضا . » .

أوضحت شارلوت مونتيخ انها تاملت بعد ان مات زوجها فى حادثة صيد ، وانه حتى قبل ان يموت ، كانت قد بدأت تسام من الاستثمار على هامش الحياة ، تعنى بالمظاهر وتمارس نمط الحياة المتوقع من السيدات والسادة الذين احسنت تربيتهم ، ولكنهم فى حاجة مستمرة إلى المال . انها تملك الذكاء والتعليم والذوق والعلاقات مع احسن العائلات والبيوتات فى ايرلندا بدون استثناء .. وهى علاوة على انها كاتمة اسرار .. فإنها مضييفة محترفة وتقدم المشورة حول كل ما يتعلق بالازياء وديكورات المنازل والحفلات وطرق تمضية الوقت ، كما انها تتولى ترتيب الزيجات ومواعيد الغرام ، وتتقاضى عمولات سخية من محلات الازياء والخياطات وصناع الاحذية ومحال المجوهرات وتجار الاثاث والسجاجيد . وهى تقول عن نفسها انها ماهرة وخبيرة فى وضع الخطط ويندر ان يتمكن أى شخص من اكتشاف انها تتقاضى ثمن ما تؤديه من اعمال .

واستمعت اليها سكارليت بمزيج من الصدمة والإعجاب . ولكن لماذا تصارحها السيدة بذلك كله دون جميع الناس ؟

« اقول لك ذلك لأننى متأكدة من أنك لست غبية يامسز اوهارا . انك سوف تتعجبين - ومعك حق - إذا عرضت ان أساعدك بدافع من النزعة الطيبة الكامنة فى قلبى . ولا توجد فى قلبى نزعة طيبة إلا بالقدر الذى

يعزز مصالحى الخاصة . وأنا عندى اقتراح لك فى صميم العمل . انك تستحقين ما هو أكثر من حفل دون المستوى تقيمه سيدة دون المستوى مثل إليس هارينجتون . فانت تملكين الجمال والعقل والمال . تستطعين ان تكونى سيدة مبتكرة إذا وضعت نفسك بين يدي وتحت وصايتى . ساجعل منك السيدة التى تتمتع بإعجاب الكافة أكثر من أى سيدة أخرى ، وساجعل منك المرأة التى يسعى وراءها الكافة أكثر من أى امرأة فى أيرلندا . سوف يستغرق منى ذلك ما بين سنتين وثلاث سنوات . وبعدها سيكون العالم كله مفتوحا أمامك لكى تفعلى به ما تشائين . وستصبحين مشهورة . وسيوافر عندى المال الذى يكفى لكى اتقاعد بعد ان اكون قد حققت لنفسى أسباب ووسائل الترف والرفاهية .

وابتسمت مسز مونتيج وهى تقول : « لقد انتظرت قرابة عشرين سنة لكى التقى بواحدة مثلك .. وأصلك الأيرلندى سيكون إضافة إلى اسطورتك .. اكتبى لى إذا اتخذت قرارك » .



روت سكارليت لمسز فيتزباتريك ما قالتها لها شارلوت مونتيج ، وعلقت على ما سمعته منها بقولها : « لقد ابلغتها ان هذا أمر مضحك وسخيف طبعاً . اننى أيرلندية ، ولا أريد ان يسعى الانجليز وراءى » . وقالت مسز فيتز « انت محقة تماماً ، فالمرأة هى مجرد لصعة فى ضوء ما تقوله عن نفسها » .

وثار كولام غضباً عندما علم من روزالين فيتزباتريك بحكاية الزائرة . وقال منفعل : « لماذا سمحت سكارليت لها بمجرد الدخول من الباب ؟ » وحاولت روزالين تهدئته : (إنها وحيدة ياكولام . وهى محرومة من الأصدقاء ما عداك أنت وأنا ، صحيح ان الطفلة هى كل العالم بالنسبة لامها ، ولكنها ليست الصحبة الكافية . واعتقد ان بعض النشاط الاجتماعى قد يكون خيراً لها .. ولنا إذا فكرت فى الامر .. ولا تنس ان العمل يوشك ان ينتهى فى فندق كينيدى . وسيكثر عدد الرجال القادمين والخارجين قريباً جداً . اليس من الأفضل ان يكون هناك قادمون وخارجون غيرهم .. ومن يروح ويغدو غيرهم لإبعاد انظار الانجليز ؟ لقد فهمت هذه المرأة مونتيج من أول نظرة ، انها من النوع الجشع ، وأول ما ستفعله هو إقناع سكارليت بان البيت الكبير يحتاج إلى تانيث وتجديد . وسوف تمارس هذه المونتيج الاعيبيها فيما يتعلق بأسعار كل شىء . غير ان سكارليت قادرة على الدفع . وسيأتى غرباء من بلدة تريم إلى بوليهارا كل

يوم طوال السنة حاملين طلاءهم واقمشتهم المخملية وأحدث أنواع المفروشات الفرنسية . وعندئذ لن يلتفت أحد إلى مسافر أو اثنين ياتون عبر نفس الطريق . وهناك من يتساءل الآن بالفعل عن السبب الذى يمنع الأمريكية الحسنة من البحث عن زوج . وأنا أرى ان الأفضل ان نرسلها إلى الانجليز فى حفلاتهم حتى لا يشرع الضباط الانجليز فى الحضور الى هنا للتودد اليها .

ووعدها كولام بالتفكير فى الأمر . وخرج من بيته فى تلك الليلة ، وسار على قدميه عدة أميال محاولا ان يستقر على رأى يوفق بين ما هو أحسن لسكارليت وما اهو أحسن للإخوان الفينيين فى نفس الوقت . كان ما يقلقه هو انه لم يعد يفكر دائما بطريقة صافية فى الآونة الأخيرة . فهناك معلومات تصل إليه تؤكد ان بعض الرجال يتخلون عن التزامهم بالحركة الفينية .

عامان متواليان من الحصاد الوفير جعلا الرجال ينعمون بالراحة والاسترخاء وقل استعدادا للمخاطرة بكل شيء . كذلك علم الفينيون الذين اخترقوا جهاز الشرطة .. شائعات عن وجود شخص فى الإخوان الفينيين يتولى نقل أخبارهم إلى الشرطة . والجماعات السرية تتعرض لخطر دائم من الجواسيس فى داخلها - انتفاضان فى الماضى تم تدميرهما بسبب الخيانة . أما هذه المرة فقد تم التخطيط لها بعناية وببطء . واتخذت جميع الاحتياطات ولم يترك شيء للمصادفة وبالتالى يجب الا يحدث خطأ الآن . فالوقت كان يقترب . والمجالس الأعلى للحركة كانت تعتزم إعطاء إشارة التحرك فى الشتاء المقبل عندما يكون ثلاثة ارباع الميليشيا الانجليزية بعيداً عن حامياتهم ومشغولة فى صيد الثعالب . الآن جاءت تعليمات بتأخير كل شيء لحين الكشف عن شخصية الخائن والتخلص منه . والانتظار يرهق كولام ويمزقه .

عند شروق الشمس ، توجه كولام إلى روزالين لإبلاغها بأنها على حق فى وجهة نظرها بصدد حكاية شارلوت مونتيج مع سكارليت . وبعد ساعات كانت مسز فينيزباتريك تعتذر بلباقة إلى سكارليت وتعترف لها بأنها كانت متسرعة ومتحاملة . وحدثت سكارليت على ان تبدأ فى خلق حياة اجتماعية لنفسها بمساعدة شارلوت مونتيج . غير أن سكارليت ردت عليها بقولها : « لقد توصلت إلى ان الفكرة سخيفة ، اننى مشغولة جدا » .. وعندما نقلت روزالين إلى كولام رد سكارليت انفجر ضاحكا .

① ② ③

جاء موسم الحصاد واحتفالاته وأيام الخريف الذهبية .. وبدأت

تتساقط أوراق الشجر . واقامت سكارليت حفلاً ضخماً بمناسبة بلوغ كات عامها الثانى وتذوق الاطفال المدعوون لأول مرة فى حياتهم الأيس كريم فى البيت الكبير . واكتشفت سكارليت ان « كات » قد أحضرت لنفسها هدية عيد ميلادها .. وهى قطعة صغيرة ..

وذات صباح كانت سكارليت فى نزهة تدريب لفرسها « الهلال » عندما سمعت صوت البوق ثم أصوات كلاب الصيد فى مكان قريب . لابد ان هناك رحلة صيد وربما يكون « ريت معهم » . واستطاعت ان تجعل الهلال يتخطى ثلاث حفر وأربعة حواجز ، ولكنه لم يعد نشطاً كما كان . وكتبت إلى شارلوت مونتيج فى اليوم التالى . وبعد أسبوعين ، وصلت ثلاث عربات تحمل اثاث مسز مونتيج . ووصلت السيدة بعد ذلك فى مركبة أنيقة ومعها وصيفتها .. وقالت لسكارليت فور وصولها : « الآن ، سنبدأ » .



واطلقت سكارليت ايدى شارلوت مونتيج فى إعادة تخطيط وترتيب وتاثيث البيت الكبير والنفقات الباهظة التى يتطلبها هذا العمل الضخم . واقرحت عليها شارلوت ان تسمع نصيحة جون مورلاند بشأن الخيول . وكانت سكارليت تريد ذريعة لرؤية بارت (مورلاند) .. فقد تكون لديه بعض الأخبار عن ريت . وسر بارت لرؤيتها ووعدا بان يساعدها على العثور على افضل خيول الصيد فى أيرلندا .. وكما لو كان السؤال عابراً .. قالت سكارليت « ألم تسمع أى شئ عن صديقك الأمريكى يابارت ؟ »

تقصدين ريت ، نعم انه أكثر جدية فى كتابة الرسائل . وهو مصمم على أن يدخل المهرة التى اشتراها منى .. فى سباق شارلستون .. » وكفت سكارليت عن الإصغاء . فهو لايتوقف إذا بدأ الحديث عن الخيول . كانت تريد أن تعرف أخبار ريت .. هل هو سعيد ؟ هل أتى على ذكرها ؟ واضطرت لتوجيه سؤال مباشر إلى بارت : « هل قال ريت شيئاً عنى » ؟ . وقال بارت : « أه ، نعم .. لقد سألنى عما إذا كان فى الامكان ان تبيعي الهلال . انه يفكر فى إعادة عمليات الصيد الى دانمور . وطلب منى ان أبقى مفتوح العينين .. حتى اعثر له على خيول من نوع الهلال » . وقالت سكارليت ، وهى تتمنى ان تسمع ما يؤكد توقعاتها : « عليه ان يعود إلى هنا من أجل الشراء » .. غير ان إجابة بارت دفعها إلى هاوية اليأس : كلا . ان عليه ان يفق بى . ان زوجته تنتظر طفلاً ، ولن يستطيع ان يتركها .. »

وتنقلت سكارليت من غرفة إلى أخرى تدعو كل شخص إلى تناول ما يشاء والتمتع برؤية لوحة الملوك العظام لايرلندا . ووقفت شارلوت مونتيج في هدوء على جانب السلم وقد بدا على وجهها عدم الرضا ولكن سكارليت تجاهلتها ، كما حاولت ان تتجاهل ارتباك وعدم ارتياح ابناء وبنات عمومتهما والقرويين . ولكن بعد نصف ساعة من وصولهم ، كادت سكارليت تذرف الدموع .

قالت روزالين فتيوز باتريك : « الأمر لعلاقة له بك .. فهذا ضد التقاليد . لم يضع مزارع قدمه على الإطلاق داخل عتبة بيت كبير في ايرلندا . اننا شعب محكوم بالعادات القديمة ، ولسنا مستعدين للتغيير » وقالت سكارليت : « كنت اظن ان الفينييين يريدون تغيير كل شيء » وتنهدت مسن فيتز ، ثم قالت : « هذا صحيح ، ولكن التغيير يهدف للعودة إلى سالف الأيام .. إلى ما قبل الأيام التي حالت دون دخول البيت الكبير . كنت اود ان أستطيع ان أشرح بوضوح أكثر . »
— « لا ترعجى نفسك يامسن فيتز . لقد أخطأت . هذا كل شيء ولن أكرر ذلك مرة أخرى .

واغتصبت سكارليت ابتسامة . ولكنها كانت تشعر بحيرة وارتباك وقلق . ما أهمية وجود كل هذه الغرف ذات الديكور الايرلندي إذا لم يشعر الايرلنديون بالراحة في داخلها ؟ ولماذا عاملها ابناء وبنات عمومتهما كما لو كانت غريبة داخل بيتها ؟

واخذت سكارليت تطوف بالغرف وحدها بعد ان غادر الضيوف . المنزل رائع وأروع مما يمكن ان يكون عليه « دانمور لاندينيج » في يوم من الأيام . وتمنت لو كان ريت معها الآن .. يتطلع حوله بحسد وإعجاب . وقفزت بخطوات سريعة على السلم لتدخل غرفة كات و تراها وهي تصب اللبن لقطتها التي اطلقت عليها اسم « أوكراس » ومعناها « الجوع » باللغة الايرلندية . لو كان ريت حاضراً حفل الشاي الذي اقامته هذا المساء .. ولكنه لم يكن ، ولن يكون أبداً وعليها ان تتقبل ذلك . سوف يحضر حفلات شاي مع طفله الآخر أو أطفاله الآخرين من « آن » . ولم تنم سكارليت في تلك الليلة . جلست في وسط سريرها الفرنسي الانيق المغطى بالحريز .. الذي يلتف حولها ليدفئها .. الدفء والراحة اللذان تريدهما هي ان تشعر بذراعي ريت حولها وأن تسمع صوته العميق يسخر من حفلتها المشؤومة .. إلى ان تضحك مما فعلته ومن الخطأ الذي وقعت فيه . كانت تريد التسرية عنها بعد خيبة الأمل التي احست بها .

وتنقلت سكارليت من غرفة إلى أخرى تدعو كل شخص إلى تناول ما يشاء والتمتع برؤية لوحة الملوك العظام لايرلندا . ووقفت شارلوت مونتيج في هدوء على جانب السلم وقد بدا على وجهها عدم الرضا ولكن سكارليت تجاهلتها ، كما حاولت ان تتجاهل ارتباك وعدم ارتياح ابناء وبنات عمومتهما والقرويين . ولكن بعد نصف ساعة من وصولهم ، كادت سكارليت تذرف الدموع .

قالت روزالين فتيوز باتريك : « الأمر لعلاقة له بك .. فهذا ضد التقاليد . لم يضع مزارع قدمه على الإطلاق داخل عتبة بيت كبير في ايرلندا . اننا شعب محكوم بالعادات القديمة ، ولسنا مستعدين للتغيير » وقالت سكارليت : « كنت اظن ان الفينييين يريدون تغيير كل شيء » وتنهدت مسن فيتز ، ثم قالت : « هذا صحيح ، ولكن التغيير يهدف للعودة إلى سالف الأيام .. إلى ما قبل الأيام التي حالت دون دخول البيت الكبير . كنت اود ان أستطيع ان أشرح بوضوح أكثر . »
— « لا ترعجى نفسك يامسن فيتز . لقد أخطأت . هذا كل شيء ولن أكرر ذلك مرة أخرى .

واغتصبت سكارليت ابتسامة . ولكنها كانت تشعر بحيرة وارتباك وقلق . ما أهمية وجود كل هذه الغرف ذات الديكور الايرلندي إذا لم يشعر الايرلنديون بالراحة في داخلها ؟ ولماذا عاملها ابناء وبنات عمومتهما كما لو كانت غريبة داخل بيتها ؟

واخذت سكارليت تطوف بالغرف وحدها بعد ان غادر الضيوف . المنزل رائع واروع مما يمكن ان يكون عليه « دانمور لاندينيج » في يوم من الأيام . وتمنت لو كان ريت معها الآن .. يتطلع حوله بحسد وإعجاب . وقفزت بخطوات سريعة على السلم لتدخل غرفة كات و تراها وهي تصب اللبن لقطتها التي اطلقت عليها اسم « أوكراس » ومعناها « الجوع » باللغة الايرلندية . لو كان ريت حاضراً حفل الشاي الذي اقامته هذا المساء .. ولكنه لم يكن ، ولن يكون أبداً وعليها ان تتقبل ذلك . سوف يحضر حفلات شاي مع طفله الآخر أو أطفاله الآخرين من « آن » . ولم تنم سكارليت في تلك الليلة . جلست في وسط سريرها الفرنسي الانيق المغطى بالحبرير .. الذي يلتف حولها ليدفئها .. الدفء والراحة اللذان تريدهما هي ان تشعر بذراعي ريت حولها وان تسمع صوته العميق يسخر من حفلتها المشؤومة .. إلى ان تضحك مما فعلته ومن الخطأ الذي وقعت فيه . كانت تريد التسرية عنها بعد خيبة الأمل التي احست بها .

كانت تريد الحب والفهم والحنان الناضج . لقد تعلم قلبها ان يحب . وهو يفيض بالحب ، وهي لاتجد من تقدم له هذا الحب . اللعنة على ريت لأنه يعترض طريقها ! لماذا لاتستطيع ان تحب بارت مورلاند ؟ انه طيب وجذاب ، وتستمتع بصحبته . ولو ارادته سكارليت حقاً ، فإنها لاتشك لحظة في قدرتها على ان تجعله ينسى حبه اليانس لمن تدعى جريس هاستنجز التي تزوجت منذ عشرين عاما .. ولكن سكارليت لاتريده . وهذه هي المشكلة . فهي لاتريد شخصاً آخر غير ريت . هذا ليس عدلاً . ومثل الاطفال .. ظلت تبكي حتى غلبها النوم . وعندما استيقظت كانت قد استعادت سيطرتها على نفسها . ماذا لو كره الجميع حفلتها ؟ وماذا لو لم يمكث كولام سوى عشر دقائق في هذه الحفلة ؟ ان لديها اصدقاء آخرين . وسوف تكسب المزيد من الاصدقاء .



مجتمع القمة

عادت سكارليت من رحلة صيد مع بارت مورلاند وأصدقائه . وشرعت تتحدث فى حماس مع كولام حول افكار مستر بارنيل عضو البرلمان الذى يمثل مقاطعة ميث والذى كان فى صحبة بارت . ولكن كولام يكرهه . وتحولت سكارليت من الحماس إلى الشرح إلى الغضب : « لا أستطيع أن أفهم أبدا كيف تكون عنيداً إلى هذا الحد يا كولام ، انك لم تكلف نفسك مشقة سماع كلام الرجل .. حسنا أنا سمعته . انه ساحر .. وهو يريد بالدقة ما تحدثت أنت عنه دائما : ايرلندا للايرلنديين .. والكف عن عمليات الطرد من الأرض ، بل والكف عن الحصول على إيجارات والغاء وجود ملاك الأرض . ماذا تريد أكثر من ذلك ؟ ونفد صبر كولام : « أرجو ألا تثقى هذه الثقة العمياء بهذا البارنيل ! ألا تعلمين انه هو نفسه من كبار ملاك الاراضى .. وبروتستانتى ، وتلقى تعليمه فى جامعة اكسفورد الانجليزية . انه يسعى وراء الأصوات وليس وراء العدالة ، والرجل سياسى .. وسياسته هى محاولة إيقاظ الانجليز ليكونوا أكثر حرصاً على مصالحهم .. واغراء الحمار الايرلندى الجاهل الفقير .. »

وقالت سكارليت :

— « لا جدوى من الحديث معك يا كولام ! لماذا قال الرجل صراحة انه يؤيد الفينيين » وامسك كولام بذراعها « هل تحدثت بشيء ؟ » وابتعدت عنه وهى تقول : « لا ، بطبيعة الحال .. لست حمقاء رغم انك تتحدث معى وتعامل معى كما لو كنت كذلك . واعتقد انه لا مبرر لتهريب البنادق والبدء فى حرب إذا كنت تستطيع ان تحصل على ما تريده بدونها . لقد عشت حرباً أثارها عصبية من المنهويين بسبب بعض المبادئ وكل مافعلته تلك الحرب هى انها قتلت معظم أصدقائى ودمرت كل شيء من أجل لاشيء . وانا اقول لك منذ الآن يا كولام أوهارا : ان هناك وسيلة لإعادة ايرلندا إلى الايرلنديين بدون قتل أو حرق . وهذا ما أداغ عنه . لا أموال أخرى لستيفن لشراء بنادق بها . هل تسمعنى ؟ ولا بنادق أخرى يتم إخفاؤها فى بلدتى . أريد اخراجها من الكنيسة . لايهمنى ما ستفعله بها .. كل ما أريده هو التخلص منها . »

— « والتخلص منى ايضا ، ألا تقولينها ؟ » .

— « إذا أصبرت ، إذن » وامثلات عينا سكارليت بالدموع :

— « ما الذى أقوله ؟ ما الذى تقوله ؟ أه ، يا كولام ، لا تسمح بحدوث ذلك . انت احسن أصدقائى .. وتكاد تكون شقيقى . أرجوك ، أرجوك لا تكن متصلبا . لا أريد ان اتشاجر .. »

وفاضت دموعها . ووضع كولام يدها فى يده وضغط عليها . وقال .
 — « انه الطبع الايرلندى فينا هو الذى يتحدث .. وليس كولام
 او سكارليت ، اغفرى لى .. »
 — « كولام .. انت تسحر الطيور على الشجر مرة اخرى ، ولكننى لن
 ادعك تسحرنى إلى حد النسيان . عدنى بانك ستتخلص من هذه البنادق ،
 اننى لا اطلبك بالتصويت لصالح تشارلس بارنيل . وإنما ان تعدنى فقط
 بالا تبتدا حربا » . ووعدها كولام . وبعد ان افترقت عن كولام ، توجهت
 على الفور الى الكنيسة الصغيرة لتعترف امام الأب فلاين . وكان احتدادها
 فى الحديث مع كولام جزءا من الاعتراف ولكنه لم يكن الجزء الهام . لقد
 ذهبت للاعتراف لكى تتحرر من خطيئة كبيرة وهى انها شكرت الله عندما
 ابليغها جون مورلاند بان زوجة ريت فقدت جنينها منذ ستة اشهر .
 ولم يمض وقت طويل على مغادرة سكارليت للكنيسة حتى دخلها كولام
 ليعترف امام القس . فقد كذب على سكارليت واركتب خطيئة كبرى . ويعد
 التفوه بعبارات التوبة ، توجه إلى ترسانة الكنيسة الانجيلية لكى يطمئن
 على ان الاسلحة فى مخبأ امين يصعب اكتشافه إذا فكرت سكارليت فى ان
 تتحرى الامر .



الآن يقتضى برنامج شارلوت مونتيج لتقديم سكارليت الى مجتمع
 القمة .. السفر إلى مدينة دبلن . ولم تكن سكارليت تعرف ان المدينة قريبة
 جدا من بلدتها . وفى الطريق إلى فندق جريشام .. أخذت تراقب زحام
 الشوارع الواسعة وهى تشعر انها ستحب هذه المدينة . وفى المساء
 وصلت مسر سيمز إلى غرفة الفندق حيث كانت شارلوت مونتيج وسكارليت
 فى انتظارها لإعداد ثياب السهرة . ثم وصل مسيو « فرانسوا هيرفى » بناء
 على اتفاق مع شارلوت لكى يرسم لوحة زيتية لسكارليت . وجاءت السيدة
 الإيطالية سبرافينا لتصفيف شعرها .. وعندما نظرت سكارليت فى المرأة ،
 قالت إنها تبدو مثل صورة الجدة رويلا فى شبابها ، فقد أصبحت امرأة
 متحدية واثقة من نفسها .. وهمست شارلوت مونتيج لنفسها : « هذه هى
 المرأة التى ستحصف بايرلندا ، وبالعالم إذا أرادت » .
 بعد عشرة أيام من التسوق والجلوس أمام الرسام .. غادرت سكارليت
 دبلن .. أول مدينة حقيقية تراها فى حياتها وتضم أكثر من ربع مليون
 نسمة ، فقد كانت اتلانتا عبارة عن عشرين ألفا فقط . إنها تتشوق لرؤية
 « كات » التى تحمل إليها مجموعة كبيرة من الهدايا
 فى المرة التالية ، نزلت سكارليت وشارلوت فى جناح بفندق شلبورن

فى دبلن لقضاء فترة الموسم . انه افخر فنادق المدينة وقالت لها شارلوت .

« لقد اخترت المناسبة لكى يرانا المجتمع » . كان كل شىء فى الفندق رائعا : الضيوف .. والخدم والغرف ، والأجنحة . وعلاوة على الجناح .. فقد تم حجز غرفة استقبال من أجل سكارليت ، وضعت فيها اللوحة التى رسمها الفنان الفرنسى . ونظرت سكارليت الى اللوحة فى استغراب . هل تشبه حقاً هذه الصورة ؟ ان المرأة فى اللوحة لاتخاف من اى شىء . وقالت شارلوت « سوف تقيمين حفل شاي وقهوة فى غرفة استقبالك كل مساء والضيوف سوف يجلبون الضيوف لرؤيتك . وازادت سكارليت ان تسال : من الذى سيجلب الضيوف ومن هم الأشخاص الذين سيأتون بغيرهم ؟ ولكنها لم تشغل ذهنها بالامر . فقد كانت شارلوت تعرف دائما ما تفعل .

تم تسليم المظروف الأبيض السميك الذى يحمل خاتم الياوران الملكى إلى الفندق فى اليوم التالى لوصول سكارليت .

خارج الأبواب المزودة المغلقة لقاعة العرش ، وقفت سكارليت وسط مجموعة من الفتيات والسيدات بملابسهن البيضاء . وشعرت بأنها تنتظر فى هذا المكان دون ان تفعل شيئاً منذ مائة عام . لماذا وافقت على ذلك كله ؟ لم تستطع سكارليت ان تجيب على سؤالها ، فالمسألة بالغة التعقيد . من ناحية ، فإن الأوهارا مصممة على ان تقهر الانجليز ، ومن ناحية اخرى ، فإنها فتاة أمريكية تشعر بانبهار امام عظمة الأبهة الملكية للامبراطورية البريطانية . وفى أعماقها ، كان يتسلط عليها إحساس بأنها لن تتراجع عن التحدى ، فهى لم تفعل ذلك قط .

لقد تركتها شارلوت وحدها ، القت بها إلى الذئاب . وها هى ذى تنتظر النداء باسمها

« مدام الأوهارا من بوليهارا » .. ودخلت سكارليت قاعة « العرش » الآن لايد ان اسير أميالا فوق السجادة الحمراء وأقبل نائب الملك ، وهو ابن عم ملكة انجلترا . سارت أوهارا مثل امبراطورة لتواجه العظمة ذات اللحية الحمراء وتقدم خدها لكى يطبع عليها قبلة الترحيب الاحتفالية . وجاء دور قرينة نائب الملك . والآن عليها ان تتراجع إلى الوراء فى خط مستقيم .. ثلاث خطوات ثم تمد يدها لكى يضع واحد من الحجاب ذيل ثوبها فوق ذراعها قبل ان تستدير وتبتعد

وعندما عادت إلى الفندق تلقت التهنئة من شارلوت على نجاحها الذى فاق كل التوقعات . وانهاالت الدعوات . ولم تعد سكارليت مترددة لقد حققت نجاحا . ولعنت كل الأنظار ولايهمها الآن بعد أن انفقت ثمن محصول العام الماضى فى شراء وصنع الملابس الجديدة ، ان تنفق محصول هذا العام فى التسوق .

أصبحت سكارليت هى نجمة الموسم وحديث المجتمع الراقى . وتزاحم السادة لمقابلة الأرملة الثرية الجميلة . وتدفتت الأمهات ومعهن بناتهن ، على حفلات الاستقبال الخاصة التى تقيمها سكارليت حتى تلتقى البنات بالسادة الذين يمكن ان يكونوا أزواج المستقبل . وكفت شارلوت بعد يوم واحد عن شراء باقات الورد لحجرة استقبال سكارليت ، لأن المعجبين أرسلوا الكثير جدا من هذه الباقات الى ان ضاق بها المكان . وكان العديد من الباقات يحتوى على علب جلدية من أفخم محال المجوهرات فى دبلن ، ولكن سكارليت كانت تعيد ، على مضض ، كل هذه المجوهرات إلى أصحابها وهى تقول : « حتى الفتاة الأمريكية من مقاطعة كليتون فى جورجيا تعرف انها إذا قبلت هذه الهدايا فسوف ينتظر منها ان ترد الجميل » . وأكدت لشارلوت « لا أحد سيطوق عنقى بجميل .. »

وأصبحت صحيفة « إيريش تايمز » اليومية تنشر بأمانة أنباء تحركات ونشاطات سكارليت فى عمود « حديث المدينة » وأحيانا تستفيض الصحيفة فى نشر التفصيلات . واعتاد أصحاب المتاجر الحضور بانفسهم إلى الفندق ليعرضوا بضاعتهم على أمل ان تحوز إعجابها فكانت تشتري العديد من قطع المجوهرات التى سبق ان رفضت قبولها كهدايا وقد رقص نائب الملك مرتين معها فى حفل راقص جديد



توقفت لحظة عند مدخل قاعة العرش لكى تستمتع بالمشهد وعندما دخلت القاعة أومات برأسها عدة مرات لابتسامات وانحناءات من وجوه مالوفة . كانت القاعة تلمع بالذهب فى كل بقعة منها . وما أن قدمت التحية الى نائب الملك وقرينته .. حتى عزفت الموسيقى . وسمعت صوتا يقول : — « هل تسمحين لى بهذه الرقصة ؟ » انه تشارلس ريجلاند ، العسكرى الانجليزى الذى التقت به فى إحدى الحفلات ، وظل يزورها كل يوم فى حجرة الاستقبال فى الفندق من يوم وصولها إلى دبلن ، ولم يخف إعجابه بها . كان رجلا جذابا يتميز بطلاوة الحديث . ووضعت يدها بخفة على ذراعه ورافقها للاشتراك فى الرقصة الرباعية . وقال لها . « أنت

رائعة الجمال الليلة ياسكارليت . . وظهر امامها شريك جديد لأن سركاء الرقص يتبدلون في الرقصة الرباعية ونظرت إلى وجهه ، وقالت بصوت عالٍ :

— « يا إلهي » . كان الذي يفف في مواجهتها هو ريت الذي قال بنصف ابتسامة : « ياله من اطراء يرضى غرورى » لا يوجد من له مثل هذه الالبتسامة ..

سكارليت تبدو الآن مرحلة ورشيقة ومضيئة . وسعرت بانها تطفو فوق أرضية القاعة تحلق من السعادة . وقبل ان تتمكن من مواصلة الحديث . أخذته الرقصة الرباعية بعيدا . وابتسمت بطريقة ثلقائية لشريكها الجديد .

كان الحب يتلألأ في عينيها ، وتفكيرها يدور بسرعة : لماذا جاء ريت إلى هنا ؟ هل لأنه أراد أن يرانى ؟ ام لأنه وجد نفسه راغباً فى ان يرانى ولم يستطع ان يبقى بعيدا ؟ . وانتظرت سكارليت بنفاد صبر ان تنتهى الرقصة . وفور انتهائها ، وجدت نفسها وجهاً لوجه امام تشارلس ريجلاند . وشكرته وتمنمت بعبارة اعتذار سريعة قبل ان تلتفت بحثاً عن ريت . والتقت عيناها بعينيها فى الحال . كان يفف على مسافة متر منها ومنعها كبرياؤها من ان تخطو نحوه ، ففد ادرك اننى أبحث عنه . وحدثت نفسها غاضبة : من يظن نفسه ، لكى يجول فى عالمى ثم يفف هناك ويتوقع منى أن ألقى بنفسى بين ذراعيه ؟ هناك الكثير جدا من الرجال فى دبلن ، وحتى فى هذه القاعة . وهم يحاصروننى باهتمامهم ، ويتحلقون حول حجرة استقبالى ويرسلون لى الزهور كل يوم وكذلك الخطابات وحتى المجوهرات . فما الذى يجعل السيد العظيم الجبار مسترريت يتصور ان كل ما يجب ان يفعله هو ان يرفع أصبعه الصغير فأذهب اليه عدوا ؟ اعجبته النبرة الفاترة فى صوتها وهى تقول . « ياله من مفاجأة سارة » . ومد ريت يده ، ووضعت يدها بلا تفكير فى يده وهو يقول : هل تسمحين لى بهذه الرقصة يا مسز .. إر ... أوهارا ؟ . وحبست سكارليت أنفاسها فى خوف : « ريت ، لا تفسد الأمور الجميع يعتقدون اننى أرملة » ! وابتسم وأخذها بين ذراعيه عندما بدأ عزف الموسيقى وفال « سرك مصون ياسكارليت » . كان فى إمكانها ان تشعر بصوته يلسع بشرتها وبأنفاسه الدافئة . واحسست بانها أكثر ضعفا . وسألته « ماذا تفعل هنا بحق الشيطان » ؟ كان يجب ان تعرف . فوق حصرها ، كانت يده دافئة وقوية و .. تسندها وتوجه جسمها كلما استدارت . واحسست بانها

تستمتع بقوته وبأنها تتمرد على سيطرته وهي بتابع خطواته الدائرية في دوامة الغالس . ضحك ريت وقال « لم أستطع مقاومته فضولي . كنت في عمل في لندن ، ووجدت الجميع يتحدثون عن الامريكية التي افترضت قلعة دبلن كالعاصفة . وسالت نفسي هل يمكن ان تكون هي نفسها سكارليت ذات الجوارب المخططة التي رايتها في سوق الخيول ، وكان يجب ان اعبر بنفسى على الإجابة . واكد بارت مورلاند سكوكي ولم أستطع ان اجعله يكف عن الحديث عنك بل لقد حملني على ان اركب معه لكي نتجول في بلدتك وطبعاً لأقواله . فقد همت بإعادة بساتنها بايديك »

وتأملتها عيناه من رأسها حتى هدمبها وقال بهدوء
— « لقد تغيرت يا سكارليت ان الغناء العاصف قد اصبحت امرأة انيعه ناضجة أحبيك . . احبيك بصدق .

الصدق غير المزخرف والدفع في صوته جعلاً سكارليتاً تسي غضبها قالت « تنكرا . ياريت » وسالها — هل انت سعيدة في ايرلندا يا سكارليت »

— « نعم » « انا مسرور بذلك » كاس كلمانه مشحونه بمعان اعمق ولاول مرة طوال السنوات التي عرفه خلالها تسعر بابها تعهمه الى حد ما على الاول لقد جاء لكي يراها وكان يفكر في شخصي طوال ذلك الوقت . يتساءل عن مكاني وعن احوالي . ولم يتوقف عن الاهتمام بي بصرف النظر عما يفعله انه يحبني وسوف يحبني دائماً . تماماً كما ساحبه على الدوام . وهذا الذي توصلت اليه فهمه جعلها تسعر بالسعادة واخذت تتذوقها وترشفها مثل الشمبانيا على مهل لكي يدوم . كان ريت هنا معها وكانا في تلك اللحظة . اقرب إلى بعضهما من اى وقت مضى

واقترب منهما احد رجال الياوران عندما انتهت رفصه الغالس . وقال « ان صاحب السعادة يطلب التسرف بمشاركتك الرقصة التالية يا مسر أوهارا » . ورفع ريت حاجبيه في سخرية مرحة فضولية . واحتصنه سكارليت بابتسامتها وهي تقول للياور « فل لصاحب السعادة ابدى ساكون مسرورة بذلك » . ونظرت إلى ريت وهي تنابذ دراع الباور . مسر فائله « في مقاطعة كليتون نفول في مثل هذه المناسبات اسما في القطن العالي (في منتهى السعادة) » . وسمعت ضحكاه يتبعها وهي تسعد ونظرت إلى الخلف من فوق كتفها لتراد لايرال بضحك . وكانت عيناها الخصر او ان تقالغان بالصحل وهي تحيي نائب الملك قبل ان يشترعا في الرفص ولم تكن مفاداة لسكارليت ان ريت لم يعد موجوداً في الحفل

عندما بحثت عنه مرة أخرى . فطوال المدة التي عرفتة خلالها ، كان يظهر ويختفي بلا تفسير . ولم يكن يحق لى ان ادّش عندما رأيته هنا الليلة . لقد كنت أشعر وكأننى ساندريلا ، فلماذا لا يكون الأمير الساحر الوحيد هنا ؟ ولولا انها كانت لاتزال تشعر بذراعيه حولها كما لو كان قد ترك علامته .. لظنت ان ذلك كله - بما فى ذلك القاعة المذهبة والموسيقى - كان وهماً وسراباً . وعندما عادت إلى جناحها فى فندق شلبورن ، اشعلت المصباح ووقفت امام المرأة فى الضوء الساطع لتتنظر إلى نفسها وترى ما رآه ريت . بدت جميلة وواثقة من نفسها مثل صورتها فى اللوحة ، ومثل صورة جدتها روبيلار . وفى منتصف الليل ، استيقظت سكارليت اوهارا من نومها فى غرفتها الفاخرة لكى تبكى وتكرر عبارة « لو .. فقط ... »



قالت سكارليت لنفسها « اتمنى ان ينتهى الموسم ، فإننى افتقد كات بشدة ، ترى ماذا تفعل الآن ؟ »

فى ذلك الوقت ، كانت كات تعدو فى غابات بوليهارا وسط الضباب الذى يخيم فى ساعات الصباح المبكرة . ولم تستطع ان ترى طريقها . وتعثرت وسقطت ، ولكنها نهضت على الفور . فهى لابد ان تواصل الجرى حتى لو كانت تلهث . واحست بقطعة أخرى من الحجر توشك ان تسقط فوقها ، وخفضت رأسها وراء جذع شجرة لتحتمى نفسها . كان الاطفال يطاردونها ويصرخون : « الساحرة » ، « الساحرة » . وكادوا يمسون بها . ولم يسبق لهم ان خاطروا بالاقتراب من البيت الكبير حتى هذه المسافة ، ولكنهم كانوا يعرفون من احاديث آبائهم ان الاوهارا فى دبلن مع الانجليزية . وصاح احدهم مشيراً إلى كات : « ها هى » ، ورفع الآخرون ايديهم لإلقاء الحجارة ، ولكن الجسم الذى خرج من وراء الشجرة لم يكن « كات » وإنما « الساحرة » وهى تشير باصبعها محذرة .. وارتعدت فرائص الصبية وأطلقوا سيقانهم للريح وقالت « جرينى » : « تعالى معى - ساقدم لك الشاى » . ووضعت كات يدها فى يد العجوز . وخرجت « جرينى » من مخبئها وسارت ببطء . ولم تجد كات صعوبة فى متابعة خطواتها وسالتها .. هل سيكون الكعك مع الشاى ؟ وقالت الساحرة : « نعم »



فى كل مساء ، كانت مسز فيتز تاخذ صحيفة « إيريش تايمز » إلى حانة كنيدى لكى تطلع الرواد على صور الاوهارا لكى يعرفوا إلى أى حد

أصبحت سيدة بوليهارا ملء السمع والبصر ويوما بعد يوم ، حل التفاخر بالأواهر التي أصبحت محل إعجاب أكثر من النساء الإنجليزيات محل الذم من ولع سكارليت بالانجليز . أما كولام فقد كان يميل إلى التشاؤم وهو يردد : « الانجليز سوف يكسبوننا إلى صفهم » .. غير انه لم يكن هناك في دبلن من يريد من سكارليت ان تكون أقل إحساسا بأصلها الأيرلندي ، فقد كانت « أيرلنديتها » جزءاً من جاذبيتها . ومما أثار حيرة سكارليت ان هؤلاء الانجلو - أيرلنديين كانوا يعتبرون أنفسهم أيرلنديين على نفس مستوى عائلة أوهارا في امز تاون . وقالت لها شارلوت يوماً في انفعال : « ان هذه العائلات - الانجلو أيرلندية - عاشت في أيرلندا منذ ما قبل استيطان أمريكا .. كيف يمكن ان تعتبرهم غير أيرلنديين ؟ » غير ان ما كان يهم سكارليت هو أنها أصبحت تملك عالم مزارع بوليهارا الأيرلندية وعالم قلعة دبلن الإبرلندية في وقت واحد . وسوف تملك « كات » هذين العالمين . وهذا أفضل بالنسبة لسكارليت مما لو كانت قد بقيت في شارلستون .

انتهى موسم احتفالات قلعة دبلن . وأعلنت شارلوت ان مهمتها قد انتهت وان سكارليت لم تعد في حاجة إليها ويكفي أن تستمر سكارليت في التعامل مع مسز سيمز حتى تضمن لنفسها ارتداء أفخر الثياب ، كما ان مسز فيتز هي اكفأ مدبرة منزل في نظر شارلوت .. وقالت « انت الآن في الدنيا » . - « وماذا ستفعلين ياشارلوت » ؟ - سافعل ما كنت أريده دائماً شقة صغيرة . طعام جيد ، نبيذ جيد ، والتمتع بضوء الشمس .. اننى امقت المطر » ..



عادت سكارليت إلى البيت الكبير في بوليهارا ووجدت كات سعيدة بمهرها الصغير « كينج » الذى أطلقت عليه اسم « رى » . قالت : انه لايجب ان أمتطيه فوق سرج .. وانها هي أيضاً لا تفضل السرج . ستبلغ كات الرابعة من عمرها في أكتوبر القادم ، فهي تجاوزت عمر بونى عندما سقطت من فوق مهرها . وطلبت منها « كات » التوجه معا لرؤية جرينى وتجمدت سكارليت « كيف عرفت جرينى ؟ » لقد سبق للمرأة الحكيمة ان طلبت منها ان تمتنع عن زيارتها هي و« كات » وان تحرص على بقائها قريبة من البيت من الذى أخذ « كات » إليها ؟ ولماذا ؟ وقالت كات : « لقد قدمت لكات بعض اللبن » كانت « كات » تتحدث عن نفسها بضمير الغائب عندما يتسبب شيء ما في إثارتها أو غضبها وسألته

سكارليت « ما الذى لم تحببه فى شخص جرينى يا كات » ٩ - « انها تظن ان كات فتاة صغيرة اخرى اسمها دارا ، وقد اوضحت لها كات . ولكنها لم تسمع » . لا ياصغيرتى ، إنها تعرف انك انت ولكن هذا اسم خاص جدا اطلقته عليك عندما كنت طفلة صغيرة جدا انه باللغة الايرلندية القديمة ودارا معناها شجرة البلوط ، انها أحس وأقوى الأشجار »
 — « هذا سخييف الفتاة لايمكن أن تكون شجرة ، فليس لها أوراق »
 وبعد مرهة قالت كات « اننى احب البرج » .



مشهد مربع .. الناس يتزاحمون للفرجة على جندى من الجيش ينفذون فيه عقوبة الجلد بالسياط لم تستطع سكارليت ان تحرك مركبتها بعيدا بسبب الحشود المراساة التى خاب املها عندما سمعت الجلد يتوقف بعد الضربة رقم مائة على ظهر الجندى النعس الذى كان مقيدا من اليدين والقدمين لفظ الجندى انغاسه ، وأسرعت امرأة ترتدى عباءة سوداء تتوسل إلى الجنود قائلة ان الضابط وعداها بان يسلمها الجثة لدفنها . وتوجهت سكارليت إلى بلدة تريم لإحضار طبيب لإعداد الجثة للدفن . كان الجندى الضحية يدعى دانييل كيلى وأرملة هاريت ستيوارت وعندهما ابن فى الثامنة يدعى بيللى وقد ألقى القبض على دانييل كيلى عندما اعتدى على ضابط انجليزى فى إحدى الحانات وصدر عليه الحكم بمائة جلدة وأصرت سكارليت على الحاق هاريت ستيوارت بالعمل فى البيت الكبير كمرية لكات التى أصبحت صديقة لبيللى وتتبعه كظله ومع نهاية شهر مايو انخفضت المياه فى نهر بوين حتى انها لم تعد تغطى الأحجار العتيقة التى وضعت هناك منذ فرون ليستخدمها الناس لعبور النهر وبدأ المزارعون يتطلعون فى قلق إلى السحب التى تدفعها الرياح الغربية فقد كانت الحقول تحتاج إلى المطر وتوجهت سكارليت لحضور حفل منزلى فى أوائل شهر يونيو وسرها لقاء عدد كبير من صحبة دبلن ، وكان الشخص الوحيد الذى لم تتحمس لرؤيته هو تشارلس ريجالاند « إذا كانت كتبك هى التى جلدت ذلك الرجل حتى الموت يا تشارلس فإننى لن أنسى ولن أغفر أبدأ ، وارتداء الملابس المدنية لا يغير من حقيقة انك عسكرى انجليزى وان العسكرين وحوش » وصدمها ان تشارلس لم يكن يشعر بان هناك شيئا يستحق ان يعتذر عنه « اننى اسف بحق ياسكارليت لانك رايت المشهد . الجلد عملية قذرة ، ولكسا نرى ما هو أسوأ ويجب وقف هذه الأشياء الأسوأ »

ورفض ان يذكر امثلة لما هو « أسوأ » .. ولكن سكارليت سمعت من احاديث عامة عن حوادث عنف ضد كبار ملاك الاراضي تقع في كل انحاء ايرلندا .. وعن حقول جرى إحراقها بالمشاعل وابقار قطعت رقابها ، وكمين نصب لناظر مزرعة كبرى قرب جالواي وقتله وتمزيقه إرباً على أيدي مجهولين . وهمسات قلقة عن عودة « الغلمان البيض » للظهور ، وهم عبارة عن عصابات منظمة من محترفي السلب والنهب كانوا قد أثاروا فزع كبار ملاك الاراضي منذ أكثر من مائة سنة . وقال العقلاء : ان هذا غير معقول وان الحوادث الأخيرة متفرقة ومتباعدة وإنها من تدبير مثيري متاعب معروفين غير ان هؤلاء الذين يستقلون المركبات الفاخرة فقدوا الإحساس بالراحة وهم يلحظون نظرات الفلاحين من مستاجري الأرض أثناء مرور مركباتهم .



كانت سكارليت تشعر بسعادة قصوى عندما تسمع من هاريت ستيوارت (كيلي) ما يقنعها بان طفلتها « كات » شبه عبقرية ، فهي ترى الآن ان ابنتها يمكن ان تفعل اى شىء قبل ان تصل إلى السن التي تؤهلها لذلك ، وافضل مما يفعله غيرها . ولذلك عندما اصببت كات بحروق في يدها أثناء محاولتها الإمساك بوعاء ساخن .. اصابها هلع شديد ولم تجد وسيلة سوى حملها إلى « جرينى » لكى تعالجها من هذه الحروق . وكثرت الأقاويل فى القرية حول وقوع الأوهاما تحت تأثير السحر .. وهناك من قال ان الساحرة والطفلة التى حلت محل الطفلة الأصلية تتحدثان بلغة لايعرفها البشر ! .. وان بقرة « أنى ماكجينتى » التى كانت تدر أكبر كمية من اللبن فى بلدة تريم قد جف ضرعها .. وان الطفلة المسحورة تمتطى ذنباً متنكراً فى شكل مهر أثناء النهار .. وان ظلها وقع على مخاضة اللبن فاستحال الحصول على زبد .. وان هؤلاء الذين يعرفون يؤكدون انها ترى فى الظلام وان عينيها تومضان بالنيران .. وقيل أيضا انه تم اللقاء التعاويذ على السحب حتى تبتعد دون ان تمطر .

وذات صباح وجدت مسز فيتز باتريك قطعة « كات » مخنوقة على عتبة باب البيت الكبير وقد تم اخراج احشائها من جوفها . وجمعت اشلاء القطعة داخل قطعة من القماش وذهبت إلى النهر والقت بها دون ان يلحظها احد . واسرعت روزالين فيتز باتريك إلى كولام لتحذره من ان دم الطفلة كات سوف يلوث يديه لكى يضع حداً لهذه الأقاويل . وكان كولام قد بدا يغرق نفسه فى الخمر « حدادا على موت أمال ايرلندا » .. فقد ظهر تيار قوى يهيمن على قيادة الثوار الايرلنديين يميل إلى المهادنة مع الانجليز ،

الأمر الذى أصابه بياس قاتل . ومع ذلك فقد اذعن كولام لنصيحة مسن فيتز وقام بجولة وسط القرويين واقترح على سكارليت ان تقيم حفلا للترحيب بعودة ستيفن من سافانا ولمعرفة أخبار أمريكا . والتقت سكارليت فى الحفل بكاتلين التى انجبت ولداً وتنتظر طفلاً آخر . وتبين لها ان كاتلين لم تفتقدها على الإطلاق طوال الفترة الماضية . وعلمت من ستيفن ان جدها روبيلارد مات ، وان خالتيها بولين وأولادى قد ورثتا كل أملاكه ، وتقيمآن الآن فى البيت الوردى .

قضى الجفاف على المزروعات . ولم تعد بوليهارا تنتظر الحصاد . ولكن سكارليت وعدت سكان بلديتها بأنهم لن يتعرضوا للجوع ، وتوجهت إلى « تريم » و « نافان » و « دورجيدا » لشراء مؤونة الشتاء رغم ارتفاع الأسعار . وقوبل موقف سكارليت بالتحية من القرويين ، أما فى الليل ، فقد كانوا يجلسون إلى جوار مواقدهم يتحدثون عن السحرة والطفلة البديلة والبرج حيث أثارت الطفلة المسحورة شبح اللورد المشنوق فتحرك للانتقام .

واستمرت سكارليت فى قبول الدعوات للحفلات . ولكنها فى هذه المرة كانت تسعى وراء المعلومات عن الأحوال الجارية من ملاك الأراضي الآخرين .. فلم يحدث من قبل ان حل الجفاف فى أيرلندا طوال تاريخها .. ولم يعد هناك ركن فى البلاد إلا ويحتاج إلى المطر ، ولابد ان تحدث متاعب فى سبتمبر عندما يحين موعد سداد الإيجارات . فالفلاحون لن يكونوا قادرين على دفع ما عليهم من إيجارات . وما دامت لن تستطيع حملهم على الدفع ، فكيف تتوقع من المستأجرين فى البلدة ان يدفعوا إيجارات البيوت والدكاكين والحانات وحتى عيادة الطبيب .. التى تعتمد على ما ينفقه الفلاحون .

والتقت سكارليت فى حفل يوم ١٤ يوليو - عيد الباستيل - بتشارلس ريجلاند الذى قطع مسافة خمسين ميلاً لى يراها .. لقد دأب على مغازلتها بعبارات رقيقة .. بينما واصلت روزالين فيتز باتريك تضמיד جراح كولام . كان يعذبه الإحساس بالفشل وبأن هناك من يغدر به . فبعد عشرين سنة من العمل فى سبيل حرية أيرلندا وبعد نجاحه فى تأدية المهام المطلوبة منه .. وبعد ان اقام ترسانة الأسلحة فى الكنيسة البروتستانتية فى بوليهارا .. وجد كولام من يقول له ان ذلك كله لاقيمة له .. وان نشاط بارنيل السياسى ينطوى على قيمة أكبر . وكان كولام على استعداد دائم للموت فى سبيل بلاده ، فهو لا يتحمل ان يعيش دون ان يؤمن بأنه يخدم هذا البلد وكانت روزالين فيتز باتريك تشارك كولام عدم الثقة

فى بارنيل والاحباط الناشئ عن تجاهل الزعماء الفيينيين لنشاط كولام ونشاطها ، ولكنها كانت تضع مشاعرها جانبا وتنفذ الأوامر . وربما كانت درجة التزامها بالقضية أكبر من كولام لأنها كانت تتنشق إلى الانتقام الشخصى أكثر مما تسعى إلى تحقيق العدل . ولذا فإنها لن تسمح لكولام بأن يدمر نفسه بفعل شكوكه وغضبه ، وتلج عليه لكي يخرج من صمته وسلبيته ولا يترك للآخرين من المتحمسين لبارنيل أن يحكموا وحدهم وبصورة خاطئة .. فالناس يناضلون من تلقاء أنفسهم ويدفعون ثمنا غاليا بسبب غياب القائد ، وهم لا يريدون بارنيل وإنما يريدون كولام فى رأى روزالين .. وكولام هو الذى صنع الأدوات اللازمة لبناء جيش . فلماذا لا يذهب الآن ويبنى هذا الجيش بدلا من أن يغرق نفسه فى الشراب واستمع كولام إلى روزالين وبدأت عيناه تستعيدان ببطء نظرة معبرة عن الأمل



المصدر الوحيد الباقى للمال الذى يصل إلى أيدي سكارليت هو حصيلة أرباح بناء المنازل الصغيرة فى أطراف اتلانتا . ولم يعد هذا المال يصب فى الحركة الثورية التى ينتمى إليها كولام . غير أن هذا المال لا يكفى نفقات البيت الكبير والقرية . ودفن وطرات فكرة إرسال هاريت كيلى على ذهن سكارليت . ستكون زوجة مثالية لأشلى . يعيشان على قراءة الكتب وبإسنان فى دنيا الواقع . وبدرجة ما ، فإن هاريت ساذجة ولكنها تقدر واجباتها وقد ظلت إلى جانب زوجها الجندى ، الذى لم يكن طيباً .. قرابة عشر سنوات ، ووجدت فى نفسها الشجاعة لكي تذهب إلى الضابط وهى ترتدى حذاء ممزقاً لكي تتوسل إليه أن يبقى على حياة زوجها . وأشلى يحتاج إلى شخص يرعاه من طراز هذه السيدة الفولاذية . والمشكلة الوحيدة هى أن « كات » ستفقد صديقها « بيلى » ابن هاريت . فقد حزنّت طوال اسبوع عندما « هربت » قطتها .

وفى بداية سبتمبر .. ذهبت سكارليت وكات إلى ميناء كينجزتون لتوديع هاريت وبيلى اللذين يسافران إلى أمريكا وهما يحملان رسائل من سكارليت إلى أشلى والعم هنرى هاميلتون لمساعدتهما على إيجاد مكان للإقامة ووظيفة مدرسة لهاريت .

وعقب العودة إلى بوليهارا . قامت سكارليت بمساعدة « كات » على تحويل البرج إلى صومعتها الخاصة التى لا يمكن زيارتها فيها إلا بدعوة وتولت كات تنظيف المكان من الأتربة . وحملت سكارليت دلواً بعد دلو من

مياه النهر لتنظيف الجدران والأرضية . واستغرقت عملية التنظيف أسبوعا كاملا . واستعدت سكارليت بعدها لإقامة حفل عيد الحصاد كما لو كانت سنة عادية ، ولكن كولا نصحتها بإلغائه لأنه لا يوجد ما يدعو للاحتفال بسبب القحط ، وساعدها على توزيع أكياس الدقيق والسكر والملح والبطاطس والكربن التي وصلت إلى بوليهارا فوق عربات كبيرة من كل التجار الذين استطاعت سكارليت ان تعثر لديهم على مواد تموينية . وحدثت سكارليت نفسها بمرارة : « لم اسمع منهم حتى كلمة شكر .. أنا أيضا ضحية للجفاف . الذي دمر مزروعاتي كما حدث معهم ، كما أنني أخسر كل ما كنت أحصل عليه من إيجارات .. ومع ذلك فقد اشتريت لهم كل هذا التموين » .. الأرض . أرض أوهارا ، تحولت ضدها ، وكذلك الناس .. سكان بوليهارا .. ووضعت كل طاقتها في برج « كات » . فهي تقضى الآن ساعات في تأنيته وتزيينه وهي التي لم تكن تبالي بما يحدث في بيتها وكانت الكلمة الأخيرة .. هي كلمة « كات » بشأن قطع الأثاث والأغذية والسجاجيد فهي مصممة على ان تخلق عالما يرضيها حتى لو لم يعد « بيلي » جزءا منه . لقد أصبحت « كات » في الرابعة من عمرها الآن



مثل كل سكان ايرلندا .. قرأت سكارليت الصحف في هذا الخريف وهي تشعر بانزعاج يتحول إلى غضب . سبب الانزعاج هو زيادة عمليات إجلاء وطرد الفلاحين من بيوتهم ، وهي تتفهم جهود المزارعين لمقاومة هذه الاجراءات . فلم يكن الخطأ هوخطا المزارع اذا كان الجفاف قد تسبب في ضياع المحصول . أما ملاك الأراضي فإن موقفهم يختلف عن سكارليت وهم يقولون وهم يستنكرون مقاومة المزارعين : « اللعنة ، ماذا ينتظرون إذا لم يدفعوا الإيجارات .. ؟ هل ينتظرون أن يستمروا في بيوتهم أنهم يعرفون العواقب . وليس هناك جديد . وما يجرى الآن هو تمرد دموى ... » .

غير أن موقف سكارليت لم يكن يختلف عن موقف جيرانها من ملاك الأراضي عندما ظهر نشاط « الغلمان البيض » الذين أصبحوا أكثر تنظيما واشد قسوة . ليلة بعد ليلة تقع حوادث حرق مخازن الحبوب وحظائر الماشية وذبح الأغنام والدواب والخنازير وقطع سيقان الحمير وخيول المحراث وتحطيم نوافذ المتاجر والقاء مشاعل النار في داخلها ، ومع اقتراب الشتاء وقعت هجمات على العسكريين .. من الجنود الانجليز والشرطة الايرلندية وعلى النبلاء وهم داخل مركباتهم أو فوق جيادهم .

وأصبحت سكارليت تشعر بقلق مستمر على « كات » . فالطفلة مشغولة دائماً بمشروع معين أو لعبة ما تخترعها لنفسها . وهى لا تخاف ، تفكر وتتصرف باستقلالية تامة .. تتجول فى الاسطبلات والمخازن والحدائق ومزرعة منتجات الالبان .. والغابات والحقول مثل مخلوق برى .. ويصعب تحديد مكان « كات » ، فهى قد تكون فى أى مكان ، ولكنها تاتى دائماً إلى البيت فى مواعيد الطعام والاستحمام . ولم تستطع سكارليت ان تعرف الكيفية التى تعرف بها الطفلة هذه المواعيد .. خاصة انها لم تتأخر عنها قط ..



اشترت سكارليت من بارت مورلاند فرساً ممتازة اسمها « كوميث » المذبذب « تفوق الهلال فى روعة قفزاته .. وفى إحدى الحفلات ، أمتعت لحظة حميمة مع تشارلس ريجلاند ثم غادرها عندما تذكرت « ريت » وترك تشارلس رسالة يقول فيها : انه توجه ليلتحق بكتيبته وانه سيحبها إلى الأبد .

وقررت سكارليت المشاركة فى أهم رحلات الصيد فى الموسم ، فقد برعت الآن فى هذا المجال . وخلال الرحلة . شاهدت رجلاً ذا وجه يشبه الصقر فوق حصان أسود يقفز أمامها . كان يتخذ سيماء الرجل الذى لايعرف الخوف .. ولكنه متغطرس . والتف حوله المدعوون وكلهم يتحدثون بينما يتحدث هو نفسه قليلاً . كان طويل القامة . وجهه كالنسر فى ملامحه .. اسود العينين والشعر . وسألت سكارليت عن اسم هذا الرجل . وقالت لها إحدى المدعوات : « انه فوق مستوى الكلمات . كل شخص يقول انه أكثر الأشخاص خطورة وميلاً إلى الشر فى بريطانيا . واسمه فنتون » . « فنتون ماذا ؟ » : « لوك فنتون فقط . انه الايرل فنتون » .

واتخذ فنتون الخطوة الأولى فى التحدث والتودد إليها . وعلمت انه صاحب الاملاك الشاسعة على الناحية الأخرى من نهر بوين .. هناك فى أدمز تاون . ويعمل بعض أبناء عمومته فى أرضه كمستأجرين . أما الإيرل فإنه لايعرف أسماء مستأجرى أرضه كما انه لم يحرص على أن يقدم نفسه مفترضاً انه غنى عن التعريف !

تلقت سكارليت خطاباً من هاريت كيلي . ووجدت ما كانت تبحث عنه فى الخطاب : لقد طلب أشلى يد هاريت . هذا ما كانت تريده . اليس كذلك ؟ إذن ، فمن السخف ان تشعر بلسعة الغيرة . متى موعد الزفاف حتى تبعث

بهديتها الفاخرة ؟ أما أنديا ويلكس التي كانت تعتبر نفسها « التجسيد الحى لقضية الجنوب الأمريكى النبيلة » . فقد أصبح لها حبيب من اليانكى ، وسوف تتزوجه وستنسى انه كانت هناك حرب بين الجنوب والشمال .



فاجاها فنتون بالزيارة فى البيت الكبير ودعا نفسه لتناول القهوة . وكثرت زيارته . وبدأ يتسابق مع سكارليت بفروسيهما على الطريق بين بوليهارا وتريم . وتأكدت سكارليت ان الرجل الذى لم يحضر إلى آدمز تاون على الإطلاق . قد حضر ليراها وليس لإقامة حفلات الصيد واستقبال الضيوف .

عيناه الساحرتان وشعره الأسود وملابسه الأنيقة تذكرها بـ « ريت » ، غير أن هناك شيئاً ما يختلف عن ريت ولاتستطيع تحديده . ورفضت سكارليت أكثر من مرة دعوات إيرل فنتون لتناول العشاء فى آدمز تاون .



توجه كولام إلى حانة كيندى فى بوليهارا . قال « الآن .. كفوا عن هذا الكلام الأحمق الفظ . انتم جميعا ما الذى كان فى استطاعة المرأة المسكينة ان تفعله أكثر من ذلك » اننى أسالكم ، ألم تنازل عن تقاضى الإيجارات منكم ؟ ألم توزع عليكم الطعام لفصل الشتاء ؟ ألا تحتفظ فى المخازن بالمزيد من الحبوب ودقيق الذرة حتى تلبي طلباتكم إذا نفذ مالدكم ؟ إننى أشعر بالخجل وأنا أرى رجالا ناضجين مثلكم يلوكون بالسنتهم سيرة طفلة .. ويخترعون الشكاوى كمبرر لتناول المزيد من الشراب . فمن حق الشخص ان يسمم معدته ويشوش رأسه .. ولكن ليس من حقه ان يلقى بمسئولية ضعفه على الأوهارا . » وارتفعت صيحات الغضب من أركان الحانة « لقد انضمت إلى كبار ملاك الأراضى » ... وتمرح مع اللوردات والسيدات طوال الصيف . »

« لا يكاد يمضى يوم حتى تنهب الأرض فى سباق مع الشيطان الأسود مالك آدمز تاون .. » . وصاح كولام بدوره فى وجوههم « أى نوع من الرجال هذا الذى ينهك فى القيل والقال مثل جماعة من النسوة حول ملابس وحفلات وغراميات امرأة أخرى ؟ » .. وهذا سخط الرجال . وارتفعت الأغاني الجماعية فى الحانة إعلانا عن المصالحة ووجهت مسز فيتز تحذيرا إلى سكارليت من أن سكان البلدة يشعرون بضيق من سلوكها قالت مدبرة المنزل بصراحة « الأوهارا تفقد

احترامهم لها حياتك الاجتماعية مع الانجليز هناك مختلفه ، بعيدة عنهم . أما هذا اللهو الصاخب مع ايرل فنتون فإنه يضيفهم ، كما يعنى انك تقفين إلى جانب العدو » وثارت سكارليت فى وجه مسز فيتز . وقالت . ان حياتها لاتعنى أحداً سواها

هل تحبه ؟ ليست لديها إجابة مقنعة بعد ان طرحت عليها مسز فيتز هذا السؤال . انه رجل مشهور ، ويمتلك إحدى أكبر المروات فى بريطانيا له أملاك فى انجلترا وسكوتلندا علاوة على ممتلكاته فى ايرلندا ، وهو وثيق الصلة بأمير ويلز ، ويقوم فى قصره فى لندن حفلات سكر وتهتك وتسليه ولهو ، وهو الهدف المفضل لوسطاء الزيجات على مدى عشرين سنة منذ ورث اللقب والثروة مع بلوغه سن الثامنة عشرة ، ولكنه أفلت من الوفوع فى « الأسر » وخيب آمال حسناوات طامحات يمتلكن مروا كبرى أيضا وثمة قصص يتهامس بها المجتمع عن كسيرات فلوب وفتيات خسر سمعتن .. بل وحوادث انتحار ، والتقى به أكرم من زوج فى ساحة المبارزة . انه رجل لا أخلاقى وقاس وخطر . والبعض بقول انه سرير وغامض . ولذلك قد يكون فى نظر البعض الآخر أكثر الرجال سحرا وجاذبية فى العالم

وتخيلت سكارليت جو الإثارة الذى سيصنعه نجاح ارملة ابرلندية - امريكىة فى الثلاثينات من عمرها - فيما فسلت فيه كل الفائنات الانجليزيات من ذوات الالقاب وفى الحال احنعت الابتسامه التى كادت ترسم على شففتيها . وفالت لنفسها فنتون لم يظهر اى علامة تسير إلى انه رجل وقع فى الحب . انه ينوى ان يمتلكها لا ان يتزوجها وضاققت عينها اننى لن ادعه يضيف اسمى إلى الفائمه الطويله لغزواته وانتصاراته



مشروع عقد

قال لوك فنتون « إلى متى سترفضين دعواتي للعشاء » ؟ وردت سكارليت قائلة . « لماذا لا تردى جلد الحيوانات وتجرنى جراً من شعري إلى بيتك » ؟ كانت تعرف انه سيفقد اهتمامه بها فى اللحظة التى يتمكن فيها من امتلاكها . ولم تكن سكارليت تريد ان تفقده ، بل انها قد تحبه . وقد تعرف على « كات » . وكانت سكارليت مقتنعة بان فنتون هو آخر رجل على الأرض يمكن ان يحب الأطفال ، غير ان « كات » سحرته . وقد تعامل معها بالطريقة الصحيحة .. لأنه عاملها بجدية . فقد كان صبر الطفلة ينفذ مع الأشخاص الذين يعاملونها كطفلة صغيرة . وسيطرت انفعالات مفاجئة على سكارليت . كان ينبغي ان يكون « ريت » هو الرجل الذى يتمتع بسحر ابنته الآن ويشاركها طعام الإفطار ويسير إلى جانبها . لو كنت قد أخبرته بشأن كات قبل ان يكون الوقت قد فات لو كنت قد بقيت فى شارلستون .. لو .. ولكن ما مضى قد مضى ، وعليها ان تفكر فى المستقبل .

قالت سكارليت : « انتبه يالوك . سوف اشعر بالغيرة . انت تتصرف كما لو كنت قد وقعت فى غرام ابنتى » . رفع فنتون حاجبيه . وقال . « الحب هو صناعة أصحاب الدكاكين وموضوع الروايات الرخيصة » .. وغادر فنتون البيت الكبير بعد ان شرب القهوة .. واقتنعت سكارليت بان الرجل « المنيع » يخاف من كلمة « الحب » وأنه يعاني من « اعراض » وقوعه فى الحب رغم إرادته .



صخب كبير فى ليلة رأس سنة ١٨٨٠ . كولام يسير فى الشارع يقرع الطبله ويتبعه اثنان يعرفان الكمان .. وروزالين فيتز باتريك تضرب على آلة موسيقية إيرلندية . وايقظت سكارليت « كات » من نومها لتعيشا معاً اول لحظات عام ١٨٨٠ وسط الموسيقى والحب . ورفضت سكارليت ان تصحب كولام إلى حانة كنيدي بعد ان لاحظت انه أكثر من الشراب ، وعادت إلى البيت ، وهناك وجدت إيرل فنتون فى انتظارها بعد عودته من رحلة قصيرة إلى لندن . والتفتت سكارليت ورات « كات » إلى جانبه تحاول ان تثبت فوق رأسها تاجاً مرصعاً بالجواهر . وقال فنتون « كات ترتدى شارة اللقب الخاصة بك ياكونتيسة . لقد جئت لترتيب الزواج » . وطلب فنتون من كات أن تذهب إلى غرفتها لأنه يريد النحدث إلى امها . وانتفت إلى سكارليت ودعاها إلى التوجه إلى المكتبة للممتع بنيران المدفأة وبزجاجة شمبانيا لتناول نخب ابرام « الصفقة » . وعندما جلسا

في المكتبة سألته سكارليت « لماذا ذكرت كلمة صفقة ؟ لماذا لم يقل إنه يحبها ويريدها زوجة له وشرح لها فتتو وجهه نظره ، فهو يرى أن الزواج هو مجرد صفقة وأن المحامين من الطرفين يجب أن يلتقيا لصياغة العقود .

وضعت سكارليت كأسها على المائدة ، وغاصت في مقعدها ببطء . ثمة شيء ما .. خطأ .. وخطأ مروع لا يوجد دفء في وجهه أو كلماته . بل إنه لا ينظر إليها . قال : « هذه طبعا شكليات . أنت تعرفين بالتأكيد ما هو المنتظر منك . أنت لست فتاة بريئة » . وقالت سكارليت بتهمل : « أريد من فضلك أن أعرف ما هو منتظر مني » . هز كتفيه كما لو كان قد نفذ صبره ، وقال : أنها ستجده كريما فهو من أغنى الناس في إنجلترا ولابد أنها تعرف ذلك . ويمكنها أن تحتفظ بأموالها ، وستتولى هو توفير كل ما تحتاجه من ملابس ومركبات ومجوهرات وخدم .. وتستطيع أن تحتفظ بـ بوليهارا طوال حياتها . وبعد موتها .. سوف يرث ابنهما بوليهارا ، كما أن هذا الابن سوف يرث آدمز تاون بعد موته هو

ولقد كان ضم الأراضي المتجاورة من الأسباب الرئيسية للزواج دائما . أما البند الرئيسي في الصفقة فهو أن تنجب سكارليت وريثا لإيرل فننون .. فهو « آخر العنقود » في أسرته ، وواجبه يحتم عليه أن يستكمل الشجرة . وما أن يحصل منها على ابن وريث حتى تصبح حياتها ملكا لها مع الاهتمام المألوف بالحرص على المظاهر الخارجية . ويرغب فننون في أن يكون ولده مثل « كات » يتمتع بصحة قوية ومن النوع الذي لا يهاب شيئا . فقد أصبح نسل فننون هزيلا نتيجة الزواج من الأقارب ، وهو يريد تطعيم هذا النسل ومعالجته بحيوية الفلاحين التي تسرى في عروق سكارليت . كما أنه يلاحظ أن مستأجرى أرضه من عائلة أوهارا يعيشون طويلا .. ومعمرون . إنه يريد وريثا يفخر به . ولا تلوث سكارليت سمعة هذا الوريث أو والده في المجتمع .

كانت سكارليت تحرق في فننون كما لو كانت حيوانا تسمر عندما فوجيء أمامه بثعبان . ورفعت كأسها وألقت به في النار . وأشعل الكحول الستة اللهب . وقالت : « هذا هو نخب أبرام صفتك يا لورد فننون . اخرج من بيتي »

وقال اللورد أنه يشعر بخيبة أمل فيها .. وكان يظنها أكثر ذكاء . فهو سيوفر لها مركزا في العالم لنفسها ولابنتها التي ستحصل على الأحسن من كل شيء . وعند الزواج ، فإن كل ما ستفعله هو أن تختار من تشاء وقالت

سكارليت : ان كات ليست فى حاجة إلى القابه الثمينة ولا إلى « الأحسن من كل شيء » وكذلك ، هى نفسها . فقد عاشتا .. عيشة طيبة للغاية بدونه وسوف تستمران فى طريقهما .. هى وابنتها . ولكن فنتون يؤكد لها انه واحد من رجال قلائل يملكون القدرة على إزالة الوصمة عن طفلة غير شرعية .. ويقول : « كلا .. اذخرى احتجاجاتك .. ولا تهينى القصة التى ستلقينها .. فما كان من الممكن ان تكونى فى هذا الركن الذى نبذه الله من ايرلندا إذا كنت أنت وطفلك موضع ترحيب فى أمريكا .. اكتبى لى إذا عدت إلى صوابك ياسكارليت . فانت ستوافقين على صفقتى . اننى أحصل دائما على ما أريد » .

واتجه فنتون نحو الباب . وقالت سكارليت : « انك لا تستطيع ان تجبر كل شيء فى الدنيا على ان ينفذ ما تريد يا فنتون ، هل خطر ببالك ان انثى الخيل المخصصة للانجاب التى ستتزوجها قد تلد بنتاً وليس ولداً » . واستدار فنتون ليقول : « انت امرأة قوية تتمتع بالصحة ، سوف أحصل فى النهاية على ولد .. وحتى إذا لم تلدى سوى بنات ، فسوف ارتب زواج أحداهن من رجل يرغب فى التخلي عن اسمه والحصول على اسمها .. وعلى ذلك سيظل دمي يرث اللقب ويستمر النسل ... »

وبنفس البرود الذى يتحدث به .. ألقت سكارليت بسؤالها التالى . « انت تفكر فى كل شيء . أليس كذلك ؟ لماذا لا تفترض اننى عاقر أو انك غير قادر على الانجاب ؟ » وابتسم فنتون : « رجولتى يبرهن عليها أبناء السفاح المبعثرين فى كل مدن أوروبا ، ولذلك فإن محاولتك إهانتي .. قد أخطأت طريقها . أما عنك .. فانت لست عاقرا .. والدليل هو .. كات » . وغادر فنتون المكان .. وألقت سكارليت نفسها على السجادة فى غرفة المكتبة بعد أن أغلقت أبوابها .. لكى تبكى . كيف تصورت انها يمكن أن تتعلم أن تحب رجلا لا يعرف الحب ولا يوجد حب فى قلبه ؟ وماذا ستفعل الآن ؟ وصاحت من خلال دموعها : « ريت .. نحن نحتاج إليك بشدة »



دعت سكارليت ابنتها كات للنزهة سيرا على الأقدام . ولكن كات قالت انها تود زيارة جرينى .

سوف يسر « كات » ان تذهب الى البرج . ان ذلك يمنحها شعوراً بالصفاء . وجذبت سكارليت السلم المصنوع من الحبال إلى الباب العالى للبرج لاختباره . كان قد حال لونه وتلطخ بالبقع رغم انه متين بالدرجة الكافية . ورات انه من الافضل صنع سلم جديد من الحبال . لم تتغير ملامح المرأة الحكيمة . وقالت كات : « ساملاً الأبريق من مياه الينبوع » .

كانت عينا جرينى تتابعانها بمحبة . وقالت « دارا تزورنى من وقت لآخر بدافع من طبيعتها ، إنها روح وحيدة . لم يطاوعنى قلبى لإبعادها ، فهى ترى الصواب . الوحيد يعرف الوحيد . » وقالت سكارليت غاضبة : — « انها تحب ان تكون وحدها . وهى ليست مضطرة إلى ذلك ، وقد سألتها مراراً إذا كانت تحب ان يكون معها اطفال يشاركونها اللعبة . وكانت ترفض دائماً » وقالت جرينى « إنها طفلة حكيمة ، فهم يحاولون ضربها بالحجارة ، ولكن دارا أسرع منهم » . ولم تصدق سكارليت ما تسمعه . وطلبت من جرينى أن تكرر ما قالته .. فعرفت منها ان اطفال البلدة يطاردون دارا فى الغابة كأنها وحش ، وهى تسمعهم قبل ان يصلوا إليها بوقت طويل ، واكبرهم فقط هم الذين يقتربون لمسافة تكفى لإلقاء الأحجار التى يحملونها . وتعرف دارا كيف تهرب حتى من هؤلاء ، وهم لا يتجاسرون على ملاحقتها حتى برجها ، فهم يخافون من البرج لأنه مسكون بشبح اللورد الشاب المشنوق .

كانت سكارليت تسمع فى ذهول .. فجوهرتها الثمينة « كات » تتعذب على أيدى اطفال بوليهارا ! سوف تجلد كل واحد منهم بيديها وستطرد أباءهم من الأرض والبيت وتحطم كل قطعة اثاث لديهم . ونهضت من مقعدها . وقالت جرينى « سوف تضعين حطام بوليهارا على كاهل الطفلة .. اجلسى يا امرأة .. انهم يخشون أى شخص يكون مختلفاً عنهم . وما يخافونه يحاولون إبعاده » . جلست سكارليت مرة أخرى . كانت تعلم ان المرأة الحكيمة على حق . لقد دفعت هى نفسها ثمن أن تكون مختلفة عن الآخرين .. وبكت

— « لا أستطيع أن أقف جامدة . هذا لا يحتمل ، لابد ان أوقفهم » .

— « لا يمكن وقف الجهل . لقد وجدت دارا طريقها ، والأحجار لا تجرح

روحها ، وهى آمنة فى غرفتها فى البرج »

وقالت سكارليت فى رجاء : « أخبرينى ماذا أفعل ؟ »

— « يجب أن تفعل ما هو مقدرك ان تفعله . الله يحمى دارا » . كانت

قد هدأت وهى تغادر المكان . وقبل ان تسافر إلى دبلن أصدرت أوامرها بصنع سلم من حبل جديد أقوى

حطام رجل

ذهبت سكارليت إلى بانثيستاون لمشاهدة سباق الخيل هذا العام . والتقت مع بارت مورلاند . كان في قمة السعادة . انه يحب الخيول على نحو غير عادي . وظل يتحدث مع سكارليت طويلا حول اكتشافه الجديد « الفرس ديجون » الذي سيفوز ويصبح بطلا . ثم حدثها عن اضطراب المستأجرين الذي دعت إليه « رابطة الأرض » وكان كولام قد شرح لها نشاط هذه الرابطة من قبل .. وقال انه عندما يحل موعد تسديد الإيجارات في الربيع .. يتقدم مزارع واحد من كل مزرعة ويدفع الإيجار ، ويرفض جميع الباقيين الدفع ، فإذا طردهم المالك ، يتوجهون جميعا للإقامة في الكوخ الوحيد الذي تم تسديد إيجاره . وإذا حاول المالك أن يؤجر الآخرين فإن المزارعين المطرودين سيرغمون هؤلاء الذين يفكرون في قبول عرض المالك .. على رفض العرض وبدون مزارعين سيفقد المالك الإيجارات وكذلك سيخسر المحاصيل لأنه لا أحد يتولى العناية بها .

وقال جون مورلاند : ان المستأجرين تركوه بلا نقود تكفي حتى لشراء الشوفان . وارتاعت سكارليت . لم تكن تتصور ان « رابطة الأرض » سوف تكون أداة ضد رجل مثل بارت مورلاند الذي انحصر تفكيره الآن في الفوز في السباق ثم في السباق الكبير التالي في جالواي . وعندما سألته سكارليت عما ينوي أن يفعله بصدد الإضراب عن دفع الإيجارات . قال انه ليس له دخل آخر سوى هذه الإيجارات ، وانه لم يسبق له في حياته ان طرد أحداً من بيته ولكنه قد يضطر إلى ذلك الآن . ثم قال مورلاند « سكارليت نسيت ان أخبرك ، لقد تلقيت انباء طيبة جدا من صديقنا الأمريكي ريت بانلر » . وقفز قلب سكارليت : « هل سيأتي ؟ » وأجاب مورلاند : « كلا ، لقد كنت أنتظره ، وكتبت له عن ديجون ، ولكنه كتب لي ليقول انه لن يحضر . فهو سيصبح أبا في يونيو ، وقد اتخذ احتياطات اضافية وقائية هذه المرة .. ولزمت الزوجة الفراش لعدة أشهر حتى يزول الخطر ولا يتكرر ما حدث في المرة السابقة . ولكن كل شيء ممتاز الآن .. ولم أرفى حياتي رجلا يحرص على ان يكون أبا فخوراً مثل ريت »

واستندت سكارليت على أحد المقاعد .

لقد ولت نهائيا أحلام اليقظة والأمال الخفية .

وأثناء السباق . كان تفكيرها يتجه في ناحية أخرى الخيارات التي تواجهها .. الإيجابيات والسلبيات في حياتها . المؤكد ان زواجها من لوك فنتون سيكون أمراً شائئاً إلى اقصى حد . فالرجل يريد طفلا . وهي

لا تستطيع ان تمنحه هذا الطفل ..

وفاز ديجون .. والتف الجميع حول جون مورلاند . والتفتت سكارليت إلى لوك فنتون الذى كان يقف بجوارها : « قل لمحاميك ان يتوجه لمقابلة محامى بشأن العقود . اننى اختار أواخر سبتمبر موعداً للزفاف .. بعد الحصاد » ..



قالت سكارليت : « كولام ، سوف اتزوج ايرل فنتون » . وظن في البداية انها تلقى دعابة . ولكن ضحكته توقفت كما لو كانت قد قطعت بحد الموسيقى عندما تبين انها جادة فيما تقول ، وحملق في وجهها الشاحب الذى تبدو عليه ملامح التصميم . « لن اسمح بذلك . الرجل شيطان وانجليزى » . ويحمر وجه سكارليت : « لن .. تسمح .. ؟ .. لن .. تسمح ... من تظن نفسك يا كولام .. اله ؟ » واقتربت منه ، والشر يتطاير من عينيها : « اسمعنى يا كولام أوهارا ، واسمعنى جيداً . لا انت ولا اى شخص آخر على وجه الأرض يستطيع ان يحدثنى بهذه الطريقة . لن اقبل ذلك » .

مواجهة صاعقة تحجرت خلالها القلوب للحظات تبدو بلا نهاية .. والعيون تتبادل النظرات الغاضبة . وامال كولام راسه جانبا وابتسم . « سكارليت حبيبتي . انه المزاج الحاد لعائلة أوهارا يكمن فينا .. نستخدم كلمات لانقصدها .. أرجوك ان تسامحينى » . وقالت سكارليت انها لاتصدقها وانها جاءت لتتحدث إليه كصديق ولم تجد الصديق وربما لم يوجد فى يوم من الايام . ومع ذلك فإن الأمر لايهمها . لقد حزمت أمرها وستتزوج فنتون وتنتقل إلى لندن فى سبتمبر .

وارتفع صوت كولام : « انت عار على اهلك ياسكارليت أوهارا » . وقالت سكارليت وقد بدا انها ضجرت من كل شيء : « هذا كذب قل ذلك لدانييل المدفون فى أرض أوهارا التى فقدت لمئات السنين ، او للفينيين العظام من رجالك الذين ظلوا يستخدموننى طول الوقت لاتقلق يا كولام ، لن اتخلى عنكم . فسوف تبقى بوليهارا كما هى عليه ، بالفندق للرجال المطاردين والحانات لكم جميعاً لكى تتحدثوا فيها ضد الانجليز ، وساجعلك وكيل المزرعة الذى ينوب عنى فى كل شيء ، وستتولى مسز فيتز إدارة البيت الكبير كما هو الحال الآن . هذا فى الحقيقة هو كل ما يهكم .. وتحرص عليه .. ولست أنا » .

وانطلقت صرخة من شفتى كولام : « لا .. ياسكارليت ، انت مخطئة تماماً . انت كبريائى وبهجتى . وكاتى كولام تحمل قلبى بين يديها

الصغيرتين . المسألة فقط ان ايرلندا هى روحى ويجب ان تأتى أولا »
ومد يديه نحوها فى استرحام « قولى انك تصديقينى ، لأننى أقول لك
الحقيقة الكاملة » .

وخلال الأيام التالية .. لم يقل كولام شيئا ، ولكن الغضب والاهتمام كانا
فى عينيه . كذلك كانت مسز فيتز . ماذا يعرفان عن احزانها ومخاوفها .
وبدأت سكارليت تعتقد انها ترى نظرات الاعتراض فى كل مكان ، حتى فى
وجوه أصحاب المتاجر فى بوليهارا وقالت لنفسها لا تكونى حمقاء ،
انت تتخيلين هذه الأشياء لأنك لست متأكدة مما سوف تفعلينه
جاء رسول من فنتون يحمل صندوقا يحتوى على عقد وسوارين وقرط
من الذهب الخالص لكى يكون ثوب الزفاف متلائما مع هذه المجوهرات
وقالت مسز سيمز ان الثوب يحتاج إلى وقت وستكون خمسة شهور مدة
قصيرة ، ولكنها سوف تستعين بمساعدتين إضافيتين وكل شئ يتوقف
على ان تتولى راهبات دير جالواى إعداد الشريط المزركش للثوب .
وبعدها سوف يتحدث الناس عن هذا الثوب لسنوات أخرى قادمة .
كانت سكارليت تشعر بالبهجة من العمل فى الحقول لقد اطمأنت إلى
أن محصول هذا العام سيكون رائعا الى ان تلقت برقية مكتوبة بلهجة
عصبية من مسز سيمز تقول فيها ان الشريط المزركش لم يصل إليها من
دير جالواى كما انها لم تتلق ردا على رسائلها وبرقياتها .
ابتسمت سكارليت وهى تتجه بمركبتها إلى محطة قطار تريم .. فإن
لديها خبرة فى العراك مع رئيسات الأديرة ، وهى مسرورة لأن لديها مبرراً
واضحاً للقتال الآن .

فى القطار ، فوجئت سكارليت بأن صحيفة « ايريش تايمز » نشرت على
صفحتها الأولى أنباء زواجها المرتقب ، وأضافت تعليقات كثيرة إلى
البيان الرسمى : « الأوهارا من بوليهارا .. زينة جميلة للدوائر التى تقع فى
مركز القلب داخل مجتمع نائب الملك ، وهى فارسة جريئة شديدة
التانى » .

وصل القطار إلى جالواى ، وتوجهت سكارليت إلى الفندق ، ولم تستطع
الحصول على غرفة إلا بعد ان كشفت عن شخصيتها للمدير الذى قرأ خبر
صحيفة « ايريش تايمز » . فالزحام شديد بسبب مهرجان سباق الخيل
وفى الحقيقة ان سكارليت لم تكن فى حاجة إلى جابحها فى الفندق ، فهى
تأمل ان تعود إلى دبلن فى قطار بعد الظهر لكى تأخذ من هناك القطار
المتجه إلى تريم وهى تريد ان تعرف ما إذا كانت الراهبات سيتأثرن
باسم ايرل فنتون كما حدث مع مدير الفندق . وخرجت من باب

العندق إلى الميدان وواحه زحاما سديدا واصطدمت بجون مورلاند كان يبدو كما لو كان مريضا للعبه اختفى اللون من وجهه كما تلاتسى الصوء من عيينه الدافئتين . بارت ياغزى ، هل انت بخير ؟ وبذل جهدا حقيقيا لى يحدد المكان الذى ينبعث منه صوتها حتى ينظر إليها في هذه الساعة من النهار . ليس جون مورلاند من النوع الذى يترب حديرا في اى وقت وليس قبل الغداء بكل تأكيد وامسكت به بقوة من اذنيه وفادته إلى مطعم العندق وهي تقول « ستسرب معى القهوة تم تناول بعض الطعام » كانت خطواته غير ثابتة وبعد ان تناول كمية حديد من الفهوذ انهار الرجل وانفجر باكيا وهو يروى لها ماحدث له .

مما احرفوا اسطبلاتى ياسكارليت كنف قد اخذت ديجون معى لسباق بالبريدان انه لبس سباقا كبيرا ، ولحننى رايت ان الفرس نحب ان نجرى على الرمال . وعندما عدنا إلى البيت كانت الاسطبلات قد اصبحت مجرا ركام اسود يا الهى . الرانحة يا الهى اننى اسمع الحيلول نصرخ في احلامي . رضى راسى عندما لا انام . شعور بالعيان لدى سكارليت جعلها تضع فنجان القهوة على المائدة هذا لا يمكن ان يحدث . لا احد يمكن ان يرتكب هذا العمل المروع . لابد انه مجرد حادث قال مورلاند « انهم المستأجرون عندى ، بسبب الايجارات . كيف يكرهونى إلى هذا الحد ؟ حاولت ان اكون مالكا طيبا . دائما كنت احاول . لماذا لم يحرقوا منزلى ؟ لماذا لم يحرقونى انا والمنزل . لا يهمنى . . لا يهمنى اى شىء إذا كانوا قد تركوا الخيلول ماذا فعلت خيلولى المسكينة المحروقة لهم ؟ »

لم يكن هناك ما تستطيع ان تقوله . كان قلب بارت كله في اسطبلاته ولكن . . لحظة . لقد كان بعيدا مع ديجون . . مفخرته وفرحته . . قالت « معك ديجون يا بارت ، تستطيع ان تبدأ من جديد ، انها فرس مذهشة ، أجمل فرس رايتها ويمكنك ان تستخدم اسطبلات بوليهارا . لقد اعجبك . هيا لاتستسلم . »

عينا جون مورلاند أشبه بالجنوة الخامدة « ساذب الليلة إلى انجلترا في زورق الساعة الثامنة لا أريد ان أرى وجهها ايرلنديا أو اسمع صوتا ايرلنديا بعد الآن . وقد وضعت ديجون في مكان آمن بينما عرضت كل ممتلكاتى للبيع . . وعندما ينتهى السباق بعد الظهر ستكون ديجون قد بيعت وستكون ايرلندا قد انتهت بالنسبة لى . . »

عيناه ثابتتان وجافتان الآن وتمنت سكارليت لو يبكى حتى يشعر بشىء على الأقل لأنه يبدو في هذه اللحظة كما لو كان قد فقد القدرة على ان يشعر بأى شىء بعد الآن بدا رجلا ميتا .

جاء من أجلى

بارت أكثر أهمية من الجرى وراء شريط مزركش . وها هو ذا قد استعداد رباطة جاشه وعاد إلى الحياة بعد أن استجمع إرادته . وطلب منها أن تغفر له ثم دعاها للذهاب إلى حلبة السباق ، وهو يقول انه سيراهن بورقة من فئة الخمسة جنيهات على ديجون من أجلها . وقالت له إنها ستراهن بنفس المبلغ وسيحتفلان معاً بالفوز .

نظام السباق الذى يشترك فيه بارت فى هذه اللحظة والذى اختاره لبيع ديجون .. يقضى بان كل الخيول المشتركة فى السباق معروضة للبيع بالأسعار التى حددها أصحابها . وفى نهاية السباق يستطيع أى شخص أن يطلب حق شراء أى من الخيول ، والمالك مرغم على البيع بالسعر الذى حدده من البداية وبلا مساومات . ولم تقصو سكارليت أن الخيول يمكن أن تكون قد بيعت قبل أن يبدأ السباق بصرف النظر عن القواعد الموضوعية . واستأذنت سكارليت من بارت قبل الوصول إلى الحلبة لبضع دقائق . وذهبت إلى مكتب حلبة السباق وهى تأمل أن يكون بارت قد حدد سعراً مرتفعاً لديجون ، فقد قررت أن تشتريه لكى ترسله إليه فيما بعد عندما يستقر فى إنجلترا .

— « ماذا تعنى بان ديجون قد بيع بالفعل المفروض الا يحدث هذا إلا بعد انتهاء السباق » .

— « لست الوحيدة التى تتميز ببعد النظر ياسيدتى . فالسيد الذى حجزه لنفسه امريكى أيضاً » .

— « سوف أضاعف السعر » .

— « هذا غير ممكن إنها السيدة أوهارا » .

— « لنفترض اننى اشتريت ديجون من صاحبه قبل أن يبدأ السباق » .

— « مستحيل » .

وشعرت سكارليت باليأس . لابد أن تحصل على هذا الحصان من أجل بارت .

المخرج الوحيد هو ان تسعى سكارليت لشراء الحصان من هذا الأمريكى وستدفع له أى مبلغ يطلبه وما على الموظف سوى ان يشير بأصبعه إلى ذلك الرجل . والقى الموظف نظرة على أوراق امامه وقال : — « سوف تجدينه فى فندق جورى . لقد سجل عنوانه على هذا الفندق . والرجل اسمه باتلر » .

كانت سكارليت قد بدأت تستدير لكى تنصرف . وكان صوتها غريباً

عندما تكلمت : « هل هناك أى احتمال ان يكون هذا الرجل هو مستر ريت باتلر ؟ .. كما لو كان قد انقضى دهر عندما نظر الموظف مرة أخرى إلى ورقة فى يده ثم قراها .. ثم تكلم : « نعم ، هذا هو الاسم » .

ريت ! هنا ! لابد ان بارت كتب إليه بشأن حرق الاسطبلات .. وبيع ديجون . ولابد انه يفعل ما كنت أنوى ان افعله . لقد قطع الطريق من أمريكا لمساعدة صديق .. او ربما لشراء حصان يفوز به فى سباق شارلستون القادم . وأسرت لرؤية ريت . وادركت انها تعدو وتدفع الناس فى الطريق دون ان تعتذر . إلى الشيطان ، كل شخص ، وكل شيء . ريت هنا على مسافة مائة ياردة . كانت تبحث عن المقصورة رقم (٨) .. بينما الجميع يتصايحون ويستحثون الخيول على الجرى والفوز ، ولكنها لم تسمع شيئاً من كل هذا الضجيج .

رات « ريت » يراقب السباق بمنظار مكبر . ورغم انها وقفت على مسافة عشر اقدام ، وصلت إلى انفها رائحة الويسكى المنبعثة منه . كان مخموراً . هل يمكن ان يكون هذا هو ريت ؟ لقد كان دائماً يضع جدا لما يشربه . هل تكون كارثة بارت قد هزته بعنف .

صباحات التهليل من ناحية والتذمر من ناحية أخرى ارتفعت فى خاتمة السباق . وانزل ريت المنظار من فوق عينيه بيد مرتعشة . قالت : « كيف حالك ياريت » . والتفت بسرعة . ورات عينيه السوداوين ، ولم يكن فيهما سوى الغضب منها . وقال وهو ينظر إليها من قدميها حتى قبعتها : « أهلا بالكونتيسة ، المؤكد أنك كما يبدو .. غالية الثمن » وتحول فجأة نحو جون مورلاند : « كان يجب ان تحذرني يا بارت ، حتى أبقي فى الحانة ، دعنى امر » . ودفع مورلاند وسار مبتعداً عن سكارليت . وتبعته عيناها فى ياس وهو يختفى فى الزحام . ثم امتلات العينان بالدموع . وربت جون مورلاند على كتفها وهو يقول : « اعتذر ياسكارليت بالنيابة عن ريت . لقد شرب كثيراً . لقد قابلتك بمشككتين اليوم . لم تجدى ما يسرك كثيراً » .

« ما يسرنى كثيراً » .. هل هذا هو ما يصف به بارت سلوك ريت المهين . ما الذى يعطيه الحق فى أن يغضب ويوجه الإهانة ؟ الا استطيع ان اتزوج مرة أخرى بعد ان القى بى بعيداً كما تلقى النفايات ؟ اللعنة عليه . ليذهب إلى الجحيم . لماذا يكون شيئاً رائعاً وممتازاً بالنسبة له ان يطلقنى لكى يتمكن من الزواج من فتاة تنتمى إلى شارلستون بكل معنى الكلمة وينجب أطفالاً من شارلستون بكل معنى الكلمة لكى يكبروا ويصبحوا مواطنين شارلستونيين صالحين ، اما بالنسبة لى فإنه من العار ان اتزوج مرة أخرى واوفر لطفلة كل الأشياء التى كان ينبغى أن

يكون هو الذى يوفرها لها . وقالت لبارت مورلاند : « أمل أن يسقط فوق قدميه المتعثرتين وتكسر عنقه »

— « لا تكونى شديدة القسوة على ريت ياسكارليت . لقد تعرض لمأساة حقيقية فى الربيع الماضى . اننى خجلان لشعورى بالحزن على نفسى وعلى اسطبلاتى بينما هناك أشخاص مثل ريت يعانون متاعب أكبر . سبق أن اخبرتك حول الطفل الذى كان ينتظره ، اليس كذلك ؟ شئ مخيف قد وقع . لقد ماتت زوجته وهى تنجب الطفل ، كما مات الطفل نفسه بعد ولادته بأربعة أيام . »

— « ماذا ؟ ماذا ؟ قل ذلك مرة أخرى . » وهزت ذراع بارت بوحشية حتى سقطت قبعة الرجل . وتطلع إليها بمزيج من الصدمة والخوف . وصاحت لتسأله . « أين ذهب ؟ بارت ، لابد أنك تعرف أو لديك فكرة ما ما هو المكان المرجح أن يكون فيه ريت الآن ؟ » : « لا أعرف ياسكارليت . الحانة . فندقه ، أى حانة ، أى مكان . »

— « هل سيسافر إلى انجلترا معك الليلة ؟ »
— « كلا فقد ذكر أنه سيلتقى ببعض الأصدقاء . انه شخص مدهش حقاً . اننى استغرب انه شرب كثيراً اليوم ، فهو لم يفعل ذلك قط . وكان عاديا ليلة أمس . ولكن عندما نزلت إلى بهو الفندق صباح اليوم ، قال لى الحاجب أن ريت طلب قهوة والجريدة خلال انتظاره لى ، وفجأة اندفع خارجاً كالسهم دون حتى دفع ثمن القهوة .. سكارليت لماذا تبكين ؟ هل أخطأت فى شئ ؟ هل قلت شيئاً ضايقك ؟ .. »

فيضان من الدموع فى عيني سكارليت .. لا ، لا ياعز الأصدقاء ، لم تخطئ فى شئ على الإطلاق انه يحبنى . وهذا هو اصدق واصوب شئ سمعته حتى الآن . لقد جاء ريت يبحث عني . هذا هو سبب حضوره إلى ايرلندا . فهو لم يأت من أجل فرس بارت . كان يمكن أن يشتريها ويشترى سواها بالبريد . جاء من أجلى فور أن أصبح حراً مرة أخرى . لابد انه كان يريدنى كما كنت أريده . ويجب الآن أن أعود إلى البيت . فانا لا أعرف أين أجده ، أما هو فإنه يستطيع أن يجدنى . لقد صدمه خبر زواجى عندما قرأه فى الجريدة . وهذا يسرنى . ولكن هذا الخبر لن يوقفه ، فلا شئ يوقف ريت عن السعى وراء ما يريد . وريت باتلر لا يهتز أمام الألقاب والفراء والتيجان الماسية . انه يريدنى وسوف يأتى ليأخذنى . أعرف ذلك . وأعرف انه يحبنى . وقد كنت على صواب فى إحساسى طول الوقت . أعرف انه سيأتى إلى بوليوهارا . ويجب أن أكون

هناك عندما يأتى .

وقالت سكارليت : « وداعا يا بارت » .



لم تصدق وهى تقترب من بوليهارا على صهوة جواد انها عبرت أيرلندا مرتين منذ ساعة الإفطار ، وأنها قطعت المسافة من جالواى بالقطار ثم اضطرت لاستكمال جزء من الطريق وهى تمتطى هذا الجواد الذى اشترته فى رحلة العودة . أصابها إرهاق شديد . سوف تنام الليلة ، كما لم تنم فى حياتها . وهى الآن على مسافة خمس دقائق من بوليهارا .

شئ ما غير عادى . ها هى ذى بوليهارا . ولا بصيص ضوء فى النوافذ . وفى العادة تتالق أضواء الحانات فى مثل هذا الوقت مثل الأقمار . واجتازت المنازل الخمسة المظلمة الأولى قبل أن ترى جمعاً من الناس عند مفترق الطرق أمام شارع البيت الكبير . معاصف حمراء ميليشيا . ماذا يفعلون فى بلدتها ؟ لقد سبق أن قالت لهم انها لا تريد هـنا . ياله من إزعاج فى هذه الليلة بالذات ، عندما تكاد تسقط من الإعياء . إذن ، هذا هو السبب فى أن النوافذ مظلمة . سوف اتخلص منهم وتعود الأمور إلى حالتها الطبيعية .. وترجلت من فوق حصانها . وشاهدت ضابطاً ينسلخ من مجموعته عند مفترق الطرق وينتجه نحوها . وأصدر أمراً :

— « انت هناك يا من نزلت من فوق الحصان . قف . وإلا ساطلق النار » . وتوقفت ليس بسبب الأمر ، وإنما لأنها عرفت صاحب الصوت . يا إلهى ، انه الصوت الوحيد فى العالم الذى تمت ألا تسمعه أبداً وهى على قيد الحياة .

— « لمن يوجد منكم داخل منازلكم .. أقول انه لن تكون هناك متاعب إذا أرسلتم القس كولام أوهارا . معى أمر بالقبض عليه . لن يصاب أحد بأذى إذا سلم نفسه » .

وكانت سكارليت مقتنعة تماما بأن الضابط تشارلس ريجلاند الذى كان يهمس فى أذانها بكلمات الحب هو الوحيد فى الجيش البريطانى الذى سيفذ ما تريده . وما عليها إلا أن تقول له أن يذهب بعيداً ويتركها ويترك ابن عمها وبلدتها ويرحل . وتركت لجام الحصان وخطت نحوه وهى تناديه : « تشارلس » ؟ وما أن نطقت باسمه حتى صرخ تشارلس ريجلاند « قفى ! » وأطلق رصاصة فى الهواء . واجفلت ، وصاحت : « تشارلس ريجلاند هل جننت » ؟ ودوت طلقة ثانية .. بددت صوت كلماتها . وبدأ أن ريجلاند قفز فى الهواء ثم سقط . وبدأت سكارليت تعدو « تشارلس ،

تشارلس . وسمعت المزيد من الطلقات النارية والصرخات . وتجاهلت ذلك كله : « تشارلس » .

ومن الاتجاه الآخر سمعت من ينادى « سكارليت » .. ومرة أخرى « سكارليت » .. ثم سمعت اسمها مرة ثالثة ولكنه صدر من تشارلس بصوت واهن عندما وقفت بجواره . كانت الدماء تنزف من رقبتة بشدة وتلطخ بزيته الرسمية الحمراء .

وسمعت صوت كولام من مكان ما قريب : « سكارليت يا حبيبتي .. انبطحي ارضا » ولكنها لم تستطع ان تلتفت نحوه في تلك اللحظة .. ضوضاء مخيفة حولها .. وازيز يطن ويكاد يلامس راسها . يا إلهي ، ماذا يحدث ؟ إنها طلقات نارية . هناك من يطلقون الرصاص . البريطانيون يحاولون قتل شعبها . لن تسمح بذلك . ولكن عليها أولا ان تحضر طبيبا لتشارلس . وسمعت وقع اقدام مسرعة ، وكولام يصرخ . يا إلهي ساعدنى . ماذا افعل لكي أوقف هذا . يا إلهي يد تشارلس أصبحت باردة . تشارلس . لاتمت اوصاح أحدهم : « هذا هو القسيس » ! وانطلقت اعيرة نارية من النوافذ المظلمة لبيوت بوليهارا . وترنح جندى وسقط .

ذراع احاطت بسكارليت من الخلف . واطلقت ذراعها لتدافع عن نفسها ضد مهاجم لاتراه . وقال ريت : « فيما بعد ، يا عزيزتى ، لا عراك الآن ، هذه هى أفضل فرصة سوف تنتهي لنا . سوف أحملك . اتركى جسمك ليرتضى » . والقى بها فوق كتفه ووضع ذراعه وراء ركبتيها ، وأخذ يعدو وهو يحنى راسه فى الظلال . وسال : « اين الطريق الخلفى للخروج من هنا ؟ » .

وقالت سكارليت : « ضعنى على الارض وسوف أدلك على الطريق » وانزلها ريت على قدميها ، وأمسك بكتفيها وجذبها نحوه وقبلها بسرعة وقوة ثم تركها تسير . واستطاعت ان تتبين الضحك فى صوته وهو يقول : « اكره ان اتلقى رصاصة دون ان احصل على ما جئت من اجله » .. « والآن ياسكارليت اخرجينا من هنا » . وأمسكت بيده واتجهت بسرعة نحو ممر مظلم ضيق بين منزلين . وقالت : « اتبعنى ، هذا الطريق يفضى الى دغل .. ولا أحد يستطيع ان يرانا إذا وصلنا إليه » . وقال ريت : « تقدمى » .. كان سياج الشجيرات عاليا وكثيفاً وما ان قطعاً عدة خطوات داخل الدغل حتى خفت ضجيج المعركة . وادركت اخيرا انها معاً . وخفق قلبها بالسعادة ولكن صوت الاعيرة النارية جعلها تتذكر .. تشارلس ريجلاند مات ، وقد رأت جنديا يصاب وربما قتل . والمليشيا تطارد كولام وتطلق النار على سكان بلدتها وربما تقتلهم . وكان يمكن ان تقتلها ايضا ،

هى وريت . وقالت : « يجب ان نذهب إلى البيت ، ستكون سالمين هناك ، يجب ان احذر الخدم ليبتعدوا عن البلدة إلى ان ينتهى كل هذا . اسرع ياريت » . وامسك بذراعها وهى تستعد للتحرك . « انتظرى ياسكارليت ، ربما لا يصبح ان تذهبي إلى البيت لقد جئت لتوى من هناك . انه يسبح فى الظلمة ، كما انه خاو يا حبيبتي ، وجميع أبوابه مفتوحة ، لقد رحل الخدم » . وانتزعت ذراعها من قبضته وصدرت عنها صرخة رعب ورفعت ذيل ثوبها واخذت تعدو بأسرع ما تستطيع . كات . أين كات ؟



فى الشارع الرئيسى لبلدة بوليهارا .. كان هناك خمس جثث فى الزى الأحمر الرسمي .. وثلاثة جثث أخرى فى ملابس الفلاحين الرثة . ورفد بائع الكتب على عتبة نافذته المهشمة والدماء تخرج فى شكل فقاقيع من فمه مع كلمات الصلاة . وصلى معه كولام اوهارا ثم رسم علامة الصليب على جبينه عندما توقف قلب الرجل عن الخفقان . وانطلق كولام يجرى فى الشارع متجها نحو الكنيسة الانجليزية المهجورة وهو يصيح - « اتبعونى ايها الجزائريون الانجليز وسنموت معاً من أجل حرية ايرلندا » . واخترقت رصاصتان صدر كولام ، وسقط على ركبتيه ، ولكنه تحامل على نفسه وسار سبع خطوات أخرى متعثرة إلى ان اصيب بثلاث رصاصات أخرى جعلته يستدير ناحية اليمين ثم اليسار ثم اليمين مرة أخرى قبل ان يتهاوى على الأرض .



فى داخل البيت الكبير ، تندفع سكارليت من مكان إلى آخر ومن غرفة إلى أخرى وسط الظلام وهى تصيح : « كات » ويتردد صدى الاسم بلا مجيب . وامسك بها ريت مرة أخرى ليجد وجهها ممتقعا وعينيها شاحبتين : « يجب ان نهرب ياسكارليت . لابد ان الخدم عرفوا شيئا . البيت ليس آمنا » . وصرخت سكارليت « كات » . وهزها ريت « كفى عن هذا . القطة ليست مهمة .. أين الاسطبلات ؟ نحن فى حاجة إلى خيول » . وقالت سكارليت وصوتها المتوتر مشحون بشفقة العاشقة : « آه ، ايها الاحمق . انت لا تدري ما تقول . دعنى اتحرك . يجب ان اعثر على كات .. كاتى اوهارا التى تسمى كات . انها ابنتك » .

واطبقت يدا ريت على ذراعى سكارليت « عن أى شيء تتحدثين بحق الشيطان » ؟ وتطلع إلى وجهها ولكنه لم يتبين تعبيرات هذا الوجه فى الظلام . وسالها وهو يهز جسمها « اجيبينى يا سكارليت » - : « اللعنة

عليك . دعنى أتحرك لا وقت للشرح الآن . لابد ان تكون كات هنا فى مكان ما . ولكن الدنيا ظلام ، وهى وحدها . دعنى أبحث عنها ياريت . ووجه استئلتك فيما بعد ... » .



« كولام » ! أطلقت روزالين فيتزباتريك الصرخة وهى تنطلق مسرعة من حانة كنيدي وتخترق صفوف الجنود الانجليز وتدفع كل من فى طريقها لكى تصل إلى جثمان كولام الممدد على الأرض . وصاح ضابط : « لا تطلق النار ، إنها امرأة » . والقت روزالين نفسها على ركبتيها ، ووضعت يديها على جروح كولام وهى تبكى بصوت عالٍ .

حزنها الكبير فرض الاحترام . وحول الرجال عيونهم بعيدا . واغلقت جفنى كولام باصابع رقيقة ملطخة بدمه وهمست باللغة الايرلندية القديمة : وداعا . ثم امسكت بالمشعل ووقفت . وبدأ وجهها مخيفا فى ضوء المشعل . وقبل ان يدرك الجميع ما يجرى ، كانت روزالين قد قفزت إلى الممر المؤدى إلى الكنيسة ، وصاحت بلهجة الانتصار : « من أجل ايرلندا وشهيدها كولام اوهارا » واندفعت نحو ترسانة الاسلحة والقت بالمشعل . وخيم الصمت لحظة ثم انفجر السور الحجري للكنيسة بعرض الشارع وصنع برجاً من اللهب ودوياً يصم الأذان .



اقتحام الحصار

الانفجارات جعلت الليل يتحول إلى نهار . واخذت سكارليت تلهث وهي تصيح « يا إلهي » . وغطت أذنيها بيديها وهي تقفز من ركن إلى ركن وتنادى على ابنتها بينما الانفجارات تتوالى حتى أصبحت بلدة بوليهارا قطعة من الذهب . جرت إلى الطابق الأعلى ، وريت بجانبها ثم فى الدهليز إلى غرف كات . وتوقفت سكارليت لتقول : « المطبخ ، انها تحب المطبخ ، ونزلت إلى الطابق الأرضي مرة أخرى ، وريت فى اعقابها ، واتجهت إلى غرفة مسز فيتزباتريك ، ووقفت فى وسطها ومالت على الحاجز الذى يفصل الغرفة عن المطبخ وندت بصوت ناعم وهادىء لا يسبب خوفا للطفلة » كيتي كات . أرجوك ان تردى على ماما إذا كنت موجودة .. فهناك شيء هام يا حبيبتي » .

وارهفت السمع وهي تحقق فى الظلام . واوشكت ان تغادر المكان عندما نطق الصوت الصغير « اذنا كات تشعران بالأذى » . وتهللت سكارليت ، وقالت لريت : « كنت فى رعب ، خائفة ان يكونوا قد أخذوها او الحقوا بها الأذى » . وقال ريت : « انظري يا سكارليت » وأشار إلى النوافذ . كانت المشاعل تتحرك وتقترب من البيت . واثناء خروجهم من المطبخ .. كانت تصل إلى اسماعهم صرخات غاضبة وسالته كات عن اسمه قال : « ريت » وكانت « كات » هى الشخص الوحيد بين الثلاثة الذى يعرف ان هناك بابا من المطبخ يفضى إلى الحديقة .. وعندما « ادركت الطفلة ان الخطر يقترب قالت انها تعرف ان هناك نفقا يؤدي إلى جناح الخدم ، وانه طريق اقصر . وقال ريت : « كات ، ارشدينا إلى النفق من فضلك . هل تمانعين فى أن أحملك أم تفضلين الجرى » ؟

— « إذا كان لابد ان نسرع ، فالأفضل أن تحملنى انا أستطيع ان أجرى بنفس سرعتك » . وحملها ريت على ظهره ولفت ذراعيها حول عنقه . وقال ريت : « هيا ياسكارليت . كات سوف تنقذ أعناقنا التى لا تستحق الانقاذ » . ومن جناح الخدم .. قادتهما « كات » من أحد الأبواب إلى ساحة الاسطبل .

كانت قصة جون مورلاند لا تزال حية فى ذاكرتها . ولذلك فإنه ينبغي إطلاق سراح الخيول على الفور ماعدا « كوميت » و « الهلال » . وركب الثلاثة . وتوقفوا عند البرج . وقال ريت « كات تقول انها تدعونا إلى حجرتها » وترجلوا من على ظهر الجوادين وأطلقوا سراحهما وانطلق الجوادان نحو ضفة النهر .

النيران تتصاعد نحو السماء وراءهم . وقالت سكارليت : « انهم يقتربون » . وصعدوا إلى البرج .

الأصوات والمشاعل اقتربت أكثر فأكثر .. « لقد ذهبت الأوهارا إلى الانجليزى . ألم أقل لكم منذ وقت طويل ؟ » .. « أنت قلت ذلك يا برندان وأنا كنت غيبا عندما عارضتك » .. « هل رأيتها ، الآن ، عندما ركعت على ركبتيها إلى جانب ذى المعطف الأحمر ؟ » ... « قتلها بالرصاص شيء طيب بالنسبة لها ، أنا أرى شئها بحبل خانق » .. « أحرقها هو الأحسن .. إحرقها هو ما نريد » .. « الطفلة التى جاءت بها الجنيات هى التى يجب أن نحرقها .. الداكنة اللون التى جلبت علينا البلايا ، الطفلة الجنية سحرت الأوهارا وسحرت الحقول وسحرت المطر فى السحب ذاتها ... » وحبست سكارليت انفاسها . الأصوات قريبة جدا ، .. غير بشرية ، مثل عواء الوحوش المفترسة .

كان ريت قابعا فى حالة تاهب إلى جوار فتحة السلم . سوف يقتل أى شخص يجاسر على صعود السلم . ولكن ما الذى يمنع رصاصه تنطلق إذا أظهر نفسه . ووصل الغوغاء إلى البرج وتوقفوا . وتناقشوا فيما بينهم : هل الأوهارا فى البرج أم أنه خال ؟ وفى النهاية أحرقوا الحبال التى تستخدم كسلم . فإذا كانت الأوهارا فى البرج مع الطفلة فسوف تموتان من الجوع أو ستحاولان الهبوط فيدق عنق كل منهما . وعندما شمت سكارليت رائحة الحبل المحترق أرادت أن تصرخ من الفرح . الآن هم فى امان أولا أحد يستطيع أن يصعد الآن . وغدا يمكن أن تصنع حبالا من قماش الأغصان والسجاجيد . وانتهت المحنة . وعندما يطلع النهار سيتجهون إلى تريم .

ومضى وقت طويل قبل أن تتلاشى أصوات وقع الأقدام . وعندئذ اقترب ريت من سكارليت وكات واحتضنهما بين ذراعيه . ونامت كات نوماً عميقا . وقالت سكارليت بثقة : « سوف نتمكن من الهرب ، يوجد طريق سرى من كوخ الساحرة » . « من ماذا ؟ » « أنها ليست ساحرة فى الحقيقة ، على الأقل أنا لا أعتقد ذلك ، ولايهم على أية حال ماذا تكون . سوف تدلنا على الطريق ، أو ستعرف كات طريقا ترشدنا إليه ، فهى طول الوقت فى الغابة » .

— « هل هناك شيء لاتعرفه كات ؟ »

— « انها لاتعرف أنك أبوها » . وتصلبت عضلات فكه . وقال : « فى

يوم ما سأضربك .. لأنك لم تخبرينى » .

— « كنت سأخبرك ، ولكنك تصرفت على نحو جعلنى لا أستطيع أن

افعل . فقد طلقتنى عندما كان المفترض أن ذلك مستحيل .. ثم ، وقبل أن ادبر رأسى حدث أنك تزوجت ، ماذا كان من المفروض أن افعل ؟ اتسكع

على باب بيتك وطفلتى ملفوفة فى وشاحى مثل امرأة ساقطة ؟ . » قال مرة أخرى يحدث هذا يا عزيزتى السريعة الانفعال ، المدهشة . سكارليت . هل تدركين اننا عانينا طويلا من إشارات ضائعة وفرص ضائعة وسوء فهم متبادل ، بحيث يجب ألا يتكرر ذلك مرة أخرى علينا أن نكف عن ذلك ، لقد تقدم بى السن بحيث لا احتمال هذه الدراما . . »
— : « قل انك تحبنى »

— : « ما الذى جعلك تظنين هذا ؟ اننى أحضر على هذه البواخر المتهالكة لأننى أستمتع بالمناخ هنا كثيراً » . وضحكت ، وضربته على كتفيه بقبضتيها .

— : « قل انك تحبنى » . وامسك بمعصميهما وقال « أحبك .. أيتها المنفعة الفاسدة وسأقتل الفاسق فنتون إذا حاول أن يأخذك منى » .
— « ريت ، لا تكن سخيفا . اننى لا أطيقه ، انه وحش مروع .. كنت أريد ان أتزوج لأننى لم أستطع الوصول إليك . » .
حاجباه المتشككان ارتفعا إلى أعلى مما أرغما على ان تواصل الحديث

« حسنا . لقد استهوتنى فكرة لندن .. وأن أكون كونتيسة .. وانتقم منه لأنه أهاننى .. فأتزوج منه واستولى على كل أمواله لصالح كات .. »
وتألفت عينا ريت ، وهو يضحك فى أعماقه . وتحدا طوال الليل . ولم يشعر بأنه اكتفى مما سمعه عن كات . وحذرها قائلاً : « سأفعل كل ما أستطيع لأجعلها تحبنى أكثر مما تحبك » . وقالت سكارليت بثقة .
« ليست أمامك أدنى فرصة ، كل منا تفهم الأخرى ولن تقبل ان تعاملها كطفلة وتدللها بطريقتك » .

— : « وماذا عن عبادتها ؟ » : « لقد اعتادت ذلك منى » .

— : « سنرى ، ان لى طريقتى مع النساء . هذا ما قيل لى » : « وهى لها طريقتها مع الرجال ... » .

وحديثه عن أشياء أخرى كثيرة .. أشلى الذى تزوج ، وانديا ويلكس التى عثرت أخيراً على زوج .. وحديثها عن شقيقته روز مارى التى لم تتزوج والأرجح فى رأى ريت انها لن تتزوج ، فهى تقيم فى دانمور لاندينج تجمع الأموال من إصلاح حقول الأرز وتصبح تدريجياً مثل جوليا أشلى .

وقال ريت انه ترك شارلستون ولن يقيم فيها بعد الآن بل سيزورها فقط ..

— : « لقد تغيرت ياسكارليت ، أصبحت ناضجة ... » وقالت سكارليت :

« ان السماء تمطر .. وسوف تخمد الحرائق ، وعندما تشرق الشمس سنرى إذا كان هناك شيء قد تبقى » ونامت واستيقظت مع شروق الشمس . وعندما فتحت عينيها كان ريت هو أول من وقع بصرها عليه . وعندما نظرت سكارليت من نافذة البرج .. تجمدت . كانت أعمدة سوداء من الدخان تتصاعد من كل ناحية وتلطيخ اللون الوردى للسماء . وامتلأت عيناها بالدموع . ووضع ريت ذراعه حول كتفيها :

— « نستطيع ان نبنيها مرة أخرى يا عزيزتي » .

— لا ياريت ، لا أريد ذلك . كات ليست آمنة في بوليهارا . وربما أنا أيضا . ولن أبيع ، فهذه أرض أوهارا ولن أتركها . ولكني لا أريد بيتا كبيراً آخر أو بلدة أخرى . ويستطيع أبناء عمومتي ان يجدوا بعض المزارعين ليفلحوا الأرض . ومهما حدث من إطلاق أعيرة نارية أو عمليات حرق ، فالأيرلنديون يحبون دائماً الأرض . وقد اعتاد والدي ان يقول انها مثل الأم بالنسبة للأيرلندي . غير انني لا انتمى إلى هذا المكان بعد الآن . وربما لم انتم إليه حقاً في أى وقت ، وإلا ما كنت لأذهب إلى دبلن وحفلات المنازل والصيد . ولا اعرف إلى أين انتم ياريت . حتى في قارا ، لم اعد اشعر انني في بيتي »

ودهشت سكارليت عندما أطلق ريت ضحكة مرحة . وقال : « انت تنتمين لى ياسكارليت ، ألم تعرفي ذلك حتى الآن ؟ والعالم هو المكان الذى ننتمى إليه . كل العالم لسنا من نوع الناس الذين يجلسون إلى جانب المدفأة فى بيوتهم . نحن مغامرون .. نقتحم كل أنواع الحصار .. وبدون تحديات سنكون نصف أحياء . الآن نستطيع ان نذهب إلى أى مكان ، وما دمنا معاً سينتمى هذا المكان لنا ، ولكننا لن ننتمى إليه أبداً يا صغيرتي .. »

وتوقف لحظة لكي يتأمل تعبيرات وجهها .. « .. والآن قولى الحقيقة فى أول صباح لحياتنا الجديدة ، هل تحبيننى من قلبك ، أم أنك تريدني لأنك لم تستطيعي ان تحصلي على » ؟

— « لماذا ياريت .. ما هذا الذى تقوله ! احبك من كل قلبي وسافعل دائماً » . وضحك ريت وقال : « استطيع ان أرى أن حياتنا لن تكون مملة أبداً . وأكد لا استطيع ان انتظر أن تبدأ هذه الحياة » .

وشعر بيد تلمس ساقه وسمع صوتا يقول .

— « وكات ستذهب معك » .

ورفعها إلى كتفه والمشاعر تتدفق من عينيها . وسأل سكارليت : « هل انت مستعدة يا مسز باتلر .. الحصار ينتظرنا لكي نخترقه » ..

وضحكت « كات » في سعادة ونظرت إلى سكارليت بعينين قررتا
إذاعة الأسرار « السلم القديم تحت غطاء فراشي . كانت جرينى قد
طلبت منى ان احتفظ به » .

انتهت

المحتويات

صفحة

٣	مقدمة :
١٥	القسم الأول : تائهة فى الظلام
١٦	● العودة إلى تارا
٣٣	● رغبة أخيرة
٤١	● حديث الذكريات
٤٩	● الطقوس الأخيرة للقديسة
٥٤	● الضيوف « الحثالة »
٦٠	● القرصان ذو اللحية السوداء
٧١	القسم الثانى : مخاطرة كبرى
٧٢	● شارلستون .
٧٤	● استقبال ودى
٧٩	● ورقة رابحة
٨٤	● الزائر الليلي
٩١	● الكابوس
١٠١	● صفقة الذهب
١١٤	● .. « إذا طارت الخنازير »
١٢٣	● أسرار المدينة
١٢٧	● دعوة للمبارزة
١٣٥	● نزهة فى الطريق
١٣٨	● بين الحياة والموت
١٤٧	● الهروب من الإدمان .

١٥٥	القسم الثالث : حياة جديدة
١٥٦	● في منزل الجد
١٥٩	● لست من جنودك ؟
١٦٢	● العنوان المطلوب
١٦٨	● هل تريدین الطلاق ؟
١٧٦	● من عامة الناس
١٨٠	● صراع ... واستغاثة
١٨٢	● خطة عائلية
١٨٧	● علاقات حميمة
١٨٩	● إلى بلد الأجداد
١٩٦	القسم الرابع : البرج
١٩٨	● الاكتشاف
٢٠١	● مشاهد إيرلندية
٢٠٤	● مزارع .. قوى
٢٠٦	● الجذور
٢١٠	● أيام غير عادية
٢١٢	● « تارا » القديمة
٢١٣	● « السفن النعوش »
٢١٧	● عيد الميلاد المائة
٢١٩	● قصور في الهواء
٢٢٤	● الصدمة
٢٢٦	● مواجهة القتل
٢٢٩	● أنا إيرلندية حرة
٢٣٣	● أرض أوهارا
٢٣٥	● قرية للثوار !
٢٤٠	● عملية انقاذ
٢٤٦	● « الأوهارا »
٢٥١	● عملية قيصرية

- ٢٥٨ ● حكايات عن الشياطين .
- ٢٦٠ ● تأملات .
- ٢٦٢ ● المرأة الحكيمة
- ٢٦٩ ● رحلة العودة
- ٢٧٢ ● الإنسان والوطن
- ٢٧٦ ● عرض زواج !
- ٢٨٠ ● نظرة على الماضي
- ٢٨٦ ● لقاء في الميناء
- ٢٩٠ ● عيد الحصاد
- ٢٩٢ ● أنا رجل ميت !
- ٢٩٦ ● الوقوع في مصيدة
- ٣٠٦ ● مجتمع القمة
- ٣٢٢ ● مشروع عقد
- ٣٢٦ ● حطام رجل
- ٣٣٠ ● جاء من اجلى
- ٣٣٧ ● اقتحام الحصار

رقم الايداع ٩٢ / ٤٤٥٩

I. S. B. N. الترقيم الدولي

977 - 08 - 0389

طبع بمطبع دار احبار اليوم

